الخطاب الإعلامي

وأثره في هوية الأمة والواقع السياسي

"تصحيح المفاهيم في الوعي العربي
وتحليلها في ضوء النقد الثقافي"

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

عكاشة ، محمود

الخطاب الإعلامي وأثره في هوية الأمة والواقع السياسي: "تصحيح المفاهيم في الوعي العربي وتحليلها في ضوء النقد الثقافي" / د. محمود عكاشة

ط١- القاهرة: دار النشر للجامعات، ٢٠١٦ .

٣٣٦ ص؛ ٢٤سم.

تدمك: ٠ ٥٢٦ ٣١٦ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الثقافة العربية ٢- الإعلام

أ- العنوان ٣٠١,٢٠٩٥٣

تاريخ الإصدار: ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

حقوق الطبع: محفوظة للناشر

رقم الإيداع: ٢٠١٥/٢٠١٩٩

الترقيم الدولي: ISBN: ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٣١٦ - ٥٢٦ - ٠

الكود: ٢/ ٤٢١

تحذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفة منها حتى الآن أو ما يستجد مستقبلا) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة أو أقراص أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابي من الناشر.

دار النشر للجامعات

ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨

تلفاكس: ٢٣٩٢٩٨٧٨

E-mail: darannshr@hotmail.com

الخطاب الإعلامي
وأثره في هوية الأمة والواقع السياسي

"تصحيح المفاهيم في الوعي العربي
وتحليلها في ضوء النقد الثقافي"

الدكتور

محمود عكاشة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح الراحل

الدكتور عبد الوهاب المسيري

رحمه اللّه تعالى

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه أستعين، وأصلي على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، وبعد:

فالخطاب الإعلامي منطوقًا أو مكتوبًا، خطاب المؤسسات الإعلامية ومحترفي الإعلام الموجه إلى جمهور مقصود؛ لاستقطابه وتوجيهه إلى مقاصد قائله أو مُعده، وليس خطابًا وجدانيًّا ذاتيًّا معبرًا عن ضمير صاحبه وجياشة مشاعره، بل خطابًا لغويًّا جماهيريًّا، تصنعه مؤسسات الإعداد تكليفًا أو تربحًا أو ولاءً؛ ومن ثم يتجاوز وجدان صانعيه إلى إملاء مموليه ومصالحهم، ويستهدف استقطاب الجماهير والاستحواذ عليهم، وهو أكثر الخطابات تأثيرًا وانتشارًا في الأمة؛ لعلاقته بالسلطة التي تمنحه نفوذًا رسميًّا مقننًا، ولعلاقته بالرأسمالية المتحالفة مع السلطة، ولقوة اختراقه الجماهير بمؤثراته الأدائية والتقنية المتعددة، ولتوظيفه الصورة والمشهد والحدث واسترجاع الذاكرة، وممارسة الضغط على الجمهور، ولسرعة دورانه وقدرات مؤسساته المدعومة سلطيًّا وماليًّا.

وقد تربى الخطاب الإعلامي في كنف بلاط السلطة؛ مرتزقًا ومظاهرًا متمثلًا في شعراء البلاط والخطباء والأدباء والكُتاب والمغنين، فقد كانوا أبواق السلطة وهتَّافيها ونعَّاقيها ومروِّحيها، وقد تطور الخطاب الإعلامي بظهور وسائل الإعلام الحديثة وبتطور وسائل النشر السريعة ووسائل الكتابة والتواصل وتعددها وجودة تقنيتها وسرعتها وسرعة انتشارها وإتاحتها مساحة لمشاركة الجماهير التي تمكنت من إيجاد وسائل نشر مستقلة عن السلطة، وقد أحدثت الصحافة والمرئيات الطفرة الأعظم في التطور، فصار الإعلام السلاح الأخطر الذي توجهه القوة العالمية والسلطة المحلية والرأسمالية لإصابة أهداف جماهيرية والاستحواذ على الرأي العام والحشد والتحريض بحملات يقودها إعلاميون مُؤاجرون، تلتقطهم من مرابض الدمن، وهم "البلَّاغة" الذين يحترفون تبليغ الحديث، ويتميزون بالطاعة وسرعة التحول، ورفع درجة الاستعداد والتعاون، متجردين من تبعات الثوابت والمرجعيات التي تعوقهم عن الخدمة، فهم في كل وادٍ يهيمون، ويقولون ما يؤمرون، ويخدمون سيدين معًا داخليًّا وخارجيًّا؛ ومن ثم توظفهم السلطة في أغراضها وصراعها وطعن معارضيها، وتستخدمهم أداة توجيه جماهيرية نحو مصالحها،

ويطلقهم "أمن السلطة" أحيانًا لمآرب أخرى؛ كالتضليل والتلهية والتغطية والتعمية والتوجيه، والتخلص من الخصوم ومن انتهى دورهم.

وقد انفرد الإعلام السلطي بالاستئثار بالجماهير في الفترة السابقة؛ لقلة قنواته ووسائله التي تهيمن عليها السلطة، بيد أن التطور الإعلامي المعاصر أحدث تغييرًا واسعًا وتنوعًا واختلافًا في المادة والعرض والمضمون والرأي، وقد استطاع أن يتحرر قليلًا من السلطة السياسية، بيد أن جله أثير الدعاية والإثارة والتربح، فصنع لنفسه سلطة أخرى موازية للدولة، توجهه وتحيِّده عن الإنصاف، وبعضها أثير مذهبه الخارجي والدعاية له، ففقد جمهورًا عظيمًا، وفقد حياده مع مخالفيه.

وقد تناولت مصطلح "الأمة" بمفهومه الجامع لمكونات الوحدة والوشائج التي تربط بين الشعوب التي تجمعها جوامع مشتركة تؤلف بينهم، وتعزز قوتهم وتحفظ عقيدتهم وسلطانهم وأعراضهم ومصالحهم، وتبلغهم أهدافهم، وتؤمن سلامتهم، وتسد حاجاتهم، والأمة العربية مركز الأمة الإسلامية العظمى، وأصلها ومددها وعمق هويتها، والأمة العربية - أو أمة العروبة بمفهومها الشرعي - انتماء روحي إلى الكيان العربي واللسان العربي وتراثه، وليست بأب ولا أم لعرق عنصري يتجافى عن المساواة والتآخي والتعايش، وهي أقدم الأمم على الأرض، وصاحبة أقدم لسان وأروع بيان، وأعظم تراث بشري، وأفضل مكان حيوي أوسط العالم.

ونحن هنا بصدد مكونات الأمة جامعة الأعراق والألوان والطبقات والأديان، فهدف المؤلف تأصيل الانتماء الإسلامي البشري والانتماء العروبي والوطني، وليس الانتماء الذاتي المغالي في تأليه وجود الذات وسلطتها، فالعودة إلى الذات ردة عن الانتماء الديني جامع أفئدة المسلمين والانتماء الوطني، وجامع وشائج وحدة تراب الوطن أبناء الأمة والدين واللسان والثقافة في أمتنا العربية التي تدخل في مكونات الأمة الإسلامية العظمى، والدين هنا عقيدة التوحيد الخالصة لله تعالى والحافظة لذمم أهل الذمة وأعراضهم وأموالهم، وليس دين الأحزاب التي تحامي عن نفسها، وتجافي غيرها، وتختزل الإسلام في نفسها وفكرها، وكل حزب بما لديهم فرحون، وتركوا شعار قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت]، فلا أفرق بين أحد منهم.

وقد عالجت مصطلح "الهَوية" بمفهوم الانتماء إلى مكونات الأمة الجامعة، وهو أصيل في تكويننا الديني والقومي والوطني والثقافي، ولكنني عمدت إلى تصحيح بنيته المعاصرة، فقد استبدل مصطلح الهَوِيَّة (بفتح الهاء من الهَوى: العشق والحب والميل النفسي) بـ "الهُوِيَّة"(بضم الهاء) الذي أذاعه الحداثيون، وهو مصدر مصنوع من الضمير "هُو" [وبعضهم يزعم – خطأ – أنه من "الماهية" عند من يرسخون وجود الذات الحرة في العالم، ويمجدون أفعالها]، ولكن الحداثيين تجاوزوا – تعمية علينا – نشأة هذا المفهوم عند الغربيين، وارتباطه بالأعراق وثقافات الأقليات الخاصة ولغاتها في الدولة، ولم يحدثونا عن مخاوف الغرب من نزعات التطرف في الهُوية الذاتية والعرقية واللغوية وتهديدها وحدة الدولة، وتجاهلوا صعود نُعَرة الهُوية المتطرفة المغالية في العرق والدين متأثرة بهُويتها الذاتية في الغرب ورغبتها في إبادة غيرها ومخالفيها في المذهب والدين.

وقد تصدى كثير من الغربيين لمفهوم مصطلح الهُوية الفردية نقدًا؛ لأنه تهديد مباشر للوحدة الأوربية العامة، مفضلين المصالح العامة والوحدة الوطنية، ولأنه موقظ النُّعَرات العرقية النائمة في أوربا، وتعده الولايات المتحدة سلاح انتقام الأقلية الهندية النافذ في جسدها؛ انتقامًا لسياسة إبادة عرقها، وسلاح السود انتقامًا من التمييز العنصري، وقد شكلت الأقليات جبهات تكافح عن هويتها الأولى، وبعض الحداثيين العرب يرفعونه في إحياء عُبِّيَّة القوميات (نخوتها) في العالم العربي؛ تخذيلًا وتثبيطًا همة الشعوب الناهضة نحو عقيدتها ووطنيتها ومكوناتها الجامعة لشعوبها، فالغرب يتوحد على مصالح الدنيا المشتركة، والعرب يتمزقون عُمِّيَّة (عمىً) وعِمَاية (جهلًا) وعُنْجهية، وهؤلاء المتغربون الرابضون خلف الهزائم والانتكاسات والأزمات طالما يثيرون الفتن، ويوقدون الحروب.

والهُوية الغربية الفردانية المتصاعدة في الخطاب العربي تيار آخر مُوطئ للعولمة، غايته تمزيق الأوطان العربية، وإثارة النعرات القومية والدينية واللغوية، فهي مرحلة توطئة سياسة العولمة التي تمحو وجود الشعوب الناهضة، وتدمجها في خيارات الأمم الكبرى، بعد أن يضعفها صراع الهُويات العرقية والطائفية التي أفنت وجودها، وحرمتها من تعايشها الاجتماعي السلمي، وأفسدت تعاونها البشري في سبل الحياة، ونحن .العرب . أقماع أخبار سماعون، وأتباع لا رواد.

وقد طرحت مصطلح "الهَوِيَّة" الجديد تصحيحًا للمسار وعدولًا عن الهُوية الذاتية

الفلسفية، التي تنادى بها الدهريون العرب لتقسيم العالم الإسلامي، ثم تقسيم الوطن العربي، ثم تقسيم المقسم، محاربين مكونات الوحدة الجامعة لأواصر الأمة. وقد استخدمت المصدر الصناعي دون الاسم المقصور "الهَوى"؛ لأن الأخير له معان عامة في الخطاب، فاستخدمت المصدر الصناعي لتخصيص المفهوم به، وهو جائز للتفرقة بين المعاني والمفاهيم، ولم يتوسع المؤلف في حديثه عن مكونات الأمة في الاصطلاح الغربي السياسي ومذاهبه ومفاهيم الأمة عند الاشتراكيين والقوميين والاتحاديين (الفيدراليين). وهي متوفرة في الموسوعات والمعاجم السياسية لمن شاء مراجعتها. مكتفيًا بمناقشتها في حديثه عن مكونات الأمة الحديثة والوطن والمواطنة والقومية.

وقد تناولت أيضًا صراع السلطة السياسية وسلطة اللغة وسلطة المجتمع على مفاهيم المصطلحات، وقد كثفت جهدي في مفهوم الهوية ومكوناتها وقضاياها، وأثر الإعلام في الوعي الشعبي وأثره السلبي فيه، ودور الإعلام الكذاب الأشر والعميل الخائن في تزييف المصطلح وتضليل الجمهور، وبيّنت خطر الإعلاميين المُخترَقين المرتزقة البواقين في كل واد يهيمون فيه، وبينت المعايير الثقافية التي تمثل الأمة. وناقشت تغريب المجتمع بثقافة وافدة، يحلها المستغربون محل الثوابت العقدية والتراث والعرف، وأمطت القناع عن وجه الإعلام الفاسد في تغريب الأمة، وإزاحتها عن مكوناتها بمكونات دخيلة، وبينت خدعة التنوير التي تقوم على التغريب دون تقنين البحث العلمي التجريبي وتدعيمه، فالتنوير لا يعني ترسيخ التفكير العلمي المنهجي؛ ليكون قاعدة حضارية تنطلق منها الأمة، بل يستهدفون تغريب الأمة وتذويب معالمها، وهؤلاء النوْكي المستغربون لا يدركون أن الغرب لن يقبلنا جزءًا منه، ولن يعترف بمساواتنا به، وإن بدلنا ديننا وهويتنا، ولكنه يريد أن يستبقينا أغرابًا في أوطاننا، فهويتنا الإسلامية العربية خطر على الغرب.

وقد اخترت دراسة بعض المعاني والمفاهيم التي طرحها السلطيون والإعلاميون في خطابهم بمفاهيم تجافي التواضع اللغوي محرفة ومحيَّدة، وهي أخلاط من خطابات شتى، وتناولت الارتقاء في المفهوم الاصطلاحي الثقافي، وعوامل رقيه، وعلاقته بمستوى الأمة وحضارتها، وترديه وخسفه وعوامل انهياره وازدرائه، وأسباب التحدر في المعنى والمقام والممارسة والتعريب والتغريب، وعالجت مفاهيم المصطلحات السيارة في الخطاب ووسائل الإعلام؛ ابتغاء التصحيح والمساهمة في رتق الفتق ورأب الصدع، والغاية

التعرف على وسائل التضليل في الاستعمال، وتبيين خطر تزييف المفاهيم، وأثره في الهوية والثقافة والمصالح الوطنية.

وتناول المؤلف أسباب انحراف المؤسسة الإعلامية عن جوهر وظيفتها في التوعية والإرشاد والتنوير العلمي، وأسباب انحدارها بعيدًا عن القيم وآداب المهنة الإعلامية، وتورطها في مؤازرة الاستبداد والتضليل الجماهيري، والتسطيح والتهميش والتغريب، وإشاعة الأضاليل والموبقات الوافدة والمحلية، واتساعها للدهريين والنهَّازين والمشبوهين والروابض والعملاء، وتضييقها على العلماء والرموز الدينية والعلمية والقيادية، حتى باتت دِمن السوء لمنابت الفساد ومثارَ الشبهة. ناهيك بحملات تشويهها أعلام الأمة ورموزها، وتزييف تاريخها، وتهميش الشآبيب الأفذاذ، وتصعيد الصعاليك والسفهاء والمستغربين (المتأوربين)، إضافة إلى تورط وسائل الإعلام في خدمة أهداف الغزاة، بترويج دعايتهم التي تستهدف تخريب وعي الأمة، وتفكيك بنيتها الثقافية والاجتماعية، والتشكيك في ثوابتها، وزعزعة استقرارها، وتحيزها عن مهمتها الأخلاقية الذي يخرجها عن وطنيتها، وقد تورطت - على طول تاريخها - في جرائم بلغت خيانة الوطن، بتواطئها مع بعض السلطة المنحرفة، وتماهيها في الاصطفاف خلفها ضد جمهورها، واستقطاب الرأي العام وخداعه بأماليها وأمانيها، وما هي إلا أكاذيب، فلا يغرنَّك ما منت وما وعدت؛ إن الأماني والأحلام في خطابها أضاليل.

والإعلام الهدام الإمعة الكذاب الأشر .وليس الحر المربى في كنف دينه وثقافته وعنوان وطنه ولسان جمهوره. يحتقر نفسه أمام عدوه، ويتجلبب بجلبابه، ويحاكي خطابه، ويتعبد في محاربه، ويطيل الوقوف ببابه، ويتقوت من فضل إناه، ويتمرغ في رغامه، ويرتشف لعابه، ويرتاد مساقيه الآسنة، ويتطفل على آفاته الختالة، ويقتدي به، وينكر محاسن دينه ومحتده، ويرجو رضاه بغضب ربه، ويردد عن عدوه تشويه مآثر قومه وإهانة دينه؛ ابتغاء صدع مجتمعه، ويستهدف إفساد الذوق والعرف، وهو سلاح العدو المخترق، والبوق النعاق والأفاك المخلاق المهذال الشدياق ولسان الأراذل ومنبت السوء والخنا، ومقال الكذب، وقصاد التربح من كل فج، وسبيله الرياء والمصانعة والفساد، ومآله الخراب والفساد، وعبد عدوه، وخائن وطنه، ونخالة العالم ونفايته، وقد فعل الاستبداد والإعلام بالوطن ما عجز العدو عن فعله سَني الاحتلال. و"الأصل في الإعلام أنه لسان

الجماهير المعبر عنهم، وأنه صاحب رسالة دينية ووطنية، وأنه يحمل أمانة التبليغ والتوعية والإرشاد والتثقيف، وأنه مجال احتراف الأفذاذ الأكفاء المثقفين المفوهين، وأنه مهارة الأداء الحسن البليغ في غير إيجاز مخل أو إسهاب مُمل، وأنه ذو الأثر الناجع النافع ورد الفعل الجماهيري الإيجابي"، والإعلام العربي بمستواه المعاصر لا يمثل ثقافة الأمة ولا هويتها، بل يمثل الفئة التي تهيمن عليه، وتوجهه لخدمة أهدافها التغريبية، وليس بفاعل؛ لأن حجم الأمة أعظم وأثقل من زبد المعايير التي يكيلها بها هؤلاء المستغربون المخترقون.

وموضوع التحليل الثقافي: بحث المعالم الثقافية في اللغة ومعرفة روافدها، وأثرها في المتكلم وخطابه، فهي تنتقل بهما من عالم اللغة والمعنى المحدود إلى سعة العقل الجمعي وعالم الفكر والتنوع والغزارة والتفاعل والأفق الرحب، واتساع المعرفة، وتلاقح الأفكار، وتعايش الأعراق، واجتماع المتباينات والمفارقات والمتناقضات. والنقد الثقافي: الأسس المعرفية التي يقيَّم بها الخطاب في ضوء التراث الحضاري وعرف المجتمع الثقافي السائد الذي وجه له الخطاب.

وقد تناولت تحليل الخطاب من قبل في كتب لغة الخطاب السياسي في ضوء نظرية الاتصال؛ وخطاب السلطة الإعلامي؛ وتحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة؛ وتحليل الخطاب العربي وتحليل النص، وقد جعلت هذا الكتاب خِصيصي تحليل المعاني والمفاهيم، وأرجو من الله تعالى السداد والتوفيق، والعمل بالتحقيق فيما ندَّ عن الوضوح، وفيما شاع من غير الصحيح؛ لعلي أدرأ خطأ أو أصيب حقًّا، أحامي به عن نفسي يوم نسأل عما قدمنا، وأعوذ بالله من المضللات، ومن عواقب الكلمات، آمين! وأستعين بالله تعالى.

أبو إياد محمود أبو المعاطي أحمد عكاشة

كتبه فجر الأربعاء

الثامن من جمادى الأولى ١٤٣٤هـ = العشرين من مارس ٢٠١٣م.

التمهيد

الخطاب والمعنى والمفهوم وسلطة اللغة

أ- الخطاب وتحليله:

لقد شاع مصطلح "الخطاب" - الذي يقابله (Discourse)، وهو خطاب مُلقى على جمهور، ومحاضرة، ومنه الخطبة والموعظة، وهو غير الحديث (Speech)، الذي يتضمن المشاركة في التواصل اليومي، وغير (talk): التكلم والتلفظ، وغير "Conversation": المحادثة و"dialogue" الحوار - في الخطاب السياسي والإعلامي؛ تأثرًا بالخطاب اليومي الغربي الذي استدعاه من خطابه الديني السابق، فلفظ "Discourse" استخدم في موعظة الكنيسة (خطبة الكاهن)[1]، والأصل في لفظ الخطاب العربي: الحديث (المخاطبة)، والتحدث إلى مستمعٍ أو متلق مُعاين في مقام الحديث، فالأصل فيه أن يكون كلامًا منطوقًا في تواصل تفاعلي في مقام الحدث الكلامي، ثم عم استعماله حديثًا في كل أنواع التواصل اللغوي والتواصل التعبيري (التعبير البدني والحركي والإشاري)، وأطلق كذلك على المدونة الكلامية (اللغة المكتوبة)، التي اشتهرت في الخطاب المعاصر بـ "النص"، المقابل خطأ بالمصطلح الغربي "Text"؛ فمصطلح النص التراثي العربي هو الخطاب الواضح المفهوم الذي لا يحتمل معنى غير المفهوم من ظاهر لفظه، أو ما له معنى واحد قطعي ظاهر، ولا يحتمل تأويلًا أو وجوهًا، ومنه: نصوص الشرع الخاصة بالحدود،

---

(١) ارجع إلى: تحليل الخطاب العربي، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة المتنبي، السعودية، ص٧٧ وما بعدها، وقد تناول مؤلفه مصطلح الخطاب وما يتعلق به تفصيلًا، وأقول مختصرًا: الخطاب (Discourse): مشتق من الأصل اللاتيني "Discoursus" أو "Discourere"، وتعني في اللاتينية الحوار. وقد تناولته في مقدمة كتبي: لغة الخطاب السياسي، وتحليل الخطاب في ضوء نظرية أفعال اللغة، وخطاب السلطة الإعلامي، وتحليل الخطاب العربي. وبعض الباحثين يؤرخون لتحليل الخطاب بزيليج هاريس، الذي استخدمه في بحثه ١٩٥٢م، ويتجاهلون التراث العربي الذي وضع أصول التفسير، وليس له نظير في الدراسات الغربية التي عجزت عن وضع ضوابط تعيين المعنى وقرائنه، واستبعدته من البحث اللغوي، ثم اعترفت به على وجل؛ لعجزها عن التوصل إلى ما توصل إليه المسلمون المتقدمون في دراسة اللفظ والمعنى.

لا تحتمل تأويلًا، والاجتهاد ليس في تفسيرها اللفظي بل في إسقاطها على الحدث الواقعي الذي هو محل تقدير القاضي، الذي يرى أن المحكوم عليه مستحق لنص الحكم الشرعي (الحد)، أو أنه ليس موضع هذا الحكم؛ لعدم كفاية أدلة ارتكابه الحد، بينما أصل مصطلح "Text" في التراث الكنسي هو الخطاب الديني الذي يتأوله الواعظ والمفسر، ويفكك شفرته الرمزية، فالخطاب الديني الغربي خطاب رمزي لمعانٍ باطنية يستكشفها المفسر، وله خطاب تفسيري يوازيه، ويعد نصًّا؛ فالتلمود (تفسير الكهنة اليهود بعض نصوص العهد القديم) نص ديني موازٍ للتوراة، والنص في العربية ما نصه لقائله، أي: لفظ كلامه، ونص القرآن الكريم: لفظ الخطاب الثابت والمسند إلى رب العالمين، الذي نزل به جبريل الأمين عليه السلام على محمد النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وتفسيره: كلام المفسر اجتهادًا بالضوابط الشرعية وعرف اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم في التعبير زمن التنزيل، وليس التفسير نصًّا موازيًا نص القرآن الكريم، ولا تفكيك بنيته الكلية، ولا تأويلًا حرًّا على نحو ما ذهب المبطلون المتغربون فيما يسمونه "تأويل النص الديني"، فمنهجهم " الهرمنيوتيكة"(Hermeneutics)[1]، ومرجعهم كتابات المستشرقين، والقرآن الكريم ليس موضع التأويل بمفهومه الغربي المعاصر، وليس قول

---

(١) Hermeneutics: يُترجم خطأ: التفسير والشرح والتأويل، وليس من هذه المفاهيم التراثية، فهو مذهب استبطاني غربي، يتأول النصوص الدينية على الرمزية المثالية بعيدًا عن وضعها اللغوي وعرفها التراثي، وقد استخدم هذا المذهب في توجيه النصوص الدينية نحو الرمزية، وقد استخدمه الكهنة النصارى في فك رمزية الكتاب المقدس، والتوفيق بين خطاباته المتناقضه في الظاهر، فاتسع لهم الترميز والتوجيه، وأنتجوا خطابًا موازيًا يتناسق مع الخطاب الديني.

وبعض المترجمين يترجمه بمعناه اللغوي متجاهلًا استخدامه، ويعود أصل مصطلح الهرمونيتكة إلى الفعل اليوناني (ἑρμηνευτική) (hermeneueien) الذي يعني: يفسر، يصرح، يعلن، يوضح، ويستخدم أيضًا بمعنى: يترجم، ومفهومه الفلسفي أبعد من هذا، فكل مذهب يوجهه إلى آليته التفسيرية؛ لأنه يتسع لأبعاد المذاهب والطوائف، ويغالي في الاستبطان وطلب مغاور المعنى ودواخله التي تخفى على العامة، ولهذه عده أهل الكشف علم الحقيقة الذي يطلعون به على بواطن المعاني وأسرارها التي هي خصيصي الخاصة، وبعض ترجمات المصطلحات الغربية التي ورد فيها صوت القاف غير دقيقة، فالصواب الكاف في نحو: الديموقراطية والثيوقراطية والهرمنيوتيقا، وقد عرب العرب السياسة اليونانية (Politica): البولتيكة.

الغربيين فيه، وإن صح سندًا، فلسانهم الأول ليس العربية، ولا يتذوقون دلالة التعبير القرآني وأساليبه التعبيرية الخاصة وأسراره البلاغية، ولا يؤمنون به، ويفسرونه على نحو ما يفهمون به الخطاب اليومي، ولا يلتزمون ضوابط "علم التفسير"، وهنالك نماذج عربية مخترَقة خارجيًّا (مفرنسة) عبثت ببعض العقول العربية العنكبوتية الهشة، ونسجت فكرها الحادث؛ استجابة للمشروع الفرنسي الخفي في فرنسة دول احتلاله، وأقربها إليه دول المغرب العربي التي تعدها فرنسا مناطق نفوذها وحدودها الجنوبية، ولا تسمح بتغيير ينحو بها نحو إسلامها وعروبتها، وجعلت العرقيات الأخرى في مواجهة التعريب، وتقف بقوتها ضد الأسلمة، والمغاربة المتفرنسون المخترقون كوادر مشروع الفرانكفونية في المغرب[1]، والمثير للشك أنهم لا يحسنون العربية، وليس فيهم من أصولهم الأولى غير خداع الانتساب، ولهم مقلدون داخل المغرب، وأزلام أشتات في بلاد العرب من المتغربين تحت تسميات العلمانية واليسارية والليبرالية والشيوعية والتنويرية والحداثة وما بعد الحداثة، وغيرها من نفايات الغرب التالفة، التي يدورها المفسدون في العقول الخاوية؛ لإتلاف جسد الأمة الطاعن، وتحطيم (تفكيك) ثوابتها الأولى، الموانع الأولى في تشذية مكوناتها الجامعة؛ توطئة لمسخها وتغريبها؛ لتظل استهلاك الغرب ومنفاه، فلن يقبل الغرب العرب المسلمين أوربيين، ولو خلعوا رِبْقة الدين، وستكون مآلهم عاقبة الأتراك القوميين.

ومصطلح "تحليل الخطاب" مستعار من الحقول العلمية التي طغت على الدراسات

---

(١) أشهر المغاربة المتفرنسين من أتباع الفرانكفونية الذي عبثوا بالمكون الثقافي العربي: محمد عابد الجابري وعبد الله العروي في المغرب، والتونسيون محمد الشرفي وهشام جعيط وعبد الوهاب مدب، والجزائريون محمد أركون وسليمان زغيدور ورابح إسطمبولي، وأشهر دعاة العلمانية الرواد: أحمد لطفي السيد، وقاسم أمين، وطه حسين، وعبد العزيز فهمي في مصر، وميشيل عفلق، وأنطون سعادة، وأشهر المتأخرين المنتفعين بالانتساب إليهم جابر عصفور وفرج فودة وحسن حنفي وعبد العظيم أنيس، وثُلتهم في مصر، وعبد السلام المسدي في تونس ومحمد شحرور في سوريا، وسعيد عقل وأدونيس في لبنان وإدوارد سعيد من فلسطين، وآخرهم الغذامي في السعودية، وأحسب هذا الجيل نهايتها، فلا أرى امتدادًا لهذه التيارات في الشباب الذين انتفضوا على آبائهم، ونفضوا أيديهم مما كبلوهم به من خنوع واستسلام.

اللغوية والأدبية؛ كمصطلح التدمير (Deconstruction) أو التقويض، المترجم خطأ "التفكيك" أو "التشريح"، وهو مصطلح هندسي، يعني تدمير البنية، والأصل في العربية: التفسير والشرح والتبيين، وقد استخدم المفسرون "التفسير"، واشتهر في شرح معاني القرآن الكريم، واستخدم اللغويون والبلاغيون "الشرح"، وقد شاع تركيب مصطلح "تركيب الخطاب"، وصار موجة إعلامية لا تلبث أن تفنى كسوابقها، ولكنها - لقوة فرضها المعاصر؛ تأثرًا بالغربيين - صارت مقننة في البحث العلمي والمناهج الدراسية التي تبنت تدريسها دون أن تحدد موضوع البحث والدراسة ومفردات المقرر، فمعظم التوصيفات الدراسية غير منهجية، وليست لها معالم واضحة تخدم التخصص العام، ومن ثم يتنازع هذا المجال تخصصات مختلفة تدعيه لنفسها، ومعظم معطياتها منقولة عن الفلسفة الغربية ورؤية بعض الكتاب الغربيين غير المكتملة، فكل ما يصدر عن الغرب معمول به دون مراجعة، ويكفي الباحث أن يحيل إلى مصدره الغربي؛ ليدفع عن نفسه، فيلزم أستاذه الحجة، ولو كانت الحجة مأثورة من تراث العربية؛ لجادلوا فيها وتنازعوا، وبعض الكتب المترجمة التي نقل عنها النقالون لصحفيين غربيين؛ ليسوا متخصصين، وليسوا أكاديميين، فإجازتهم العلمية أنهم من سادتهم الغربيين، وبعض العرب عاشوا على مذاهب الغربيين، وسلموا بها، وماتوا عليها، بينما جادلوا في دينهم وتراثهم[1]، وقد

(١) لقد تأثر الدكتور طه حسين بأفكار ديكارت (المعروفة بالشك)، فلما سئل عنها قبيل وفاته، ذكر أنه لم يتحول عنها، وقد مكث عليها منذ دراسته في فرنسا حتى مات، وقد جاهر في بدء عهده بالبحث العلمي ببعض القضايا الدينية والنقدية والأدبية التي تأثر فيها بأساتذته الغربيين وكتابتهم، وقد أثارت جدلًا واسعًا، نال به شهرة إعلامية، وصار محط الاعتبار إعلاميًّا، وقد استخدمها وسيلة لجذب الاهتمام ولشغل كتاب عصره به، فقد وهبته ظروفه الخاصة دهاء تحايل به على معاصريه، فقد صار موضوع اهتمامه، والحقيقة أن بعض ما أثاره طه حسين كان مطروحًا في مؤلفات المستشرقين حول الإسلام والأدب العربي، وقد كان طه حسين ماهرًا في صياغته العربية، ولا أحسب رجلًا تعلم في الأزهر، وحفظ القرآن الكريم، وحفظ بعض تراث العربية وعلمه يتحدث بكلام المبتدئين وآراء المستشرقين التي بنيت على قراءة محدودة وعدم فهم، وهو لا يعرف حقيقة ما يخالفه، فقد انصرف عن مصارعة معاصريه إلى كتابات أكثر هدوءًا، بل جعل معظم إنتاجه أعمالًا إسلامية بعد أن بلغ غايته دون أن يشير إلى تحوله، وسلك بعض الباحثين هذا المسلك، ولكنهم أخفقوا، ولم يعبأ بهم أحد، وأذكر أن المستشار سعيد العشماوي تعجب في مقدمة أحد كتبه التي يجادل فيها في بعض القضايا الدينية ويطعن في بعض الرموز، من أن الأزهر وعلماءه والسلفيين لا يهتمون بما يكتب، ولا =

أطلقت على بعض كتبي "تحليل الخطاب"؛ مطاولة لمن نقلوا عن الغربيين ولمن افتعلوا هذه التسميات تسويقًا لكتبهم التي تتناول موضوعات خارج مناهج التحليل، ولكنني في كل كتبي التحليلية التمست مذاهب التحليل التراثية في التفاسير والشروح وكتب النحو والبلاغة، وتحري آراء العلماء وعرف العربية وضوابط التفسير، واستفدت أيضًا من مناهج الغربيين وبعض مذاهب التحليل التي تساعد في الوقوف على أسرار الخطاب العربي وعرفه التعبيري، ولم أتطرف نحو مذاهب أدعياء التأويل الحداثي، ولم أنتهك حرمة النص الديني، ولم أقل بغير دليل، ولم أفتئت نصًّا موازيًا أعارض به النص المدروس مما أفسد به المستغربون البحث.

والخطاب السياسي والخطاب الإعلامي يشتركان في كثير من الخصائص، وبعض الباحثين لا يفرقون بينهما، فالأساليب مشتركة والمفردات دوَّارة بينهما والمقاصد واحدة، بيد أن الإعلام السلطي (الحكومي أو الرسمي) بوق السلطة ومذياعها، فقد نشأت المؤسسة الإعلامية الرسمية في كنف السلطة؛ لتكون لسانها وأداتها في الاستقطاب والاستنفار والتوجيه والضغط، وبعض الأقلام الإعلامية صنعة السلطة التي ترعاها، وتوجهها لاستقطاب الجمهور واستمالته وحشده وتعبئته لمقاصدها، فالإعلام هنا السلاح الثاني (سلاح الكلمة) الذي تصوبه أنى شاءت؛ لقنص فرائسها ونهش معارضيها وتغييب ضحاياها[1]، وبات الإعلام الشعبي المحايد مطاردًا وقيد قرار المصادرة، ومتهمًا

=

ينقدونه، ولا يتعقبون آراءه الشاذة، في حين اهتموا ببحث كتابات آخرين أقل حدة وأضعف علمًا، وبعض الصحفيين الذين تحركهم أجهزة أمن السلطة وتتكسب منهم الصحف، أثاروا زوابع مفتعلة في الدين، وتداعت لهم وسائل الإعلام، وجلبت لهم مشايخها للمناظرة، وصار الدين مطعنًا وملعبًا يتبارى فيه النوكى، ويتربح من الإساءة إليه الإعلام، لقد صار المشايخ من رواد الإعلام شبهة أيضًا، وقد أسقطت الأحداث الأخيرة أقنعتهم هم وبعض المتسلفين والسياسيين وكبار الإعلاميين وبعض عناصر أحزاب المعارضة والنشطاء السياسيين.

(١) أذكر أنني كنت مقبلًا على احتراف العمل الصحفي، متوهمًا أنني سأستفرغ ما أحسبه يرضي ربي وينفع أبناء جلدتي في الصحف، فأختار لنفسي مذهبًا عدلًا، وأقول ما تطمئن إليه نفسي مما يرضي ربي في بدء عملي، فألفيت ما لم أحتسبه، وصُدمت بنقيض غايتي، فانصرفت إلى خير منه، وقد طلبت مني صحيفة

=

بالعمالة وتخريب الوطن وإثارة الفتن، ولكن هذا التضييق رُفع قليلًا بالكفاح الشعبي وبمرابطة الكُتَّاب الثوريين في مواقعهم، فظهرت ثورة إعلامية جديدة تجافي السلطة، وتتحزب للجماهير، وصار الإعلام الحر لسان الشعوب، بل قائدها في الثورة ضد الأنظمة الاستبدادية، ووجد الجمهور من يحمل صوته إلى داخل قلاع السلطة، وقد استطاع إزالة هاجس الخوف وهدم حاجز الصمت، وعلم المتسلطون أن السلطة الحقيقية بأيدي الشعوب لا بأيديهم، وأن لغة التعالي والكذب والخداع مرفوضة، وأن الشعوب لا تُخدع عن أنفسها، وأن السلطة التي لا تستند إلى قاعدة شعبية كبيت العنكبوت، ولا شك أن تسلط السلطة مبعثه تراجع الشعب عن حضوره في المشهد، وعدم مراجعته القرار، وإقصائه عن الممارسة، والتفويض المطلق لغير المؤهلين للمسئولية.

والسياسة - بمفهومها المعاصر - احتراف الفعل الكلامي، وقيادة في الممنوع، وممارسة خارج المكان والزمان. وعلاقة سلطة الخطاب بالسلطة السياسية أن الأولى مستمدة من عرف اللغة والمجتمع، وأن الأخيرة استبدت بها أيضًا لتدعيم سلطتها على المجتمع، فصار الخطاب منتجًا سُلْطيًّا مفتعلًا لمقاصدها، والسلطة منتج القوة النهَّازة، وهي الواقع المادي الرابض على مجامع الأمور، وفعلها الواقعي إنتاج اللغة، متجاوزة الأفعال الواقعية التي تعبر عنها اللغة، وهذا شأن السلطة التي تحبس شعوبها في معاني الكلمات دون الإنجاز الواقعي، فتحبس أنفاسها خشية تهمة الانعتاق، وقد استمرأت مخامرة الممالقة والنفاق، فالمنجز الذي تقدمه الخطاب الهش المتجافي عن واقعه، وجل أفعالها مختزل في القهر والإقصاء والتمييز والتحريض والتضييق والكبت، فهي مستأسدة على رعيتها وقيد مصطنعيها، وهذا شأن بعض الأنظمة الجوفاء الواهنة.

=

سلطية أن أحلل الخطاب السياسي، ثم أغرتني بكتابة مُسوَّسة على غير ما يرضيني في الدين والدنيا إغراء بالشهرة وتصعيدًا لمصاف السلطة، فتوقفت عن الكتابة، ورفضت أن أطعم نفسي وولدي حرامًا من الطعن في ديني وفي معارضي السلطة، وأن آكل من الدماء والأعراض، وأن أتخذ المضلين عضدًا والظالمين بدلًا، وأحسبني تركت هذا مخافة الحرام، فأبدلني الله تعالى خيرًا منه رزقًا حسنًا وسلعة لا تبور، وإن كان غيري يحسب رزقي ضيقًا وشأني ضئيلًا، فقد وسعني ما وهبنيه ربي ﷻ مما يحبه ويرضاه، وما أطمع فيه من رضوانه ومغفرته وفيض بركته لي ولذريتي، فاللهم ارزقني الثبات!

ولا شك أن للكلمات في الخطاب ما لقوة السلاح في حسم المعركة وفرض واقع جديد على المهزوم، فتصبح "المفاوضات" نوعًا من الاستسلام والإذعان لسلطة القوة. ولا أدري لماذا يجعل العرب الانهزاميون جُل مطالبهم في معاركهم الوقوف على خط العدو دون اجتيازه، ثم يلتمسون التسوية العادلة مقابل تنازلات تمثل هزيمة أخرى يحقق فيها العدو مكاسب جديدة؟! وتتقهقر هنا سلطة الكلمة أمام بطش السلطة السياسية التي صارت مرجع الخطاب ودلالته ومقاصده، وهذا شأن خطاب الأمم الضعيفة الخانعة في مرابض نفوذ القوة ودِمَن نفاياتها التي تسميها تضليلًا "تنويرًا" و"حداثة" في إنجازها المختزل في الكلام، وشأن الأمم التي تستبدل الأدنى بالسامق الأثير، وشأن جاعلي ترهات الكلام ومذاهب الشذاذ بدائل الدين الحق، وشواغر العقول الخاوية، وسداد الثغور الخالية، ورتق الفتوق البالية في عقول ثاوية في الجدل والسفاسف مَرْبِض الرويبضين[1] الضُّحال ومِرْبَد إعلامها الفاسد الذي اغتالته ثُلة مُخترَقة ومرتزقة.

وقد مارس خطاب الغزاة وسائل مختلفة في زحزحة شعوبنا عن ثوابتها وهدم معالم هويتها وإقناعها بأهدافه التغريبية التي جعلها بديل وجوده العسكري؛ لتظل تابعة وخانعة ومستنزفة، موظِفًا نفوذه العالمي وقوته الاقتصادية ومهارته في الخداع والمراوغة والتضليل في توجيه الرأي العام والتأثير في خفاف المؤنة، واستقطاب الموتورين وأصحاب النزعات والأهواء، وقد أناب عنه الخطاب الدهري المحلي الحليف له في التغريب، وقد انطلق في مشروعه التغريبي المشبوه (التنوير والحداثة) بما يمليه عليه ولاؤه للقوة الغزوية ولمذهبه الدنيوي (الدهري) الذي أحله محل العقيدة عبثًا، ويحاول أن يملأ بالمذاهب الدهرية (الأيديولوجيات الدخيلة) فراغ العقول الخاوية التي همشتها السلطة وسطحتها، ليكون أصحابها دعاته الجدد في مواجهة دعاة الدين ومفكري الأمة المظاهرين لكيانها وهويتها، وقد اختلق الخطاب الدهري مذهبية موازية للدين، تعده الخطر الأول والعدو الرئيس، مجندة وسائل الإعلام المشبوهة لهذه الحملة، وهذه العداوة

(١) جمع رويبضة: الجاهل، السفيه، الأنوك، وسوف يأتي في حديث لاحق، والأنْوَك مفرد النَّوْكَى: الأحمق بالغ الغباء.

تتماثل مع أفكار المذهب الإنجيلي الصهيوني المتطرف (الذي تبناه اليمينيون المتطرفون الجُدد (Neoconservatism: المحافظون الجدد) في السياسة الأمريكية والغربية منذ الستينيات من القرن المنصرم، وهو مذهب مغال في عداوة الإسلام، ويراه الخطر الأعظم، ويبادر بوأد صعود القوة الإسلامية التي استلهمت مكوناتها الإسلامية والعروبية والوطنية في رؤيتها بحرب استباقية جيشت فيها الإعلام المأجور في حملة التشويه والترهيب والأنظمة الفاسدة العميلة المتحالفة معه (الحلفاء) في أرض المعركة، وحاول وقف الزحف الإسلامي في أوربا، وتقويض اليقظة الإسلامية الناهضة، وقد اصطنع متطرفين في العالم الإسلامي من عملائه المأجورين؛ ليخوف بهم العالم، ويستبيح أوطان المسلمين، زاعمًا مطاردة المتطرفين والقضاء على الإرهاب، وكثف وجوده العسكري في العالم الإسلامي، واستباحه بدعوى تعقب الإرهاب.

ترجع قيمة الخطاب إلى درجة ارتباطه بواقعه، وانسجامه معه، واستجابته له، وقبوله عقلًا وعقدًا[1]، فالخطاب السياسي النفعي يغلب عليه المراوغة والخداع والتجافي عن الحقيقة والقيم، والخطاب السلطي العربي الاستبدادي خطاب وهمي يتعالى على واقعه ويجافيه، ويسبح في خيال مأمول يحسب نفسه خالدًا فيه! أو ينقد ماضيًا منقطعًا، ويحمِّله وزر فشله السياسي، ويمنُّ على واقعه بما استحدثه، فالعاجز المستبد يرى إنجازه الشحيح من قبيل المن والفضل، وليس تكليفًا وواجبًا، وقد ابتليت أمتنا بمن يرون أنفسهم شآبيب السياسة، وأن التقهقر الاقتصادي والأخلاقي إستراتيجية للتصحيح، وأن الهزيمة تآمر خارجي، وليست فشلًا، وأن ضحايا الإهمال هم الجناة، وأن تضخم ثروة السلطة في مقابل ارتفاع مستوى الفقر؛ لتأمين خضوع الشعب المعوذ، وأن الجهل سبيل الطاعة، وأحسب أن الفجوة التي بيننا وبين العالم أننا دخلاء عليه من حقبة مجهولة، ويسوقنا فيه الرعاة الحُطَّمة والنَّوْكَي، وأحسب أن الإنجاز الذي استطاع السلطيون تعميقه فينا أننا شُذاذ العالم في السلوك وفي ممارستنا السياسية وطرحنا الديني والثقافي، وأننا دون الأمم البدائية في الحقوق، وقد ابتلي شعب مصر المطواع بحكام نوكى أراعن لم يستوعبوا منزلة

(١) لقد استحدثت لنفسي مذهبًا يقوم على ربط الخطاب بواقعه؛ ليكون مرجعه صدقًا أو كذبًا.

مصر وخصائص شعبها، وما أغناها الله تعالى به من ثروات وطبيعة، فأوهنوها وخوروا شعبها، وأرى أن الذين حكموها حديثًا كانوا غير جديرين بولايتها؛ لعدم كفاءتهم ولضحالتهم[١]، فقد وصلوا إلى حكمها مستفيدين من أزماتها أو بتحزبات مشبوهة، أو وجدوا أنفسهم حكامًا بمحض مناصبهم المؤسساتية أو لاعتبارات سياسية ومصالح وصفقات مشبوهة وتدابير خفية، وليس للشعب نصيب من الملك.

والشخصية المصرية المعاصرة خاصة مخترقة من جهات قمعية بقوتها الأمنية التي جعلت حمايتها السلطة في مقدمة أعمالها الأمنية، ومخترقة من جهات إعلامية تخدم المشروع الصهيوني العالمي في تخريب ثوابت الأمم وتدمير شخصيتها؛ لتتقبل المنتج الصهيوني دون مراجعة أو اختيار، وتخدم أيضًا مصالح الرأسمالية في ترويج منتجها، واقتناص ثروات الوطن، وتخدم مصالح السلطة القمعية في تضليل الشعب والهيمنة عليه، ومخترقة من جهات خارجية، اشترت بعض العناصر الوضيعة والسطحية؛ لتحقيق مشاريعها السياسية والعسكرية والاقتصادية في الوطن، والعناصر السلطية القمعية المصعدة من المؤسسات العسكرية، والعناصر المعدة خارجيًّا لتحقيق المصالح الغربية هم بديل الاحتلال ونوابه في الوطن بعد رحيله عسكريًّا، فما زالت المنطقية العربية خاضعة للنفوذ الغربي، ولم يجد بعض السُّلْطيين حرجًا في تحري رضا الغرب دون الشعب، فجعلوه إذن الدخول إلى السلطة، ولهذا التصريح وجوه أخرى معلنة وباطنة، وهم يتبرؤون منه ظاهرًا، ويتهمون معارضيهم بعمالته، ويمشون نحوه رويدًا، ويجعلون أوطانهم صيدًا، ويتوصدون أبوابه؛ رجاء بُلغته مساومة على أوطانهم.

ب. المعنى والمفهوم:

يختلف معنى اللفظ في الخطاب عن المفهوم الاصطلاحي؛ فمعنى اللفظ دلالة

(١) حظيت مصر بمرحلة حضارية كادت أن تضعها فوق قمة العالم في عهد محمد علي، ولكن طموحه الشخصي السياسي وتعسفه، وإقصاءه الشعب المصري عن المشاركة، وصراعاته الخارجية أرهقت مصر ومكنت عدوها منها، وكاد الخديوي إسماعيل أن يواصل مشروع جده الحضاري، ولكنه أخفق، وكاد الرئيس السادات أن يفعل شيئًا، ولكنه أيضًا تعثر، وما زالت مصر، تنهض من عثراتها التي تبتلى بها، وطالما نهضت، واستعادت عافيتها، وأرجو أن يعجل الله تعالى فرجه برجل رشيد لبيب.

معجمية عامة، تستفاد من علاقة اللفظ بسياقه اللغوي ومقامه وقائله، ومن ثم يتغير المعنى تطورًا وانحطاطًا بمقتضى علاقته بحضارة الأمة ومستوى خطاب المجتمع ووعيه باستخدام اللغة ومعانيها ووظيفتها الاجتماعية والحضارية، والمفهوم فكرة اصطلاحية خاصة خِصيصة العلم، ورمز لها واضعوها بلفظ أو تركيب في حقل من حقول الخطاب، وصار لفظها منها علمًا عليها بمنزلة اسم العلم من مسماه يعرف به، فالمفهوم المصطلح لا يتغير مثل معنى اللفظ؛ لوقوعه على دلالة خاصة مصطلح عليها، ولكنه (المفهوم) قد يُبتذل في خطاب متحدر، وقد يحرف لفظه، أو قد يعبث الخطاب التضليلي بفكرته أو مضمونه العلمي الواضح، وواضعو المصطلح صفوة أهل الدراية في حقله العلمي ممن فقهوا أصول علمهم، وعلموا ضوابط الاصطلاح اللغوية والعلمية، ولكن معنى اللفظ اصطلاح اجتماعي يتواطأ عليه المجتمع، ومن أسباب الجدل في مفاهيم المصطلحات الجهل والتضليل والتعصب والجمود الفكري.

وأقول: المصطلح: اللفظ أو التركيب الموضوع اصطلاحًا للمفهوم العلمي الخاص في الخطاب العلمي، أو الألفاظ والتراكيب خصيصة المفاهيم العلمية التي اصطلح عليها أهل التخصص في حقل من حقول المعرفة، والمعنى والمفهوم هدفا الطاعنين قبل تقويض القاعدة اللغوية التي تستحيل؛ لأنها موروث اجتماعي عام، فأتوا قلعة اللغة من قبل اللفظ والمعنى والمفهوم، والمعنى والمفهوم ثغرتا اللغة؛ لأنهما مضمون فكري أو تصور ماثل في الأذهان، واللفظ مثوله في الكلام، والشيء المتصور مثوله في الأعيان، والهدف من العبث بالمعنى والمفهوم تجريد اللغة من الوظيفة التعبيرية التي تقوم بها الألفاظ وأنساق الجمل؛ ولتعرية اللغة اجتماعيًّا بأن تصبح قوالب شكلية غير فعالة يستثقلها المجتمع، ويملها، ومن ثم ينكشف ظهير اللغة القوي (المجتمع) الذي قاومت به المخربين. والغايات الأخرى من العبث بالمكون اللساني تخريب الوعي ومكونات الأمة العقدية والثقافية والحضارية.

ج. نظرية تحليل المفهوم:

تحليل المفهوم يختلف عن تحليل الخطاب منطوقًا ومكتوبًا، فتحليل مفهوم المصطلح الوقوف على مضمونه الذي اصطلح عليه واضعوه في خطابهم العلمي، والتثبت من

وضع لفظه وصحته لغويًّا، واكتمال مفهومه علميًّا، وأصالته اللفظية من عدمها (عربي قح أو دخيل)، وأصالة مفهومه من عدمها (أثيل متأصل في العلم أو مستعار من حقل آخر أو وافد من الحضارات الأخرى)، ومعرفة مدى انتشاره في الاستعمال داخل الحقل العلمي، وأنه اصطلاح جماعي تواطأ عليه أهل التخصص لا اجتهاد فَرِدي، ودقته العلمية، وبواعث الاصطلاح عليه، ومصادره العلمية والحضارية، وتاريخه العلمي (تراثي أو حديث).

وتحليل الخطاب ينصب على بنائه اللغوي - منطوقًا أو مكتوبًا - على المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وعلاقته بمقامه الخارجي والمشاركين فيه وبواعثه النفسية والاجتماعية وآثاره في متلقيه، وقد تناولته في كتب سابقة[1]، وتناوله غيري كثيرون، بيد أن تحليل المصطلح مازال مجهولًا، وما كتب فيه ضئيل قياسًا إلى قيمته العلمية والثقافية والحضارية، فالمصطلح العلمي عمود من أعمدة البحث والحضارة وعنوان النضج الثقافي، فالأمة التي تنتج مفاهيمها الاصطلاحية راسخة في العلم والحضارية، والتي تقتات بقايا الأمم المتحضرة متحدرة، والحركة بينهما تضاد.

وقد تناولت تحليل المفاهيم الاصطلاحية الإسلامية والسياسية وعوامل تطورها في كتب "تاريخ الحكم في الإسلام، دراسة في مفهوم الحكم وتطوره"، وكتاب "مفهوم الحكم في عصر النبوة والخلفاء الراشدين" وكتاب "الحكم القبلي في العصر الجاهلي" الذي تناولت فيه الدولة ومفاهيمها عند الجاهليين، وتناولت مفاهيم الأمة في كتاب "الأمة الإسلامية العظمى، رؤية جديدة معاصرة"، وقد أفردت كتابًا أصلت فيه "نظرية تحليل المصطلح"؛ ليكون قاعدة الانطلاق في هذا، بحث المصطلح بحثًا علميًّا، جامعًا جوانبه اللغوية والعلمية والثقافية والحضارية.

---

(١) أول كتبي في التحليل رسالتي في الدكتوراه: الخطاب السياسي في مصر ١٩٩٧ - ١٩٩٩م (كتاب لغة الخطاب السياسي، دار النشر للجامعات ٢٠٠٢م)، وكتاب خطاب السلطة الإعلامي، وكتاب التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، وكتاب تحليل النص، وكتاب تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة، وتحليل الخطاب العربي.

وسوف أتناول المفاهيم الثقافية الإسلامية والوطنية - ارتقاء وانحطاطًا - في الخطاب، موضحًا أسبابها، ومبينًا أثرهما في الهوية الإسلامية والوطنية ونسيج الأمة.

د. نظرية "سلطة اللغة":

مصطلح "سلطة اللغة"(Language Authority) غربي، له أبعاد فلسفية[١]، وقد دخل الخطاب العربي المعاصر بأبعاده الفلسفية، وقد صارت اللغة - بمقتضى وظيفتها الاجتماعية وتأثيرها - أداة سلطية في التوجيه والاستقطاب والضغط والتفويج وإجراء المقاصد، وقد تعالت السلطة السياسية عليها، وأخرجتها قسرًا عن عرفها ومسارها التبليغي إلى أهداف سياسية، فالسلطة لا تخضع لسلطة المعاني والقواعد، بل تتسلط على المعاني، مخترقة قانون التواضع العام، وتعطل العمل بالقواعد، وتفرض آليتها وقانونها، فتولد لغة جديدة تسوقها إعلاميًّا في الجماهير، وتصبح قسرًا من مفرداتها اليومية بتكرار عرضها واعتكاف الإعلاميين عليها؛ تحليلًا وتجميلًا وتضليلًا، فالخطابان السياسي والإعلامي يتآمران معًا على افتعال معجم الأضاليل، وتسويقه جماهيريًّا، وهم الذين يصنعون الأوهام ثم يجادلون عنها، ويحتجون بها على معارضيهم، وما هي إلا أضاليل افتعلوها، وليس لها سلطان الوجود، ويجردون اللغة من وظائفها؛ للدلالة على هواجس وثن الذات التي ترى نفسها مرجعية الشعب.

وقد استخدم علماء العربية الأولون "العرف اللغوي" و"مقتضى قواعد اللغة" و"قانون اللغة"، ولفظ السلطة دخيل من الحقل السياسي، فالاستعارة من مصطلحات العلوم الأخرى ظاهرة في الخطاب الغربي المعاصر، وقد شاعت في الخطاب العربي المعاصر النقّال والمتطفل دون إبداع وصقْل، فقد صار التأليف: "عملية المخاض" (إنتاج

---

(١) صاحب مصطلح سلطة اللغة الفيلسوف ميشال فوكو، وقد تناول اللغة في ثلاثة كتب: سلطة اللغة وسلطة الخطاب وإرادة المعرفة:

Foucault, Michel: L'archéologie du savoir.- Paris, Ed. Gallimard, ١٩٦٩.- p. ١٥٦.
Foucault, Michel: L'ordre du discours.- Paris, Ed. Gallimard, ١٩٧١.- p. ١٠.
Foucault, Michel: La volonté de Savoir.- Ed. Gallimard, ١٩٧٦.- p. ١٣٣.

الخطاب) والخلق والتخليق، وإجهاض الفكر ووأده، وبتر النص وتصفيته وغربلته، وبعضه المستعار تكلف في القول مخل بالمفهوم، نحو: الإبداع والتجديد: الخروج على المألوف وكسره وهتكه والانزياح والانحراف، والإسلام الراديكالي (المتطرف) والأصولي والسلفي والصوفي والسياسي، وهي مفاهيم محدثة غير متوازية مع المصدر المرجعي.

وللغة سلطة على متكلميها في الخطاب، تستمدها من نظامها القواعدي وعرفها في التعبير ورصيدها التاريخي، ولا يستطيع المتكلم الفرد الفكاك من قيدها أو التمرد عليها وحده، أو انحراف عن عرفها دون تواطؤ اجتماعي عام على بعض ظواهرها، ومن ثم لا يستطيع الفرد سلب اللغة سلطتها، بل المجتمع الذي منحها هذه السلطة وقبل الإذعان لها، وكل الذين طعنوا في قواعدها أو حاولوا تغييرها أخفقوا؛ لأنهم لم يستوعبوا نظام اللغة، ولم ينتبهوا إلى مصدر سلطتها الاجتماعي، وبعض النوْكَي (الغُفْل) اصطنعوا قواعد، وطعنوا في رموز النحو الرواد، متوهمين أنهم وضعوا قواعد اللغة، وتعسفوا فيها، وضيقوا واسعًا، والثابت أن قواعد اللغة مستنبطة من استعمال فئة عربية خالصة من العرب (أو الأعراب الأقحاح) شهد بجودة لسانها خطاب القرآن الكريم، الذي وافقه خطاب هؤلاء اللسن المفوهين، فخطاب القرآن الكريم قرينة مؤكدة فصاحة من أخذ عنهم العلماء أساليب اللغة ومعرفة معانيها؛ ومن ثم لا يجوز الطعن في من وافق لسانهم الخطاب القرآني أو العدول عنه، ويرجع إلى القرآن الكريم أفضال توحيد اللسان العربي وضبط قواعده وتدويله بنشره في ربوع الأرض، وقد اعتمد العلماء على خطاب القرآن الكريم وكلام العرب الأقحاح في استنباط المعالم العامة الأساسية للخطاب العربي؛ لسد تعدد القواعد، ولمنع اتساعها واختلافها، وهو الأمر الذي يفضي إلى تشذي وحدتها إلى لغات، أو انتصار اللغات الأجنبية عليها، ويتجلى فضل القرآن الكريم مرة أخرى، وهو حفظ اللغة العربية من الاندثار أو التشذي ما بقي القرآن الكريم محفوظًا ومقروءًا.

والتزييف. على المشهور. يقع في المعنى، والتحريف يقع بتغيير وضع الألفاظ على غير التواطؤ العام، وهو الذي يستطيع المضلل فعله بعد أن عجز عن تفريغ سلطة قواعد اللغة التي تمثل الهيكل المفرغ الذي تسدده الألفاظ احتذاء به، وتزييف معنى اللفظ يتحقق

بالتكرار وكثرة الاستعمال في غير سياق اللفظ ومقامه، والربط الواقعي بينه وبين المعنى الذي يراد الترميز به إليه بالصورة والرسم والمشهد المصور والقول المبتور، فالمعنى الثغرة التي يغزو المضلل منها وعي الجمهور بعيدًا عن سلطة اللغة، فاللغة لا تقر بالتزييف المعنوي المفروض عليها، وسيظل منكرًا وانحرافًا عن قانونها، وسيظل فاعله مارقًا وخارقًا عرفها العام، فخرق قانون سلطة اللغة لا يتوازى مع قانون السلطة السياسية التي تستسلم لفرض القوة على الأرض والإقرار بالواقع الجديد، فاللغة لا تجيز الخروج عليها، ولا تعترف بتوابعه الشاذة، بينما يصبح الغالب المستولي على السلطة السياسية مُجَازًا ومعترفًا به باستوائه عليها، ويصبح المقلوب منكرًا بمقتضى قانون الغلبة السياسية، ويسميه المُضلل "الحاكم الشرعي"، بل "الحاكم الغالب"؛ لأنه لم يتول بمقتضى الشرع، فالصفات تحمل معنى ما اشتقت منه عينًا (من الأعيان) أو قلبًا (من البواطن)، فقد اكتسب الرجل العظيم بعض هيبته من أصل معناه (عظيم العظْم أو الضخم)، ثم تجرد لمعنى الارتقاء والعلو والإجلال والوقار، وهذا من باب رقي المعنى، وقد يحدث خلافه، وهو الابتذال نحو "المُعلم": صاحب العلم والدراية والقائم بالتعليم، وهو من ألقاب الخاصة، ولكنه درج في أصحاب المهن. ومثله "المُؤدب" الذي يعهد إليه تعليم أبناء الخاصة وتهذيبهم، فتحول إلى الحكائين في الملاهي والمتظرفين، وقد يجمع اللفظ بين الارتقاء والابتذال نحو "الرئيس" الذي انتقل من الرأس من كل شيء ومقدمته إلى الرئاسة على الناس في القبيلة ثم الدولة، ولكنه ابتُذل في بعض الحكام الجهال النوْكَى "الريِّس" وبعض رؤساء المهن وأرباب المهن الوضيعة (ريس الملهى وريسته)، ومثله "الخليفة" الذي يخلف غيره، فبلغ قمة الارتقاء في درجة الإمامة العظمى (إمارة المسلمين الكبرى أو الخلافة)، ثم تحدر إلى رأس بعض الطوائف والمشعوذين بعد خفوت هيبة الخليفة وضعف سلطانه، والرئيس والخليفة والمعلم والمؤدب من الألفاظ التي تعلقت بمنزلة مسمياتها الاجتماعية، فتعلقت بها ارتقاء وانحدارًا، ونصل من هذا إلى أن اللغة قيد ارتقاء المجتمع وتحدره وقوة سلطانه وضعفه، وأن اللغة أحد زوايا المثلث الثلاث: المجتمع، اللغة، السلطان في الوطن.

***

الفصل الأول

هـوية الأمة ومكوناتها
في ضوء تـأصيل المفاهيم الإسلامية والوطنية

*** مصطلح الهَوِيَّة[١]:**

أستهل حديثي عن الهوية بقول النبي ﷺ: "لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكونَ هواه تَبَعًا لِمَا جِئتُ به"[٢]، وهو الهوى الموافق لمنهاج النبوة، هو الحديث الذي يوضح سياقه مفهوم "الهَوى" الذي أتناوله هنا، والهوَى: الاسم من الفعل: هوِي، بمعنى: أحب وعشق ومال، والاسم كالمصدر منه: الهوَى، والجمع أهواء، وهو الحب والميل النفسي والاتجاه والجهة، وهو الذي أستهدفه بمصطلح "الهَوِيَّة" (بفتح الهاء)، فأصل المصطلح الهَوَى، وهو على الراجح المصدر العام، وقد صار اسم مسمى العشق والميول النفسية والاتجاهات، واشتهر بها، وبُني من الاسم المصدر الصناعي "الهَوِيَّة" (وزن فَعِيَّة، حذفت لامه؛ لاتصاله بياء النسب: هَوِيَّة)، وقد شاع استخدام المصدر الصناعي في التسميات الحديثة في الخطاب المعاصر[٣]، ولكن الباحثين المتأخرين يربطونه بالذات؛ تأثرًا بالفلسفة الغربية

---

(١) الهويَّة: المصدر الصناعي من الهوَى الاسم المقصور، مسمى العشق والميل، وأصله من الفعل: هوِي (مكسور العين)، هوًى، والاسم منه: الهوَى (مقصور، وليس ممدودًا)، وجمعه: أهواء، فالمصدر لا يجمع، والأهواء: الميول في الخير والشر. والهوى يحتمل أنه المصدر العام الذي صار اسمًا وعرف به، كلفظ الحج من حج والوُد من ود.

(٢) رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وروي بلفظ: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه متبعا لما جئت به"، وصححه أبو نعيم بإخراجه له في "الأربعين"، والنووي في "الأربعين" (رقم ٤١) ، وقال ابن حجر في "الفتح" (ج١٣ / ص٢٨٩): "رجاله ثقات".

(٣) قال الرضي في المصدر الصناعي: "... فإنّ ياء النسب إذا لحقت آخر الاسم وبعدها التاء أفادت معنى المصدر، نحو: الفَرَسيّة، والضاربيّة والمضروبيّة" [شرح الكافية للرضي، ج ٤/ ٣٤١]، وقد سموا الهاء المعقودة فيه تاء التأنيث، وليست كذلك؛ لأن المصادر لا تؤنث، وقيل: تاء النقل من الجامد والوصف إلى الحدث، وهذا جائز، وأرى أنها مجلوبة لغلق المقطع المفتوح في آخر الكلمة كتربية وتغذية، أو هي للعوض =

والباحثين الغربيين الذين ربطوه بالأعراق وثقافات الشعوب البدائية الخاصة، وترسيخ الفردانية (أنا) في الفلسفة الوجودية وفي الحداثة، ويسمونها "العودة القوية للفرد"(١)،

=

فيها فيه حذف نحو: إقامة ولغة وهبة، وللمصدر الصناعي قياس في العربية الفصيحة، فقد جاء في القرآن الكريم، والحديث الشريف، مثل الرهبانية في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد:٢٧]. الجاهلية في أربعة مواضع في قوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ﴿آل عمران:١٥٤﴾، و﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، و﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب:٣٣]، و﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦]. وقول النبي ﷺ: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ أَوْ شَقَّ الْجُيُوبَ أَوْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ" [صحيح مسلم، ١: ٦٩]، وحديث: "إنك امرؤ فيك جاهلية". وجاءت بعض المصادر العامة شبيهة به، مثل: الرفهنية والعنجهية والبلهنية، وقد جاء في اصطلاح المتقدمين: الروحانية، والوجدانية، والوحدانية، والجسمانية (زيدت الألف والنون فيها للمبالغة)، والأريحية، والفروسية، والعبقرية، والعبودية، والألمعية، والألوهية، والربوبية، والعَيْدَهيّة (الجفاء والغلظ)، وتوسع الخطاب المعاصر في استعماله؛ تأثرًا بلاحقة المصطلحات في اللغات الأوربية للتعبير عن المفاهيم الحديثة وحاجة المحدثات لمصطلحات جديدة، فولّدته من أسماء وضمائر وظروف وحروف، ومن ذلك: الأنانية، والهُوية، (الكميَّة) التي ولِّدت من كم، و(الحيثيَّة) من حيث، و(الآنية) من الآن، ومثلها: البينية والفوقية والتحتية والحيثية، والكلية والجزئية والبعضية، ومن الأسماء: الشعوبية، والبشرية، والإنسانية، والنوعيَّة، والهُوِيَّة، والشخصيَّة، والغيريَّة، والقَبْليَّة، والبعديَّة، والمِثاليَّة، والمادِّيَّة والواقعيَّة، والوجوديَّة، والعلمانية، والعالِميّة، والشيوعيّة، والاشتراكية، والأقلية والأكثرية والأقدمية والأسبقية، والراحة (الدعة) والأريحية (طيب النفس)، ومن الجمع: اللصوصية، واسم الجنس: الإنسانية والحيوانية، واسم الجمع: الشعوبية، والقومية، والطائفية، والحزبية، والهمجية، والقبلية، ومن الجمل: الماهية والماورائية، ومن المعرَّب: الديمقراطية، والأرستقراطية، والإمبريالية، والدكتاتورية، والبراجماتية، والفرانكفونية، والصهيونية (من صِيُّون)، والنازية (Nazism)، وقد شاع في التسميات الحديثة المصدر الصناعي، مثل: الأقلية، وشاع بناؤه من المصدر العام: الوجود والوجودية، والتعادل والتعادلية، والاتفاق والاتفاقية، والشيوع والشيوعية، والإباحة والإباحية، والوحدة والوَحْدية والوحدوية، والسُّلْطية والسلطوية، والتربية والتربوية، والتنمية والتنموية، والتوعية والتوعوية. وبعضه لا حاجة إليه لوجود المصدر العام، مثل: التوعوية والتنموية، وبعضه شذ عن القياس في البناء، مثل: الوحدوية، والإسلاموية والسلطوية، والقياسي منه دليل مرونة اللغة وقدرتها على التجديد والاتساع للمحدثات.

(١) ظهر اتجاه فلسفي يغالي في تقديس الذات، وجعلها محور العالم بعد الحرب العالمية الثانية، وقد تبناه بعض الذين لا ينتمون إلى روافد تكوينية وطنية وثقافية وتاريخية، ومعظمهم من المهاجرين المغتربين، وأكثر التيارات تطرفًا في الذاتية الوجودية الأمريكية.

وأصبحت هذه النزعة الأنانية تهدد الوجود الاجتماعي، وصار مصطلح "الهُوية" الغربي خطرًا؛ لميوله الذاتية المتطرفة، بيد أن بعض الدهريين العرب المتأخرين يخدعوننا بمفهومه الغربي الذي يقدس الذات، ويربطونه بينه وبين المصطلح الصوفي "الهُوية" (الذات والماهية)، ويتجاهلون اختلاف الغربيين حول مفهومه وما يثيره من أخطار على الوحدة الوطنية والوحدة الاتحادية العامة، وما يستدعيه من هواجس التطرف العنصري والإبادة والتفتيت العرقي، وقد أطل برأسه ممثلًا في الحركات العنصرية المتطرفة، وقد أثار قبل حروبًا دامية، وعبروا عن سوء عواقبه بـ "أزمة الهويات"، و"تركيب الهويات" و"الهويات المتعددة" و"أخطار الهوية"، وهي مفاهيم سلبية في الخطاب الغربي المعاصر[1]، وقد

(١) لقد ظهرت مفاهيم عديدة للهوية بعد الحرب العالمية، وقد انتشر المصطلح في علوم الاجتماع بالولايات المتحدة في الستينيات من القرن الماضي، وتباينت مفاهيمه والتبست، وقد عبر بيب كليزون عن هذا الاضطراب قائلًا: "من الصعب أن نحدد المعنى الدقيق لكل استخدام خاص لمفهوم الهوية"، وساهم الوضع السياسي في أمريكا في توسيع انتشار مصطلح الهوية، وفرضه على لغة الإعلام والتحليل الاجتماعي والسياسي؛ لما أثاره من مخاوف الأمريكيين من صعود تيارات عرقية داخل الدولة تهدد وحدتها ومصالحها، فقد تصاعدت في نهاية الستينيات صيحات هويات الأقليات الأمريكية ذات الأصول الأفريقية، وأشهرها منظمة "الفهود السود" سنة ١٩٦٦م، وهي رد فعل العنصرية الأمريكية. وقد حذت أقليات أخرى حذو حركة السود، مطالبة بالاعتراف بخصوصيتها، وأنتجت هذه الأحداث "صحوة هوية حقيقية" في فترة السبعينيات من القرن الماضي. وقد لاحظ ذلك عالم الاجتماع الأمريكي روجر بروباكر أن تجربة الأمريكيين من أصل إفريقي مع قضية "الإثنية"؛ باعتبارها تصنيفًا يفرض نفسه، وباعتبارها تحديدًا ذاتيًّا للهوية، تمثل تحديًا جديدًا على أساس الهوية للدولة، واحتجاجًا على سياستها العنصرية، وأنها النموذج الذي استفادت منه جميع أنواع الهويات، بدءًا من تلك التي تتعلق بالجنس، وانتهاء بتلك التي تقوم على "الانتماء الإثني أو العرق". وقد انعكس هذا على حقلي العلوم الاجتماعية والنفسية على مستوى تأسيس أقسام متنوعة بالجامعة الأمريكية، مثل الدراسات الأفرو- أمريكية - ويسمى هذا القسم "الدراسات السوداء" - والدراسات النسوية، والدراسات الخاصة بطائفة الشاذين جنسيًّا، والدراسات عن المكسيكيين المستقرين بالولايات المتحدة، والدراسات اليهودية، ودراسات الأقليات العربية الإسلامية المقيمة في المجتمع الأوربي عامة، والمجتمع الأمريكي خاصة، وتعد دراسة هوية الأقلية في هذه الحقول البحثية معطى أوليًّا. وقام مفكرو ما بعد الاحتلال (إدوارد بارو كاياتري سبيفاك)، بدراسة مسألة الهويات الهجينة والمختلطة التي صنعها تاريخ الاحتلال.

وقد درس علم النفس الأساس النفسي لهوية الفرد الذاتية والاجتماعية، وعلاقتها بنشأة الصراعات والاضطرابات النفسية لدى الفرد، ودور هوية الفرد في نشأة الصراعات وتفاقم الحروب، والاضطرابات النفسية الاجتماعية (الظواهر الاجتماعية للهوية).

أحدثت هذه الاختلافات جدلًا في العلوم الاجتماعية والإنسانية، والخلاصة أن الهُوية المتصاعدة في الخطاب العربي؛ لتحل محل خطر "العولمة"، تمثل إشكالية غربية، تهدد "الوجود" و"التعايش الاجتماعي" و"التعاون البشري" في البحث الأوربي. ويتجاهلون أيضًا مفهومه الإسلامي بمكوناته الاجتماعية العامة الجامعة للأواصر الإنسانية، ولم أخدع بقولهم ولا بتأصيلهم المصطلح في التراث الفلسفي العربي والصوفي، وببنية اللفظ عندهم التي انتشرت بين الباحثين، وأتمسك بالعودة إلى ما ثبت لي وما أطمئن إليه، وسوف أبين هذا محتسبًا فتح الله تعالى وهديه.

الهُوية (Identification): مصطلح غربي حديث، يراد به تشكيل الذات في الوجود، وقد تبلور هذا المفهوم عند علماء النفس والاجتماع الذين بحثوا المجتمعات البدائية المهددة بالذوبان في المجتمع الحداثي، والذين بحثوا صراع الأديان والأعراق والثقافات واللغات في عصرنا، وقد اهتم علماء الأنثربولوجية (علماء الأجناس البشرية أو علم الإنسان) بدراسة ثقافية الشعوب البدائية ومكوناتها التي تميزها عن غيرها في نهاية القرن التاسع عشر، وزاد الاهتمام بدراسة الشعوب لأسباب سياسية، تمكن الغزاة من غزوهم والسيطرة عليهم وتغريب شخصيتهم، والاحتلال الفرنسي العسكري والثقافي أول من احترف هذه السياسة، وله أثر عميق في قطاع عريض من العرب، وقد نجح في فرنسة بعض الشعوب، وجند بعض العناصر المحلية المخترَقة من السلطة والقطاعين الثقافي والإعلامي في هذه الأوطان نوابًا عنه في الفرنسة، ومن هؤلاء الذين يروجون لمفهوم الهُوية بالمفهوم الغربي.

ويعد عالم النفس إريكسون الأمريكي[1] أول من صاغ المصطلح الغربي في علم

---

(١) إريك أريكسون (Erik H. Erikson: ١٩٠٢: ١٩٩٤م): عالم النفس التطوري والمحلل النفسي الدنماركي ثم الألماني ثم الأمريكي، صاحب نظرية التطور الاجتماعي للإنسان، وقد تبنى فلسفة فرويد، ويعد أفضل أتباعها، وقد ركز على العوامل الحضارية في تطور الإنسان والثقافية أكثر من البيولوجية، وقد غالى في فلسفة الذات الفردية، ووصفه العلماء بأنه "عالم نفس الأنا"، وأنشأ إريكسون "علم نفس الأنا"، وشدد فيه على دور الأنا، ورأى أنها أكثر خادم الهو، ولكنه اشتهر بابتكاره مفهوم "أزمة الهوية"، وقام ببلورته، وتأثر به أتباعه، وكان لتعدد هويات أريكسون أثر في أفكاره الذاتية حول الهوية ونزعاته، فهو يقدس الهوية الذاتية؛ لأنه في المطلق لم تستمله هوية وطنية أو قومية، فقد حمل رصيد ثلاث جنسيات، ولم يوال واحدة منها، واختار ردته الذاتية بدل الانتماء.

النفس١٩٥٠م، واشتهر بعد أن أعاد نشر كتابه "طفولة ومجتمع" ١٩٦٣م الذي عمق بحثه فيه، ولكن الهوية التي حملت صبغة ذاتية جنحت في الغرب نحو تأصيل الأصول العرقية في المجتمعات المتعددة، فالهوية في الغرب مصطلح قومي يعبر عن ثقافة الأعراق والأقليات، ويبحث خصوصيتها وتميزها عن غيرها، ومن ثم ارتد الباحثون إلى آراء فرويد في تكوين الطفل وبحوث علماء الأنثربولوجية (علم الأجناس البشرية) والثقافات الخاصة بالشعوب القبلية البدائية (مثل الهنود في أمريكا)، وقد ظهر هذا المصطلح في خطاب ثورة السود الأمريكيين على التمييز العنصري في أمريكا وتأثر بهم الهنود الحمر (السكان الأصليون) أيضًا في الستينيات، والمصطلح بهذا المفهوم يتعلق بمكونات الشخصية الخاصة.

ولقد اختلف الباحثون في أصل مادة الهوية وضبطها (الهَوِيَّة والهُوية)، والذي ثبت لي أنهما صحيحان، ولكنهما يختلفان في المفهوم، فالأول (بفتح الهاء) لمفهوم غلبة الهوى على النفس في الانتماء والولاء والميل النفسي، وهو للأشياء كالدين والوطن والأشخاص، وبنيته الصرفية حديثة: المصدر العام: الهوى، ولاحقة المصدر الصناعي: يَّة، والآخر (بضم الهاء) لمفهوم تعريف الذات والجوهر (مستعار من الفلسفة والتصوف، وأصله مشتق من الضمير: هو، معين المشار إليه)، وهو قريب من بطاقة الهُوية الشخصية (Identity)، وهذا الذي ثبت لي، والله أعلم، وسوف أناقش آراء العلماء المعاصرين في أصل مصطلح الهَوية بمفهوم الولاء والانتماء، ولهم فيه مذهبان:

أولهما: أنه ـ عندي ـ من الفعل الثلاثي (هوِي): تقول: هَوِيَ، بالكسر، يَهْوى، هَوًى، أَي: أَحبَّ. ورجل هَوٍ: ذو هَوًى يخامِرُه، وهوى، يَهْوَى شيئًا: أحبه، ومال برغبته وشهوته إليه، وقال ابن دريد في تهذيب اللغة: قال اللغويون: الهَوَى محبةُ الإِنسان الشيء وغَلَبَتُه على قلبه...، وقال الخليل: الهَوَى [الاسم المقصور]: هَوى الضَّمير، تقول: هَوِيَ، بالكسر، يَهْوى هَوًى، أَي: أَحبَّ. ورجل هَوٍ: ذو هَوًى. والهَوى، مقصور: هَوَى النَّفْس، وإِذا أَضفته إِليك قلت هَوايَ، وقال ابن سِيده: الهَوى العِشْق، يكون في مداخل الخير والشر. وأَثبت بعض العلماء – ومنهم سيبويه – الهَوَى لله عز وجل، فيمن تَقَرَّب إِلى الله بهَواه في الولاء لدينه والانتساب إليه، وأن يكون هواه (ميوله) تبعًا لما جاء به النبي ﷺ.

ويقال: هذا الشيءُ أَهْوى إليَّ من كذا، أَي: أَحَبُّ إِليَّ. وقوله عز وجل: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم:٣٧]، فيمن قرأَ بفتح الواو (تهوَى) [قراءة مجاهد]: إنما عدَّاه بإِلى؛ لأَن فيه معنى تميل، والقراءَة المعروفة تَهْوِي إِليهم (بكسر الراء)، أَي: تَرْتَفِع، والجمع أَهْواء؛ وقد هَوِيَه: هَوًى، فهو هَوٍ؛ وقال الفراء: معنى الآية يقول: اجعل أَفئدة من الناس تُريدُهم، كما تقول: رأَيت فلانًا يَهْوِي نَحْوَك، معناه يُريدك، قال: وقرأَ بعض الناس تَهْوَى إِليهم، بمعنى: تَهْواهم، وقال الأَخفش: تَهْوى إِليهم زعموا أَنه في التفسير تَهْواهم؛ الفراء: تَهْوِي إِليهم أَي: تُسْرِعُ. والهَوى أَيضًا: المَهْويُّ، أى: ما تحبه، وتميل إليه[1]. ويتبين من هذا أن الهوى الحب والعشق والميل النفسي، وهو معنى الانتماء الديني والوطني.

والهَوِيَّة: المصدر الصناعي[2] (الهَوَى + ية) من الاسم (الهَوَى) لاحقًا به ياء مضعفة وتاء معقودة (أو ياء النسب وتاء التأنيث عند بعض الصرفيين)، وقد أفاد المصدر

---

(١) ارجع إلى: لسان العرب، هوا، وقال الزجاج في كتابه تفسير معاني القرآن وإعرابه: "أي: اجعل أفئِدَةً جماعةً مِن الناس تنزع إلَيْهِمْ، ويجوز تَهْوَى إليْهِمْ. فمن قرأ (تهوِي إليهم) فَهُوَ على هَوَى يَهْوِي إذا ارتفع، ومن قرأ (تَهوى إليهم) فعلى هَوِيَ يَهْوَى إذا أحب، والقراءة الأولى هي المختارة"، وقال القرطبي: "واجعل وفودًا من الناس تهوي إليهم؛ أي: تنزع ؛ يقال: هوي نحوه إذا مال، وهوت الناقة تهوي هويًا، فهي هاوية إذا عدت عدوًا شديدا كأنها في هواء بئر، وقوله: (تهوِي إليهم) مأخوذ منه. قال ابن عباس ومجاهد: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال: من الناس فهم المسلمون؛ فقوله: تهوي إليهم أي تحن إليهم، وتحن إلى زيارة البيت. وقرأ مجاهد (تهوَى إليهم)،أي: تهواهم وتجلهم". [تفسير القرطبي، دار الفكر، ج ٣٢٣/٩].

(٢) إلحاق الياء المشددة والهاء المعقودة بآخر اللفظ للدلالة على معنى الحدث المجرد من لفظه، وقد أجازه العلماء للإتيان بمعنى الحدث من المبنيات والأسماء الجامدة واللفظ الدخيل لضرورة الاستعمال، مثل: الإنسانية والرجولية والدهرية والنسوية والشفافية والأنانية والهُوية (من هو) والماهية والرأسمالية والبينية والديمقراطية، ولكن بعض المعاصرين توسعوا فيه، وجعلوه بديل المصدر العام: الاشتراكية والاتفاقية. وبعض الباحثين يسمي الزيادة: ياء النسب وتاء التأنيث، وأرى أن التاء ليست للتأنيث، بل لغلق المقطع، مثل التاء في تربية وتغذية وتوعية، ورفهنية وبلهنية وعنجهية، وقد جاء المصدر الصناعي في القرآن الكريم، مثل: الجاهلية والرهبانية، وقيس على الأخير: الروحانية والوحدانية. فالحدث المجرد مأخوذ من لفظ الأسماء المجردة والمبنيات، وقد يستخدم للتفرقة بين المصادر العامة ومفاهيم المصطلحات أو التفرقة بين المصطلحات المتماثلة في اللفظ، ومثال هذا: الهوية مصطلح، والهوى المصدر العام والاسم أيضًا.

الصناعي نقل اللفظ من دلالة الاسم المعجمية للدلالة على مفهوم المصطلح الحديث الذي يدل على الحدث المجرد، فهو ـ على الراجح عندي ـ من الاسم "الهَوى"، ومعناه: الميل والعشق وما مالت إليه النفس وسكنت، وقيل منه: الاتجاه في الجهة، يقال: هوى إليه: اتجه، وهو انحدار سريع، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات]، أي: زجرها عن ميلها نحو المعصية.

والآخر: أن لفظه بضم الهاء، وأنه مصنوع من الضمير الغائب (هو)، وهو مستعار من المصطلح الفلسفي الصوفي التراثي: "الهُوية"(بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء المفتوحة)، المشتقة من الضمير "هُو".

والهُوِيَّةُ[1] من مصطلحات الفلسفة[2]، وأصله عندهم من "هو" أو "الهُو هُو" بمعنى: الاتحاد بالذات، وهو أسلوب دخيل إلى العربية من فعل الكينونة (Being :To be) في اللغات الهندو أوربية، الذي يربط بين الموضوع والمحمول، كقولهم: الإنسان هو كذا،

---

(١) لقد روج بعض الحداثيين لمصطلح الهُوية الفلسفي؛ لأنه سبيل مشروعهم التغريبي، الذي يبدأ بالقضاء على المرجعية الأولى والثوابت، والارتداد إلى الذات الوجودية، وقد رأى الدكتور حسن حنفي أن "الهوية" من الضمير "هو" يتحول إلى اسم، ومعناه أن يكون الشخص هو هو. هو اسم إشارة يحيل إلى الآخر، وليس إلى الأنا. وهو ما يعادل الحرف اللاتيني Id. ومنها اشتق أيضًا لفظ "Identity" (البطاقة الشخصية). أما لفظ الأنية، فهو يعادل الحرف اللاتيني Ipse ومنها اشتق Ipseity، وبالتالي تمنع كل أنانية وخصوصية؛ لأن الهوية تثبت الآخر قبل أن تثبت الأنا. ولا تشتق الهوية من ضمير المتكلم المفرد "الأنا" إلا بمعنى الأنانية في مقابل الغيرية. وأما لفظ "الأنية" فإنه مشتق من "إن" حرف توكيد ونصب. ومعناه أن يتأكد وجود الشيء وماهيته من خلال التعريف. ورأى أن لفظ "الهوية" يماثل لفظ "الماهية" عند الفلاسفة بمعنى جوهر الشيء وحقيقته، وأن الهوية تماثل بين الأنا والهو، في حين أن الماهية تماثل بين الشيء ونفسه. وهو أيضًا لفظ مشتق من أداة الاستفهام "ما"، وضمير الغائب المؤنث "هي" يستعمل في التعريف، في حين أن لفظ "الهوية" يُستعمل في الوجود. أما لفظ "جوهر" فهو صورة فنية من المعادن الثمينة، ويعني اللب والحقيقة أغلى ما في الشيء، انتهى كلامه. وهو تفسير فلسفي يتجافى عن مراد اللفظ، وقد تأثر فيه بمذهبه الدهري وكتاباته عن الأنا والآخر.

(٢) الموسوعة الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ص١٢٢٢. والموسوعة الفلسفية العربية، (رأي محمد عابد الجابري) المجلد الأول تحرير د. معن زيادة، بيروت: معهد الإنماء العربي، ١٩٨٦، ص٨٢١.

أي: يكون كذا، فهو فعل الربط لزيادة التلازم بين الموضوع والمحمول، وقد استغنت عنه العربية في الجملة الاسمية بلفظ الخبر الذي يعبر عن الوصف المتضمن ضمير المبتدأ الذي يربطه به(١)، ثم وضعوا بدلًا من "هو" "الموجود"، وثم صارت الهُوية "الوجود" نفسه، واستخدمه الفلاسفة للدلالة على كون الشيء هو نفسه(٢)، ثم عبروا به عن معنى "الحقيقة" أو "الذات" أو "الماهية"، ويعدون هذه الألفاظ مترادفة، ويتبين من هذا أن الهُوية – من المنظور الفلسفي – حقيقة الشيء أو ماهيته أو ذاته في حال تشخصها، أو تعينها، أو تميزها من غيرها(٣)، وعرفه المتصوفة بأنه "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق

---

(١) الخبر في العربية وصف، نحو: زيد قائم، أي: قائم هو، فالضمير المقدر فيه يربطه بالمبتدأ، ويئول الجامد بمشتق، نحو قولنا: هند أم، أي: حنونة رحيمة، وزيد أسد، أي: شجاع.

(٢) مفهوم الهوية فلسفي، وقد عرفه أرسطو: "وحدة الكائن، أو أن الشيء الواحد متطابق مع نفسه، أ هو أ"، وقد انتقل هذا المفهوم إلى فلاسفة المسلمين، قال الجرجاني في تعريفاته الهُوية: "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمالَ النواة على الشجرة"، وقد اختلف الأوربيون في تحديد مفهومه، فكل مذهب حمله على خلفيته الثقافية وغرضه منه، ومن بواعثه المعاصرة محاولة بعض الحداثيين بلورته ليعبر عن رؤيتهم المعاصرة في بنية الشخصية المسلمة المتحررة من قيود التقديس العقدي والتراثي والاجتماعي، وقد رأى محمد عابد الجابري أن الفلسفة الأوربية الحديثة أساس فلسفة الهوية، حيث وضعت ذات الإنسان أو (الأنا) في مقابل العالم الذي هو موضوع لهذه الذات، واستعار العلاقة الديكارتية بين الفكر والوجود "بما أني أفكر فأنا موجود"، والتي خلقت ثنائية الأنا والآخر كموضوع لها، وليس ندًّا، فالذات المسيطرة موضوعها الآخر، وتوصل منها إلى التماثل والتكافؤ، وتأول عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ]، بمعنى التسوية بين طرفي الجدال والتعادل، وهو انحراف عن غرض الخطاب القرآني في محاورة المخالفين، فبدأ بعرض رأيهم معادلًا لما جاء به النبي ﷺ في النقاش، ولكن النتيجة ليست التسوية، فالغرض استقطابهم للمحاورة، ولو علموا أنهم سيتعادلون في القضية لما قبلوا محاورته، فقد أغراهم بأن يغالبوه في المناظرة، وقد زعم أن الآخر ند في الإسلام، مستدلًّا بالآية بأن واحدًا من الفريقين مبطل، والآخر محق، ولا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب. وقد زعم أن الآخر ليس موضوع الأنا بل هو ند ونظير، كما أن الآية تنفي التعالي، فحرف العطف "أو" الوارد في الآية لا يعطي أفضلية لأحد الجانبين، وهو قول فاسد، فالآية تدعوهم إلى المناظرة في الدين؛ للنظر فيما هم عليه وما جاء به النبي ﷺ.

(٣) لقد عرف الفلاسفة "الهُو" بأنه "الغيب الذي لا يصح شهوده للغير، كغيب الهُوية المعبّر عنه كنهًا باللا تعيَّن، وهو أبطن البواطن". كما عرفوا "هو" بأنه: كلمة مدلولها العليُّ غيب الإلهية القائم بكل شيء الذي لا يظهر لشيء، فذاته غيب أبدًا، وظاهره الأسماء المظهرة من عُلو إحاطة اسم الله إلى تنزُّل اسم الملك فما بينهما"، =

اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"[١].

وقد استدل أصحاب هذا الرأي بتعريفات حديثة، منها تعريف علماء الميتافيزيقا (الغيبيات)، بأنها: "جوهر العقل وماهيته"[٢]، وأن الهُوية والعقل شيء واحد، فهي ماهيته وصورته وقانونه، وتعريف علماء المنطق والرياضيات أن "الهوية" "علاقة بين شيئين تجعل منهما متساويين، فهي ما يجعل شيئًا ما متشابهًا تمامًا مع شيء آخر"[٣]، وتعريف علماء النفس أنها: "وحدة ذات الشخص في مراحله المختلفة، طفلًا وشابًّا وكهلًا وشيخًا"[٤]، وتعريف علماء الاجتماع أنها: "الشيء الذي يُشعر الشخص بالاندماج في المجتمع الذي يعيش فيه، والانتماء إليه"[٥]، وهي تعريفات حديثة متأثرة بالمفهوم المعاصر؛ لكنها لم تحدد لفظه. وقد رأى جون جوزيف أن لهوية الشخص مظهرين أساسين؛ أولهما: اسمه الذي يميزه عن غيره من الناس. وثانيهما: ذاك الشيء غير الملموس والأكثر تعقيدًا وعمقًا الذي يشكل في الحقيقة ماهية المرء"[٦]، وهو التعريف الفلسفي للماهية أو الهوية: "حقيقة الشيء

=

وصار "هو" أو "الهُو" إذن الحقيقة المطلقة (غيب الإلهية، وأبطن البواطن)، و"الهوية" نفسها "الأحق بهذا اللفظ من كان وجود ذاته من نفسها، وهو المسمى بواجب الوجود المستلزم للقدم والبقاء"، وتطور معنى "الهوية" إلى معنى الحقيقة أو الماهية أو ذات الشيء، وقالوا: "ما به الشيء هو هو"، يريدون أنها ذلك الأمر الذي يجعل شيئًا ما هو لا غيره، ولكن في حال تشخصه، أما في حال تحققه فهو حقيقة وذات، وأما إذا كان أعم من التشخص والتحقق، فهو ماهية. وقالوا: الكلي ماهية، والجزئي هُوية، والحقيقة تحقق الشيء في الخارج العيني، وقالوا: إن الأمر المعقول من حيث إنه مقول في جواب "ما هو": ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج: حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الأغيار: هوية، ومن حيث حمل اللوازم عليه: ذات. [ارجع إلى: التعريفات، الشريف الجرجاني، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨، ص٢٥٧، والمناوي: التوقيف، مصدر سابق، ص٧٤٤. والتوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، تحقيق محمد رضوان الداية، دمشق: دار الفكر، ص٧٤٤. الكليات، الكفوي، ط الرسالة، ص٩٦١].

(١) موسوعة الفلسفة، الدكتور عبد الرحمن بدوي، مصطلح (الهوية).

(٢) نفسه

(٣) نفسه

(٤) نفسه

(٥) التعريفات، الجرجاني، ص٢٥٧.

(٦) اللغة والهوية، جون جوزيف، ترجمة د. عبد النور خرافي، عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠٧م، ع ٣٤٢٩، ص١٨.

من حيث تميزه عن غيره"[١]، وللهوية تعريفات مختلفة عند الأوربيين، ويرجع هذا إلى مذاهب مستخدميها وأغراضهم منها، فهو مصطلح غامض ومثير للجدل، ورأى بعض الغربيين أنه الخطر الذي يهدد الوحدة الوطنية والوحدة العامة؛ لغلوه في تمكين سلطة الذات المعادية للجماعة وتقديسها، واحتضانه ثقافات الأقليات والأعراق ولغاتها المندثرة في الدولة.

وأرى أن المصطلح الدال على الولاء للأمة والانتماء إليها من الهَوى: الحب والميل والانتماء، وأنه على هذا المذهب بفتح الهاء "الهَوية"، ومن أدلة هذا الرأي أن الهَوية تعني الانتماء الوطني (National affiliation)، وأن التوجيه الفلسفي للضمير "هو" يتسق مع بطاقة الهوية الشخصية المعرفة لذات حاملها (Card)؛ ومن ثم ربط بعض باحثي الفلسفة بين الهوية والماهية (الذات) نفسها، ولكنها لا تعبر عن هواه الشخصي ومكوناته (ميوله العقدية والوطنية ومكوناته الفكرية)، وقولهم إنه تعيين جوهر الشيء وربطه بالهوى الوطني تكلف؛ فالمراد بالهوية مجموعة العناصر المكونة للانتماء، والهَوي (الميل) جوهره وسبيله، وقد جاء في الحديث ما يؤكد أن حب الوطن والميل إليه لا سبيل إلى رده[٢]، فهو رصيد النشأة والمخاتلة، وأميل إلى هذا الرأي، فهو مصدر صناعي من المصدر العام؛ للدلالة على روافد الانتماء، وقولهم حديثًا: الهُوية: جوهر الذات البشرية، وهُويَّة الإنسان: حقيقة الإنسان المطلقة وجوهره، وأصله من الضمير "هو" الذي انتقل من الإشارة إلى الغائب إلى الحضور والتمثل في الوجود، لا يعبر عن مكونات الأمة في الوعي الجماهيري، ولا يعبر عن المكون البشري الذي يقوم على الانتماء والولاء والحب، فالهَوية الدينية الميل إلى الدين، والهوية الوطنية مكونات الولاء الوطني الشخصية، والهوية بالمفهوم السياسي وشائج الولاء وروابطه الجامعة والمعززة له.

ويتبين من هذين الرأيين أنهما مصدران صناعيان؛ أحدهما من المصدر العام الهوى (بفتح الهاء)، ويعني مكونات الانتماء الشخصي، والآخر من الضمير "هو" "الهُوية"، وأصله مصطلح فلسفي يدل على الذات والماهية، وهو الأسبق تاريخيًّا من "الهوَية"

(١) المعجم الفلسفي، ص ٢٠٨.

(٢) سيأتي هذا في حديثي عن الوطن.

(المصدر الصناعي من الهوى)، ولا أراه معبرًا عما أتناوله هنا؛ لأن "الماهية" المنحوتة من "ما هو" لمعرفة أصل الشيء وكنهه، وأن الهوية الوطنية والإسلامية معالم خارج النفس تميل إليها، وليس مصدرها الذات، فالهَوية عناصر الوجود الخارجية التي أحبها الإنسان وشكلت مكونات ولائه، وهذا يرجح عندي نسبتها إلى الهوي، وهذا ما لم يستوعبه من نسبوها إلى "الهُوية" الذاتية عند الفلاسفة. والهوية بالمفهوم الوطني في المعجم الحديث: "حقيقة الشيء، أو الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية، والتي تميزه عن غيره، وتسمى أيضًا وحدة الذات"، وهو المفهوم الغربي الحديث، والوضاعون العرب اختلفوا في لفظه، وحاولوا اقتباس المصطلح الفلسفي التراثي له.

وأرى أن مصطلح الهَوية: "الانتماء إلى مكونات الأمة الطبيعية والعقدية والمعرفية ظاهرًا وباطنًا"، الله أعلم.

ولفظ الهُوية في الخطاب المعاصر - الموضوع لمفهوم (Identity) يعبر عن خاصية المطابقة: مطابقة الشيء لنفسه، أو مطابقته لمثيله - أراه معبرًا عن مسمى البطاقة الشخصية (وهي من الكلمات التي اشتهرت في مصر قديمًا، وبقيت في الخطاب، وتعني الرقعة المدون فيها تعرف حاملها)[1].

والآثار السلبية لإضعاف الهوية الإضرار بمكونات الأمة والعقيدة والتنازع والاختلاف وإحياء الفتن وتفتيت وحدة الأمة وتزييف الحقائق بوسائل لغوية وغير لغوية؛ كوسائل الإعلام ومناهج التعليم والعبث بالتاريخ والتمييز السياسي والتهميش والاستقطاب وتجنيد العناصر المأجورة والتغريب، وغيرها.

والوعي: مصدر وَعَى: فهم واستوعب، والوعي: الفهم وسلامة الإدراك، والمراد به

---

(١) أصل البطاقة: البطاقة رقعة صغيرة يثبت فيها مقدار ما تجعل فيه؛ كإثبات قيمة الثوب في رقعة عليه، وما يكتب فيه من ورق أو جلد، وجاء في اللسان لابن منظور المصري: "قال ابن سيده: والبطاقة الرقعة الصغيرة تكون في الثوب، وفيها رقم ثمنه بلغة مصر؛ حكى هذه شمر، وقال: لأنها تشد بطاقة من هدب الثوب، قال: وهذا الاشتقاق خطأ، لأن الباء على قوله باء الجر، فتكون زائدة، قال: والصحيح ما تقدم من قول ابن الأعرابي، وهي كلمة كثيرة الاستعمال بمصر، حماها الله تعالى [اللسان، بطق].

اصطلاحًا: الإدراك بالبصيرة وبالعلم وبالتجربة حقائق الأشياء وسبر غورها وتحاشي مهلكاتها، وهو أنواع، وأشهرها: الوعي الديني: العلم بالعبادات والمناسك والسنن والعلم بأدوات فهمه وغاياته، والعلم بمصالح الدين وآداب معاملاته وسياسته الشرعية التي تستهدف المنافع وتجافي المثالب، والوعي الوطني: العلم بما له من حقوق المواطنة وما عليه من واجبات وطنية، تحقق مصالح الوطن العامة، والوعي السياسي: العلم بالحقوق الشخصية والوطنية في الممارسة السياسية، ويتبين أن أسس الوعي العلم والإدراك والاستيعاب والانقياد للمصالح العامة.

أركان هوية الأمة:

الشعب والوطن واللغة والعقيدة والتراث الثقافي المعرفي (المنتج الفكري والإبداعي الراقي والبحث العلمي) وثروات الوطن البشرية والطبيعية والقيمة الحضارية والتاريخية والجغرافية – أركان في أعمدة الأمة وهيكل بناء الدولة التام المتناسق. وسوف أقدم الدين تكريمًا لمقامه في الكلام، وهو في تكوين الأوطان ذات التعدد بعد الأمة (أو الشعب) والوطن واللسان (اللغة)، والدين الإسلامي لا يتعارض مع المواطنة، وليس عدو الملل الأخرى، فهو دين مهيمن على ما في الملل السابقة، وهو من دعائم الوطن والتعايش السلمي على السوية في الحقوق العامة، ولعل مخاوف أهل الملل من الدين أنهم يخلطون بين التدين (التخلق بالدين والتأسي بأخلاق النبوة) والإسراف في التعصب المفضي إلى التباغض والظلم (المغالاة في التحيز والمخالفة).

ومعايير الهوية تتكيف بمقتضى المصلحة العامة، وكذلك المعايير القومية، فالغربيون يستبعدون الدين منها؛ لأنهم دهريون (علمانيون)، بيد أن الدين المكون الرئيس في القومية العربية والهوية؛ فهو الذي وحد العرب في كيان سياسي، وألف بين قلوبهم، وحفظ وجودهم ولغتهم، وسأتناول أيضًا الأمة بالمفهوم الإسلامي الجامع، وبمفهوم أبناء الوطن والقومية، وسأتناول اللسان (اللغة) والتراث الثقافي، وهذه المكونات وحدة الأمة والوطن، وتشكل قضايا البحث والخطاب، وهي غرض الطعن والتخريب في الخطاب المحلي المشبوه، والعناصر الأخرى التي لم أتناولها (كالثروة والاقتصاد والموقع وغيرها) لا خلاف عليها، وقد تناولها كثيرون، والمتخصصون أعلم بها مني، ولا يتسع المقام لكل

المكونات، وحسب المرء أن يجتهد فيما يتقن، وأن يمسك عما غيره أعلم به منه، وهدفي هنا الدين والأمة والقومية واللسان والثقافة (بمفهوم المعرفة)؛ فهي أغراض سهام الطاعنين.

أولاً: الدين:

الدين: العقيدة التي يؤمن بها المرء، والإسلام عقيدتنا الجامعة وشيجة أخوتنا، وهو الدين المهيمن على ما جاء في الكتب السابقة، ودين الله للبشر كافة والضامن لهم والمنصف، فهم جزء من التشريع الإسلامي. ومصدر التشريع الرئيس: الكتاب والسنة، فالدين الإسلامي لا يرفض الآخرين بل يقر بحقوقهم العقدية والتشريعية، ويسمح بالتعددية الدينية، وهو الدين الوحيد الذي احتوى الأعراق والألوان والطبقات وأهل الملل، وكفلهم في تشريعاته، وسوى بينها في الحقوق العامة دون تحيز أو تضييق، قال تعالى للناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣]، الناس: عموم الخلق المجتمعين في أصل واحد، ثم تفرقوا عنه إلى الشعوب والقبائل، وقد قيل: الشعوب القبائل العظام، والقبائل البطون، والمراد بالقبائل العظام: العرق الذي ينتسب إلى أصل يعرف به، والتعارف: الانتساب، أن يتعارف الناس حتى لا يعتزي أحد إلى غير آبائه، ولا ينتسب إلى سوى أجداده؛ لحفظ الأنساب والحقوق المترتبة عليها، مثل الميراث والديات وحقوق صلة الرحم، ثم جهر الخطاب بمعيار التفاضل، وهو التقوى، وقال تعالى في العدل العام بين البشر على لسان شعيب عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:٨٥]، الناس: عموم الخلق، وقد أوصى الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يعلن أمر الله له بإقامة العدل، فقال: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ [الشورى:١٥]، وأوصى المؤمنين بإقامة العدل مع الناس كافة حتى الأعداء الذين يبغضونهم ويحاربونهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ

ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة:٨]، والشنآن شدة الخصومة التي تحمل الناس على الظلم، ولا شك أن العرقية مجلبة له، وقد خاطب الله تعالى عباده بفضيلة الإيمان لا العرق.

والعدل بين الخلق مبدأ يضمن سلامة العالم، فلم يشق في كنفه أحد، ومن ثم كان الإسلام ملاذ المضطهدين والمهمشين، روي عن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قُطعة، قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ وسط أيام التشريق، فقال: "يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي علي أعجمي ولا لعجمي علي عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟، قالوا: بلغ رسول الله ﷺ[(١)]، وقال النبي ﷺ مرشدًا أبا ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما عير أخًا خادمًا له بأمه السوداء: "انظر؛ فإنك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى"[(٢)].

ولله در الشاعر نَهَار بن تَوسِعة بن أبي عتبان (من بكر بن وائلٍ) الذي تعزز بدينه قائلًا في وجوه القبليين والشعوبيين في خرسان موطن الحركات الثورية[(٣)]:

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

(٢) عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيرته بأمه، فشكاني على النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلقيت النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: "يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية". قلت يا رسول الله من سب الرجال سبوا أباه وأمه، قال: "يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانك جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم"، فلم يعد لمثلها، وكان يلبس غلامه مثل ما يلبس، فيسأله الناس متعجبين، فيذكر لهم الحديث [رواه البخاري في صحيحه]، وقيل إن الرجل المذكور بلال المؤذن مولى أبي بكر وتعييره له بأمه، حيث قال له: يا ابن السوداء.

(٣) نسب البيت الأول لسلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والصواب أنه من قصيدة للشاعر العربي نهار بن توسعة، البكري، وقد رواها بعض العلماء منهم المبرد في الكامل في اللغة والأدب، ج ٢ / ١٦٧، ١٦٨، وابن قتيبة في "الشعر والشعراء"، والشاعر نهار بن توسعة بن أبي عتبان، من بكر بن وائلٍ، من بني حنتم، وكان أشعر بكر بن وائل بخراسان في عصر الدولة الأموية، وقد كانت خراسان ملتقى الأهواء الثورية وملاذ المتمردين على الدولة، وقد توفي بعد ٨٠ هـ، وهو من الشعراء الفصحاء الذين احتج بلغتهم اللغويون، والبيت الأول من شواهد النحاة، وقد ذكره الزمخشري المفصل في "لا أب لك".

أبي الإسْـــــلامُ لا أَبَ لِي سِـــــوَاهُ إِذَا هَتَفُـــوا بـــبَكْرٍ أَو تَميـــمِ
دَعُّـــيّ القَـــوْمِ يَنْـــصُرُ مُدَّعِيـــهِ فيُلْحقُـــهُ بـــذي النَّـــسَبَ الـــصَّميمِ
ومـــا كَـــرَمٌ ولـــو شَرُفَـــتْ جُـــدُودٌ ولكـــنَّ التَّـــقِيَّ هـــو الكَـــرِيمُ

وقد أقر الإسلام مبدأ المساواة مع غير المسلمين ممن في سلطانهم أو خارجه، خلاف الملل التي أبت التعدد المذهبي داخل الملة الواحدة ولفظت الدخلاء، ولم تسو بين طبقات معتنقيها وألوانهم في العبادة والحقوق العامة، ولكن الإسلام قد دعا إلى المساواة العامة في الحقوق البشرية، فالحق مكفول لكل الناس، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨]، وحقوقهم لا تتأثر بهوى، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، وهذا لا نظير له في ملة أو قانون دنيوي وفلسفة، فواقعهم خلافه، ونفوسهم تأباه.

والانتساب إلى الهوية الإسلامية فريضة على المسلم، أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" روي عن عبد الله بن أبي يزيد الأنصاري، قال: "تسموا بأسمائكم التي سماكم الله بها: بالحنيفية، والإسلام، والإيمان"[1]، ويكفي المسلمين فخرًا أن الله عز وجل سماهم المسلمين من قبل ظهور الإسلام في الكتب السابقة، وأنه ملة التوحيد الجامعة التي كان عليها إبراهيم عليه السلام، أبو المسلمين في التوحيد الخالص، قال الله عز وجل: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج]، وقوله (هُوَ سَمَّاكُمُ) الضمير فيه لله تعالي الذي سماكم بهذا الاسم، وقيل الضمير لإبراهيم عليه السلام، و(مِنْ قَبْلُ) أي: في الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل والزبور، (وَفِي هَذَا) أي: في القرآن الكريم قد سماكم أيضًا بالمسلمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه.

ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران]، و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة:٢٠٨]، السلم: الإسلام، وقوله تعالى ذاكرًا مسمى المسلمين: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ [الأحزاب:٣٥]، وقوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٣]، وقوله ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٧٢]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل:٩١]، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمر]، وجاء لفظ "المسلم" بمعناه المعجمي أيضًا في خطاب الأنبياء – عليهم السلام – بمعنى المنقاد لله والمستسلم والطائع، وخص أيضًا بتسمية المسلمين، فهم أهل توحيد.

وناصب الدهريون العرب مظاهر الدين في الدولة العداء، وزعموا أنها كيان دنيوي منفصل عن الدين، وهم يريدون إقصاء الدين عن السلطان الذي يحميه، ويجردون الدولة من واجبها في حماية الدين وحفظ مصالحه؛ ليصبح فريستهم، والقوميون الجدد يستبعدون الدين من عناصر القومية، وهذا يستحيل في القومية العربية؛ لأن الإسلام أقام عرش العروبة الذي أذل المشركين، وأقام الحد على المنحرفين، وأخضع لهم رقاب الأعاجم، وخشيت هيبته الدنيا، ووسع رقعته وحفظ اللسان العربي، فأي منقبة بعد هذه المناقب يزعمون في قوميتهم العنصرية الدخيلة التي ورثوها عن الصهيونية ذات الادعاء العرقي المفتعل.

وطالما قاتل الغربيون وعملاؤهم في إقصاء المسلمين عن هويتهم الدينية نُسكيًّا وسلوكيًّا وأخلاقيًّا، ولكن الله تعالى حفظ دينه، وقيد رجالًا يرابطون في الدعوة له والإرشاد، لا يثنيهم ضلال من أضلوا، وقد ثارت مخاوف الغرب من النهضة الإسلامية الحديثة بعد أن توهم أن إسقاط الدولة العثمانية نهاية خطر الإسلام على أوربا، وأن العالم صار لهم دون منازع، وازدادوا خوفًا من ظهور المقاومة الإسلامية للاحتلال، وقد أدرك

هتلر هذا عندما وجد حراس المقاومة من المتدينين، وصرح بهذا لمفتي القدس الشيخ أمين الحسيني، وبلغ الخوف قمته بقيام الحركات التحررية والانقلابات التي غيرت الوضع السياسي في العالم الإسلامي، وقد عد الحلف الأمريكي الإسلام الخطر الأعظم بعد الشيوعية، وصرح الغرب بالاستعداد له في مستهل الستينيات بعد العدوان الثلاثي وصعود الدور الأمريكي، وقد نجحت بعض الدول الإسلامية اقتصاديًّا، مثل ماليزيا التي أعلنت عن مشروعها "الإسلام الحضاري" وتركيا التي استعادت هويتها الإسلامية بعد صراع طويل مع العسكر والدهريين.

والدولة في الإسلام كيان دنيوي، كفله الدين ببعض التشريعات والآداب، فالدولة السلطان النصير للدين الذي مكن له ولشريعته، وحفظ هيبته وردع خصومه، وأخضع له رقاب متمردي قبائل العرب الجاهليين وإمبراطوريات العجم (الفرس والروم والصينيين)، وكانت الضرورة والحاجة والتطور والمصلحة العامة دوافع ظهور الفكر السياسي الإسلامي، ممثلًا في السياسة الشرعية وتطور الدولة وسياستها ومؤسساتها، وقد اتفقت المذاهب على ضرورة وجود الدولة الجامعة التي تحفظ مصالح المسلمين، وأنها من أعمال الدنيا، وعالجت المذاهب موانع قيامها وأزماتها، ومسائلها العارضة، فقد تلافت بعض الطوائف عراقيل قيام دولة الإمامة عندما سنحت فرصة قيامها، وأهمها غيبة الإمام المهدي المنتظر وعدم ظهوره، فقد تبنى المذهب الاثنا عشري نظرية حكم العلماء والفقهاء (نظرية ولاية الفقيه)، التي تبناها الإمام الخميني، وابتعثها من التراث الشيعي حلًّا لغيبة الإمام التي جسدت معضلة فقهية للدولة في عصر غيبة الإمام المهدي المنتظر، وقد أثار الفكر الغربي الدهري في الفكر الإيراني مسائل تتصل بعلاقة الدولة الدينية بالدولة المدنية، ومصدر مشروعية السلطة، وتاريخية المعرفة الدينية والتعددية الدينية، وتحليل الخطاب الديني، ولكن هذه الأفكار الدخيلة ذابت بما استحدثه النظام السياسي الجديد من حلول ناجعة، اعتبرت الواقع المعاصر ومصالح الدولة، فجعل الشئون الدينية العامة مهمة الإمام المرشد، وأسند إدارة الدولة لقيادة مدنية سياسية منتخبة من الشعب، وأقام حياة برلمانية شعبية، فجمعت الدولة بين هويتها الدينية والقومية ومكوناتها السياسية الدنيوية (المؤسسات)، وعدت إيران الحديثة أول دولة إسلامية تمثل النموذج الغربي،

وتتفوق عليه اجتماعيًّا وأخلاقيًّا، ولكن الغرب أبى نجاح هذه التجربة، وتصدى لها، وحشد العرب ضدها؛ تخويفًا من مذهبها الطائفي وأطماعها في دول الجوار، وغايته عرقلة المارد الإيراني؛ لئلا يغامر بقوته العقدية التي تضج مضجع الغرب وقوته العسكرية وثروته النفطية، وبمواجهته دول الخليج مطاولًا في نفوذ الخليجي ومنافسًا له في مصادر ثروته.

وقد رأى بعض الباحثين أن الفقه السياسي السنّي والشيعي قد انتهيا متجاوزين مرجعيتيهما المذهبية إلى الفصل بين النظام الشرعي والسلطة السياسية، وعدوا إمساك الفقهاء عن مقاومة السلطان بالغلبة والقوة من البراجماتية والواقعية المتعقلة، وخلصوا إلى اعتبار السياسة من شأن الغلبة والقوة، وادعوا أنهم حصروا شرعية الحكم في صون البيضة وحراسة الدين، باعتباره مقوم الهوية الجماعية. وهذا ادعاءات تجافي الصواب، فكف العلماء عن دفع الناس إلى التصدي بالقوم لمن استولى على السلطة غصبًا دون مشورة واختيار أو انتخاب درأ للفتن وحقنًا للدماء، ولا شك أن سلطان الأمة سيبتلى بالوهن مما ابتلى به من دماء مهدرة وتخريب وتصدع في تكوينها، وقد استوعبوا دروس تاريخ الثورات المسلحة ومآلاتها السلبية على الأمة، واستوعبوا كذلك تكوين المجتمعات القبلية والعرقية والطوائف وآثار الحروب عليها ومصالحها الذاتية الخفية التي تغلبها على المصلحة العامة، واعتبروا في فتواهم ومواقفهم أيضًا أهداف منافسي السلطة ومصارعيها ومصالح أعدائها الخارجيين وأعداء الدين، كل هذه العناصر اعتبرت في اجتهاد العلماء، فالفقه ليس تنزيل النصوص على الحوادث (النوازل) فقط، فهذا في مقدور عامة الناس، وهذا مآله ما نشتكي منه الآن من تعصب وتخريب وقتل، بل الفقه استنباط مقاصد الشرع واعتبار مواطن العمل بها والمصلحة واستيعاب مآلاتها الناجعة.

وليس بصحيح أن الفقهاء كانوا براجماتيين (نهَّازين) في مسائل الفقه، فالفقه لا يكون فقهًا دون الضوابط الشرعية وأدواته الموصلة للمقاصد الشرعية، وليس بصحيح أيضًا أنهم حصروا شرعية الحكم في صون البيضة وحراسة الدين، فالحكم الشرعي الذي يقوم على أسس شرعية، والحكم القائم على الغلبة بالعصبية أو سطو القوة العسكرية الباطشة، ليسا شرعيين، فقد ثبت شرعًا تقسيم الحكم إلى نوعين: أحدهما الحكم القائم على منهاج

النبوة (الحكم الإسلامي الراشد)، وهو الذي اصطلح عليه بـ "الخلافة الراشدة"، والآخر الحكم الدنيوي غير الراشد[١]، وهو صنفان؛ أولهما (الملك العضوض)[٢]: الخبيث الشرس المتعسف في سياسة الرعية، والآخر (الملك الجبري)[٣]: المتسلط القاهر للرعية الذي لا شورى فيه وحق للشعب، وقد عرف هذا في الحكم الذي يقوم على سطو الغلبة بالقوة العسكرية (الحكم الجبري)، ليسا حكمين شرعيين، بل حكم ملكي قَبلي أو عرقي أو عسكري، أو منتسب إلى مذهب أو نحلة، فمسمياته بمقتضى صحة التعبير عنه، وقد اختلف العلماء في تنزيل نوازل هذه الأحاديث على الواقع السياسي فيمن يوصفون بها ممن مضوا ومن عاصروهم.

---

(١) روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنا جلوسًا في المسجد، فجاء أبو ثعلبة الخشني، فقال: يا بشير بن سعد أتحفظ حديث رسول الله ﷺ في الأمراء؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبته. فجلس أبو ثعلبة. فقال حذيفة: قال رسول الله: "تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًّا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًّا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة"، ثم سكت. قال حبيب: فلما قام عمر بن عبد العزيز، وكان يزيد بن النعمان بن بشير في صحابته، فكتبت إليه بهذا الحديث أذكره إياه. فقلت له: إني أرجو أن يكون أمير المؤمنين - يعني عمر - بعد الملك العاض والجبرية، فأدخل كتابي على عمر بن عبد العزيز فَسُرَّ به وأعجبه. وروى الحديث أيضًا الطيالسي والبيهقي في منهاج النبوة، والطبري، والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وحسنه الأرناؤوط. وللحديث شاهد عن سَفِينَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "الْخِلاَفَةُ فِي أُمَّتِي ثَلاَثُونَ سَنَةً، ثُمّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ". ثُمّ قَالَ سَفِينَةُ: امْسِكْ عَلَيْكَ خِلاَفَةَ أَبِي بَكْرٍ، ثُمّ قَالَ: وَخِلاَفَةَ عُمَرَ وَخِلاَفَةَ عُثْمَانَ، ثُمّ قَالَ لِي: امسِكْ خِلاَفَةَ عَلِيّ قال: فَوَجَدْنَاهَا ثَلاَثِينَ سَنَةً. رواه أحمد، وحسنه الأرناؤوط.

وروى الإمام أحمد عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: "ذهبت النبوة، فكانت الخلافة على منهاج النبوة". وصححه الأرناؤوط.

(٢) قال ابن الأثير في النهاية: "ثم يكون ملك عضوض"، أي: يصيب الرعية فيه عسْفٌ وظُلْم، كأنَّهم يُعَضُّون فيه عَضًّا. والعَضُوضُ: من أبْنية المُبالغة. وفي رواية "ثم يكون مُلك عُضُوض"، وهو جمع عِضٍّ بالكسر، وهو الخَبيثُ الشَّرِسُ. ومن الأول حديث أبي بكر: "وسَتَرَون بَعْدي مُلْكا عَضُوضًا".

(٣) قال ابن الأثير في النهاية: "ثم يكون مُلك وجَبَرُوت" أي: عُتُوّ وقَهْر. يقال: جَبَّار بَيّن الجَبَرُوّة، والجَبريَّة، والجَبَرُوت.

وقد جاهد العلماء الحكام الجائرين بالكلمة، وجهروا بالحق في وجهوهم، محتسبين قول النبي ﷺ: " إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"، وقد أباح العلماء لمن ضمن حفظ الدين والنفس والعرض ووحدة الدولة ومصالحها، ولديه منعة قوية أن يلزم الغالب على السلطان غصبًا بالنزول عنه، وأن يجعل الأمر شورى للناس، يختارون من شاؤوا، ولكن الثائرين على السلطان تذرعوا في ثورتهم بإعادة حكم الشورى والانتخاب، ثم سطوا عليها غلبة مدعين بأنهم أصحاب الحق الشرعي؛ لأنهم عرضوا أنفسهم للهلاك، وعدوا الحكم كاللقطة والكنوز يستأثر بها من حصَّلها، فالعسكريون الذين ادعوا انقلابهم ثورة، جعلوا الحكم حقًّا مكتسبًا؛ لأنهم أسقطوا سابقهم؛ لأنهم حماة الديار وضحايا الدفاع عن الوطن، ونسوا أنها وظيفة الجيش، وزعماء الثورات يطلبونها بها جزاء؛ لأنهم قادوا الثورة؛ فإن حرموا منها، انقلبوا على ثورتهم، وانشقوا، وبعض طالبي السلطة خدعوا العامة بالشرعية، وتذرعوا بحقوق الحكام الشرعيين المخلوعين، ثم أنكروها، واستأثروا بها، ونكلوا بما اتخذوهم طريقًا إليها، وبعض الطائفيين فعلوا مثلهم مدعين حقوق الطوائف، وبعض أدعياء المذاهب الدهرية الذين ادعوا حقوق الأقليات والأعراق والقوميات انقلبوا عليهم، والتهموا الأخضر واليابس، هذا كله رصيد كاف وتاريخ واعظ ودروس يعقلها أهل الأفهام المجتهدون، ويعتبرونها في فتواهم، ومن يتدبر آراء العلماء الشآبيب في الأزمات السياسية يكبرهم، ويجلهم لحسن تصرفهم وحكمتهم وتجلي بصيرتهم التي أدركوا بها أبعاد السياسيين ومآلات الأمور.

وقد أطلق الفقهاء على الحكومات غير الشرعية المتعسفة: حكومة الغلبة والحكم العضوض وحكم الجبرية، ولا يصح نسب الشيء إلى منقطع عنه، وقد جاء في أحاديث الخلافة أنها ستصير بعد الخلافة الراشدة مُلْكًا عضوضًا (وراثيًّا دون شورى وانتخاب)، ثم ملكًا جبريًّا (متعسفًا قاهرًا)، وهو أكثر تعسفًا وبطشًا من الملك العضوض في سياسته، وأن ولاة الملك العضوض من المتسلطين عصبية، وأن ولاة الجبرية من المتسلطين بقوة السلاح (الحكم العسكري)، وهو أسوأ الحكومات؛ لشدة بطشه وقهره وكثرة فساده، وأنه يدير البلاد على الغلبة والقوة لا على الكفاءة والخبرة.

وقد بحث بعض الباحثين علاقة الدين بالدولة في المجتمعات الأوربية المعاصرة،

والصواب أنه لا توجد بينهما علاقة، فقد قام نظام سياسي دهري على أنقاض الأنظمة التي تدعي أنها راعية الكنيسة، وحبس الدين داخل الكنيسة بعيدًا عن المجتمع، وأنهى علاقته به، وأقام نظامًا يقوم على الولاء للوطن فقط (الدولة الوطنية التي تقوم على المواطنة)، وأحل الدولة محل الدين في التقديس الجماعي والتشريع والانتماء والبناء الاجتماعي، فاضطلعت الدولة الوطنية الحديثة ببعض الأدوار التاريخية للدين، فهي المقدس الاجتماعي البديل للدين والنسق العام، وسدت الدولة الفراغ الروحي الشاغر بالمذهبية الدهرية (الأيديولوجيات) التي اضطلعت بدور الدين العقدي والطقوسي، وطعنت في الديانات، وأنسنت نصوصها (سوَّتها بكلام الناس في النظر والنقد)، وجردتها من قداستها، وجعلت تفسيرها نصًّا موازيًا لها، وقد تبنى بعض العرب المتغربون الدهريون هذه الهرطقات؛ مدعين تجديد الفكر الديني.

وقد ابتلي عصرنا بالرُوَيْبضين[1] الذين يخوضون في الدين بغير علم سفهًا، قال الله

(١) الرويبضون: جمع رُوْيبضَة، تصغير الرابضة، وهو للتحقير، (مثل: أُغيلمة تصغير غلام)، ويجمع فُويعلة المصغر جمعًا سالمًا: رويبضون ورويبضات، وفُويعلات: رُويبضات وأُغيلمات وفيوسقات، وهو للذكور، وهو راعي الربيض، والربيض: الغنم، والهاء للمبالغة [ارجع إلى: شرح السنة للبغوي ١٢/١]. وقال الخليل: "الرُّوَيْبضَةُ: الإنسانُ المجهول والجمع رُوَيْبِضون ورُوَيْبِضات.["كتاب العين" (٣٧/٧)]. وقال الإمام ابن الأثير في "النهاية في غريب الحديث والأثر" (٣٤١): الرُّوَيبضة تصغير الرَّابِضة، وهو العاجز الذي رَبَضَ عن مَعَالي الأمُور وقعَد عن طَلَبها وزيادة التَّاء للمبالغَة. والتَّافه: الخَسِيس الحَقِير. وقال ابن منظور: الرويبضة: هو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور وقعد عن طلبها، والغالب أنه قيل للتافه من الناس لِرُبُوضِه في بيته، وقلة انبعاثه في الأمور الجسيمة. والمراد به، من يلي أمر الناس من السفهاء النوكى، فيفسدون أمرهم)، وخلاصة القول إنه السفيه والأنوك (الأحمق) والجاهل المتفيهق. ولفظه مصغرًا أحقر من هؤلاء؛ لأنه يشبه في جهله وحمقه روابض الإبل والغنم في معاطنها ودمنها التي ترقد فيها وتتبرز وتتبول، وهي مرابض خبيثة لا تصح فيها الصلاة، ولا تطيب خضراؤها، وإن حسُنت، فهي منبت سوء، وكذلك هؤلاء مبعثهم السوء وغايتهم الفساد والتضليل. والذين يتصدرون المجالس والمناصب والولايات وأمور الناس دون أثارة من علم، فقد صارت الصدارة لهؤلاء المتفيهقين والمتشدقين الذين يحملون الناس على فتاوى شاذة وغريبة، وينكرون ما يجهلونه ويعادونه، والمرء عدو ما جهل. وقد نهى الله تعالى عن التكلم بغير علم مطلقًا، وأشده حرمه الخوض في علوم الدين، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء].

تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ [الجن] أي: باطلًا وزورًا، ويتكلمون في قضايا الشعب العامة[1]، وقد أنزلوا أنفسهم في وسائل الإعلام منازل العلماء والفقهاء والإداريين المحنكين، يوجهون مؤسسات الدولة، ويفتون في ملمات الحوادث والأزمات، وصاروا ظاهرة جدلية في الإعلام، توحي بتردي الوضع الأخلاقي والسياسي، ناهيك بأثرهم السلبي في استقرار الوطن ومصالحه داخلية وخارجية، ومادتهم السفسطة ودهريات الغرب الإلحادية (الأيديولوجيات) التي ملأ بها فراغ الكنيسة التي أقصاها عن المجتمع، وجردها من سلطتها الروحية، وقد تأثر به بعض الضحال العرب وبعض النهازين والمهمشين والنَّوْكي؛ ليجدوا لأنفسهم تجارة بائرة في سوق عربية ضحلة كاسدة، وبمعاونة سلطة فاسدة، فخاض رؤوس الجهل الرويبضون (السفهاء والنوْكَى) في الدين، وأحسب هؤلاء نوازل حديث رسول الله ﷺ: "إنَّها ستَأتي على الناسِ سُنونٌ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فيها الكاذِبُ، ويُكَذَّبُ فيها الصادِقُ، ويؤتَمَنُ فيها الخائِنُ، ويُخَوَّنُ فيها الأمينُ، ويَنطِقُ فيها الرُّوَيبِضَةُ". قيل: وما الرُّوَيبِضَةُ؟ قال: "السَّفِيهُ يتكَلَّمُ في أمرِ العامَّةِ"[2]. وبعض أجهزة السلطة الأمنية تتخذهم ملهاة شعبية عن سوء الممارسة ووسيلة ترهيبية للشعب في الإعلام؛ لئلا يتمرد على قمعه وإذلاله، فهم جلادو السلطة الكلاميون، وسيوفها المسلطة على المصلحين والأعراض، وديدنهم المصانعة تزلفًا ونفاقًا،

---

(١) تعد ظاهرة الرويبضات (الأصاغر) الذين يتصدون لقضايا الإصلاح والفتوى نذير الهلاك، قال النبي ﷺ: "إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر" [رواه الطبراني في المعجم الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٠٧)]، ومن أشراطها أن يقبض الله العلماء، فيتصدر الرؤساء الجهال مجالسهم، وجاء في الحديث: "... وإِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَة" [أخرجه أحمد ٣١٦/٢، رقم: ٨٧١٤) والبُخاري، ج ٢٣/١، رقم: ٥٩، و١٢٩/٨، رقم: ٦٤٩٦).

(٢) رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مسند أحمد، تحقيق الشيخ شاكر، ٣٧/١٥ (وطبعة الرسالة: ٢٩١/١٣) رقم (٧٩١٢)، ورواه ابن ماجه في «سننه» (١٣٣٩/٢)، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٥١٢/٤)، وذكره ابن حجر في شرح البخاري، كتاب الفتن، وصححه الألباني، في صحيح الجامع، ٤ / ٥٠٨ الرقم: ٣٦٥٠، وجاء في تفسيره ﷺ معنى الرويبضة: "قالَ: الرَّجلُ التَّافِهُ يتَكَلَّمُ في أمرِ العامَّةِ"، وفي رواية: "الفوَيْسِقُ يتَكَلَّمُ في أمرِ العامَّةِ"، و"مَنْ لَّا يُؤْبَهُ لَهُ"، و"الْفُوَيْسِقُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ"، وسفلة الناس والوضيع، وكلها مترادفات. وجاء في الأثر عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لن تقوم الساعة حتى يسود كل قبيلة منافقوها"، ويسود: يترأس أمر الناس [رواه الطبراني ٣١٦/٨].

ومآل سعيهم الضال الذهوق، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان]، أي: عمدنا إلى عملهم الباطل، فأفسدناه، وصيرناه هباءً هينًا لا يؤبه به.

وقد ارتد بعض الحداثيين المُخترَقين إلى تراث الوثنية ومعطيات المذاهب الدهرية، يستدعون الهرطقات القديمة والقوميات الجاهلية، والهرطقة (Heretic) لفظ دخيل في العربية: الخروج عن العقيدة، وتغيير العقيدة التبديل فيها والتشكيك، وقد اكتسبت مفاهيم متعددة من الديانات التي استخدمتها، وهو من الكلمة اليونانية "αιρεσι") إيرِسيس، وأصلها من αιρέομαι: إيريوماي بمعنى: يختار)، ويراد تغيير العقيدة، وقد جاء في مقابله الأرثودكسية (المعتقد الصحيح)، و"أوروثو" تعني "صحيح" و"دوكسا" تعني عقيدة.

ومثله مصطلح "الزندقة"[1]: الانحراف عن أصول الاعتقاد، ومنها تلبيس الإسلام بعقائد أخرى والتشكيك في بعضه وإنكار بعض، وقد نجمت عن الامتزاج بشعوب من نِحَل وديانات شتى، منها المجوسية (عبادة النار) والثانوية (المثنوية: الذي يرى أن الله خالق الخير وأن إبليس خالق الشر) والمزْدكية (الاشتراكية والشيوعية والإباحية) والزرادشتية (قوتا الخير والشر) والمانوية (التي تأثرت بالديانات السماوية والفلسفة القديمة)، وقد تعقَّب بعض خلفاء بني العباس هذا التيارات، وأشهرهم الخليفة المهدي الذي اتخذ ديوانًا خاصًّا لتعقّبها، وقد أثرت هذه المذاهب في المتفلسفة والمتصوفة وشعراء الصوفية، وكان للفلسفة الإغريقية تأثيرها في النصرانية أيضًا، وكان لها تأثيرها في بعض

(١) الزِّنْدِيقُ: القائل ببقاء الدهر، والراجح أنه لفظ فارسي معرب، وهو بالفارسية: "زَنْدِ كِرَايْ": يقول بدوام بقاء الدهر، وقيل غير هذا، والراجح أن الزَّنْدَقة: الدهرية، وهو مذهب إلحادي تأثر به بعض العرب، وهم الذين قالوا في الحياة: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية].

من اشتغلوا بالفلسفة في الدولة العباسية وبعض المتصوفة، ولكنها لم تؤثر في أصول العقيدة، ولم تعتمد مذاهبها في تفسير النصوص الشرعية، وكان للكتب التي حملت أفكار الزندقة أثرها في طائفة من ضعاف النفوس، ويوجد دائمًا في فترات الانفتاح العقلي من يولع بتقليد أرباب الأفكار الشاذة الدخيلة، ويتعصب لها أكثر من أربابها. ومفهوم الزندقة قريب من مفهوم العلمانية التي أقصت الإسلام عن معتنقيه.

والفرق بين الزندقة والنفاق، أن الزنديق يجاهر بعقيدته المنحرفة، والمنافق يتأسلم ظاهرًا، ويضمر كفره، وهو أخطر من الزنديق المجاهر، والملحد من لا دين له، والمرتد من كفر بعد إيمانه، والكافر: منكر وجود الله تعالى، والمشرك: من اتخذ مع الله تعالى شريكًا في الاعتقاد والعبادة، ومن تنسك لغير الله تعالى.

وأشهر من اتهم بالزندقة عبد الله بن المقفع رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي قتل (١٤٢هـ) عن أربعين سنة تقريبًا؛ لأسباب سياسية في صدر الدولة العباسية، وهو في سن صغيرة، وكان صاحب أدب سامق وكرم وحكمة بالغة وأسلوب سلس بديع وثقافة واسعة، وأدلة اتهامة تأويل بعض ما جاء في كتبه على استبطانه الكفر أو المجوسية، وليس في كتبه نص صريح في كفره، وليس لهذه التهمة أثر فيما وصلنا من كتبه غير ما روي من قول المهدي أحد خلفاء الدولة العباسية فيه: "ما وجدت كتاب زندقة قطّ إلا وأصله ابن المقفع"، ولا ندري أين هذه الكتب ولا ما فيها، ونسب إليه الإخباريون مرويات لا أصل لها، منها أنه عندما دعي إلى الإسلام بات يتعبد على المجوسية، فسئل عن هذا، فقال: خشيت أن أبيت على غير دين؟ وهي رواية مدسوسة عليه، وأرى أنها تهمة سياسية لتبرير قتله، وحسد ممن استكثروا عليه ملكاته وعبقريته ومواهبه الفريدة، وقد كتب ابن المقفع معظم كتبه في معالجة قضايا السياسة القائمة في الدولة العباسية الجديدة الناهضة (١٣٢هـ)، وفيها نقد رجال الدولة ودعوة صريحة لاختيار الكفاءات وإصلاح مؤسسات الدولة، وفيها بعض الإرشادات السياسية والنصائح والحكم، وقد كان حليف عبد الله بن علي العباسي عم المنصور وغريمه الذي طلب الخلافة لنفسه بعد موت إبراهيم بن محمد بن علي العباسي (أبي العباس السفاح شقيق المنصور) وكان ابن المقفع كاتب عم المنصور ومستشاره الأريب الذي أخذ له عهد أمان لم يمكن المنصور من التخلص من عمه، وقد غاظه ما فيه من شروط تطليق أزواجه وخروجه من الملة وخلع بيعة الناس من عنقه إن مكر بعمه،

فأظهر غضبه عليه، فقيل إن الأمير سفيان بن معاوية بن المهلب بن أبي الصفرة تقرب إلى المنصور بقتل ابن المقفع، وكان حاسدًا ابن المقفع ومبغضًا له؛ لمَا ذكر أن ابن المقفع أقذع الطعن فيه وفي أمه قديمًا، فمثَّل به حيًّا حتى مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد قرأت كتبه، فوجدتها قد ملئت عقلًا وحكمة وعلمًا، وتشهد له أنه كان أحد عباقرة المفكرين من أصحاب الرؤية السياسية الثاقبة والحكمة النافعة والأسلوب السلس (لم يتصنع فيه بل أرسله سهلًا بليغًا محكمًا متجافيًا عن تكلف كُتاب عصره)، وأنه رائد الفكر السياسي ورائد علم الترجمة بمفهومه العلمي، ورسائله السياسية - مثل "الأدب الكبير" - تؤكد أنه استوعب مبادئ الإسلام السياسية في السياسة والمشورة والإدارة واختيار الرجال، وكتابه كليلة ودمنة الذي توهمه الضحال من أدب الأطفال، من كتب السياسة التي استخدمت الرمزية والكناية في النقد السياسي والنصيحة، وأرى أنه موجه إلى مؤسس الدولة العباسية المنصور، وقد كان مسرفًا في التخلص من خصوم الدولة ومن كل رافضي التعاون معه، وأرى أنه من الأدب العالمي المتقدم في الرمزية، وقد كان صاحب ثقافة واسعة ومترجمًا، ومعظم كتبه مترجمة، بيد أنه تصرف فيها، وعرب ما ترجمه، ويشار إليه وإلى صديقه عبد الحميد الكاتب في تجديد الأسلوب العربي[1]، وقد شهد له الإمام الذهبي في ترجمته أنه صاحب فضل وذكاء وحكمة وأدب، وأنه قتل بسبب خصومته القديمة مع سفيان المهلبي الذي صار أميرًا، فقتله مُثْلة حيًّا (تمثيلًا) بما قاله فيه انتقامًا.

وأنصح الباحثين بمراجعة الطعون في أعلامنا المتقدمين، وتحري الصدق مما ثبت لهم، وما قاله العدول فيهم، وأدعوهم لأن يعولوا على تراث هؤلاء الأعلام، وأن يراجعوا مرويات الأخبار والتراجم التي اعتمدت على الإخباريين. وقد اتهم بالزندقة الشاعر

---

(١) كان عبد الله بن المقفع فاضلًا ونبيلًا وكريمًا ووفيًا، وقد تجلت صفاته في رقي كتاباته وعمق أفكاره، وأنه لم يصانع السلطة أو يمالئ، ولم يتقلب بتقلبها، ومما دل على صدقه ووفائه، أنه لما قُتل مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، اختفى عبد الحميد الكاتب، فعُثِرَ عليه عند صديقه ابن المقفّع، وعندما سئِل الرجلان: أيُّكما عبد الحميد؟ قال كل واحد منهما: "أنا" خوفًا على صاحبه. وقد شهد له الإمام الذهبي المنصف بمناقبه، وأخذ عليه ما روي أنه أقذع في هجو ابن المهلب، فقتله انتقامًا بعد أن ولي الإمارة. وقال محمد بن سلام الجمحي: "سمعت مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع".

صالح بن عبد القدوس الشاعر وبشّار بن بُرد وأبي نواس (الحسن بن هانئ)، وقد كان بعض الشعراء ينظمون شعر المجون تكسبًا وتلبية مجالس الترف، ولبشار شعر عربي جيد، فيه حكمة تؤكد أنها لا تخرج من ماجن سكير، وكذلك أبو نواس الذي تنسك في شيخوخته، وله شعر جيد، وقد استشهد العلماء بأشعارهم وبحكمتهم وخلاصة تجاربهم التي تعبر عن قلب عقول وشاعر موهوب، وقد اتهم الشاعر أبو الطيب (المتنبي) بأنه ادعى النبوة، وأنه كان متشيعًا، ولا يعرف الضحال عنه إلا هذه التهمة التي لا أصل لها في شعره، الذي جعله شاعر العربية الأول، وأحد حكمائها ومفكريها، فأبياته حكمًا سيارة يتمثل بها الناس، ومقاتل من قتل منهم لأسباب سياسية ومشاحنات، وقدر الرجل العلمي ورسوخه بين أعلام عصره وشاعريته العالية تصرفنا عن طعن منتقصيه من حساده، ولا يكفي الخبر المروي في هدم هذا الصروح العظيمة، وقد أفضوا إلى حسابهم، وبقيت لنا آثارهم التي تعلمنا منها أدبًا ولغة وحكمًا، وهي لا شك أسمى وأعمق وأقوى من أدب عصرنا، وليس للناقد الأدبي أن يقيم الأدب في ضوء الأخبار المرسلة والخلفية الشعبية وميوله الشخصية.

***

ثانيًا: أبناء الأُمَّة[١]:

الأمة: المكون البشري في الدولة، فالمواطنون العنصر الأول فيها، فهم الذين أقاموها، وأسسوا مؤسستها، وبنوا حضارتها، وحموا أرضها.

والمكون البشري في الدولة أنواع:

أولها: المكون القومي العرقي المنتسب إلى جنس من البشر، فتكون له الغلبة والسواد على الأجناس الأخرى المحدودة في الدولة، والجنس هنا نسبي؛ لاستحالة وجود جنس صاف أو نقي قح، وأقرب الأجناس البشرية التي شكلت دولة إلى أصلها القح الجنس العربي في بعض الدول العربية، التي تألفت من قبائل عربية خالصة في جزيرة العرب، فنسبة المهاجرين فيها قليلة. وهذا النوع ينزع إلى عرقه وتقاليده على الدين والمهاجرين غالبًا، ولسانه الواحد مكونه الثاني، ثم دينه. وقد تغالي سلطة الدولة القومية في تفضيل عرقها، فتصبح الدولة "الدولة العنصرية" تديرها "الحكومة العنصرية"، التي تضطهد الأقليات والطوائف أو الإثنيات، ومن الدول العنصرية "إسرائيل"، التي جمعت بين العنصرية والطائفية في تسميتها "الدولة العبرية" و"الدولة اليهودية"، وتقصي من ليس

---

(١) تناولت مفاهيم الأمة في كتابي: "الأمة الإسلامية العظمى" الصادر ٢٠٠١م، وقد نقلت بعض ما جاء فيه هنا، والأُمة (بالضم): الجماعة، قال الأخفش: هو (الأمة) في اللفظ واحد، في المعنى جمع، أي اسم جمع مثل: جيش، وقبيلة، وشعب. جاءت كلمة الأمة في القرآن الكريم نحو (٦٤) مرة، جاء منها (٥١) في حالة الإفراد، ونحو (١٣) في حالة الجمع (أمم). [ارجع إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي دار الحديث ط١٤١١هـ = ١٩٩١م، ص١٠٢، ١٠٣]. وجاء في رسالة الماجستير التي أعدها زميلنا الفاضل الدكتور محمد عودة أن لفظ الأمة جاء في القرآن نحو (٤٩) مرة، ويبدو أنه نقل ذلك عن دائرة المعارف الإسلامية التي أعدها مجموعة من المستشرقين، وترجمت إلى العربية، فقد ألمح إلى بعض ما ورد فيها من رأي، ومنه أن لفظ الأمة دخيل على العربية، ورد على هذا الزعم بالنفي، [ارجع إلى: مفهوم الأمة في القرآن وتطوره حتى العصر الحديث، محمد عودة سلامة، كلية الآداب ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م، جامعة عين شمس، القاهرة ص ب من المقدمة]، وتعد هذه الرسالة من أفضل ما كتب في مفهوم الأمة. [ارجع إلى لفظ الأمة في: لسان العرب، ط بولاق: أمم ١٤/٢٩٣، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، ج ١/٦٨].

ولم أستخدم المصطلح الغربي (Nation) الذي ترجموه إلى الأمة؛ لأنه بالمفهوم الغربي الأمة القومية أو العرقية أو الشعب بالمفهوم الحديث، وهو أضيق من مفهوم الأمة الإسلامية.

عبريًّا ويهوديًّا، بل فيها تمييز اجتماعي بين أصول مجلوبيها (المهاجرين اليهود) وحكومة جنوب أفريقيا السابقة التي تألفت من المهاجرين الأوربيين دون السكان الأفارقة الأصليين المحتقرين فيها.

والثاني: المكون الوطني الشعبي المتعدد: جامع الأعراق والطوائف والمهاجرين، وهذا النوع يقوم على المواطنة (الانتماء الوطني والولاء للأرض) والاصطلاح على لغة عامة رسمية، ويجيز لغة الأعراق الأخرى محليًّا، وهذا النوع من الدول يصطلح على لُحمة الوطن ووشيجة المواطنة، والمواطنة لا تعني إقصاء دين طائفة من الدولة، فالأصل أن يكون دين الأغلبية الدين الرسمي، إضافة إلى حرية الملل الأخرى في الاعتقاد والتعبد.

والثالث: المكون الديني، وتقوم عليه "أمة العقيدة"، مثل العقيدة الإسلامية التي قامت عليها الدولة الإسلامية العظمى التي يحكمها حاكم بشري اختارته الأمة وبايعته عامة، أو اختاره نواب الأمة أو أهل الحل والعقد منهم، وبايعوه على القيام بمصالح الدين والدنيا وحفظ بيضة الأمة (أرضها وأمنها) وحفظ النفس والعرض والأرض والمال، وتتميز هذه الأمة بالاحتكام إلى الشريعة الإسلامية والتأدب بالأخلاق الإسلامية في المعاملات العامة والخاصة، وهي تختلف عن الدولة الدينية الغربية (Religious State) التي حكمتها السلطة الدينية (Hierocratic) صاحبة السلطة الإلهية المطلقة، وقد عرفت بالحكومة الثيوكراتية (Theocracy)، وتختلف عن دولة الأمة (Nation - state) أو الأمة القومية (National nation)[1]: بالمفهوم القومي التي تتبنى الوحدة العرقية، ومنها مشروع "الدولة العربية الكبرى" الذي تبناه القوميون العرب في إسقاط الدولة العثمانية، وخدعهم به الغرب، ثم انقلب عليهم، وتصدى للوحدة العربية التي تزعمها الحسين بن علي، أمير الحجاز الذي تآمر مع الإنجليز ضد العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، وكان جزاؤه سقوط إمارته في الحجاز، ولم ينهضوا لإنقاذ عرشه بعد أن أنهى مهمته في مشروع إسقاط الخلافة وتقسيم الوطن العربي.

---

(١) National nation :a coomunity of people of mainly common descent, history, and language; a tribe or confederation of tribes.

أنواع الأمم:

هنالك أنواع من الأمم في الخطاب العربي المعاصر: الأمة الإسلامية والأمة القومية العربية والأمة الوطنية (المكون الشعبي الجماهيري) والأمة القبلية.

النوع الأول: الأمة الإسلامية[١]:

لقد عرفت الأمة قبل الإسلام في نطاق ضيِّق، يختلف عن مفهومه الحديث، فالأمة عند المجتمعات الحضرية كانت تعني المدينة وما جاورها من ممتلكات تخص أهل تلك المدينة، وقد عرف هذا النظام السياسي عند اليونان قديمًا، حيث عدت المدينة هي الدولة (State)، وهذه المدينة تمثل المجتمع الذي ينتمي إليها، فالانتماء كان موجهًا نحو المدينة.

والأمة الإسلامية: "الأمة العظمى جامعة أبناء عقيدة الإسلام، ومن دخل في ذمتهم تحت إمرة إمامة واحدة في دولة واحدة"، واصطلح العلماء عليها بالإمامة العظمى، وسموا قائدها: الخليفة وأمير المؤمنين وإمام المسلمين وسلطان المسلمين[٢]، والأصل أن تجمع دولة الإمامة العظمى أبناء أمة الإسلام، وأن يكون لهم إمام واحد (الخليفة) على نحو ما كان عليه المسلمون تحت قيادة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من بعده، فقد أجمع الصحابة على أن خلافة النبوة واحدة، وأنه لا يجوز وجود إمامين في دولة واحدة، وأجاز بعض الفقهاء أن تتعدد الإمارات والحكام؛ رضوخًا للواقع السياسي الذي فرض نفسه في الأزمنة المتأخرة، ولا سبيل إلى تغييره، بجمعهم تحت لواء واحد وقيادة واحدة، فالضرورة فرضت نفسها، فأقروا لكل إقليم حاكمًا تجب طاعته في المعروف؛ درأ لفساد أعظم، وحرموا القتال بينهم أو الاستنصار بالعدو عليهم، أو تحريضه على قتالهم، وإن بغوا.

---

(١) الأمة القومية: جماعة من الناس من أصل واحد، ولهم تاريخ واحد ولغة واحدة أو من قبيلة واحدة أو اتحاد قبائلي.

تناولت مفاهيم الأمة اصطلاحًا ومفهومها الإسلامي الجامع في كتابي: الأمة الإسلامية، رؤية جديدة معاصرة، الدكتور محمد عكاشة، دار النهضة المصرية، ٢٠٠٢م.

(٢) ارجع إلى: الأمة الإسلامية العظمى، رؤية جديدة معاصرة، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة النهضة المصرية، ص ١٠ وما بعدها.

وقد قامت الأمة الجامعة في الجزيرة العربية في الإسلام، فلا نجد في التاريخ العربي – على الإطلاق – قبل الجاهلية ما يثبت أن هناك وحدة عربية سبقت الإسلام قامت على أساس عنصري، اللّهم إلا شذرات تشير من بعيد إلى بعض التكوينات السياسية في شكل ممالك؛ كمملكة كندة في شمال شرق الجزيرة، ولم تدم طويلًا، ولكن تلك الدولة أو المملكة الصغيرة ما لبث أن تلاشت أمام الانتماء القبلي، فقد قتلت قبيلة أسد حجرًا الكندي بسبب تعسفه معهم، ورفضهم ما فرضه عليهم من جبايات وأموال التي عدوها ذلًّا وعارًا. وفشل ابنه امرؤ القيس في إعادة سلطان أبيه الضائع والانتقام من قبيلة أسد[1]، وكانت حياة الجاهلية تقوم على المظالم، فأبطلها الإسلام، ودعا إلى روح الإخاء والبر والتعاون بين أبناء العقيدة، وقد أنشبت خلائق الجاهلية المذمومة عداوات صارخة بين قبائل العرب وحروب سادت عصر الجاهلية الذي لا يكاد يخلو من حرب، وهو ما عرف بأيام العرب.

والأمة بالمفهوم العام: الجماعة من البشر مجتمعة على شيء يجمعها، وأصل معناها الرأس المُجمَع عليها، وجاء في الصحيفة التي كتبها النبي ﷺ بين أهل المدينة بعد الهجرة في توحيد عشائر المدينة في كيان الأمة الإسلامية: "إن يهود بني عَوف أمة من المؤمنين"، يريد أنهم بالصلح الذي وقع بينهم وبين المؤمنين كجماعة منهم، كلمتهم واحدة وأيديهم واحدة"[2]، والأمة هنا الجماعة على الإطلاق، وقال الراغب الأصفهاني: "والأمة: كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء

---

(١) ارجع في ذلك إلى الكتب التي تناولت تاريخ العرب في الجاهلية، مثل: أيام العرب لابن قتيبة، وتاريخ الأمم والملوك للطبري الجزء الأول والثاني، والبداية والنهاية لابن كثير الجزء الثاني، ومروج الذهب للمسعودي الجزء الأول وأشعار الجاهلية.

الأمة القومية: جماعة من الناس من أصل واحد، ولهم تاريخ واحد ولغة واحدة أو من قبيلة واحدة أو اتحاد قبائلي.

(٢) تفسير ابن كثير المكتبة التوفيقية، ج ٣/ ٣٨٤. وارجع إلى نص الصحيفة كاملًا في سيرة ابن هشام، ج ١١٩/٢.

أكان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا"[١]، وقال التهانوي: "الأمة بالضم تطلق على الجماعة، من أي جنس، ولهذا قالوا: الأمة جمع لهم جامع من دين أو زمان، أو مكان، أو غير ذلك، وتطلق تارة على كل من بعث إليهم نبي، ويسمون أمة الدعوة، وأخرى على المؤمنين به، وهم أمة الإجابة"[٢]، وقد استنبط التهانوي هذا مما جاء في القرآن الكريم في شأن من بعث فيهم الأنبياء (أمة الدعوة)، ومما جاء في شأن الأمة الإسلامية (أمة الإجابة)، وهم العصبة المؤمنة المعتدلة، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣][٣]، وهي هنا تعني المفهوم الشامل بمعنى الجماعة المؤمنة ذات العقيدة، ووصفها الله تعالى بالوسطية أي: خصها الله تعالى بالاعتدال في كل أمرها والتيسير والاحتكام إلى الحق والإنصاف، فالأمة الإسلامية قياسًا إلى الملل السابقة أفضلها وخيارها وأعدلها، قال ابن كثير: "ولما جعل الله تعالى هذه الأمة وسطًا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب"[٤]، وهي أمة عقيدة التوحيد، قال تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء]، أي: دينكم دين واحد[٥]، وقال الحكيم الترمذي: "الأمة هي الجماعة التي يؤمها الناس، ويقصدونها".[٦] وقال: "وسميت [أي الأمة] ملَّة لاجتماع

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، ط مكتبة الأنجلو المصرية، ص٢٧.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي الفاروقي التهانوى، تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٢، ١٩٦٣، ج ١/ ١٣١.

(٣) مصطلح الأمة الوسط والوسطية والاعتدال تستخدم في الخطاب المعاصر بمفاهيم موجهة نحو أهداف معاصرة منها صدع النهضة الدينية بصورة مفتعلة تدعي الاعتدال والتنوير، وممالقة الغرب والأنظمة السياسية، والحقيقة أن الأمة الإسلامية الوسطية قياسًا إلى الملل السابقة أفضلها وخيارها وأعدلها، ولا يراد به الأمة الخانعة والمتحررة.

(٤) ابن كثير، ج ١/ ١٩٠.

(٥) ابن كثير ٣/ ١٩٥، والمفردات، ص٢٧.

(٦) تحصيل نظائر القرآن للحكيم الترمذي تحقيق نصر زيدان، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٨٢.

الناس عليها، فهي جامعة لهم"، وقال: "إنما صارت الأمة أهل كل دين؛ لأنه جَمْعُ الجماعة[١]، أي تجتمع عليه، ومن ثم أطلق على أهل الدين الإسلامي "الأمة الإسلامية"، وهم العصبة التي تجتمع على الإيمان؛ تحقيقًا لدعوة إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة:١٢٨]. وهم العصبة الصابرة على الإيمان فيما روي عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة"[٢]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن من أمتي قومًا على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل".

والأمة الأصل قبل التعدد، قال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [البقرة:٢١٣]، أي: صفًّا واحدًا وعلى طريقة واحدة. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [هود:١١٨]، أي: في الإيمان بعد التعدد، ولم يشأ أن يكرههم جميعهم على ملة واحدة، وهو يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه يوم القيامة. وقد جاءت أمة الإسلام على الفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها.

والأمة في الفكر اليهودي أمة عنصرية تقوم على جنس العبريين أو شعب إسرائيل بمفهوم العهد القديم، ولكنهم اختاروا لفظ الشعب، وجعلوا الأمة لغير العبريين، وجاء لفظ الأمة مترجمًا إلى الأمة أو الشعب في العهد القديم[٣] جاء في خطاب الرب عن إبراهيم عليه السلام: "... وأجعله أمة كبيرة"[٤]. و"لأنني سأجعله أمة عظيمة..."[٥]. و"نَصيرُ شعبًا

(١) تحصيل نظائر القرآن للحكيم الترمذي، ص٨٢، ٨٣.

(٢) ابن كثير، ج ٢/٢٧١، والطبري، ج ٩/٨٦.

(٣) ارجع إلى مفهوم الأمة في القرآن الكريم لمحمد عودة، رسالة بكلية الآداب، جامعة عين شمس، ص٢١، ٢٢. والأمة الإسلامية العظمى، محمود عكاشة، ص١٥

(٤) سفر التكوين، ج ١٥/٢٠.

(٥) سفر التكوين، ج ٢١/١٨.

واحدًا"،[١] متحدين، وقال الرب: "وأتخذكم لي شعبًا".[٢] وجاء عن إسماعيل ﷺ: "... وابن الجارية أيضًا سأجعله أمُّة"[٣]، وسموا أنفسهم "شعب الله"، واليهود على خلاف في شأن قيام الدولة العبرية اليهودية، والثابت أن دولتهم المعاصرة افتعال غربي؛ للتخلص من اليهود الغربيين، فطالما تورطوا في خيانة الوطن والعمالة والفتن الداخلية، وناهيك بأنهم كانوا منبوذين اجتماعيًّا؛ لسوء عشرتهم، فقذفوا بهم في أرض العرب على طريقتهم في التخلص من نفاياتهم الخبيثة خارج أوطانهم، وقد جعلهم الغرب قاعدة قليلة التكلفة في المنطقة العربية، ينطلقون منها لتأديب العرب وردعهم وإضعافهم، وليست هنالك أمة نصرانية؛ لأن الفكر المسيحي تأول قولًا منسوبًا للمسيح ﷺ أن مملكته ليست في هذا العالم، ولكن الدولة الرومانية بعد أن اعترفت بالمسيحية، اتخذت الدين دعامة في تقوية سلطان قياصرتها الذين رفعوا شعار رعاة الكنيسة وحراس المسيحية، ثم ازداد نفوذ باباوات الكنيسة، ففرضوا سلطانهم الديني على الحكام المدنيين والرعية، وانقلب الرأي، فقد صار راعي الكنيسة نائب المسيح ﷺ في الرعية.

النوع الثاني: الأمة القومية العربية:

القومية (Nationalism): مفهوم مصطلح "القومية" غربي يرى أن الانتماء في الوطن للعرق أو الجنس[٤]، ومصطلح القومية مصدر صناعي من قوم؛ للدلالة على معنى الحدث المجرد منه، والقوم لغة من القيام من المكان، خلاف القعود، والمراد ما يقوم بالرجل من حسب ومنعة وما يتعزز به في المكان، فالقوم لفظ له أبعاد مكانية وبشرية

(١) سفر التكوين، ١٦/٣٤، ٢٢.

(٢) سفر الخروج، ١١/٦.

(٣) سفر التكوين، ١٣/٢١.

(٤) يختص علم الإثنوجرافيا (علم الأجناس البشريّة وخصائصها وأخلاقها وتفرّقها) بوصف الشُّعوب، وهو أحد علوم الإنسان، وينصبّ على دراسة المظاهر المادّيّة للنشاط الإنسانيّ من عادات وتقاليد؛ كالمأكل والمشرب والملبس. ويعرف التعدد العرقي بالإثنية. وقد عبر العرب عن الجنس بقولهم: الجنس والعرق والجيل والبُنْك والأصل والفرع.

وزمانية، وقد أطلق لفظ القوم على الرجال مجتمعين على أمر مكان دون النساء، ثم عم في النوعين، فهن تبع الرجال، وقوم الرجل: ذووه وأقاربه.

والقومية اصطلاحًا: الجوامع المكانية والبشرية والزمانية التي تجمع أبناء الوطن (أواصر الوحدة)، وتختلف مكوناتها باختلاف المجتمعات وتكوينها، والمشهور فيها الأصل عند الأمم غير المسلمة، وهي عند المسلمين الانتماء إلى أواصر الدين والعروبة (التعرب لسانًا) والمصالح العامة، والجامعة العربية هنا اللسان، فمن يتكلم العربية عربي، ولا مانع من الانتماء إلى الأرومة العربية عن غير نخوة الجاهلية.

وجاء في المعاجم الحديثة تعريف الأمة بالمفهوم القومي: الأمة: الجماعة من الناس أكثرهم من أصل واحد، وتجمعهم صفات مشتركة ومصالح واحدة، وهو مفهوم متأخر متأثر بالمفاهيم القومية الغربية [١]، وقد أطلق على الأمة: جماعة من الناس تعيش في بقعة من الأرض (أو إقليم) حياة مستقرة، وتجمع بينها اعتبارات خاصة كالرغبة المشتركة في العيش معًا في نطاق نظام اجتماعي أو سياسي معين، باعتبار هذه الرغبات والآمال المشتركة روابط روحية، ترسي قواعد وحدة هذه الأمة[٢].

والأمة في الفكر السياسي الحديث مكونة من الجنس الذي عُد أساسًا في تكوينها مثل الأمة العربية، ومن اللسان القومي، وعدت وشيجة العقيدة عنصرًا إضافيًّا عند بعض

---

(١) ارجع إلى: معنى الأمة في المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط٣، ج ٢٨/١.

(٢) لقد ذكر القوميون أمثلة للأمم القومية التي تقوم على الأصل نحو: الأمة المصرية والأمة العراقية، وهو قول فاسد، فهاتان الدولتان تقومان على المواطنة، فليس شعبا الدولتين من أصول عربية خالصة، والعراق دولة تعددية.

وقد أسرف بعض القوميين في التماس مفهوم الأمة القومي الغربي من القرآن الكريم والحديث، وقد وجه بعضهم وصف النبي ﷺ بالأميّ في قوله تعالى: (وهذا النبي الأمي) إلى معنى الأُممي، نسبة إلى الأمة؛ لنفى الأميّة عن النبي ﷺ، وعن العرب، والأميّ: الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وعليه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢]، وهو المراد بالمعنى؛ لأن الثابت أن النبي ﷺ لم يقرأ ولم يكتب، وشاهد ذلك من كتاب الله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى] بمعنى سنقرأ عليك، فاحفظ وعِ ما يُقرأ عليك.

السياسيين العرب، ولكن الدهريين استبعدوا الدين، وأبدلوا المذاهب الدهرية به، واعتمدوا الثقافة والتراث الأدبي دون الديني، وليس للأمة مكونات مصطلح عليها، فالموسوعة السياسية تعرف الأمة (Nation) بأنها: "مجموعة بشرية تكون تآلفها وتجانسها القوي عبر مراحل تاريخية، تحققت خلالها لغة مشتركة وتاريخ وتراث ثقافي ومعنوي وتكوين نفسي مشترك، والعيش على أرض واحدة ومصالح اقتصادية مشتركة؛ مما يؤدي إلى إحساس بشخصية قومية، وتطلعات ومصالح قومية، وموحدة ومستقلة"[١].

الأمة العربية (Arab Nation):

العَرَبُ والعُرْبُ: جِيْلٌ من البشر أو الناس معروف خِلافُ العَجَم وهما واحدٌ مثل العُجْمِ والعَجَم[٢]، والنسبة إلى العرب: العَرَبِيّ، وهم أهل الأمصار، والأَعْرَابُ منهم: سكان البادية خاصة، والنسبة إليهم أعْرَابيّ، وليس الأَعْرَابُ جمعًا لعرب كما يتوهم بعض القائلين أو كما يدعي بعض الطاعنين، بل العرب اسم جنس، والأعراب فرع منهم سكنوا البادية دون الحواضر، والعروبة: أثلة العرب وأصالة المحتِد العربي، والمتعرب والمستعرب بمعنى: تكلم اللسان العربي، ودخل في العرب.

وقد نسب العهد القديم الجنس العربي إلى يعرب بن قحطان الذي اختار اللسان العربي في اجتماع آباء الأجناس في بابل التي تبلبلت فيها الألسنة (اختلفت) بعد طوفان نوح عليه السلام[٣]، وهي أسطورة مصنوعة لا أصل لها سوى الإسرائيليات ومرويات منسوبة

---

(١) موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط٣/ ١٩٩٠، ج ١/ ٣٠٥.

(٢) العرب: جيل من الناس، والنسبة إليهم عَرَبِيّ بيِّن العروبة، وهم أهل الأمصار. والأعراب منهم: سُكّانُ البادية خاصَّة. وجاء في الشعر الفصيح: الأعاريب. والنسبة إلى الأعراب أعرابيٌّ، لأنه لا واحد له. وليس الأعراب جمعًا لعرب، كما كانَ الأنباط جمعًا لنَبَطٍ، وإنما العرب اسم جنسٍ. والعرب العاربة هم الخُلَّصُ منهم، وقد أطلق لفظ العرب على سكان المدن أو الحضر، وقد أشار إلى هذا المعنى بعض النقوش الآشورية القديمة والنقوش السبأية باليمن.

(٣) رسم العهد القديم صورة سيئة لأبناء إسماعيل عليه السلام: أولاد إسماعيل الوحشي أو الهمجي، وقد ورد في [تكوين ١٦، الآية ١٢]: "ويكونُ إنسانًا وحشيًّا يُعادي الجميعَ والجميعُ يعادونَهُ، ويعيشُ مستوحشًا متحدّيًا كلَّ إخوتِهِ"، وقيل الترجمة الدقيقة للآية هي "يكون إنسانًا قويًّا"، أو "ويكونُ رجلًا كحمارِ الوحشِ، يدُهُ =

إلى بعض أعلام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا أصل لها، وليس فيها وحي ثابت، فالمعلوم يقينًا أن الألسنة اختلفت بعد مرحلة ظهور اللهجات شذوذًا عن اللغة الأم، ثم تتميز ببعض النطق وببعض المفردات التي استحدثتها في حركة اتساعها واستقلالها(١)، والجيل العربي الأول مجهول، وقد تعرف العلماء على وجود العنصر العربي من بعض الألفاظ والتسميات والأحداث التاريخية العتيقة، وإلحاق العرب بالساميين، ليس عليه دليل سوى رواية العهد القديم التي لم تذكر مصادرها من لدن آدم حتى عصر التدوين، والمعلوم أن العهد القديم كتب بعضه متأخرًا بعد الأسر البابلية بألسنة الأمم التي تحدث بها اليهود(٢)، والثابت تاريخيًّا أن العرب ظهروا تاريخيًّا أزمنة الآشوريين، ونسب إليهم الكنعانيون

=

مرفوعةٌ على كلِّ إنسانٍ، ويدُ كلِّ إنسانٍ مرفوعةٌ عليهِ، ويعيشُ في مواجهةِ جميعِ إخوتِهِ"؛ ولكن اليهود توسعوا في هذا القول، ووصفوا العرب أبناء إسماعيل بالوحشية، وقد رسم العهد القديم هذه الصورة للأمم التي حاربت اليهود وأذلتهم.

(١) جاء في [سفر التكوين: ١١] (١): "وَكَانَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا لِسَانًا وَاحِدًا وَلُغَةً وَاحِدَةً" (٦). "وَقَالَ الرَّبُّ: «هُوَذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لِجَمِيعِهِمْ، وَهذَا ابْتِدَاؤُهُمْ بِالْعَمَلِ. وَالآنَ لاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ (٧). "هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ» ٨. فَبَدَّدَهُمُ الرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، فَكَفُّوا عَنْ بُنْيَانِ الْمَدِينَةِ" (٩). "لِذلِكَ دُعِيَ اسْمُهَا «بَابِلَ» لأَنَّ الرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ الأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ الرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ"، وهذه الرواية مفتعلة ولا تدل على اختلاف الألسنة علميًّا. وجاء في بعض الروايات أن أول من تكلم العربية يعرب بن قحطان، وإليه نسبت العرب العاربة، وقيل أول من تكلم العربية، ونسي لسان أبيه إسماعيل عليه السلام، والرواية الأولى من صنع الوهم، فيعرب مسمى منقول عن الفعل، مثل: يزيد ويشكر، وقد نشأ إسماعيل عليه السلام بين الجرهميين العرب الأقحاح الذين نزلوا الوادي بعد أن ظهر فيه الماء، فأقاموا، فتعلم منهم العربية، فقد تركه أبوه عليه السلام بأمر من ربه، وكان يزوره هو وأمه.

(٢) اختلف العلماء في زمن تدوين العهد القديم، والمشهور أنه قد دون بعد عودة سبي يهوذا من بابل، وعلى مدى قرنين أو ثلاثة قرون، وذلك من أوسط القرن الخامس قبل الميلاد إلى أوسط القرن الثاني قبل الميلاد. وقيل إن التاريخ الذي كتب فيه التوراة لشعب إسرائيل القديم انتهى مع تدوين سفر نحميا، و آخر حدث في هذا السفر، هو سفر كاتبه نحميا إلى البلاط الفارسي عام ٤٣٣ ق.م، وقد رويت أسفاره السابقة شفاهة حتى دونت متأخرة، حسبما ذكر علماء التوارة، وأن رواتها كانوا يقصّونها عبر تاريخها الذي يبدأ من لدن آدم، وقد أنكر بعض العلماء مروياتها التاريخية السحيقة، ويتبين من بعض المرويات الفاسدة علميًّا أنها من وضع الخيال الشعبي.

واليبوسيون والأنباط وغيرهم من الجماعات التي نزحت من جنوب الجزيرة إلى العراق والشام.

والعرب على المشهور من كلام علماء الأنساب - باعتبار الأصل - صنفان[١]؛ أحدهما: العرب العاربة الخُلَّص الأقحاح، وأصلهم جنوب الجزيرة العربية (اليمنيون)، وبعض هؤلاء هاجروا شمالًا بعد انهيار سد مأرب نحو العراق والشام ونجد وساحل الخليج. والآخر: العرب المتعربة أو المستعربة أو الإسماعيلية أو العدنانية[٢]، وهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - وأخوالهم من ناحية الجدة المصريون، فمنهم السيدة هاجر المصرية النوبية أم إسماعيل عليه السلام، وأخوالهم من ناحية الأم قبيلة جرهم التي صاهرها إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهؤلاء عرب مكة الذين انتشروا في الحجاز أولًا، ثم في نجد والعراق والشام، وقد صار معظم العرب الآن من النوع الآخير المتعرِّب، ومنهم

---

(١) العرب باعتبار الأصل صنفان؛ الأول: العَرَبُ العاربة الخُلَّص منهم، أكد من لفظه كليل لائل، وربما قالوا: العَرَبُ العَرْباءُ، والآخر: العَرَبُ المُسْتَعْرِبَةُ بكسر الراء الذين ليسوا بخلص، وكذا المُتَعَرِّبَةُ بكسر الراء وتشديدها، وتَعَرَّبَ تشبه بالعرب.

(٢) شاع بين علماء الأنساب - نقلًا عن العهد القديم - مصدرهم الوحيد عن تاريخ البشرية الأول، أن العرب من ولد سام بن نوح عليه السلام، وأنهم قسمان؛ أحدهما: العدنانيون، وهم العرب المنسوبون إلى عدنان بن أدد بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام)، وعدنان جد النبي محمد ﷺ الذي تنتسب إليه القبائل العدنانية: وهما قسمان كبيران: قبائل قيس وقبائل مضر أو إلياس أو خندف، وأشهر القبائل العدنانية: قريش وكنانة وعتيبة وعنزة وبنو سليم وبنو عامر بن صعصعة، ومن بني عامر سبيع والسهول وبنو هلال وبنو كلاب وبنو كعب، وقبائل تغلب وعدوان وهذيل وثقيف وباهلة وبني تميم وبني حنيفة، وغيرها من القبائل، وقد سكن العدنانيون وسط الجزيرة العربية وشمالها؛ ويقال لهم: عرب الشمال، والعرب المستعربة. والقسم الآخر: القحطانيون: هم العرب المنسوبون إلى قحطان بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عند بعض العلماء، ولكن ابن خلدون قال في (كتابه العبر) إن قحطان هو ابن الهميسيع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم ؛ وعلى هذا يكون جميع العرب من ولد إسماعيل؛ لأن قحطان وعدنان يضمان جميع بطون العرب وقبائلها العدنانية والقحطانية، والراجح الأول، والله أعلم. وأشهر القبائل القحطانية: قبيلة الأزد وقبيلة طيء التي خرجت بعد خروج الأزد من اليمن، ثم غلوبهم على جبلي أجا وسلمى، وقبائل غسان التي نزلت الشام بطون من الأزد، وتنحدر من كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقبائل قضاعة وغيرها.

معظم سكان مصر والسودان وشمال أفريقيا، وقد توسع انتشار العرب بانتشار الإسلام، خارج الجزيرة العربية، فتجاوز العراق والشام وفارس والروم (الترك)، فتعرب معظم هذه البلاد، ولكن النزعة القومية الشعوبية ردتهم إلى إحياء لغتهم العرقية، ولكن شمال أفريقيا ظل على عروبته التي عدها جزءًا من هويته الإسلامية، فالعربية لغة القرآن الكريم ولغة التعبد.

والأمة العربية: مصطلح حديث ظهر في الفكر القومي؛ تأثرًا بالفكر الوافد على الأمة من الحركات القومية الغربية، وتعني الأمة فيه: المجموعات البشرية التي تتكلم العربية وتعيش في الوطن العربي الذي يشمل الأقاليم الكبرى: وادي النيل، وشبه الجزيرة العربية، والعراق والشام، والمغرب العربي، وتجمعها وشيجة العروبة ولُحمة الأرض والمصالح العامة السياسية والاجتماعية المشتركة وروابط الوحدة الشعبية والروحية والشخصية الحضارية الواضحة والمصير الواحد ووحدة الثقافة والتاريخ والشعور العام[١]. وهذا المعنى الاصطلاحي لا يخرج عن أصل المعنى اللغوي للفظ: الجماعة من الناس أكثرهم من أصل واحد، وتجمهم صفات موروثة ومصالح وأماني أو يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان. وتأثر أيضًا بالمفهوم الغربي.

ويتبين من ذلك أن الأمة الحديثة في المفهوم القومي تتكون من عناصر: وحدة الجنس، والمصالح المشتركة، واللغة، والتاريخ، والإقليم (عند بعض الأمم)، والثقافة، والدين (عند بعض الأمم)[٢]. وهذه العناصر قد لا تجتمع معًا في أمة واحدة، وأتباع الفكر القومي لا يتفقون عليها جميعها، فالأمة جماعة من الناس أكثر من أصل واحد، وتجمعهم مصالح وأماني واحدة، أو جماعة من الناس يجمعهم أمر واحد من دين أو مكان أو زمان[٣].

---

(١) ارجع إلى: مصطلح الأمة في المعاجم السياسية الحديثة وموسوعة السياسية، ج ٣٠٦/١.

(٢) ارجع إلى: الحكم القبلي في العصر الجاهلي، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة الأنجلو، ص٧ وما بعدها.

(٣) المعجم الوسيط، ج ٢٨/١ أمم، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص٢٧.

وقد وضع بعض الكُتاب العرب أسسه في ظل ثقافتهم الغربية، واعتناقهم الفكر السياسي القومي الغربي غير مبالين بالواقع السياسي العربي والعناصر التي يشترك فيها العرب: الدين، واللغة، والأرض، والثقافة، والتاريخ، والمصالح المشتركة.

وهذا المفهوم قريب من مفهوم الدولة الحديثة: "جمع كبير من الأفراد، يقطن بصفة دائمة إقليمًا معينًا، ويتمتع بالشخصية المعنوية وبنظام حكومي وبالاستقلال السياسي"[1]، ونجد اقترابًا واضحًا بين مفهوم الأمة الحديث ومفهوم القومية ومفهوم الدولة، ولكن الأمة في الفكر الإسلامي أكثر شمولية واتساعًا من المفهوم القومي.

والانتماء القومي قد يتحول إلى نعرة عصبية ضد آخرين في الوطن والنفس، تحامي عن الجهة التي تنتسب إليها، وهي ردة نحو الجاهلية، ومن أشهر النعرات الجاهلية العصبية: عُبِّيَّة الجاهلية (نخوة القبيلة) والشُّعوبية (نخوة العرق التي تبناها بعض الأعاجم في مواجهة المد العربي)، ورواد الأخيرة اليهود الذين ادعوا أنهم أصفياء النسب حتى آدم، وأنهم شعب الله المختار، وتعالوا بنسبهم السامي، واحتقروا الأمم الأخرى، وهم الذين أججوا القوميات في أوربا في القرن التاسع عشر، وأشعلوها في البلقان والنمسا، وتبناها أصحاب المشروع الصهيوني في فلسطين، فتبنوا سياسة التهويد العسكري والجغرافي والسكاني (الديمجرافي)، ومن مثالب النخوة القومية العصبية قهر الآخرين وإقصاؤهم والتعالي عليهم، وقد انتقلت من الغرب حديثًا إلى العالم الإسلامي، وعبثت بمكونات الوحدة الإسلامية، وأيقظت عصبية الأعراق وحمية الأقليات والملل، وكانت حربًا على الإسلام واللغة العربية، وكانت وراء الاضطهاد العرقي.

النخوة العصبية القومية وأثرها في وحدة الأمة:

نخوة التعصب الجنسي نوعان: "العصبية القبلية": غلبة النخوة القبلية الانتماء الوطني العام والانتماء الإسلامي العام في المجتمعات المؤلفة من قبائل، و"العصبية

(١) ارجع إلى: المعجم الوسيط، ج ٢/ ٣١٥ (الطبعة الثالثة). وقد حصل معدوه هذه المفاهيم من المعاجم الحديثة.

الشعوبية": غلبة نخوة العرق (جنس من البشر كالفرس والروم والترك) الانتماء العام الوطني والإسلامي [١].

ا- النخوة القبلية[٢]: العصبية الجاهلية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عَصَبته وأقاربه من جهة أبيه]، والتألُّبِ معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين، وهي نُعَرَرة الانتماء أو النخوة القبلية بدوافع حَمية الجاهلية كبرًا وصلفًا وغرورًا، قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح:٢٦]، فالقبيلة النَّعَرة تمثل القومية المتطرفة[٣]، وهي تقوم على: اللُّحمة العصبية، والالتصاق بالدم، والتكثُّر بالنسل والعدد، والتفاخر بالغلبة والقوة وكثرة الغارات والمغانم التي اتخذوها دخلًا، وقد ترتب على هذا الصراع الذي فرضته عليهم جاهليتهم وضيق معايشهم وشح دخلهم عداوات ودماء

---

(١) ارجع إلى: الأحاديث النبوية في ذم العنصرية الجاهلية، لفضيلة الشيخ عبد السلام البرجس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، تقريظ الشيخ الفوزان، مؤسسة الرسالة، وط ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م، ص ٤٧ وما بعدها، وقد جمع مؤلفه كثيرًا من الأحاديث التي تناولت العصبية.

(٢) العصبية القبلية: نخوة التعصب إلى القبيلة، وهي قوم الرجل، وأصل القوم رجال العشيرة خاصة، يجتمعون في مجلس، ثم عم في الرجال والنساء، فهن تبع الرجال، وجرى النسب إليهم؛ لكثرة التعزز بالقوم والاستقواء، وهي مذمومة في الظلم، ومحمودة في الصدع بالحق، وقد ذم النبي حمية العصبية الجاهلية: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ" [أخرجه أبو داود (٥١٢١)، من حديث جبير بن مُطعِم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]، وقال: "وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ؛ يَغْضَبُ لعَصَبَةٍ، أو يَدْعُو إلَى عَصَبَةٍ، أو يَنْصُرُ عَصَبَةً، فَقُتِلَ؛ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ"[أخرجه مسلم (١٨٤٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]. وعِمِّيَّة، أي: في الأمر الأعمى للعصبية، فلا يستبين المقاتلُ ما وجه الأمرِ الذي عليه يقاتِل. [انظر: "لسان العرب" (٤/٣١١٥)، مادة: عمي].

(٣) القبيلة من الناس: بنو أب واحد، والعُصْبَة والعِصَابة: الجماعة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف:٨]، ومنه حديث: "اللَّهُمَّ إنْ تُهْلِكْ هَذِه الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ، لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ، [رواه مسلم]، والعَصَبة: الأقاربُ من جهة الأب، وعَصَبَةُ الرَّجُلِ: أولياؤه الذكورُ من وَرَثَتِه، سُمُّوا عَصَبَةً لأنهم عَصَبُوا بنسبه، وعرف ابن خلدون العصبية في مقدمته بأنها: "النُّعَرَةُ على ذوي القربى، وأهلِ الأرحام أن ينالهم ضَيْم، أو تصيبَهم هَلَكة ... ومن هذا الباب الولاء والحِلْف، إذ نُعَرَةُ كلِّ أحدٍ على أهل ولائه وحِلْفه". والنُّعَرَةُ: بضم النون، وفتح العين؛ كـ (هُمَزَة)، والعامَّة تقول: النَّعْرَة على وزن التَّمْرَة، والأفصح الأول، والأَرُومة: أصل كل شجرة، وأصلُ الحَسَب: أَرومة، وكذلك أصلُ كل شيء ومجتمَعُه.

وثارات، وكانت عواقبه هذه الصراع على كل أبنائها، وهي مسئولة عنهم، ومن ثم كانت وقاءه وملاذه وحماه، قال معاوية بن مالك:

إِنِّي امْــرُؤٌ مِــنْ عُــصْبَةٍ مَــشْهُورَةٍ ... حَــشَدٍ لَهُــمْ مَجْــدٌ أَشَــمُّ تَلِيــدُ
أَلْفَــوْا أَبَــاهُمْ سَــيِّدًا وَأَعَــانَهُمْ ... كَــرَمٌ وَأَعْــمَامٌ لَهُــمْ وَجُــدُودُ
إِذْ كُــلُّ حَــيٍّ نَابِــتٌ بِأَرُومَــةٍ ... نَبْــتَ العِــضَاهِ فَمَاجِــدٌ وكَــسِيدُ

القبيلة تشكل عُصْبة قوية ملتحمة الأطراف، قد رعاها الآباء، والأعمام، والجدود، حتى جعلوها كشجرة وارفة الظلال، تنضح عبيرًا فوّاحًا من المجد والسيادة، ومعايير الشرف هنا جاهلية(١).

وقد كان العرب الجاهليون مغالون في حبها وطاعتها، وقد حملهم حبهم إياها على عداوة الآخرين واحتقارهم واستباحتهم، قال الشاعر قُريط بن أنيف التميمي، معبرًا عن نعرته الجاهلية ونفوره من مكارم أخلاق قومه(٢):

لــو كنــت مــن مــازن لم تــستبح إبــلي ... بنــو اللقيطــة مــن ذهــل بــن شــيبانا
إذَنْ لقــام بنــصري معــشر خــشن ... عنــد الحــفيظة إن ذو لوثــة لانــا
قَــوْمٌ إِذَا الــشَّرُّ أَبْــدى نَاجِذَيْــهِ لَهُــمْ ... طَــارُوا إِلَيْــه زَرَافَــاتٍ وَوُحْــدَانا
لاَ يَــسْأَلُونَ أَخَــاهُمْ حِــينَ يَنْــدُبُهُمْ ... فِي النَّائِبَــاتِ عَــلَى مــا قَــالَ بُرْهَانَــا
لكــنَّ قَــوْمِي وإِنْ كَــانُوا ذَوِي عَــدَدٍ ... لَيْــسُوا مِنَ الــشَّرِّ فِي شَيْءٍ وإِنْ هَانَــا
يَجْــزُونَ مِــنْ ظُلْــمِ أَهْــلِ الظُّلْــمِ مَغْفِــرَةً ... ومِــنْ إِسَــاءَةِ أَهْــلِ الــسُّوءِ إِحْــسَانَا
كــأن ربــك لم يخلــق لخــشيته ... ســواهم مــن جميــع النــاس إنــسانا

(١) ارجع إلى: الحكم القبلي في العصر الجاهلي، الدكتور محمود عكاشة، الأنجلو المصرية، ص١٢ وما بعدها.
(٢) الحماسة لأبي تمام، تحقيق عبد الله عسيلان، ١/٥٧، ٥٨، وخزانة الأدب، للبغدادي (٧/٤١٣، ٤١٤)، والعقد الفريد، لابن عبد ربه (١/٢٩٦).

فليـــت لي بهـــم قومًـــا إذا ركبـــوا شـــدوا الإغـــارة فـــرسانًا وركبـــان

وقد كان الظلم والاعتداء والإغارة من مفاخرات الجاهلية، وكان زعماء القبائل يتنافرون بمظالمهم وقتلاهم وغنائم من الغارات على القبائل، وقال الشاعر هاجيًا إحدى القبائل؛ لأنها لا تغير على غيرها، ولا تغدر، ولا تظلم(١):

قُبَيِّلَـــةٌ لا يَغْـــدِرُونَ بِذِمَّـــةٍ وَلاَ يَظْلِمُـــونَ النَّـــاسَ حَبَّـــةَ خَـــرْدَلِ

وعبر دُريد بن الصمة زعيم قبيلة هوازن عن تماهيه في طاعة قبيلته(٢):

أمَـــرْتُهُمُ أَمْـــرِي بِمُنْعَـــرَجِ اللِّـــوَى فلَـمْ يَـسْتَبِينُوا الرُّشْـدَ إلا ضُـحَى الغَـدِ

فلـمَّا عَـصَوْني كنْـتُ مـنهُمْ وقـد أرَى غِـوَايَتَهُـــمْ وأنَّنـــي غـــيرُ مُـــهتَدِ

ومَـــا أنَـــا إلا مـــن غَزِيَّـــةَ إنْ غـــوَتْ غوَيْـــتُ وإنْ تَرشُـــدْ غزَّيَـــةُ أَرْشُـــدِ

ويرجع هذا إلى تقديسهم العرف ومغالاتهم في تراث الآباء، كما وصفهم الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف].

وليس في طاقة بشر أن يؤلف هذه النفوس المتمردة التي تربت على الإحن، وتغذت من دماء بعضها (الغارات)، وقد أثبت الله تعالى أن تأليف قلوبهم من عظائم قدرته، قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣].

---

(١) جمهرة الأمثال، للعسكري (١/ ٨١).

(٢) دريد بن الصمة: أحد فرسان الجاهلية، وغزية: قوم دريد، واسم القبيلة؛ سميت به لكثرة غزوها، ومنعرج اللوى: اسم مكان نزلته قبيلة غزية قوم دريد، وقد أغارت على إبل لغطفان، فأقبلت تستردها.

وقد أسس الإسلام هوية انتماء عامة، تقوم على التوحيد والوحدة العامة القائمة على الأخوة في الدين، والبشرية أخوة الانتساب إلى آدم والمساواة عليها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء]، وجاء في الحديث: "أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد"[رواه أحمد]، فالوحدة انضواء المسلمين تحت لواء الإسلام وجنس البشرية العام، والمسلمون جسد واحد، جاء في الحديث: «مثلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»(١)، والمساواة: قانون بشري عام، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ خطب في حجة الوداع يوم عرفة، فقال: "... ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ..."(٢)، وروي عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال "أتقاهم". فقالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: "فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله". قالوا ليس عن هذا نسألك . قال: "عن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا "(٣)، وقد ربَّى النبي ﷺ المجتمع الإيماني. وكانوا من خيار العرب. على فضائل الإسلام، وهم الذين نجحوا في غلبة حمية الجاهلية الناشبة في قبائل العرب.

والقومية في الإسلام ليست قومية العرق المتطرفة التي تغلب نخوته على نخوة الدين والمصلحة العامة، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة]، كانوا ضلالًا وثنيين، ويتقاتلون عصبية ومغنمًا، حتى أفنى القتال عامتهم، فأصلح الإسلام بينهم، وألف الله تعالى بين قلوبهم بأخوة الإسلام.

---

(١) روي عن النعمان بن بشر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ [متفق عليه].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج. وقال شيخ الإسلام في "الاقتضاء": "وهذا يدخل فيه ما كانوا عليه من العادات والعبادات، مثل دعواهم يا لفلان، ويا لفلان، ومثل أعيادهم، وغير ذلك من أمورهم".

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل.

وقد نفر النبي ﷺ من "عُبِّيَّة الجاهلية" (نخوتها) ونهى عنها وذمها[١]؛ إذ الانتساب في المجتمع الإسلامي لغير الإسلام ردة جاهلية، والتعزز المشروع بدين الله تعالى، والانتساب للآباء مباح في التعارف والميراث وصلة الأرحام وحفظ حقوقهم والمشاركة في العاقلة (الدية) والمنافسة في فضائل الأعمال، وقد طلب بعض عرب الجاهلية منافرة النبي ﷺ (مفاخرته بالأنساب وأعمال الجاهلية على عادتهم)، فأجاب عنه خطيب المسلمين وشاعرهم بأنهم أهل التوحيد وعلى منهج النبوة، فأقروا له ﷺ بالفضل وإقامة الحجة عليهم، وأسلموا[٢].

---

(١) عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: "من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه ولا تكنوه"[رواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد في المسند]، وفي لفظ له: "كنا نؤمر إذا الرجل تعزى بعزاء الجاهلية، فأعضوه بهَنِ أبيه، ولا تكنوا"،[هنو الرجل: سوأته وعورة قبله، وحذفت لامه في الهَنِ، مثل: الأخ والفم والدم]، والمعنى: قولو له: اعضض بأيْر أبيك، ولا تكنوا عن الأير، بلفظ الهَنِ، تنكيلًا وتأديبًا لمن دعا دعوى الجاهلية، المراد تقريعه وتوبيخه بأقذع الكلام ردعًا له؛ لشدة قبح ما دعا إليه، وكانت العرب تقول: اعضض بهن أبيك في القذع. وقد فعل ذلك أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راوي الحديث، فإن سبب هذا الحديث، أنه سمع رجلًا قال: يا لفلان، فقال له أبي: اغضض بهن أبيك، ولم يكن. فقال الرجل: يا أبا المنذر، ما كنت فحاشًا ! فقال أبي: إني لا أستطيع إلا ذلك عملًا بقول النبي ﷺ: "من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا"، وأمر بذلك الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث قال: "من اعتز بالقبائل فأعضوه أو فأمصوه"، رواه ابن أبي شيبة في "المصنف"، وكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد: "إذا تداعت القبائل فاضربوهم بالسيف حتى يصيروا إلى دعوة الإسلام". رواه ابن أبي شيبة في "المصنف" أيضًا. المراد: حتى يستنصروا ويتعززوا بالإسلام، أي يقول: يا للمسلمين. وروي قول عمر في لفظ أبي عبيد: "سيكون للعرب دعوى قبائل، فإذا كان ذلك فالسيف السيف، والقتل القتل حتى يقولوا: يا للمسلمين"، وفي لفظ لابن أبي شيبة – أيضًا: "يقولون يا أهل الإسلام، يا أهل الإسلام، وذكر أبو عبيد القاسم بن سلام في "غريب الحديث": "أن رجلًا قال بالبصرة: يا لعامر ! فجاء النابغة الجعدي بعصبة له، فأخذته شرط أبي موسى، فضربه أبو موسى خمسين سوطًا بإجابته دعوى الجاهلية"، والنابغة من بني عامر، وكان شاعرًا.

(٢) روى عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ، مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ مَنْسَأَةٌ فِي الْأَثَرِ"، أي: زيادة في العمر،[رواه الترمذي (١٩٧٩)، وصححه الألباني في "صحيح الترمذي"، وأخرج الطاليسي في مسنده، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: "اعرفوا أنسابكم، تصلوا أرحامكم"[صححه الحاكم وأقره الذهبي، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد موقوفًا على ابن عباس بلفظ: "احفظوا أنسابكم، تصلوا أرحامكم". وأخرج البخاري أيضًا في الأدب المفرد عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال على المنبر: "تعلموا أنسابكم ثم صلوا أرحامكم"].

والانتساب المباح – كالانتساب إلى قبيلة أو الدين – في مقام يستدعي نُعَرَة الجاهلية ويجلب مفسدة ونزاعًا أكثر ذمًا وأشد مقتًا، ومنه اعتلاء المسلمين على النصارى أبناء الوطن في مقام التحريض والنفرة، وهو جائز مع الأعداء في الحرب كيدًا وغيظًا، وكذلك اعتلاء الرجل بأصله على مسلم في مقام المناجشة والتحريش، روي عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ، أنه قال: "... من قاتل تحت رايةٍ عُمِّيَّة، يدعو إلى عصبيةٍ، أو يغضب لعصبية، فقتل، فقتلته جاهلية"، وفي لفظ: "... ومن قتل تحت رايةٍ عميةٍ يغضب للعصبة ويقاتل للعصبة فليس من أمتي"، وفي لفظ "فقِتْلةُ جاهلية"(١)، وعن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: غزونا مع النبي ﷺ، وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب فكسع أنصاريًّا، فغضب الأنصاري غضبًا شديدًا، حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا لَلأنصار، وقال المهاجري: يا لَلمهاجرين . فخرج النبي ﷺ، فقال: "ما بال دعوى أهل الجاهلية؟" ثم قال: "شأنهم ؟" فأُخبر بكسعة المهاجري الأنصاري، فقال النبي ﷺ: "دعوها فإنها خبيثة"(٢)، وعن عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: "إن أنسابكم هذه ليست بسبابٍ على أحدٍ، وإنما أنتم ولد آدم طف الصاع لم تملئوه، وليس لأحد فضل على أحد إلا بالدين أو عمل صالحٍ"(٣).

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي، قوله: "عُمِّية" الدعوة العمياء، فسرها الإمام أحمد رَحِمَهُٱللَّهُ بقوله: الأمر العمي للعصبية لا يستبين ما وجهه، وجاء في غريب الحديث لابن الأثير: عمية: فعيلة من العمى والضلالة، كالقتال في العصبية والأهواء. و"مات ميتة جاهلية" (هي بالكسر حالة الموت)، أي: كما يموت أهل الجاهلية من الضلال والفرقة، ورواية: "فقِتلة جاهلية" بكسر القاف، الحالة من القتل، وهو لفظ النسائي في السنن. والعُصبة: بنو العم، والعصبية أخذت من العصبة، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: إضافة الأمر إلى الجاهلية يقتضي ذمه، والنهي عنه، وذلك يقتضي المنع من أمور الجاهلية مطلقًا.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب من دعوى الجاهلية. ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة.

قوله: "رجل لعاب" أي بطال، وهو: جهجاه بن قيس الغفاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. قوله: "فكسع" أي: ضربه على دبره.

(٣) رواه أحمد في المسند، قوله: "طف الصاع" أي: قريب بعضكم من بعض.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة، فقال: "يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من ترابٍ، قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات](١)، وروي عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انتهيت إلى النبي ﷺ في قبة من أَدَم، فقال: "من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير الذي رُدي فهو ينزع بذنبه"(٢)، أي: سقط في بئر، وأشرف على الهلكة، فيحرك ذنبه للخروج منه، فلا تنفعه تلك النصرة كما لا ينفع البعير نزعه عن البئر بذنبه، وليس

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، وقال غريب، وروي أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى ذكره قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنوا آدم، وآدم من تراب، ليدعنَّ رجال فخرهم بأقوامٍ، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجُعلان التي تدفع بأنفها النتن" [أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب باب في التفاخر بالأحساب، والترمذي في آخر سننه، وصححه شيخ الإسلام في الاقتضاء، وذكره الألباني ثم قال: حسن، وعزاه إلى مسند أحمد وأبي داود]، قوله: "عُبية الجاهلية": نخوتها. والعُبية: الكبر والفخر والنخوة، قال الخطابي: العبية: الكبر والنخوة، وأصله من العب، وهو الثقل، يقال: عبية وعبية بضم العين وكسرها، وقوله: "مؤمن تقي، وفاجر شقي، خبران: أي: هو مؤمن تقي، أو هو فاجر شقي، وقد جاء في رواية "هو مؤمن تقي، وفاجر شقي"، "والجُعَل": حشرة صغيرة سوداء(الخنفساء)، وجاء في رواية: "أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنْ الْجُعَلِ الَّذِي يُدَهْدِهُ الْخِرَاءَ بِأَنْفِهِ"، و(يُدَهْدِه): أَي: يُدَحرِجُه بأنفه. والخِرَاء: العذْرَة أو الروث الذي تتغذى عليه الخنافس. وروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: "ما تعدون الكرم؟ قد بين الكرم، فأكرمكم عند الله أتقاكم. ما تعدون الحسب؟ أفضلكم حسبًا أحسنكم خلقًا"[أخرجه البخاري في الأدب المفرد].

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب في العصبية، وإسناده صحيح، وقوله: "يُنزع": يعالج، ويحاول أن يخرج عنها. والمعنى: أن من نصر قومه على غير الحق فقد أوقع نفسه في الهلكة بتلك النصرة الباطلة، حيث أراد الرفعة بنصرة قومه، فوقع في حضيض بئر الإثم، وهلك كالبعير، فلا تنفعه تلك النصرة كما لا ينفع البعير نزعه عن البئر بذنبه. وقيل: شبه النبي ﷺ القوم ببعير هالك؛ لأن من كان على غير حق فهو هالك، وشبه ناصرهم بذنب هذا البعير، فكما أن نزعه بذنبه لا يخلصه من الهلكة، كذلك هذا الناصر لا يخلصهم عن بئر الهلاك التي وقعوا فيها [ارجع إلى: مرقاة المفاتيح، للقاري].

بمخرجه ذنبه، والمغالاة في نُعَرة النسب خروج عن الدين ومنهج النبوة وسلوك الصالحين، عن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: "ليس منا من دعا إلى عَصبيةٍ، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبيةٍ"(١).

وقد وجه النبي ﷺ المسلمين إلى الانتساب إلى الدين، ورسخ فيهم هويته. روي عن أبي عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وكان مولى من أهل فارس – قال: شهدت مع رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُحدًا، فضربت رجلًا من المشركين، فقلت: خذها مني، وأنا الغلام الفارسي، فالتفت إلى رسول الله ﷺ، فقال: "فهلا قلت خذها مني وأنا الغلام الأنصاري"(٢)، وهو توجيه رشيد إلى منقبة نصرة الإسلام تحت لواء الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذا كاف في ردع وتخذيل من ينفرون من دينهم.

وليس بنافع الأمم المنهزمة ارتدادها إلى جنسها (عرقها)، دون كفاحها في بناء مجدها الحضاري، روي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: "... ومَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ"، أي: من كان عمله خسيسًا، فلا يستوفي خسيسته نسب آبائه"(٣)، وهذا شأن الأمم الراكدة، وشأن المنحرفة المنغمسة في أوحال الجاهلية وشأن أذناب التغريب

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في العصبية. وإسناده ضعيف. ويقوي معناه حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "صحيح مسلم": قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ" [رواه مسلم، ٦٧]. وروى مسلم عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، والطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، والاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، والنِّيَاحَةُ".

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في العصبية، وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: حضه رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الانتساب إلى الأنصار، وإن كان بالولاء، وكان إظهار هذا أحب إليه من الانتساب إلى فارس بالصراحة، وهي نسبة حق ليست محرمة. والمولى: مصطلح أطلق على المستعرب، وسمي مولى؛ لأنه يوالي إحدى القبائل أو العشائر، فيصبح منهم بالولاء، ويحظى بجوارهم واحدًا منهم. وهو أرقى من العبد المملوك اجتماعيًّا ودون أبناء القبيلة، وقد كثر الموالي في الإسلام؛ لكثرة نزوحهم إلى بلاد العرب، فأقاموا بينهم بالولاء.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر. قوله: "من بطأ به نسبه"، أي: من أخره عمله وجعله بطيئًا عن بلوغ درجة السعادة؛ لكون عمله سيئًا أو كونه فرط في العمل الصالح "لم يسرع به نسبه"، أي: لم يقدمه نسبه؛ إذ لا يحصل التقرب إلى الله تعالى بالنسب بل بالأعمال الصالحة.

الذين يستبشرون برذائل الجاهلية، وينفرون من دين الله، وقد تحققت نوازل هذه الأحاديث في مذاهب بعض المعاصرين الذين ارتدوا إلى نُعَرة الفرعونية في مستهل القرن العشرين، فنزعوا مصر من الإسلام والعروبة، وردوها إلى جاهليتها الفرعونية، وكذلك أذناب القومية الفارسية ودعاة الطائفية أدعياء ولاية آل البيت؛ تعمية على نزعتهم الشعوبية المتطرفة، وقد فضحهم وقوفهم وراء الطائفية المأجورة التي دمرت دولًا إسلامية، وصيرتها دولًا فاشلة.

وقد جعل النبي ﷺ القومية في منفعة الجماعة العامة، فجعل لكل قبيلة رئيسًا منها تقاتل من ورائه، فكانت القبائل تتبارى في الجهاد، وتأتمر بأمر سيدها في شئون الحياة، فكَفت هذه الولاية الضيقة الدولةً تمردها على سلطتها المركزية، وكانت سيفًا على خوارجها الشذاذ.

وقد كان للقبلية أثرها في الدولة الإسلامية الناشئة على مناطق نفوذها ومكوناتها الاجتماعية ومصادرها، فقد قامت حركة تمرد قبلية على القرشية، متمثلة في حروب الردة التي أبت فيها الدخول في طاعة قريش بعد وفاة النبي ﷺ، وافتعلت أسبابًا تبرر تمردها وانشقاقها، وقد بلغ ببعضهم اتباع نبوة الكذابين تعصبًا لقبائلهم، وهم يعلمون كذبهم، فالارتداد كان سياسيًّا لا عقديًّا، فالعرب لم يرتدوا إلى الوثنية، بل تراجعوا عن الوحدة الجامعة بزعامة قبيلة النبي ﷺ، وكان هذا نواة ظهور القومية الجديدة في ثوب ديني مفتعل، ثم وظفه القوميون في الطائفية التي ساعدتهم على ترسيخ وجودهم العرقي باعتبارهم أنصار آل البيت ورعاة ولايتهم، وقام التمرد على الدولة الأموية بدعوى ولاية آل البيت في عهد يزيد بن معاوية، فقد استغاث أهل العراق بالحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ ليعيد الأمر شورى، وليخلصهم من استبداد الأمويين وتعسفهم، ثم انفضوا من حوله، وقتل الحسين وبعض ذويه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ غدرًا، وكان وراء خداعه بالخروج أهداف سياسية باطنية، فقد كان لثورة العراقيين بعد سياسي قديم، وهو نقل مركز الدولة من الشام إلى العراق، فقد كانوا في صراع مع الشاميين قبل الإسلام، نائبين عن الفرس والروم، ومن ثم تفانى الشاميون في الاستبقاء على السلطان الأموي الذي عزز قوتهم أمام العراقيين، والحرب بالوكالة مهمة بعض القادة العرب قديمًا وحديثًا، فقد قام ملوك الحيرة المناذرة حلفاء الفرس بمقاتلة ملوك الشام الغساسنة حلفاء الروم، وكانت مهمة ملوك الحيرة

العسكرية رد هجمات القبائل الصحراوية على الدولة الفارسية، وفعل الدور نفسه ملوك الشام الذين حالفوا الروم النصارى في صد الدعوة الإسلامية وحرب المسلمين، وكان ملوك اليمن وعُمَان في الجنوب حلفاء الفرس أيضًا، وما زالت إيران ترى العراق ودول الخليج واليمن مناطق نفوذ الدولة الفارسية ونهاية حدودها الآمنة، ويرى بعض الإيرانيين القوميين أن الإسلام هو الذي هدم إمبراطوريتهم، وقد ناب العراق حديثًا بتمويل دول الخليج عن الغرب في حربه على إيران في حرب غير مباشرة، وناب الأفغان والمقاتلون العرب عن الولايات المتحدة وحلفائها في حربهم على الاتحاد السوفيتي بتمويل الخليج أيضًا، مخدوعين بتحرير أرض الإسلام، وكانت حربًا شرعية، يخوضها المجاهدون الذين صاروا إرهابيين في جهادهم الغازي الأمريكي في الخطابين الغربي والعربي، وأرض الإسلام المقدسة (فلسطين) في حوزة الصهيونية تحت مظلة الحماية الأمريكية، لتعلم أن هذه الحروب التي يخوضها القادة العرب، وينفقون عليها حروب وكالة عن الغرب، خادعين ضحاياها بالدين والجهاد الذي سموه إرهابًا في الأرض الإسلامية التي تحتلها الصهيونية وأمريكا، فالعرب وكلاء الغرب تطوعًا، و"الحد بين الجهاد والإرهاب في الخطاب المعاصر يضعه الغرب في المكان والزمان، ويرعى حمايته السلطيون العرب، ويدعم وجوده الإعلام السلطي العربي العميل الغربي الخفي القداح فيمن تصدو الغزو الغربي.

وقد قاد المختار الثقفي حركة تمرد مسلحة، مدعيًا الثأر لآل البيت في العراق، وقتل بعض من تعاونوا على قتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسيطر على الحكم بالكوفة، ورفع شعار "يا لثارات الحسين"، وكان يخطط لبناء دولة علوية في العراق، وقد قُتل في الكوفة عام ٦٧ هـ على يد جيش مصعب بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويعد هذا التمرد التحول الأول نحو ظهور التشيع المذهبي، فقد صرح المختار بمناقب خاصة بعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وآل بيته، منها أحقيتهم في خلافة النبي ﷺ، وهذه الشخصية مختلف فيها بين العلماء، فعلماء أهل السنة يكذبونه، والشيعة تتأول ما فعله[1]؛ لتناقض مواقفه السياسية، فقد قيل عنه إنه تآمر على الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ مصانعة لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنه أحدث فتنة في جيشه، فبادر الحسن

(١) ذهب جمع من العلماء أنه الكذاب في حديث: "سيكون في ثقيف كذاب ومبير" [رواه مسلم]، وقيل في تحفة الأحوذي، شرح الترمذي "هو المختار بن أبي عبيد، الزاعم أن جبريل يأتيه".

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بمصالحة معاوية بعدما تبين له غدر من معه واختلافهم عليه، فأدرك أنه ملاق مصير أبيه علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فآثر حقن الدماء، وصالح معاوية؛ تحقيقًا لنبوءة النبي ﷺ فيه: "إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين"[البخاري]، والراجح أنه كان صاحب طموح سياسي، توسل إليه بمناصرة آل البيت، وفعل العباسيون فعله، بيد أنهم نجحوا في إسقاط الدولة الأموية، واستبدوا بالخلافة (السلطان) دون أبناء علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ الذين رفعوا شعار ولايتهم في ثورتهم، وتحالف أنصارهم معهم، ثم قضوا على من نازعهم الحكم، وأنكروا خصوص الولاية في أبناء علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، واستدلوا بدخول العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في آل البيت، فهو ممن حرمت عليه الصدقة، وضيق الشيعة مفهوم آل البيت في أولاد علي من فاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فقط دون العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأزواج النبي ﷺ، وهذا الخلاف منزعه الأهداف السياسية، وصارت ولاية الحكم من فروع الإيمان في الجدل الطائفي، فبعض المتشيعة (الناصبة) لا يتورعون عن تكفير عامة الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، واتهامهم بالنفاق والتبديل والردة؛ لأنهم تآمروا على إقصاء علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن خلافة النبي ﷺ، والثابت يقينًا أنه لا نص صريح للنبي ﷺ يلزم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ببيعته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأن عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لم يطلبها لنفسه، ولم يطرح اسمه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يوم سقيفة بني ساعدة التي شهدت مناقشة الصحابة خلافة النبي ﷺ والأولى بها، والثابت أيضًا أن الذين طرحوا استخلاف أحد أقرب النبي ﷺ أول مرة بعض المرتدين من قبائل العرب الذين استنكروا استخلاف أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو من بني زهرة، أقل حي في قريش، ورأوا أن الأولى بالاستخلاف أحد بني هاشم عشيرة النبي ﷺ، يريدون العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، على الراجح من رؤيتهم الجاهلية التي تستدعي أكبر شيوخ العشيرة.

ولكن بعض الشيعة يتأولون القرآن الكريم وبعض الحديث والمرويات غير الثابتة والزيادات التي قيلت لمنزع سياسي بحت، ويحتجون بغضب علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وتأخره في البيعة منشغلًا بتجهيز ﷺ ؛ لأن الصحابة بادروا بها؛ درءًا للخلاف قبل دفن النبي ﷺ دون مشورته، وهو وليه، واحتجوا كذلك بمراجعة فاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في أرض فَدَك التي أفاء الله بها على نبيه ﷺ في خيبر، وقد جعلها أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في بيت المال للنفقة العامة؛ فالأنبياء – عليهم السلام – لا يورثون، فسكتت عنها، ولكن الشيعة

تتهمه بأنه سلبها ميراث أبيها ﷺ عدوانًا، دون التفات إلى الحديث، بل أنكروه، وهذه الطعون ظهرت متأخرة بعد أن تحول الصراع على السلطة إلى مذهب طائفي، وقد ظهرت مرويات في كتب الشيعة معزوة إلى آل البيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الخلافة والطعن في بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وشيعة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في زمنه أنصاره في الرأي أمام مخالفيه، ثم ظهر المذهب مدفوعًا بالصراع السياسي على السلطة متأثرًا بأبعاد قبلية وعرقية وطائفية، وطالما استخدمته الحركات السياسية في ثورتها، وما زال التشيع ورقة سياسية يستخدمها السياسيون.

وكانت "القبيلة" الجناح الآخر موازية جناح الطائفية لعُقَّاب التمرد الذي حوَّم حول السلطة يتحين منها ثغرة أو خلة، فينقض عليها، فقد كانت القبيلة العقبة الأولى في الدعوة الإسلامية، وكانت مانعًا عصيًّا؛ لتمكنها من التكوين الاجتماعي العربي، فهي الدولة الصغرى للكيان الاجتماعي المنتسب إلى أصل قريب (الجد الذي تعرف به أو التسمية الجامعة لأبنائها)، وقد وجهها النبي ﷺ في خدمة الدعوة مستبقيًا على وشيجتها وتكوينها، وغلَّب على عصبيتها (عُبِّيَّتها أو نخوتها) الإيمان والأخوة في الدين، لكنها كانت تطل برأسها عندما يوقدها أهل النفاق والشعوبية والطائفية، فهي سلاحهم في التخزيل والتثبيط والتقليب حسدًا وبغضًا.

وقد تمردت بعض قبائل العرب على سلطان قريش الممثل في الخلافة الجامعة بعد أن دانت له في آخر عصر النبوة، وقد طرحت منزلة قريش الدينية (أهل الحرم وأبناء إبراهيم عليه السلام) بين قبائل في سقيفة بني ساعدة، وأن العرب ستأبى أن تدين لغير هذا الحي (قريش قبيلة النبي ﷺ) من القبائل، إشارة إلى أن العرب سترفض سيادة قبيلتي الأوس والخزرج، وسلم الأنصار لهم الأمر، وبايعوا أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بعد أن رجحوا اجتهادًا أنه الأفضل، معتبرين بتقديم الرسول ﷺ له، وأنه الرجل الثاني من بعده ﷺ، وكان اختياره اجتهادًا لا وصية، وقد جعل الشيعة الخلافة وصية، والفكر الشيعي يتداخل مع اليهودية في الوصية (في الإمامة، وأنها إمامة دينية لا دنيوية، فهي تتوازى مع فكرة العنصر النقي المختار المختص بالفضل دون سواه) والرجعة، وأن آل البيت مصدر الحقيقة.

وقد نشب نزاع سياسي بين عشائر قريش، بدأ في الجاهلية بين عشيرتي (بني هاشم

وبني أمية)، وقد مالت كفته لبني هاشم في الجاهلية، ثم تزعمه أبو سفيان الأموي بعد موت أبي طالب الهاشمي ضد النبي ﷺ الذي استنكف كبرًا عن اتباعه، ثم عاد مرة أخرى زمن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زعيم البيت الأموي الذي جعل الحكم وراثة، ولكن العباسيين تمكنوا من إسقاط حكم الأمويين، ثم وقع نزاع داخل العشيرة بين بني علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبني العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان ضحاياه من البيت العلوي وكثير من أشياعهم، وقد أخذ الصراع بعدًا عقائديًّا، يستند إلى تأويلات نصية.

وهنالك قبائل ذات غلبة (مثل تميم)، رأت أن السلطة مشاع عام، وليست حكرًا على قريش، ولكن التمرد القبلي رفع شعارات إقامة الشرع والعدالة والمساواة وكف الظلم ومحاربة الفساد، وقد خرج عام ١١٦ هـ الحارث بن سريج[١] على أمير خراسان عاصم بن عبد الله، وزعم أنه يدعو إلى الكتاب والسُنّة، وأنه صاحب الرايات السود[٢] (المهدي)،

---

(١) هو أبو حاتم، الحارِث بن سُرَيج بن يَزيد من بني مجاشع بن دارم التميمي (ت١٢٨ هـ = ٧٤٦ م)، عربي من قبيلة تميم، ثار على الدولة الأموية بخراسان عدة مرات؛ أولها في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، مدعيًا ظلم الدولة الأموية، وزعم أنه يدعو إلى الكتاب والسنة، وأنه صاحب الرايات السود، قُتل أمام سور مرو سنة ١٢٨هـ.

(٢) "الرايات السود": تركيب ورد في بعض أحاديث الشيعة، وهي عندهم رايات أهل البيت التي دعا النبي ﷺ المسلمين بالاصطفاف وراءها، وأقوى الروايات رواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "تخرج من خراسان رايات سود لا يردها شيء، حتى تنصب بإيلياء"[من أرض فلسطين]، أخرجه الإمام أحمد، والترمذي، والبيهقي، كلهم من طريق رشدين بن سعد، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ في تخريج الحديث: "تفرد به رشدين بن سعد، عن يونس بن يزيد"، ورشدين ضعيف، ضعفه أحمد بن حنبل، وقال يحيى بن معين: لا يكتب حديثه، وقال أبو زرعة: ضعيف الحديث، وقال أبو حاتم: منكر الحديث، وفيه غفلة، ويحدث بالمناكير عن الثقات، ضعيف الحديث، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال أبو داود: ضعيف الحديث، وقال ابن عدي: عامة أحاديثه ما أقل فيها ما يتابعه أحد عليه، وهو مع ضعفه يكتب حديثه، وقال ابن حبان: "غلبت المناكير في أخباره"[تهذيب التهذيب ٣/٢٧٨].

ووردت روايات أخرى تشير إلى أنها رايات المهدي الذي يخرج آخر الزمان، منها حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "يقتتل عند كنزكم ثلاثة، كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلًا لم يقتله قوم"، ثم ذكر شيئًا لا أحفظه، فقال: "فإذا رأيتموه – المهدي – فبايعوه، ولو حبوًا على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي"، [رواه ابن ماجه، وقال الحاكم: هذا حديث =

واعدًا ألا تؤخذ الجزية من الذين اعتنقوا الإسلام، وألا يظلم أحد، واستولى على بعض البلاد من خراسان، فقد سار من الفارياب إلى بلخ فدخلها، ثم إلى الجوزجان (كورة من كور بلخ)، فغلب عليها وعلى الطالَقان (بلدة بخراسان) ومرو الروذ، فلما أراد السير إلى مرو قصبة خراسان نصحه أصحابه ألا يفعل؛ لأن مرو بيضة خراسان وفرسانهم كثر، وأشاروا عليه أن يقيم حيث هو فإن أتوه قاتلهم، وإن أقاموا قطع عنهم المؤن والإمدادات. ولكنه سار إلى مرو في جيش كبير، فهزمه عاصم بن عبد الله والي خراسان، وغرق الكثير من أصحابه في أنهار مرو وفي النهر الأعظم جيحون، ولم يبق مع الحارث سوى زهاء ثلاثة آلاف، وقد فر إلى بلاد الترك، ثم أخذ الأمان لنفسه، ثم قتل بسبب عودته إلى التمرد بعد اضطراب البيت الأموي ونشوب النزاع فيه على السلطة، ويتبين من سيرته أنه كان يبغي الخلافة، فقد كان يرفع شعار العمل بالكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولجأ إلى الأعاجم دون العرب؛ لأنهم كانوا أكثر تمردًا على البيت الأموي، وساومهم ببعض الوعود الآجلة، وقد انطلق أبو مسلم الخراساني من البلاد التي هيمن عليها ابن سريج من أعمال خرسان في تمرده على الأمويين أيضًا مدعيًا ولاية آل البيت، ثم تمرد على العباسيين بما له من قوة وأنصار، وتعزز بالعراق وبأشياعه الأعاجم بنواحي خراسان، فتخلص منه المنصور، ونشأ صراع بين القبائل اليمنية والقبائل القيسية، وتورط فيه بعض الحكام الأمويين، فمن كانوا أخواله أو أصهاره جنح إليهم، واستعان بهم، فأغضب خصومهم، وقد ساهم هذا الصراع القبلي في إسقاط الدولة الأموية في الشام والدولة الأموية في الأندلس أيضًا والعباسية والعثمانية، فقد كانت القومية القبلية والقومية العرقية من أسباب سقوطها.

=

صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير: "هذا إسناد قوي صحيح"، وقال: "والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة"، وقال أيضًا: "ويؤيد - أي المهدي - بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سودا أيضًا، وهو زي عليه الوقار؛ لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء، يقال لها: العقاب".

ب- النخوة الشعوبية (المذهب القومي)[١]: تيار قومي عنصري، تبناه بعض الأعاجم الزنادقة وبعض المهمشين الذين أنكروا أوضاعهم الاجتماعية وتهميشهم سياسيًّا واجتماعيًّا، وأنكروا معاملة العرب لهم حيث جعلوهم دونهم، وتعالوا عليهم، وميزوهم بالأعاجم والموالي دون أخوَّة الإسلام، وقد كان الأعجمي المقيم بين العرب يوالي إحدى القبائل العربية أو إحدى عشائرها تعززًا، وينتسب إليهم بالولاء (مولى بني فلان)، وسموهم الموالي (الأتباع) الذي صار رمز حقارتهم في المجتمع العربي، وقد أسرف بعض العرب في تميزهم، فلم يسووهم بالعرب، ولم يزوجوهم منهم؛ لأنهم غير أكفاء لهم نسبًا.

وقد ظهر هذا التيار في الدولة الأموية ذات الهوية العربية الإسلامية في بعض المدن الفارسية، وأبرزها خراسان وما حولها، وقد جاهر به بعض الفرس الذين يعيشون بين ظهراني العرب، ورأوا أن العرب البدو استأثروا بالسلطة دونهم، وهم أبناء الكسروية الفارسية الأرقى حضارة منهم، وصاروا ملوكهم، وقد جاهر بعض مشاهير الأعاجم بشعوبيتهم نكاية في الطبقية العربية في الدولة العباسية التي اعتمدت في الحكم والجيش على العناصر الأعجمية، وقد شجعهم علو شأن الأعاجم وبلوغهم مراكز قيادية في الدولة والجيش.

وقد تعصب هؤلاء المستعربون لقومياتهم للأسباب التي ذكرتها إضافة إلى هيمنة العنصر الأعجمي على السلطة، وأنهم رأوا أنفسهم شركاء العرب في السلطة، فقد شاركوا في الفتوحات وبناء الدولة الجامعة بعد أن صاروا جزءًا من الدولة، فجاهروا بتمردهم على العرب المستبدين بالسلطان دونهم والمتعالين عليهم، وأظهروا فضائلهم ومآثرهم التاريخية القديمة، وعيروا العرب ببداوتهم وحياتهم الجاهلية الأولى وشظف معايشهم لشح بيئتهم.

---

(١) الشعوبية: فرقة عرقية تنسب إلى الشُّعوب؛ لانتصارهم للشعوب التي هي مغايرة للقبائل، كما قيل: القبائل للعرب والشعوب للعجم، وهم من لا ينتسبون لجد. وقد ظهر هذا التيار المنحرف في الإسلام نتيجة الترَف والفقر والعرقية المتعصبة والتعسف السياسي والطبقية الاجتماعية واستبداد العنصر العربي بالسلطة والمصالح في عصر الدولة الأموية.

وقد عبر بعض الكتاب عن شعوبيتهم في كتابات وأعمال أدبية تطعن في العرب، أنهم ليسوا إلا قبائل وبدوًا همجًا ورعاة غنم وسكان خيام وأكلة ضب، ومن طعون الشعوبيين المتأخرين: أن العرب (يريدون عرب الجزيرة) ليسوا مجتمعات متحضرة منظمة سياسيًّا واجتماعيًّا مثل الأمم المتحضرة المصريين والإغريق والروم والفرس، وصارت "الشعوبية" تهمة تدل على ضعف الدين والنفاق والزندقة في الدولة العباسة، وقد اتهم بعض العلماء والأدباء والشعراء بها صدقًا أو شبهة أو افتراء، وأشهر من اتهم بها من أفاضل العلماء: أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢٠٩هـ) الأديب واللغوي المفسر، فهو في عداد أئمة المفسرين بكتابه "مجاز القرآن"، ولعل تعصبه للعجم بسبب أصله اليهودي الأعجمي وشيوع الولاء لقبائل العرب، وقد والى تميم، وبسبب مجافاة أقرانه العرب حسدًا له، ولما رووه عنه من حدة الطبع، وأحسب أن أقرانه اتهموا بها ليضعوا منه؛ وليرفعوا قدر أعمالهم، فقد شهد العلماء أنه كان أعلم أهل زمانه باللغة، وأصحهم رواية، وأعلمهم بأيام العرب[1]، وكان الاتهام فاشيًا بين أقران هذا العصر الذي حظي بأئمة العلوم، وقد بلغت المنافسة بينهم الخصومة، ومثله عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦هـ) (من العلماء الأفاضل، وقد أنكر العلماء ما اتهم به لحسن تدينه وكثرة علمه)، والصواب أنه رد على الشعوبية، فهو من علماء السنة المعدودين، وبعض المنحرفة وضعوا عليه الأكاذيب؛ لأنه حاجهم في كثير من كتبه، وما ورد في اتهام بعض الأفاضل بالشعوبية مأخوذ من طعن أقرانهم، و"كلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعبأ به"[2]، ولا يعتد به فيهم، فهو من المنافسة في العلم والغيرة، أو من قول خصومهم أو مما نسب إليهم في نقد

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: "ولم يكن صاحب حديث، وإنما أوردته لتوسعه في علم اللسان، وأيام الناس"، وقال الجاحظ: "لم يكن في الأرض جماعي ولا خارجي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة، ولكن ابن قتيبة في المعارف قال: "كان الغريب وأيام الغريب أغلب عليه، وكان لا يقيم البيت إذا أنشده، ويخطئ إذا قرأ القرآن نظرًا، وكان يبغض العرب، وألف في مثالبها كتبًا، وكان يرى رأي الخوارج"، وهذا من قدح الأقران في بعضهم.

(٢) قول الإمام الذهبي المنصف المحقق، وللذهبي نقول عن العلماء في هذا، ارجع إلى: ميزان الاعتدال، ج٣ / ٤٥٠، وتذكرة الحفا، ج٢ / ٧٧٢. وقال شعبة بن الحجاج: "احذروا غيرة أصحاب الحديث بعضهم على بعض، فلهم أشد غيرة من التيوس" [الكفاية في علم الرواية ص ١٠٩].

مثالب بعض العرب أو مدح بعض الأعاجم، وقد ادعيت كتب لبعضهم في مثالب العرب ومدح العجم، ولا وجود لها، نحو: "وله كتاب في الطعن على العرب" دون إثبات وجوده، ولا يعتد بهذا ما لم يصرحوا بشعوبيتهم.

وقد اتهم الهيثم بن عدي بن زيد (مؤرخ، قيل عنه إنه ضعيف الرواية) بالشعوبية، وعلان بن الحسن الوراق، كان من أبرز الشعوبيين، واتهم بالزندقة واعتناق الثانوية الفارسية[1]، وقد اتهمه العلماء بالشعوبية لما ذكره في كتبه الأدبية من مثالب بعض العرب، واتهم بها عبد الله بن المقفع الأديب والمفكر السياسي والمترجم وصاحب الحكمة ومضرب المثل في الذكاء وحسن الأسلوب، وقد اتهم بالزندقة والشعوبية والعلوية، ولا دليل البتة على شيء منها، ومثله الكاتب سهل بن هارون بن رهبون الفارسي كاتب البرامكة، ورئيس بيت الحكمة (مركز الترجمة في عهد الدولة العباسية)، اتهم بأنه كان علويًّا وشعوبيًّا، ولا دليل في آثاره يؤكد ما اتهم به.

وقد اتهم كثير من شعراء الدولة العباسية بالزندقة والشعوبية والمجون، وأشهرهم: بشار بن برد الشاعر، وقد اتهم بكل تهم عصره (المجون والزندقة والشعوبية والغلاء في التشيع وتكفير المسلمين)، وقد استدل من اتهموه ببعض ما قاله شعرًا في المجون وآل البيت، وأرى أنه كان من المرتزقة يتكسب بشعره، وله شعر في مكارم الأخلاق والدين، ومدح العباسيين وأمراءهم، فلم يك متشيعًا، فقد كان كفيفًا وضيعًا، فاحتال للتكسب ومصانعة من يمدحهم وابتزاز من يهجوهم، وكان قوي الشعر ذائع الصيت بشعره، وكان هذا شأن بعض الشعراء المجان الذين يتكسبون بشعرهم مدحًا وهجاء ومصانعة. وأبو نُوَاس (الحسن بن هانئ) الذي هجر شعر المجون والخمريات قبل موته، وقال شعرًا في الزهد والتوبة، وهو من الشعراء المجددين مثل بشار. والشاعر يزيد بن ضبة مولى ثقيف،

---

(١) الثانوية: سموا بذلك؛ لأنهم قالوا بإثبات اثنين أزليين هما النور إله الخير، والظلمة إله الشر. والفرق بينهم وبين المجوس أن المجوس يقولون: إن النور قديم أزلي والظلمة مخلوق حادث، أما الثانوية فيقولون بأزلية النور والظلمة، وهم أربع فرق: المانوية أتباع ماني، والديصانية أتباع ديصان، والمرقونية أتباع مرقيون، والمزدكية أتباع مزدك "[الملل والنحل، ج ٢/ ٨٠،٨١].

شاعر أموي، كان مع الأمويين، وانقطع للوليد بن يزيد الخليفة الأموي، ويرمى بالمانوية (أتباع ماني، وعقيدته إله للخير وآخر للشر) والشعوبية لما قاله في شعره. وحماد بن سابور (ابن المبارك المعروف بحماد الراوية الديلمي أصلًا البكري ولاء، وقد كان شاعرًا وراوية شعر العرب أيضًا، وقد اتهمه بعض العلماء بوضع الشعر على ألسنة الشعراء، ثم يرويه عنهم تكسبًا ومصانعة لبعض قبائلهم في الإسلام، واتهم أيضًا بالشعوبية، وكان له غرماء يبارونه في رواية الشعر، واتهموه فيها. وإسماعيل بن يسار شاعر آل الزبير، ثم مال لبني مروان بعد غلبتهم على الحكم، واتهمه خصومه بالانتهازية؛ لتغيره على حلفائه الزبيريين والشعوبية، وابن الرومي علي بن العباس بن جريح الشاعر المجيد اتهمه خصومه بالزندقة والشعوبية والتشيع، وقد أثبت بعض العلماء تشيعه، ولكنهم نفوا عنه الزندقة والشعوبية، ودعبل بن علي الخزاعي (الشاعر المتشيع)، اتهم بالشعوبية، وليس من الأعاجم، بل عربي خزاعي، وكان مغاليًا في التشيع، وله شعر كثير في مذهبه، وبعض هذه الاتهامات من وضع الأقران والخصوم حسدًا أو من الطائفية طعنًا، وقد ظهر تيار مغال في الشعوبية، بلغت به الطعن في الدين الذي ظهر في العرب، ومكن لهم رقاب العجم، وقد اتهم هؤلاء بالزندقة، وقد قاوم الجاحظ هذا التيار الذي بدأ بمطلب المساواة مبدأ الإسلام، ثم غالى في تحقير العرب وتعظيم العجم، وانحرف بعضهم عقديًّا، فقال الجاحظ واصفًا شعوبية عصره في القرن الرابع الهجري: "إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أولُ ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدّي إلى الضلال، فإذا أبغض شيئًا أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام؛ إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وهي السلف والقدوة". ويتبين مما تقدم أن الشعوبية ارتبطت بالزندقة؛ باعتبارهما تيارين معاديين للعرب والإسلام معًا، وقد ارتبطت الشعوبية بالتشيع أيضًا؛ لأن بعض الأعاجم لجأوا إليه مخادعة يستقطبون به أنصارًا، ودافعهم نخوتهم العرقية؛ ولئلا يتهموا بالزندقة والردة، وكان أكثر أنصار التشيع فرسًا، وقد كان التشيع الغطاء الذي تستر خلفه الفرس في التخلص من الخلافة الأموية ذات النزعة العربية المحافظة، فأبرز قادة الدولة العباسية أبو مسلم الخراساني الذي رفع لواء نصرة آل البيت في الثورة

التي قادها العباسيون، ثم انقلب عليهم، فاحتال عليه أبو جعفر المنصور وقتله، واستعان السياسيون الشعوبيون بالشعراء والأدباء؛ ليخدعوا عامة الأعاجم بترك الدولة الإسلامية الجامعة، والاصطفاف وراء التمرد الشعوبي على نظام الخلافة التي وصفت بالعربية تنفيرًا للعجم، وأشهر الشعوبيين الذين زرعوا بذور العنصرية والكراهية في نفوس أبناء أمتها تجاه العرب السلطان محمود الغزنوي أحد أمراء الحركة الشعوبية، فقد اتهم بأنه أجج مشاعر العداء الفارسي ضد الإسلام والعرب، وشن حروبًا على المسلمين لتوسيع ملكه، وأنه كلف الشاعر الشعوبي أبا القاسم الفردوسي (٤١١ -٣٢٩هـ) بكتابة قصائد شعرية يمجد فيها تاريخ فارس وحضارتهم، ويحقر فيها العرب وحضارتهم الإسلامية، ويحط من شأنهم، وقد تعهد بأن يعطيه وزن ما يكتبه ذهبًا، فوضع الفردوسي ملحمته التاريخية منظومة شعرًا، وسماها الشاهنامه (ملك الكتب)، وقد حقر فيها العرب، وذكر مثالبهم، ووصفهم بالبداوة والهمجية، ومجد الفرس وملوكهم، وجعله العنصريون الفارسيون سجلهم التاريخي، ويحفظّونها أبنائهم؛ ليتربوا على عداوة العرب، وظهر شعراء آخرون يجاهرون بتعصبهم القومي، ومنهم عمر الخيام الصوفي وبابك الخُرَّمي والرودكي (جعفر بن محمد الرودكي السمرقندي ت٣٢٩ هـ) وغيرهم، وقد ازادت الشعوبية في عهد الدولة الصفوية، فقد ألبسها الصفويون ثوب الطائفية، فرفعوا شعار التشيع؛ ليستقطبوا العامة لولاية أنصار آل البيت، فقد ادعى مؤسسها إسماعيل الصفوي عميد الأسرة الصفوية النسب العلوي، وقد أكد المؤرخون الفرس أنفسهم أنه ولد من أم أرمنية وأب أذري (من أذربيجان)، وكان جده صفي الدين الإردبيلي شيخ طريقة صوفية سني، إلا أن المصلحة القومية والروح العنصرية دفعتهم إلى التلبس بلباس التشيع؛ لاستقطاب الأتباع، واصطنعوا لأنفسهم شعراء يستعطفون العامة بما وقع لآل البيت واتهام العرب بقتلهم، وبأنهم أتباع القتلة الأمويين، ودعوهم لمؤازرة أنصار آل البيت ومعادة العرب قتلتهم وأعدائهم، فغلاة الشيعة يصورون العرب بأنهم الأمويون قتلة آل البيت، وبأنهم سفيانيون (أتباع يزيد بن معاوية بن أبي سفيان)، ويتهمونهم بالنفاق وأنهم أحفاد الذين بدلوا بعد رسول الله ﷺ، وقد دأب الصفويون على توجيه أهل التاريخ والأدب ودعاتهم إلى ترسيخ ولاية آل البيت الذين عاداهم العرب، وتحالفوا مع البيت الأموي

الذي ادعى الإسلام كذبًا، واستباحوا سب الخليفتين أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقادتها وكبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين شاركوا في فتح بلاد فارس بدعوى محبة آل البيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأنهم لم ينتصروا لولاية علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقبلوا القيادة بإمرة من سلباها (أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) من آل البيت، وأنهم تآمروا على إقصاء آل البيت عن الخلافة، التي جعلوها أصلًا من أصول الإيمان، ويكفرون من لا يراها حق آل البيت، والحقيقة أنهم يبغضون من كانوا سببًا في دخول الإسلام بلادهم لفرط تعصبهم القومي، فمعظم الفرس يقدمون قوميتهم على دينهم في الولاء، وظلوا يتشبثون بالتشيع؛ ليظلوا بمعزل عن دول تجمعهم بالمسلمين في القرون الأخيرة، فالعصبية القومية ضد مصالح الدين والانتماء إليه، ومن أشهر كتب الشعوبية الصفوية التي تطبعت بالتشيع كتاب "بحار الأنوار" لمحمد باقر المجلسي، وهو مائة وعشرون مجلدًا، وفيه مرويات التشيع والشعوبية والطائفية، وطعون في كبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وبعض أمهات المؤمنين (عائشة وحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)، وكتاب "مفاتيح الجنان" لعباس القُمي، وهي أدعية منسوبة لعلي وبعض آل البيت، تشكوا غدر المسلمين وتذكر مصارع آل البيت، وتجدد أحزان الشيعة، وتستبكيهم، فينتحبون، ويلطمون ويخمشون وجوههم، ويشققون ثيابهم، وسميت بالطميات، وبعض الخطاب الإيراني المعاصر يستخدم خطاب الشعوبية في حديثه عن العرب، فيسميهم الأعراب والبدو والقبليين، وقد اصطنع لنفسه جيوبًا رافعة شعار التشيع في البلاد العربية، تحالفه على أوطانها، وتتحرك بتوجيه منه، وساهمت في إسقاط أوطانهم، وما زال الخطاب الشعوبي - مدعي التشيع - يطعن على العرب، وينال من رموز الفتح الإسلام، وينكرون أن أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من آل البيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويخصون أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بأقذع الشتائم والصفات، فقد دكت جيوش الفتح الإسلامي قلاع الفرس في خلافتيهما، ويغالون في علي وآل بيتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقد صنع بعض القوميين الأتراك صنعهم، فخدعوا العامة بشعارات الإصلاح والتنوير والحرية، وساعدوا القوميين العرب بما قدمه الغرب لهم من دعم مادي في التمرد على الخلافة العثمانية، فالقوميون الشاميون تعرفوا على القومية الحديثة من الغرب، وأثناء إقامتهم في عاصمة الخلافة واتصالهم بالقوميين الأتراك، ثم عادوا يدعون أقوامهم للثورة

على ما سموه "الاحتلال العثماني". وقد أغرى الإنجليز الحسين بن علي بالحجاز بالثورة على العثمانيين، ومدوه بالمال والسلاح، فأعلن انفصال الحجاز عن الدولة العثمانية، وساعد الأمريكان الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن (ابن سعود بنجد) نكاية في الإنجليز وحليفهم ابن علي، فأعلن نفسه ملكًا، وقام المأجورون العرب بتخريب سكك الحديد التي تصل إلى الأرض المقدسة؛ لئلا يستخدمها العثمانيون، فتمكن الغرب من هزيمة العثمانيين، وأسقطوا آخر خلافة جامعة للمسلمين، وأعلن سقوطها القوميون الأتراك ١٩٢٤م، وقسم الاحتلال بلاد العرب، وارتد العرب إلى التناحر القبلي القومي على عبية الجاهلية، ولا شك أن سلوك بعض العرب وعصبيتهم كانا مثار النزعات الشعوبية في القوميات الأخرى، وقد حاول بعض الدهريين المصريين والشيوعيين والنصارى افتعال حركة ترتد بمصر إلى النزعة الشعوبية الفرعونية في النصف الأول من القرن العشرين، ولكنها لم تجد أعوانًا أمام رسوخ الإسلام في أفئدة المصريين، فلجأوا إلى إضعاف الوازع الديني واللغة العربية والهوية الإسلامية، ولكن المصريين سرعان ما يستعيدون عافيتهم وهمتهم، وينهضون من كبوتهم أكثر قوة وإيمانًا.

وتسمية "الخليج العربي" (أو الخليج الفارسي) الذي تتناوب عليه القوات التي تفرض نفوذها، تمثل أزمة قومية بين المسلمين، فالعرب النفطيون يرونه عربيًّا بعد قيام ممالكهم عليه وارتباطهم الحيوي به، فهو منفذهم الحيوي إلى العالم، وإيران الفارسية تتمسك بتسميته التاريخية واستحواذها عليه قديمًا قبل أن تنشأ ممالك العرب الحديثة، والخليج عند القوات الدولية الاقتصادية مصدر الطاقة وسوق بضائعهم، ويعد عربيًّا بركان التوتر الكامن، الذي ينتظر من يفجره، وقد طرح السادات "الخليج الإسلامي" بديلًا له لاحتواء الخلاف فأبته النُّعرة القومية في الجهتين، وهو طرح حكيم محايد، بيد أن أطراف النزاع ضيعت عرضًا يستحيل الآن في ظل تمركز البوارج الغربية فيه وبناء القواعد العسكرية التي جعلته منطقة نفوذ غربي، فالغرب لن يقبل الإسلام موازيًا له في منطقة نفوذه الغنية ومصدر طاقته ومخزنه الحيوي (الإستراتيجي) وبئره المغداق، والعجاب أن الخلاف في التسمية، وليس في وجود الدخلاء فيه، والغريب أيضًا أن وسائل الإعلام تتغاضى عن هذا الوجود، بينما تستنكر وجود مظاهر إسلامية وعربية في المجتمع، وهذا

الخلاف في التسمية يفضح النزعات القومية التي تتستر وراء أقنعة دينية ما تلبث أن تسقط عند تشظي الوضع السياسي.

ولكن ما زال التعصب العربي في الجهة الأخرى قائمًا في دول الجزيرة العربية التي تصنف العرب الوافدين من العراق والشام وشمال أفريقيا أجانب، ويتوهمون مثلًا أن المصريين فراعنة جبارون، ويخشون تمردهم وبطشهم في ثورتهم، وبعضهم يتوهمهم بني إسرائيل.

وشيجة الأُخوُّة في الأمة[1]:

الأُخوَّة من الفعل: أخا، يأخو: أُخوة وإخاوة: يقال: أخا المولود أخاه: صار أخًا، وآخى المسلم جاره: اتخذه أخًا، والأخوة اصطلاحًا: أواصر الصلة الحميمة بين جنس البشر.

أنواع الأخوة في الأمة:

الأخوة بين البشر ثمانية على هذا الترتيب في الإسلام:

أولها: أخوة النسب أو الرحم (الأخوة لأبوين أو لأحدهما)، وهي الأولى في الميراث وصلة الرحم والدية والكفالة.

والثانية: أخوة القرابة: القرابة من الدرجة الثالثة فما فوقها، (وتكون في العائلة والعشيرة)، وحقوقها: الصلة والبر والمشاركة في الدية (العاقلة).

والثالثة. أخوة المسلمين في الإسلام (وشيجة العقيدة).

والرابعة: أخوة الجوار: حقوق الجوار في المسكن والقرية والمدينة، وهي عامة، وليست خصيصية المسلمين.

والخامسة: أخوة الوطن أو الأخوة الشعبية بين أبناء الوطن.

---

(١) أُخوَّة من الفعل: أخا، يأخو: أخوة وإخاوة، صار أخًا، واتخذه أخًا،، بعض ضعاف المؤنة يستنكفون من دعوة غير المسلم بأخى؛ توهمًا أنها تدخل في ولايتهم العقدية والتحزب لهم والانتصار لهم على أخوته في الدين.

والسادسة: أخوة القومية بين جيل من البشر، كالعرب أو الفرس أو الترك أو الهنود والكرد والأمازير.

والسابعة: أخوة المجتمع، القائمة على التعاون في المصالح المشتركة والمعاملات بين البشر.

والثامنة: أخوة الناس في الخلق أو البشرية (أخوة الجنس العام التي تجمع أجياله)[١].

والأنواع الثمانية معًا للمسلمين، وليست كلها لغيرهم، فالمسلمون باعتبار قرابة النسب والمصاهرة إخوة لأبوين (وشيجة أخوة الرحم)، وباعتبار القرابة إخوة في العشيرة والقبيلة (أخو العشيرة وأخو القبيلة والقوم)، وباعتبار الدين إخوة في العقيدة (وشيجة الإيمان)، وباعتبار المسكن إخوة في الإقامة، التي تستوجب حقوقًا مشروعة على قاطني المكان، وباعتبار الأرض أو الوطن إخوة في الوطن (الآصرة الوطنية ولُحمتها)، وباعتبار الجيل البشري أو العرق إخوة في القومية كالقومية العربية، وباعتبار التعاون في المصالح والمعاملات إخوة في المجتمع، وباعتبار البشرية من لدن آدم إخوة في الجنس البشري. والأخوة الوطنية توسع في المعنى أو تعبير مجازي مثل أبناء الوطن والنسيج الوطني، وكل الأنواع السابقة توسع في المعنى عدا أخوة النسب، وهذه العلاقات مستفادة مما جاء في القرآن الكريم ومن طبيعة العلاقات البشرية التي تستوجبها.

وللمسلم شرعًا أن يقول لغير المسلم "أخي" بمقتضى النسب القريب من آدم، وباعتبار التشارك في الوطن ومصالح الدنيا المشتركة والتعايش الاجتماعي، وكان المسلمون يدعون غيرهم أخا العرب وأخا العشيرة وأخا القوم، وقد جاء لفظ الأخ مضافًا إليه إضافة نسبة مثل قوم هود وصالح وشعيب - عليهم السلام - والإضافة هنا

(١) جاء منسوبًا إلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه عن الرعية: "إنّهم صنفان؛ إمّا أخ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتَعرِض لهم العِلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ أن يعطيك الله من عفوه؛ فإنّك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولّاك بما عرّفك من كتابه، وبصّرك من سنن نبيّه ...".

تفيد أن المضاف داخل في المضاف إليه، والدخول هنا في الرحم أو المكان، فبعض الأنبياء - عليهم السلام - كانوا من أقوامهم، وبعضهم كانوا نزولًا على أقومهم (قوم الدعوة) مثل لوط عليه السلام، وكلهم أرسلوا إلى أقوامهم خاصة، وأرسل النبي ﷺ محمد للناس كافة (رسول العالمين)، وكذلك لفظ ابن، مثل بني الرجل وبني آدم وبني إسرائيل، وهو يفيد علاقة الرحم، فالأُخُوّة ليست دينيّة فقط كالتي بين أهل الإيمان في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]؛ بل هناك أُخُوّة قوميّة، وأخوة وطنيّة، وأُخوة بشريّة.

وقد جاء القرآن الكريم بقَصص من كذبوا إخوانهم من الأنبياء والرُّسل، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الشعراء]، و ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء]، و ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الشعراء]، الأخوة هنا في القرابة القبلية.

والمنهي عنه قطعًا أن يتخذ المسلم غير المسلم أخًا له في الدين العام الذي يتأولونه من لفظ "مسلم" في خطاب الأنبياء - عليهم السلام - والذي جاء لمعنى الانقياد والطاعة والخضوع لله تعالى، ولا يعني دين الإسلام خاتم الأديان الذي دعا إليه النبي محمد ﷺ، فأهل الكتاب مخالفون لنا في الاعتقاد ومنكرو القرآن الكريم ونبوة النبي ﷺ، ويسمون في الاصطلاح الشرعي كفارًا، أي: جاحدون ومنكرون للدين الإسلامي، ونحن عندهم كذلك، فهم يعدون دينهم الدين الحق، فالأخوة في الدين لا تثبت إلا لأهل الإيمان قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة]، فالأخوة هنا مقيدة بالدين.

وقد أطلقت الأخوة على علاقة المواطنة (المقام)، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [الشعراء]، فقد كان مهاجرًا من العراق مع عمه إبراهيم - عليهما السلام - وأمره الله تعالى أن يتوجه إلى أهل سدوم، فأقام بينهم، وأطلق القرآن الكريم عليه أخاهم، وليس على دينهم ولا منهم[1]، والعجيب أن ينكر بعض

(١) الأيكة: الغيْضَة الكثيفة الملتفة الشجر، قيل كانوا يعبدونها، أو عبدوا شجرة عظيمة فيها، وهم أصحاب مدين، (قيل أصحاب الأيكة: كانوا بوادٍ كثيف الأشجار قرب مدين، والراجح أنهم أصحاب مدين الذين =

المتأولة أخوة الوطن، ويتبرؤون من أخوة الكتابيين، بينما ينسبون أهل الفاحشة إلى من حاربهم فيها، ونهاهم عنها، وسموهم اللوطيين! والصواب تنزيه نبي الله لوط عليه السلام وتسميتهم "أصحاب فاحشة قوم لوط" أو "الذُكرانيين" أو "الذكوريين" أو "الشواذ" أو "المثليين" (Homosexuals) (من يأتون الذكران)، وقد أنكرت تسمية "اللواط" في التسعينيات، فاحتُج علي معارضي ببعض العلماء المتقدمين، وهذا منهم من قبيل السهو البشري العفوي غافلين عن علاقته بالمشتق منه، والأصل في الاصطلاح أن ينسب المذهب والنحلة والفكرة والبدعة والاختراع والسلوك الشاذ إلى أصحابه، وعليه فاللواط اصطلاحًا: فاسد؛ لأنه ليس منسوبًا إلى صاحبه، والصواب: فعل قوم لوط وفاحشتهم (Sodomy) والذكرانية والشذوذ المثلي (Homosexuality gay).

والأخوة ليست مطلقة في كل وطن، فلا يستوي أهل الكتاب من أبناء الوطن وكذلك من اتخذوه وطنًا غير ملفوظين، وأدوا حقوق المواطنة طائعين لمهجرهم، مع أولئك المحتلين الدخلاء، فالأولون إخوة في الوطن، ولا ترفع أخوتهم شائبة أو خصومة أو فتنة، والآخرون أعداء ما بقوا، فاليهود الصهاينة الذين أتى بهم الاحتلال غزاة أعداء، واليهود من أبناء الوطن في الأقطار الإسلامية إخوة، فأهل الكتاب في كل بلاد الإسلام وخارج ديار الإسلام إخوة المسلمين في أوطانهم، والفُقهاء المتقدمون قالوا عن أهل

=

عبدوها، وأن هذا البستان كان قرب مدين)، وهم قوم سيِّدنا شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. وقيل كان شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من عقب لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأرسله الله تعالى إلى عبدة الأيكة (الحديقة ذات الشجر الكثيف) قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [الشعراء]، وقيل إن أصحاب الأيكة ليسوا أهل مدين، ولَم يكن شعيب منهم، وإنما كان من مَدْيَنَ؛ ولذا قال في سورة أخرى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود:٨٤]، الراجح أن أهل مدين اتخذوا الأيكة (شجرة بها أو حديقة، وكانت قرب مدينتهم مدين)، والتركيب الإضافي: أصحاب كذا، يعني: أتباعه، ومن قول النبي ﷺ في عبد الله بن أبي: "دَعْه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه"[رواه البخاري]، الناس: مشركو العرب خصومه ﷺ، يقولون تضليلًا، فليس عبد الله بن أبي بن سلول صاحبه، بل كان رأس المنافقين باغيًا هدم الإسلام، وسمعت أحد الرويبضة الصحفيين يطعن في صحة أحاديث البخاري بذكر هذا الحديث، ودليل طعنه فيه أن الحديث ذكر أن ابن سلول من أصحاب محمد ﷺ، وقد أنكر هذا، وكذب الرواية، وغفل عن أن القائل أمثاله من خصوم الإسلام.

الذمة (أهل الكتاب في بلاد الإسلام): هم من أهل الدار، أي: دار الإسلام، والبشر جميعهم إخوتهم من لدن آدم، وهو النسب البعيد.

ومن أخطاء المسلمين المعاصرة أنهم أضروا بوطنية المسلمين في أوطانهم غير المسلمة، إذ يسمونهم في بلادهم بأنهم في ديار الكفر والشرك، وهذه التسمية الفقهية تستخدم في الحديث عن قضايا الدين والحروب لما يترتب عليها من أحكام شرعية، فهم كفار ينكرون الشريعة، ولا يستخدم هذا المصطلح في المواطنة والإقامة والمهجر، فالأرض التي يعيش فيها المسلم وطنه بمقتضى الشرع وعرف هذا الوطن في المواطنة[1]، ولا يصح أن يسمي المسلم وطنه ذا الأغلبية غير المسلمة بلاد العدو والكفر، والمنهي عنه في بلاد الكفر مشايعة الكفار على كفرهم واكتناف معاصيهم.

وليس للمسلمين في بلاد المسلمين أن يدفعوا الأقليات المسلمة إلى الانشقاق أو الهجرة إلى أرض الإسلام في زمننا استدلالًا ببعض النصوص؛ لتغير مفهوم المواطنة والعلاقات بين الدول؛ فلم تعد أرض الإسلام المتحدة إداريًّا وسياسيًّا مشاع كل المسلمين، بل صارت دولًا، تعد المهاجرين المسلمين أجانب، واختلفت الرؤية الاجتماعية للغرباء، فالأولى بالمسلم وطنه، وبعض ضيقي الأفق يرتدون إلى أرض

---

(١) الأصل أن يقيم المسلم بوطنه، وألا يتركه، وهو آمن على دينه ونفسه وعرضه وماله، وأن يؤدي حق وطنه عليه، وإذا أوذي أو فتن عن دينه، وجبت عليه الهجرة إلى بلد يستطيع فيه إظهار دينه ويأمن فيه على نفسه، ولا علاقة لهذا بكون الدار كفر أو لا، فمتى تحقق الأمن للمسلم واستطاع إظهار دينه وموالاة المسلمين والبراءة من الكافرين في الدين لم تجب عليه الهجرة، قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "دلت سنة رسول الله ﷺ على أن فرض الهجرة على من أطاقها، إنما هو على من فتن عن دينه بالبلد الذي يسلم بها؛ لأن رسول الله ﷺ أذن لقوم بمكة أن يقيموا بها بعد إسلامهم؛ العباس بن عبد المطلب وغيره إذا لم يخافوا الفتنة، وكان يأمر جيوشه أن يقولوا لمن أسلم: "إن هاجرتم فلكم ما للمهاجرين، وإن أقمتم فأنتم كأعراب"، وليس يخيرهم إلّا فيما يحل لهم.

وليس لمسلم دون سلطان أن يغير منكرًا بيده يجلب مفسدة أعظم في بلاد الكفر والإسلام، ولكن تجب عليه النصيحة وأن ينكر، وليس له في بلاد الكفر إلا النكران والنصيحة والدعوة إلى الدين بالتي هي أحسن، قال النبي ﷺ: "فإن لم يستطع فبقلبه"، فال الإمام ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معناه فليكره بقلبه، وليس ذلك بإزالة وتغيير، لكنه هو الذي في وسعه ...، وفي هذا الحديث دليل أن من خاف من القتل أو الضرب سقط عنه التغيير، وهو مذهب المحققين سلفًا وخلفًا".

الإسلام، وهي في ردة على نفسها ومنقسمة ومتقاتلة، ولو ترك المسلمون أوطانهم هجرة إلى أرض الإيمان، لتركوا العالم خلوًا لأعدائه، وقد حضنا الله تعالى على الانطلاق في مناكب الأرض الواسعة، وليس العودة إلى ضيق منها، ولو صح تفسيرهم الآية، لبقي الإسلام في جزيرة العرب لا يبرحها، وأصل الدعوة أنها للناس جميعهم، وقد انطلق الصحابة في الأرض، وبشر النبي بأن الإسلام سيبلغ أطراف الأرض، وهذا خلاف التوقع والردة المستحيلة والانهزام، فالمسلمون في بلادهم مرابطون ودعاة، ولهم من الأجر إن شاء الله، ما لا يبلغه هؤلاء الراتعون الذين يتفيهقون بخلاف مقاصد الدين والانتشار في الأرض، وقد دخل الإسلام أطراف آسيا بكفاح قلة مؤمنة احتسبت أجرها عند الله، فصارت أوطانهم إسلامية خالصة، وهذا خير سبيل للمسلمين في الهند وروسيا وكل وطن فيه مسلمون.

يجب أن نفهم المواطنة فهمًا صحيحًا فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، فهي. لا شك. وشيجة قوية تدعم وجود الإسلام في كل الأوطان ذات الأغلبية غير المسلمة، فالمسلم المنتمي لوطنه يستطيع أن يقدم للإسلام فيه ما يعجز عنه المسلمون الوافدون إليه للدعوة أو المنفعة الدنيوية، فالمواطنون الغربيون المسلمون يؤثرون في القرار السياسي، وتعتد السلطة بنفوذهم في أخذ القرار، وقد تستميلهم لمصلحة ببعض القرارات الإيجابية لصالح الإسلام والمسلمين، وهم الذين يواجهون النفوذ الصهيوني في القرار الغربي، ولا شك أن زيادة عدد المسلمين في الدول غير المسلمة في صالح الإسلام، وقد استفادت إسرائيل من نفوذ الصهيونية في الغرب أيما استفادة، وبقاء الكيان الصهيوني في فلسطين قيد الحماية الغربية، ويخطط الآن في ترسيخ صهيونية جديدة له في الصين خاصة وشرق أسيا؛ لتكون حماية أخرى احتياطية لوجودها في العمق الإسلامي بعد أن تتابعت أزمات الغرب، والصين أرض خصبة للدعوة الإسلامية يتجاهلها المسلمون، وهي تبادر بعلاقات اقتصادية وثقافية، وتوجه بعض أبنائها إلى تعلم العربية ومعرفة ثقافة المسلمين، والمسلمون يتحركون نحوها رويدًا، وقد استبقتهم إليها الصهيونية؛ لتكون قوة أخرى تتحيز إليها، وتعادي المسلمين.

وبعض العلماء حملوا الأخوة على معنى الصاحب في العمل والرفيق والقائم به، يقال:

أنا أخو فلان، يريد المتكفل بأمره خيرًا أو شرًّا، مثل: أنت صاحبه، أي: الذي فعلت به كذا، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨] ، أي: إمامكم في التوحيد، أي: الأب الروحي، وفسروا به حديث: "الخلق عيال الله"(١)، أي: المتكفل بهم والراعي والضامن، وحمل عليه العلماء تفسير (روح الله)، أي: روح من الله، باقتضاء نسبة الإضافة، ومثله: فضل الله، ورحمة الله، ولا تحمل هذه التراكيب على الحقيقة، ولكن اليهود والنصارى أرادوا حقيقة بنوة النسب، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ﴾ [المائدة:١٨]. قال الحافظ ابن كثير: "قال تعالى رادًّا على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) أي نحن منتسبون إلى أنبيائه عليهم السلام، وهم بنوه، وله بهم عناية، وهو يحبّنا"(٢)، قالوا هذا تعاليًا وغطرسة وغرورًا، وهم باغون عصاة، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ [النساء]، هذه الآية نزلت في اليهود والنصارى لمّا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فردَّ الله تعالى عليهم هذا الثناء منهم

---

(١) حديث ضعيف، ذكره ابن عدي في الكامل (١٦٢/٥) (٣٤١/٦، ٣٤٢) (١٥٣/٧، ١٥٤)، وابن حبان في المجروحين (٢٣٨/٢)، والنووي في فتاواه (٢٥١) رقم (١٠)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٩١/٨)، والألباني في السلسلة الضعيفة، رقم (١٩٠٠). وجاء في متى تركيب "أبوكم الذي في السماوات"، قال المسيح: "سمعتم، إنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم؛ لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين؛ لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم؟ أليس العشارون أيضًا يفعلون ذلك؟ وإن سلمتم على إخوتكم فقط، فأي فضل تصنعون؟ أليس العشارون أيضا يفعلون هكذا؟ فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل" [متى ٥: ٤٣ – ٤٨].

(٢) تفسير ابن كثير، ج ٢/ ٥٢٩، وجاء في العهد القديم ما يؤكد استعلاء اليهود على البشر، وتميزهم العرقي على من عايشوهم، وأكد العهد الجديد هذا: "فقالت له المرأة السامرية كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية؛ لأن اليهود لا يعاملون السامريين"[يوحنا ٤: ٩].

لأنفسهم، ثم وصف هذه المقالة منهم بأنها افتراء الكذب على الله، وأنه كفى بمثل هذه الكذب إثمًا واضحًا عظيمًا، وقد أكد اليهود تعصبهم العرقي الانتقائي بنسب متصل من آدم في فترات زمنية مجهولة ما لهم بها من علم، وقد فسر النصارى كلام المسيح عليه السلام تفسيرًا لفظيًّا في مواضع من خطابه، وتأولوا بعضًا منه؛ لمعنى يريدونه، فمما حملوه على لفظه "أبي" الذي في السماوات بمعنى أنه ابنه، وهم يتأولونه في صلاتهم "أبونا الذي في السماوات" بأنه الرزاق العاطي، ومما تأولوه قوله "إلهي"، أنه يريد روحه في الأعالي، ومن أدلتهم المشهورة في إقصاء الدين عن الدولة استجابة للدهرية الأوربية "ليست مملكتي في هذا العالم"، توهموا أنه يريد التأله في السماء، وأنه ترك ملك الدنيا للملوك الظالمين، والخطاب في سياقه التاريخي، أن اليهود ادعوا في وشايتهم به للرومان أنه يريد أن يكون ملك اليهود، وأنه يدعوهم للتمرد على الإمبراطورية الرومانية، فأنكر أن يكون رئيس العصاة الفاسدين منهم، أو أن يكون على فعالهم الشريرة، وأنهم زعموا رئاسته عليهم، وقد حاولوا توريطه من قبل برأيه في الضريبة التي فرضها الروم عليهم، فقال: "أَروني نَقْدَ الجِزيَة". فَأَتَوهُ بِدينار. فقالَ لَهم: "لِمَن هذه الصُّورَةُ وهذه الكِتابة؟" قالوا: "لِقَيصَر". فقالَ لَهم: "أَدُّوا إِذًا لِقَيصَرَ ما لِقَيصر، ولِلهِ ما لله" - وقد ورد بألفاظ أخرى، وتأوله بعض النصارى على وجوه في الحياة العامة دون السياسة - وهو جواب ناجع على من ابتغوا به الوقيعة، فلم يمالق السلطة، بل فصل بين قراراتها الدنيوية وبين شرع الله، وهذا جوهر الشريعة الإسلامية. وهذا النص ليس حجة على فصل الدين عن الدولة، ففهمه بهذا المعنى ملزم للنصارى، وهو تفسير متأخر؛ لأن الكنيسة حكمت أوربا، وعرفت مملكتها بالمملكة الإلهية في القرون الوسطى، ولا يصح أن يقال إن المسيح أقصى الدين عن ضبط معايش الناس ومصالح، فقد أراد الغرب به حبس الدين داخل جدران الكنيسة وتحرر المجتمع، وقد سدت فلسفتهم الدهرية محل الدين.

والمنهي عنه نهيًا شرعيًّا قطعيًّا مولاة أهل الكتاب في الاعتقاد وعداوة المسلمين والفساد، وهذا نهي عام عن كل أهل الضلال، ولو كانوا منتسبين إلى الإسلام أمثال الدهرية المتزندقة، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا

بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤] ، وقد كانوا وثنيين. ولا يجوز وُد من يجاهر بعداوة الإسلام والمسلمين، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة]، وهي في شأن مشركي العرب الذين قاتلوا أهل قرابتهم المسلمين في الدين حتى فروا من وطنهم، ولم يرقبوا فيهم حق الرحم، فنهاهم الله عن ودهم؛ لما يجلبه من المفسدة العظمى على الدين، ولم ينههم الله تعالى عن صلة أقاربهم الذين لم يقاتلوهم في الدين، ولم يخرجوهم من وطنهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾ [الممتحنة] ، وحكم أهل الحرب على الإسلام من أهل الكتاب كحكم أهل الحرب من مشركي العرب، في النهي عن ودهم وموالاتهم ظهارًا على المسلمين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة]، المراد محالفة أهل الحرب منهم أو الانتصار لهم على الإسلام، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ [المجادلة:٢٢]، نزلت في شأن مودة بعض المسلمين أقاربهم من كفار العرب الذين يحاربون الإسلام ويقاتلون المسلمين، فهؤلاء أعداء مثل أعداء الوطن؛ لأنهم عادوا إخوانهم في النسب والوطن تعصبًا وفتنة، وتنزيل النهي هنا في عدم جواز محالفة الدول المحاربة للدول المسلمة، ولا تحمل الآيات السابقة على تحريم التعاون في مصالح الحياة بين الأمم ومصالح الوطن بين مواطنيه، والتعاون بين أبناء الوطن أولى؛ فالشقاق بينهم مفسدة في الدين ومصالح الدنيا، فقد صالح النبي ﷺ يهود المدينة على حرية الاعتقاد، والأمان لساكني المدينة، والدفاع المشترك، والتعاون في مصالح المدينة العامة، وصالح بعض قبائل العرب المشركة المسالمة عسكريًّا

واقتصاديًّا[١]، وظل أهل الكتاب في سلطان الإسلام آمنين في السلم والحرب مع نصارى بلاد الكفر، وقد انتفع المسلمون بهم في شئون الحياة، وارتقوا - وهم على دينهم - منازل في الدولة، لم يبلغها المسلمون في بلاد الكفر، وقرَّب السلطان منهم أهل العلم والخبرة والصنعة، وجعلهم صدر مجلسه، بل انتدب بعضهم من خارج ديار الإسلام، واستعان بهم في ضروراته، وعاشوا بين ظهراني المسلمين آمنين على دينهم.

وليس المراد - فيما تقدم - إقصاء من في دار الإسلام؛ فقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى أهل السلم منهم والعدل فيهم، ونهى عن اضطهادهم وعنادهم، وأمر بمناقشتهم في عقيدتهم بالحسنى دون تنفير أو تحقير، قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال تعالى في الارتقاء في أدب مخاطبتهم: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [البقرة:٨٣]، وأخوة الوطن قائمة فيه، وإن شابها الشقاق، وأخوة الدين مقطوعة بمخالفته ومفارقته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ [الحجرات:١٠] في الدين وفي الحرمة لا في النسب، فإذا اختلفت أديانهم، افترقوا في النسب بإجماع العلماء، واجتمعوا في الوطن أو في النسب من آدم وحواء، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦ ﴾ [هود]، انقطعت آصرة النسب من أبيه التي استوجبها الله للأرحام بكفره، فنهاه أن يسترحمه له؛ لأنه لم يرحم نفسه، وهو الأولى بها، والمراد وشيجة العقيدة، وليس النسل أو الدم، فالمسلمون ظلوا على أنسابهم الجاهلية.

---

(١) عقد النبي ﷺ بعض الأحلاف مع بعض قبائل العرب المخالفة لقريش؛ توازنًا مع أحلاف قريش التي عقدتها مع قبائل المشركين، فقد حالفت كنانة قريش، وقد قامت قريش وأحلافها من كنانة وقُضاعة اليمنية بإخراج قبيلة خزاعة وبني بكر من مكة، وتولت قريش مقاليد البيت، فلما جاء الإسلام تحالفت خزاعة مع النبي ﷺ تحديثًا لحلف سابق مع جده عبد المطلب، ودخلت بنو بكر مع قريش في صلح الحديبية، وكانت بعض القبائل تحالفه ﷺ؛ لكثرة ما بها من المسلمين، وقد كان النبي ﷺ يستعين بالمشركين على المشركين فيما أمن فيه المفسدة، ويمتنع عن الاستعانة بهم؛ خشية المفسدة مما أطلعه الله عليه، وتقتضي الحياة المعاملة مع كل الناس في المنفعة دون مضرة.

وقد عزَّز الله تعالى صلة الدين، وجعلها الأخوة الحقّ الباقية، ولو اختلفت الأنساب وتباعدت، قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠]، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥]، فأخوة الدين أسمى من أخوة النسب، وقد جعلها الله نسب كل المسلمين.

وقد شاع في الخطاب الحداثي مصطلح "الآخر" على أنه نقيض الأول وضده، وهو مفهوم غربي دخيل، فالآخر في التراث اليوناني الغريب الهمجي المبعد، وميزوه بالبربري، ووصف الغربيون المعاصرون به المخالف في العرق واللغة والدين واللون والمشارب الثقافية، فالآخر العربي في الخطاب الغربي، وهو يحمل دلالة العدو والخصم المصارع والخطر الأعظم والهمجي عدو الحضارة، ولم يأت في القرآن الكريم بهذا المعنى، والصواب أن الآخر بقية الأول وتمامه، وقد استخدم رب العالمين تسمية لعباده كلمة "الناس" و"يا بني آدم" الجامعة لمؤمنهم وكافرهم، ولم يميز الإسلام بين الناس في بشريتهم، ولكنه عرف من آمنوا بالله تعالى بالمؤمنين، وعرف من أنكروا ألوهية الله تعالى بالكافرين في الخطاب الديني، ولكن اللفظ الجامع في الخطاب البشري "الناس" و"بنو آدم"، وتوسع الخطاب في استخدام الآخر في عموم الخطاب، فجعلوا أبناء الوطن الكتابيين "الآخرين" بمعنى الأضداد والمخالفين في عرف المصطلح الغربي الدخيل، وليسوا كذلك في الخطاب الاجتماعي، ومن آفات الخطاب الإعلامي أنه يأتي بالدخيل وبالأكاذيب المفتريات، ثم يشيعها في الجمهور، ثم يجعلها حجًا ومسلمًا يجادل عنها، ويحاسب الإسلام عليها، كفعل الكفار الذين صنعوا أوثانًا آلهة، ثم جادلوا الأنبياء – عليهم السلام – فيها، قال تعالى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف].

الاستعانة بالأجانب والكتابيين في مصالح الأمة والحروب:

الاستعانة بالناس عامة في شئون الحياة العامة والمنفعة جائز فيما أَمِن فيه المسلمون على دينهم وأرواحهم وأوطانهم ومصالحهم، ويقدم المسلمون من خارج ديار الإسلام على غيرهم، فهم الأقرب بمقتضى أخوة الدين، وهم الأولى بالمنفعة، والاستعانة بغير المسلمين من بلاد العرب في بلاد العرب أولى من الأعاجم غير المسلمين، فهم إخواننا في العروبة واللسان والمصلحة العامة، وهو أنفع لنا من أقاصيهم؛ لأنهم في ذمة إخوة لنا في البلاد المسلمة.

والاستعانة بالمواطنين الكتابيين الوطنيين من أبناء الوطن في مؤسسات وطنهم أحق وأولى من الوافدين، وعملهم بالجيش والأمن ليس فيه موانع شرعية، فهم في ذمة مسلمي الدولة، وأبناء الوطن، وشركاء في المصالح العامة والأمن وحماية حمى الوطن بمقتضى دستور الدولة (عهد المواطنة فيها) وهواهم الوطني؛ لترسيخ ولائهم للدولة ولتأكيد مسئوليتهم الوطنية، وأنهم شركاء إخوانهم المسلمين في تأمينه وحفظ مصالحه؛ فهم أبناء الوطن يصيبهم ما يصيب إخوانهم المسلمين، ولهم فيه ما للمسلمين في الوظائف والمصالح العامة، فحكمهم في الوطن أنهم منه وهم مؤتمنون عليه، وليسوا كالأجانب فيه، ولا يحتج هنا ببعض من خانوا أوطانهم منهم، ولا بأفعال بعض يهود دار الإسلام الذين عزّزوا الصهيونية بهروبهم إليها، وناصبوا أوطانهم السابقة العداء، وقاتلوها؛ فهؤلاء عوارض في كل أهل الملل، ولا يعتبر هنا بآراء من هاجر منهم، وانقلبوا يطعنون في وطنهم، وصاروا عملاء خصومه، والاعتبار بحفظ ذمتهم. ما استقاموا. وبأصل دعوة أنبيائهم - عليهم السلام - (عبادة الله الواحد الحق ﷻ)، وجُل ما عليه جمهورهم من الولاء الوطني.

وما ورد من أحاديث في شأن الاستعانة بالأجانب أو بغير المسلمين في الحرب على غير المسلمين له سياقه ومقامه في مهد الدعوة، وكله متعلق بالدعوة الإسلامية، وما طرأ من عوارض فيه يبحث في ضوء ظروف العالم الإسلامي ومصالح خصومه فيه، وأبعاد الحروب وأسبابها، وعلاقة الدول المشاركة بطرفي النزاع والأهداف السياسية، وهذا كله

في حرب خارج أرض الإسلام مع غير المسلمين، فالاستعانة بهم في أرض الإسلام على مسلمين (قتال طائفتين من المسلمين) لا دليل عليه من الكتاب أو السنة، وما ذكره بعض المتكلفين لمقاصد سياسية [١]، فلا يوجد دليل واحد قطعي في الشرع يحل دماء المسلمين المتنازعين فيما بينهم لغير المسلمين المتحيزين لإحدى الطائفتين، ولو كان تدخلهم في النزاع بقرار دولي (فالقرارات الدولية قرارات أصحاب القوة والمصالح، ولا تعتد بحكم الإسلام في صدورها)، ومن استدل بشيء عن رسول الله ﷺ في هذا من قريب أو بعيد، فهو مفتر عليه كذبًا.

وأتناول الأحاديث الثابتة والصريحة في طلب بعض المشركين القتال في صفوف المسلمين ضد أعدائهم؛ لأبين حكم التعاون العسكري بين المسلمين وغيرهم، وضوابط الاستعانة بهم في الحروب، وأشهر ما روي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رجلًا من المشركين كان معروفًا بالجرأة والنجدة، أدرك النبي ﷺ في مسيره إلى بدر في حَرة الوبرة[٢]، فقال: جئت لأتبعك، وأصيب معك، فقال له النبي ﷺ: "تؤمن بالله ورسوله؟" قال: لا. قال: "ارجع؛ فلن أستعين بمشرك". قالت: ثم مضى حتى إذا كنا في الشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال له أول مرة. فقال: "تؤمن بالله ورسوله؟" قال: لا. قال: "ارجع؛ فلن أستعين بمشرك". ثم لحقه في البيداء، فقال مثل قوله، فقال له: "تؤمن بالله ورسوله"، قال: نعم. قال: "فانطلق"[٣]. لقد رده النبي ﷺ قصد إسلامه؛ لما التمسه فيه حرصه

---

(١) القصد غرض المتكلم المستنبط من علاقة الخطاب بالمقام، والمراد هنا استنباط غرض رد غير المسلم حال الحرب؛ باعتبار مصالح الدعوة، وغرض الطالب من المشاركة في الحرب. ارجع إلى: تحليل الخطاب العربي، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة المتنبي، ص٤٨٧ وما بعدها.

(٢) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لصحيح مسلم، ج ١٢، ص ١٩٨ - ١٩٩ ما نصه: قوله: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا "أن النبي ﷺ خرج قبل بدر فلما كان بحرة الوبَرة"، قال النووى: "هكذا ضبطناه بفتح الباء، وكذا نقله القاضي عن جميع رواة مسلم، قال: وضبطه بعضهم بإسكانها وهو موضع على نحو من أربعة أميال من المدينة".

(٣) صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الجهاد والسير، باب: كراهة الاستعانة في الغزو بكافر، (٧/ ٢٨٦٤، ٢٨٦٥)، رقم (٤٦١٩). روى الإمام أحمد في مسنده عن خبيب عن عبد الرحمن عن أبيه عن جده، وفيه أن =

الشديد على المشاركة، قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولعله ﷺ إنما رد المشرك الذي رده في غزوة بدر رجاء إسلامه، قال: وذلك واسع للإمام أن يرد المشرك، ويأذن له"(١).

وروي عن خبيب بن يساف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: أتيت أنا ورجل من قومي رسول الله ﷺ، وهو يريد غزوًا، فقلت: يا رسول الله: إنا نستحي أن يشهد قومنا مشهدًا لم نشهده معهم. فقال: "أسلما". فقلنا: لا. قال: "فإنا لا نستعين بالمشركين". قال: فأسلمنا، وشهدنا معه الحديث(٢). وروى عن أبي حميد الساعدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: خرج رسول الله ﷺ يوم أحد حتى إذا خلف ثَنيَّة الوداع [اسم مكان قرب المدينة] نظر وراءه، فإذا كتيبة حسناء، فقال: "من هؤلاء؟" قالوا: هذا عبد الله بن أُبيّ بن سلول ومواليه من اليهود، وهم رهط عبد الله بن سلام، فقال: "هل أسلموا؟" قالوا: لا، إنهم على دينهم. قال: "قولوا لهم، فليرجعوا، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين"(٣)، وهذا أيضًا مثل

=

رسول الله ﷺ قال: "فلا نستعين بالمشركين على المشركين"، أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، حديث جد خبيب، رقم (١٥٨٠١)، وقال شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند: صحيح لغيره.

(١) قاله الحازمي في كتاب الناسخ والمنسوخ، ونقل البيهقي كلام الشافعي أيضًا.

(٢) رواه أحمد مرفوعًا، ورواه أبو نعيم في الحلية، ورواه أبو جعفر الرازي عن مسلم، ورواه البيهقي، ورواه الحاكم في صحيحه من حديث يزيد بن هارون، قال: أنبأنا مسلم بن سعيد الواسطي عن خبيب بن عبد الرحمن بن خبيب، عن أبيه عن جده خبيب بن يساف: ... وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وخبيب صحابي معروف، وذكره الحافظ الزيلعي في نصب الراية، ج ٣، ص٤٢٣ ثم قال: "ورواه ابن أبي شيبة، وإسحاق بن راهويه في مسانيدهم، والطبراني في معجمه من طريق ابن أبي شيبة. قال في التنقيح: ومستلم [بن سعيد] ثقة، وخُبيب بن عبد الرحمن [بن خبيب بن يساف] أحد الثقات الأثبات. والله أعلم".

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، والبيهقي في سننه والطبراني في أوسطه، ورواه الزيلعي في نصب الراية، عن إسحاق بن راهويه في مسنده، عن الفضل بن موسى عن محمد بن عمرو بن علقمة عن سعيد بن المنذر عن أبي حميد الساعدي، ورواه الواقدي في كتاب المغازي، ولفظه، فقال: "من هؤلاء؟" قالوا: يا رسول الله هؤلاء حلفاء ابن أُبيّ من يهود. فقال ﷺ: "لا نتصر بأهل الشرك على أهل الشرك"، رواه محمد بن موسى الحازمي في كتابه الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار، ورواه ابن سعد في طبقاته. وموالي ابن سلول من اليهود بنو قينقاع. ولعلهم الذين توهم بعض العلماء أنهم كانوا يشاركون في الغزو، والراجح عندي أن هذا الحدث في بدر، وأنه قد تظاهر بالإسلام بعدها؛ لأنه عرف في المنافقين يوم أحد.

سابقه، وهؤلاء قد خرجوا حمية ومغنمًا، ويخشى مفسدتهم، وقد شكل حزب ابن سلول وشيعته "المُثبطة أو ثلة النفاق" في الغزوات، وقد أحدثوا فسادًا عظيمًا في أُحد؛ إذ انخذلوا، وفتوا عضد المسلمين(١)، وكانت لهم فتن في الغزوات التي خرجوا فيها(٢)، ولم

---

(١) انسحب ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين زاعمًا أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضًا على قرار القتال خارج المدينة، قائلًا: "أطاع الولدان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا؟"، فأحدث رجوعه صدعًا في الجيش، وكادت بنو سلمة – من الخزرج – وبنو حارثة – من الأوس – أن تنخذل مع المنافقين، لولا أن الله ثبتهم مع المؤمنين، وقال الله عز وجل فيهم: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا...﴾ [آل عمران:١٢٢] ، وحاول بعض الأنصار رده، فأبى، واتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند انسحابهم، وأخذ يقول لهم: "أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم. فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه. قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه". وقد أنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [آل عمران]، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران].

(٢) أشهر فتنهم عقب غزوة المريسيع، فقد وردت واردة من الناس تستقي حول ماء "المريسيع"، ومعها الخيل والإبل، وتزاحم الدواب علي الشرب، وتدافع أحد المهاجرين، وكان أجيرًا لعمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع أحد الأنصار، وكان أجيرًا لعبد الله بن أبي، ووقع بينهما ما أثار الشر والغيظ، فصرخ الأنصاري: "يا معشر الأنصار"، وصرخ المهاجري: "يا معشر المهاجرين"، فغضب عبد الله بن أبي رأس المنافقين وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث. فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا. والله. ما عدنا وجلاليب قريش إلا كما قيل "سمن كلبك يأكلك" أما. والله. لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم حللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما. والله. لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم، وقد أخبر زيد النبي ﷺ خبرهم، فأنكر أبي، وكذبه، فأنزل الله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون] [رواه البخاري]، وقد افتروا حديث الإفك عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في غزوة بني المصطلق، وأصيب النبي ﷺ بهم عظيم، حتى برأها الله تعالى، وكاد أن تقع فتنة عظمى، ولكن الله تعالى سلم، وفضح أهل النفاق. وقال المنافقون في غزوة الأحزاب، والمسلمون في ضيق شديد، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب]، وقد انتصر ابن سلول لمواليه من يهود بني قينقاع عندما أراد النبي قتلهم لخيانتهم، فتركهم، روي عن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله =

يثبت أن رسول الله ﷺ " كان يغزو باليهود، فيسهم لهم كسهام المسلمين" بمقتضى وثيقة المدينة؛ لأنه ﷺ لم يشترط عليهم التعاون العسكري في الحرب في الدين خارج المدينة، بل التعاون في الدفاع عن حرم المدينة، وقد غدروا، وخرجوا لقريش وقبائل العرب سرًّا، يحثونهم على القضاء على المسلمين، فخرج نحو عشرة آلاف في الأحزاب، فصدهم الخندق، فاتفق بنو قريظة مع الأحزاب المشركة أن تدخل المدينة من جهتهم، وقد كان النبي ﷺ جدد عهده معهم على صد العدو من جهتهم.

وروى عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "أتى النبي رجل مقنع بالحديد، فقال: يا رسول الله أقاتل أو أسلم؟ فقال: "أسلمْ، ثم قاتلْ". فأسلم ثم قاتل فقُتل، فقال رسول الله ﷺ: "عمل قليلًا، وأجر كثيرًا "(١)، وهذا الحديث أيضًا أملًا في إسلام صاحبه، مع صحة دلالته على خطر وجود المشركين في جيوش الإسلام، فلا يؤتمن أن يكونوا شوكة في قلبه.

=

ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي وقام دونهم. ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان من بني عوف له من حلفهم مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم. فنزل فيه وفي عبد الله بن أبي: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [المائدة:٥١] حتى قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ [المائدة:٥٢]، يعني: عبد الله ابن أبي، إلى قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [المائدة:٥٦] ، يعني: عبادة بن الصامت. وهم أول من نقضوا عهد النبي بالمدينة (عهد الوثيقة) بعد بدر، فقد قتلوا أحد المسلمين الذي لبى استغاثة المرأة التي هزأ بها اليهود، ورفعوا السيوف على المسلمين، وقد كان تدخل ابن سلول سببًا في طلب الأوس العفو لمواليهم بني قريظة بعد الأحزاب، فقد أراد ﷺ أن يقتل مقاتلي بني قريظة بعدما تآمروا مع قبائل العرب، واستقدموهم سرًّا لغزو المسلمين، واتفقوا سرًّا على أن يدخلوهم المدينة من جهتهم بعد حفر الخندق، فاستسلموا بعد الحصار، وأمر النبي ﷺ بقتل مقاتليهم، فتواثبت الأوس، وقالوا يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا (يعنون يهود بني قينقاع) بالأمس ما قد علمت، فاحتكم إلى حكم سعد بن معاذ، فحكم بقتل مقاتليهم.

(١) صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الجهاد والسير، باب: عمل صالح قبل القتال، (٦/ ٢٩) رقم (٢٨٠٨). وروي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: أخبروني عن رجل دخل الجنة لم يصل صلاة؟ ثم يقول: "هو عمرو بن ثابت" الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بني عبد الأشهل.

وقد صح أن النبي ﷺ استعان بهم فيما رآه نافعًا في غير مضرة في غزواته الخارجية، فقد استعار بعض عدة الحرب من صفوان بن أمية، وهو مشرك، وكان يستفهم الأعراب عما يريده، ويستخبرهم عن مواضع الماء والعدو، وهو في طريقه للغزو، والثابت أنه لم يتخذهم قوادًا أو جندًا، ولم يستعن النبي ﷺ بيهود المدينة في غزوة الأحزاب داخل المدينة، وطالبهم فقط أن يمنعوا الغزاة الكفار من جهتهم، وألا يسمحوا بمرور الغزاة من أرضهم؛ بمقتضى وثيقة المدينة التي جعلتها حرم ساكنيها، ولكنهم غدروا، وواعدوهم سرًّا بالدخول، فأفسد نُعيم بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطتهم[١]، ولعلك تعلم ما فعله الخائن دليسبس الفرنسي رئيس هيئة قناة السويس، فقد صرف أحمد عرابي باشا[٢] قائد الجيش المصري عن فكرة ردم قناة السويس؛ لئلا يستخدمها الغزاة الإنجليز في غزو مصر عام ١٨٨٢م، وتعهد بمنعهم بمقتضى رئاسته، وبمقتضى قانون المرور في القناة، الذي يمنع استخدامها في غزو مصر والإضرار بأمنها، وأنها ممر دولي حيادي، ولكنه أذن للجيش الإنجليزي بدخول قناة السويس، غادرًا بعهده مع أحمد عرابي قائد الجيش المصري، ومتجاوزًا ميثاق القناة ألا تتخذ في عدوان على مصر[٣]، ويعد التاريخ من قرائن

---

(١) أسلم نعيم بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أثناء حرب الأحزاب، ولم يكن أحد يعلم بإسلامه، فجاء إلى النبي ﷺ، فقال: "يا رسول الله، إني أسلمت فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت رجل واحد، فخذِّلْ عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة"، وكان مستأمنًا عند اليهود والمشركين، فسعى بينهم، وأفسد خطتهم في دخول المدينة من جهة بني قريظة، فغير هذا الرجل وحده مسار المعركة، وقلبها على الأحزاب واليهود.

(٢) أحمد الحسيني عرابي (٣١ مارس ١٨٤١ - ٢١ سبتمبر ١٩١١م): قائد عسكري وزعيم مصري. قاد الثورة العرابية ضد الخديوي توفيق، ووصل إلى منصب ناظر الجهادية (وزارة الدفاع)، وكان أميرالاي (عميدًا)، وقد أتم تعليم القرآن في صغره، ثم التحق بالأزهر، ثم دخل الجيش، وترقى فيه سريعًا بسبب مهارته، ولكن نفوذ الشراكة في الجيش أضر به، وقد رفض تحيز توفيق حاكم مصر للإنجليز، وطلبه التدخل العسكري بعد ازدياد نفوذ عرابي وشعبيته، وقام الإنجليز والفرنسيون وأعوان توفيق بحملة تشويه ضده، ولكنها لم تفلح، بيد أنها نجحت بعد هزيمته العسكرية بمساعدة صحفيين في جريدتي اللواء والمقطم وبعض ممالقي السلطة من الشعراء والأدباء والصحفيين، وقد عاد من منفاه مريضًا ١٩٠٣م بعد أن بلغ ٦٢ سنة تقريبًا، وكانت أخبار منفاه تصل إلى الصحافة عبر الإنجليز، وقد قضى في المنفى عشرين سنة، وقضى البارودي ثماني عشرة سنة، وعاد إلى مصر مريضًا كفيفًا؛ ليموت فيها.

(٣) لقد تعرض عرابي رَحِمَهُ اللَّهُ للطعن الداخلي من أبناء الوطن، ومن الدخلاء، فقد خانه ديليسبس صاحب شركة =

الاستدلال في الرأي، ولكن الذي استوقفني هنا حملة التشهير التي قامت بها الصحافية الموالية للسلطة ضد عرابي، وانتداب الشاعر أحمد شوقي الذي منح لقب أمير القريض تكريمًا لإخلاصه للبيت العلوي؛ ليهجو أحمد عرابي بعد عودته من منفاه ١٩٠٣م، وحملة الأكاذيب التي شنتها عليه الصحف الموالية للإنجليز والخديوي، فقد كان جهاز المخابرات الإنجليزية الذي يبعث بأخبار عرابي في المنفى على ألسنة المراسلين[١]، ومن مضحكات الصحافة السلطية العميلة، زعمهم أن عرابي طلب من الإنجليز، وهو في منفاه أن يولوه حكم مصر، وكانت الصحف تنشر كلام المراسلين الذين ينقلون عن عرابي في منفاه؛ فافتعلوا حملة تتصدى لأطماعه وتأييد ولي الأمر، وتجديد البيعة له، ونشروا

=

قناة السويس، وخانه بعض بدو الصحراء الذين أطلعوا الإنجليز على مواقع الجيش المصري، وخانه بعض الضباط (ومنهم علي يوسف)، الذين دلوا الإنجليز على ثغرات الجيش المصري، وخانه خنفس باشا قائد حامية القاهرة، وخانه فقهاء البلاط الذين مالقوا السلطة، واستباحوا وطنهم للغزاة، وأفتوا بأن عرابي مارق وخارج على ولي الأمر، ويحرم الجهاد معه، أو مساعدته، ناهيك بخيانة حاكم مصر توفيق الذي استباحها لهم، ودخل في حمايتهم، وقرار السلطان العثماني الذي أجبره عليه الإنجليز مساومة بالديون وخداعًا بأنه ثائر مثل محمد علي يريد إسقاط السلطنة، فأعلن عصيان عربي ١٨٨٢م، وقام بعض الشعراء الممالقين وبعض الصحفيين بالمساهمة في حملة تشويه عرابي، والخيانة العظمى الخيانة التاريخية التي قام بها بعض الدهريين الذين أشاعوا عن عرابي أنه كان متصوفًا عشوائيًّا يخدع عن نفسه، ولا يحسن تدبير المعارك والقيادة، وأنه بات ليلة الحرب يقرأ أوراد الصوفية وسورة يس على الغزاة، تاركًا تدبير المعركة وتسليح الجيش والاستعداد للقتال، وهم يضاهئون قول أعداء الوطن في تشويه رموز الأمة الأعاظم، ولا أحسب هؤلاء قالوا في الخونة السابقين ما قالوه في الزعيم المسلم الوطني عرابي.

ولقد أذن مبارك للبوارج الأمريكية المنطلقة إلى غزو العراق بالمرور بها، مستحلًّا هذا بأنها ممر دولي، وليس لمصر أن تمنع أحدًا، والصواب أن لا تستخدم في الإضرار بمصالح مصر وأمنها القومي، والدول العربية أمن قومي لمصر، وكان يتدخل مضيقًا على دول أخرى ضد أمريكا بحجة أمن قناة السويس.

(١) كانت أخبار الثوار في المنفى تصل إلى الصحف عبر رجال المخابرات الإنجليزية الذين حملوا تسمية المراسلين، وكانت الصحف العميلة تنشر ما يملى عليها، وتكتب ممالقة للغزاة والسلطة، ومنها جريدة المقطم التي حظيت بتمويل الاحتلال، وقد تولى تحريرها بعض النصارى خدمة للاحتلال، وصحيفة البرهان الموالية للسلطة (الخديوي توفيق) التي هاجمت الثورة العرابية، ومثلها البرهان، وقد تورط الشاعر أحمد شوقي في ممالقة السلطة التي نعم بظلها ببعض القصائد التي هجا عرابي بها، وسجل فيها بعض ما أشيع من أخبار علاقته بالإنجليز واتصالاته بهم في المنفى، وأنه طلب منهم أن يولوه ولاية مصر.

فتاوى تحرم الخروج عليه، وتُؤثم عرابي شرعًا، وتخونه، وقد نجحت الحملة في عزل عرابي شعبيًّا، وخذلت الناس عنه، فلم يخرج أحد لاستقباله، والحقيقة أن الرجل التمس العودة إلى وطنه؛ ليموت فيه بعد أن أجهده الاغتراب والشيخوخة، واستبد به المرض[١]، وقد كافأ الشعب المصري المُضلَل سلطيًّا وإعلاميًّا القائد الهمام محمود سامي البارودي الجزاءَ نفسه، وأحسبهما رمزين وطنيين أبيَّين في القيادة والدين والمبدأ، وقد اعترضتك بالحديث عنهما، لعل الله تعالى أن يرزقني بمن يسدد مقولتي ويحفظ غيبتي ويواري غُلتي.

والخلاصة أن الانتفاع بالأجانب لضرورة في حرب خارجية ضد غير المسلمين موضع نظر أهل العلم في الضرورة، ودفع الضرر وتحري المصلحة، وقد استدل بعض العلماء بأن رسول الله ﷺ استعان بصفوان بن أمية في حنين، وهو يومئذ مشرك، والثابت أنه استعار منه عُدة حربية فقط، ولم يثبت البتة أنه ﷺ أوجب على مشرك القتال مع المسلمين، وقد تبع بعض صناديد مكة بعد الفتح جيش المسلمين نحو حنين؛ لينظروا ما سيحل بالمسلمين، ومنهم أبو سفيان وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم من المؤلفة قلوبهم قبل أن يحسن إسلامهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويفهم مما روته السير أنهم لم يقاتلوا[٢]، ولم تذكر أنهم شهدوا آخر المعركة، بل علموا خبرها ممن فروا من أهل مكة

---

(١) نشرت جريدة المقطم الموالية للإنجليز التماس عرابي العودة، وهي نفسها التي أشاعت أكاذيب طلبه السلطة، وقد جاء في النص الذي نشرته: "إنني أبغي أن أموت في بلادي بين أهلي وخلاني، وأشتهي أن أرى مصر والذين أحبهم قبل دنو أجلي، فإذا أذنت لي إنجلترا في الذهاب إلى مصر، فإنني أذهب كصديق لا عدو مقاوم، وأقسم بشرفي أنني لا أتصدى للسياسة بوجه من الوجوه، هذا ما أسأله من أمتكم العظيمة التي عاملتني بالرفق والشفقة". هذا ما ذكروه عنه بعد منفاه (١٨٨٣ : ١٩٠٣م)، وقد علقت الصحف على ما نشرته اللواء بأنه الخائن الذليل، وهجاه شوقي بقصيدته (صغار في الذهاب وفي الإياب *** أهذا كل شأنك يا عرابي؟)، ولكن هؤلاء لم يذكروا رأيهم في الخديوي توفيق الذي ارتمى في صدر الإنجليز، وغدر بأبيه إسماعيل، وساعدوه في ارتقاء العرش، واستباح لهم حرمة الوطن ١٨٨٢م، وتعاون معهم، ولبى مطالبهم، وقد توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقيرًا في ٢١ سبتمبر ١٩١١م عن إحدى وسبعين سنة، ولم يؤبه لوفاته، وأحسب أن الله تعالى وسعه برحمته آمين.

(٢) روى ابن إسحاق في سيرته أن كلدة بن الحنبل الذي أسلم يوم الفتح مع أهل مكة، صرخ يوم مسير النبي ﷺ إلى حنين قائلًا: ألا بطل السحر اليومَ [يريد سحر محمد ﷺ]، فسمعه صفوان بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان لا يزال مشركًا يوم حنين، وقد أعطاه النبي ﷺ مدة يأخذ الخيار لنفسه فيها، فقال: اسكت فض الله

=

حديثي العهد بالإسلام من كمين هوازن في حنين، ولم يبق مع النبي ﷺ إلا من شهد معه بيعة الرضوان (بيعة الحديبية) من المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ(١)، فنصرهم الله تعالى، وغنموا كل أموال هوازن، وأسروا نساءهم وذراريهم.

ولقد اختلف أهل العلم في مسألة الاستعانة بالكفار وأهل الكتاب في حروب المسلمين، وهم على رأيين:

الرأي الأول: تحريم الاستعانة بالمشركين وأهل الكتاب مطلقًا(٢)، واستدلوا بحديث عائشة السابق الذي رواه مسلم، وقالوا: إن ما يعارضه لا يوازيه في الصحة، واحتجوا أيضًا بحديث يساف بن خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحديث عبد الله بن أُبي بن سلول وما ورد في رد المشركين. وقال الوزير ابن هبيرة: واختلفوا: هل يستعان بالمشركين على قتال أهل الحرب أو يعاونون على عدوهم: فقال مالك وأحمد: لا يستعان بهم ولا يعاونون على الإطلاق، واستثنى مالك: إلا أن يكونوا خدمًا للمسلمين فيجوز"(٣). واحتج بعضهم

=

فاك، فوالله؛ لأن يَربَّني رجل من قريش [يريد النبي ﷺ حمية لقرشيته] أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن [يريد مالك بن عوف زعيم هوازن يوم حنين]. السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: محمد بيومي، مكتبة الإيمان، مصر، ط١، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، (٤/ ٥٧). وجاء في أخبار أخرى أن كان يستطلع أخبار المسلمين من المنهزمين من أهل مكة، فمرّ رجل من قريش بصفوان بن أميّة فقال: أبشر بهزيمة محمّد وأصحابه، فوالله لا يجبرونها أبدًا. فقال صفوان: أتبشّرني بظهور الأعراب؟ فوالله لربّ من قريش أحب إلي من ربّ من الأعراب، وغضب صفوان لذلك، وبعث صفوان غلامًا له فقال: اسمع لمن الشّعار فجاءه، فقال: سمعتهم يقولون: يا بني عبد الرحمن، يا بني عبيد الله، يا بني عبد الله، فقال: ظهر محمد، وكان ذلك شعارهم في الحرب، ويتبين أن خروج صفوان بن أمية كان لاستطلاع خبر الحرب، وأنه لم يشارك.

(١) حديث "كان يغزو باليهود فيسهم لهم كسهام المسلمين"، ضعيف، أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب: الجهاد، باب: من غزا بالمشركين وأسهم لهم (٦٦/٧)، رقم (٢). وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة، رقم (٦٠٩١). [سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م، (٢٤/ ٢٠٦)].

(٢) نسب إلى الإمام أحمد أنه حرمه مطلقًا، وروي أنه أجازه فيما أُمن شره فيه وفيما لا يغني عنه فيه مسلم،[ارجع إلى: المغني ج٨، ص ٤١٤ - ٤١٥ فصل: ولا يستعان بمشرك].

(٣) الإفصاح عن معاني الصحاح، ج٢، ص ٢٨٦، وهو الوزير الكامل، الإمام العالم العادل عون الدين، المعروف بيمين الخلافة، أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد بن الحسن بن جهم، الشيباني الدوري العراقي

=

بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء]، أي: أن الله تعالى: لم يفرض عليكم سلطان غيركم، وأنتم على الحق حتى ترضخوا لهم، وتجعلوا لهم سلطانًا عليكم، فيملكون به رقابكم، ويسومونكم سوء العذاب، ويردوكم عن دينكم. وقد نهى الله تعالى المؤمنين عن الاستصغار والتذلل: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ [محمد]، فلا يجوز لقادة المسلمين أن يمكنوا أهل الكفر من سلطانهم أو من أرض الإسلام، فيكون لهم سبيل على المؤمنين من التسلط والتجبر، وتنزيلها في حال عصرنا ظاهر.

والرأي الآخر: جواز الاستعانة بالمشركين في قتال المشركين وعدم التحريم مطلقًا، فالانتفاع بغير المسلمين لا نهي قطعي عنه فيما أُؤتمنوا عليه وما يتقنونه، وفيما لا يغني عنهم المسلمون فيه، وقال ابن هبيرة: "..... وقال أبو حنيفة: يستعان بهم ويعاونون على الإطلاق، متى كان حكم الإسلام هو الغالب الجاري عليهم، فإن كان حكم الشرك هو الغالب كره[1]، وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وآخرون: "إن كان الكافر حسن الرأي في المسلمين ودعت الحاجة إلى الاستعانة استُعين به وإلا فيكره، ويجوز الاستعانة بالمنافق إجماعا؛ لاستعانته ﷺ بعبد الله بن أبي وأصحابه"[2]، وقال الشافعي أيضًا: يجوز ذلك بشرطين؛ أحدهما: أن يكون بالمسلمين قلة وبالمشركين كثرة، والثاني: أن يعلم من المشركين حسن رأي في الإسلام وميل إليه، فإن استُعين بهم رضخ لهم [أعطيت لهم

=

الحنبلي (٥٦٠هـ). وهو مثال العالم العامل بعلمه، تولى الوزارة، فلم تشغله عن طلب العلم والتأليف والتدريس، وله تاريخ حافل بالآراء السديدة، والاستنباطات العجيبة من الكتاب والسنة. وكان طيب السيرة، وبلغ درجة عظيمة من الإحسان لمن أساء إليه أو ظلمه، وله آثار سيارة، ومن أطيب ما قال: "والله لا نترك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مع الرافضة، بل نحن أحق به منهم، ولا نترك الشافعي مع الأشعرية، بل نحن أحق بالشافعي منهم"، وقد قتل مسمومًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ج ٢، ص ٢٨٦.

(٢) شرح مسلم، النووي.

أعطيات]، ولم يسهم لهم [ليس لهم سهم ثابت كالمسلمين]"، إلا أن أحمد قال في إحدى روايتيه: يسهم لهم، وقال الشافعي: إن استُؤجروا أعطوا من مال لا مالك له بعينه، وقال في موضع آخر: ويرضخ لهم من الغنيمة [يقسم لهم منها]، قال الوزير ابن هبيرة: وأرى ذلك مثل الجزية والخراج(١). وقال المجد ابن تيمية: "ولا يستعين بالمشركين إلا لضرورة"، و"إن قوي جيشه عليهم وعلى العدو، ولو كانوا معه ولهم حسن رأي في الإسلام جاز، وإلا فلا "(٢). وقال ابن قدامة: "ولا يستعين بمشرك إلا عند الحاجة"(٣) .

واحتج القائلون بالجواز بأدلة، منها قوله جل وعلا في سورة الأنعام: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩] ، وبما رواه أحمد وأبو داود عن ذي مِخْمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ستصالحون الروم صلحًا آمنًا، وتغزون أنتم، وهم عدوًا من ورائكم، فتنصرون، وتغنمون" (٤)، قالوا: لم يذمهم على ذلك، فدل على الجواز، ونص الحديث كاملًا، يؤكد النهي عن الاستعانة بهم، فقد جاء في آخره أنهم رفعوا الصليب وغدروا بالمسلمين، ويمكن أن يحمل على أنه من النبوءة عما يحدث بين

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، ج ٢، ص ٢٨٦.

(٢) في المحرر في الفقه، ج٢، ص١٧١.

(٣) المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، موفق الدين ابن قدامة المقدسي، ج ١، ص٤٩٢.

(٤) رواه أبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني، والحديث كاملًا: روى أبو داود وابن ماجه في سننهما عَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ، قَالَ: مَالَ مَكْحُولٌ، وَابْنُ أَبِي زَكَرِيَّا، إِلَى خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، وَمِلْتُ مَعَهُمْ، فَحَدَّثَنَا عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنِ الهُدْنَةِ، قَالَ: قَالَ جُبَيْرٌ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى ذِي مِخْبَرٍ (رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ)، فَأَتَيْنَاهُ، فَسَأَلَهُ جُبَيْرٌ عَنِ الهُدْنَةِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: سَتُصَالِحُونَ الرُّومَ صُلْحًا آمِنًا، فَتَغْزُونَ أَنْتُمْ وَهُمْ عَدُوًّا مِنْ وَرَائِكُمْ، فَتُنْصَرُونَ، وَتَغْنَمُونَ، وَتَسْلَمُونَ، ثُمَّ تَرْجِعُونَ حَتَّى تَنْزِلُوا بِمَرْجٍ ذِي تُلُولٍ، فَيَرْفَعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ الصَّلِيبَ، فَيَقُولُ: غَلَبَ الصَّلِيبُ، فَيَغْضَبُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَدُقُّهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَغْدِرُ الرُّومُ، وَتَجْمَعُ لِلْمَلْحَمَةِ"، قال صاحب عون المعبود قال في شرح الحديث المذكور: (فتغزون أنتم) أي: فتقاتلون أيها المسلمون، (وهم) أي: الروم المصالحون معكم (عدوًا من ورائكم) أي: من خلفكم. وقال السندي في حاشية ابن ماجه: أي: عدوًا آخرين بالمشاركة والاجتماع بسبب الصلح الذي بينكم وبينهم، أو أنتم تغزون عدوكم، وهم يغزون عدوهم بالانفراد.

وذُو مِخْبَر، ويقال: ذو مِخْمر، وهو ابن أخي النجاشي ملك الحبشة، ومعدود في أهل اليمن من أهل الشام. كان ذو مخمر، فيمن قدم من الحبشة إلى النبي ﷺ، وكانوا اثنين وسبعين رجلًا، ولزم ذو مِخْمَر النبي يخدمه، وعده بعضهم في موالي النبي.

المسلمين والروم. واحتجوا بخبر صفوان بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ استعان به، والثابت أنه استعار منه بعض ما احتاجه من عدة الحرب، وأن صفوان لم يقاتل مع المسلمين، بل كان يستطلع أخبارهم، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرجو انتصارهم على هوازن؛ حمية لقومه قريش، وهو ليس بحجة هنا[1]، ولكنه حجة في استعارة عدة الحرب وشرائها من غير المسلمين.

وللإمام المسلم العدل الورع والحاكم العادل العالم بدينه والقيم عليه، أن يستعين بغير المسلمين من غير رعايا الدولة من أجل منفعة عامة، وأن يأذن لهم بالغزو معه تحالفًا أو استئجارًا بعهود مغلظة، وضمانات مأمونة في الضرورات بشروط وضعها العلماء العدول، وأهمها :

أ- أن يستعان بالمشركين على قتال المشركين، ويحرم الاستعانة بهم في الفتن بين المسلمين، أو قتال الفئة المارقة منهم، فلا يجوز أن يبيح المسلم دم أخيه لكافر[2] عدو

---

(١) روي أن رسول الله ﷺ خرج قبل هوازن بحنين، فأرسل إلى صفوان بن أمية يستعيره أداة وسلاحًا عنده، فقال صفوان: أطوعًا أم كرها؟ فقال: بل طوعًا، فأعاره الأداة والسلاح الذي عنده، وقد روي أنه خرج مع رسول الله ﷺ وهو كافر، فشهد حنينًا والطائف، وهو كافر وامرأته مسلمة، ولم يفرق رسول الله ﷺ بينه وبين امرأته حتى أسلم صفوان، واستقرت عنده امرأته بذلك النكاح، والثابت أنه لم يشهد حنينًا، بل خرج يتتبع أخبارها، ولم يك مقاتلًا فيها، ومثله أبو سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل، وآخرون من المؤلفة قلوبهم.

(٢) أذكر أنني أثناء تعبئة الإعلام الأمريكي العالم لغزو العراق بدوافع إنسانية ١٩٩١م، قد اعترضت على المنبر (كنت يومئذ في العشرين من عمري وفي السنة الثانية بالجامعة)، على احتجاج الشيخ متولي الشعراوى رَحِمَهُ اللَّهُ في فتوى جواز الاستعانة بالأمريكان وأحلافهم في تحرير الكويت التي تراجع عنها بعدما تبين له انتفاء المصلحة والضرورة، وأنها حرب احتلال العراق لا تحرير الكويت فقط، فقد استدرجه الإعلامي المصري أحمد سمير بسؤال مفاجئ: هل يجوز لحكومة دولة الكويت التي اغتصبها صدام أن تستعين بالولايات المتحدة؛ لتخليصها من احتلال العراق، فأجابه رَحِمَهُ اللَّهُ متعجلًا: نعم، فقد استعان النبي بالمطعم بن عدي المشرك؛ ليدخل مكة بعد عودته من الطائف، فاعترضت على الحجة، وليس على الفتوى، فله أن يجتهد، وليس لنا أن ننسب إلى النبي ﷺ ما لم يفعله، فالاستعانة النبوية في مقامها، وهو وحده بين صناديد الكفار وسفائهم، متسقة مع الحدث، فقد استعان بمن وثق به على أكفائه من المشركين، ولم يك في المسلمين من يقدر على نصرته ومظاهرته، ولكنه ﷺ رد عليه جواره عندما طلب منه أن يكف عن دعوة أهل مكة؛ عملًا بحق الجوار، فأبى عليه، ورد عليه جواره، وصدع بما أمر الله تعالى به، وقد أثارت هذه =

=

الفتوى اعتراض بعض من استصغروني أمام علم الشيخ ومنزلته التي أرى نفسي ضئيلًا أمامها، وقد أيدني آخرون، فأسفت على ما أحدثته من خلاف بين أحبائي من المصلين، وكلما تذكرتها عجبت من تسرعي وجرأتي على الفتوى صغيرًا في العشرين، وأحمد ربي أن هداني إلى ما قلته، وما زلت عليه، وقد أدركت نتائج هذه الحرب التي نصبتها الصهيونية للمسلمين؛ لتهلكهم فيها، وتنهب ثروتهم، وأدركت هذه الحرب على الإسلام، وأن من شارك فيها كان دُميات غربية، فقد كان صدام في حرب إيران دمية غربية، وأن الغرب الذي نصب له فخ الكويت؛ ليتخلص من قدرة العراق العسكرية، وأن الذين ساعدوا الغرب في احتلال العراق صناع مشروع الغزو الغربي، وأن الخاسر الإسلام، والمنتفع الكيان الصهيوني.

وقال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثل قول الشعراوي وزاد أيضًا: "... فلا مانع من الاستنصار ببعض الأعداء الذين هم في صفنا ضد عدونا، ولقد استعان النبي ﷺ وهو أفضل الخلق - بالمطعم بن عدي لما مات أبو طالب عم النبي ﷺ، وكان كافرًا وحماه من قومه ...، وهكذا عندما احتاج إلى دليل يدله على طريق المدينة استأجر شخصًا من الوثنيين ليدله إلى المدينة لما أمنه على هذا الأمر. ولما احتاج إلى اليهود بعد فتح خيبر ولاهم نخيلها وزروعها بالنصف، يزرعونها للمسلمين، والمسلمون مشغولون بالجهاد لمصلحة المسلمين، ومعلوم عداوة اليهود للمسلمين، فلما احتاج إليهم عليه الصلاة والسلام وأمنهم ولّاهم على نخيل خيبر وزروعها. فالعدو إذا كان في مصلحتنا وضد عدونا، فلا حرج علينا أن نستعين به ضد عدونا، وفي مصلحتنا، حتى يخلصنا الله من عدونا ثم يرجع عدونا إلى بلاده ..."، وهذه الفتوى قيلت قبل الحرب عن حسن ظن غير حقيق بأهله، وليس في موضعه، ولا أحسب أصحابها، كانوا سيبقون عليها يومنا هذا بعد أن ثبت خلاف حسن ظنهم وثقتهم في العدو. وقد أعجبني قول الشيخ عمر عبد الرحمن. أحد المتهمين بالتطرف في خطابنا الإعلامي. عندما قال عن فتوى الشيخ الشعراوي: «إن حبنا للشيخ الشعراوي كبير، ولكن حبنا للحق أشد. ولكن فتواه بجواز الاستعانة بالأمريكان غير صحيحة"، وقد استعان المجوزون بأدلة كثيرة منها: ما روي عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: "إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر"، وهذه الشواهد في غير سياقها، والحديث السالف في هذا السياق طعن في الدين، والصواب أن الله تعالى قد يهدي بعض الفجرة إلى أفعال صالحة ينتفع بها الدين والعباد، وليس المراد الانتفاع بفساد الفجار، وقد قاتل هذا الرجل قتالًا مشهودًا، فاستحسنه الناس، وفيه إشارة إلى تحري جوانب الصلاح في المنحرفة وتعزيزها فيهم؛ ليداوموا عليها، وممن انتفع الإسلام ببعض أعمالهم الحسنة الحجاج بن يوسف فيما نسب إليه من قرارات تتعلق بضبط المصحف الشريف بتوجيه بعض العلماء وإشرافه على ما أنجزوه، وحرصه على اللغة وسلامتها، وحسمه في ردع المفسدين وأهل الفتن، ولكنه قد أفسد بسفك دماء الأطهار والعلماء ومعارضيه أضعاف إحسانه، فذهب فساده بما بقي من محاسنه. وقد سمعت من الدكتور سليم العوا أنه شهد زمن انقلاب السادات على التيارات الإسلامية حادثة في قسم الشرطة، حيث قام رجل مخمور بضرب أحد الفكاهين (رجل يسلي الجمهور في الملاهي) في ملهى ليلي، فسأله رجل الشرطة: لماذا ضربته؟ قال: كان يقول نكتًا يسخر فيها من المحجبات والمنتقبات، ويسمي الحجاب الخيمة. فقال الشرطي متعجبًا: ماذا قلت؟ إنك رجل سكير! رد الرجل ثائرًا: نعم، أنا رجل سكير، ولا أصلي؛ لكني مسلم، وغضبت لديني.

لدينه، ولا يحفظ حرمة المسلمين ولا أعراضهم، ولا يعمل بحدود الشرع فيهم.

ب- أن يكون المسلمون في حاجة قاهرة إليهم فيما لا يغني عنهم فيه المسلمون.

ج- أن يكون وجودهم مقرونًا بالضرورة، فإن انتفت لزم إخراجهم؛ درءًا للضرر.

د- أن يكون سلطان المسلمين الأعلى قويًّا قادرًا على ضمان طاعتهم له، وانقيادهم له، وإذعانهم لأمره.

هـ- أن يستعين بهم في قتال خارج أرض الإسلام، فإن كان القتال ضد عدو دخل أرض الإسلام، وليس له إلا القتال منها، استشار أهل الشورى وأهل الحرب في عواقب دخوله أرض الإسلام وضمانات خروجه سلمًا دون غدر، فإن استبان لهم خطره، حرم الاستعانة بهم مطلقًا؛ لما يترتب عليها من مفسدة عظمى داخل الوطن، بأن ينقلبوا على المسلمين ويسلبوا أرضهم، فهم غير مأمونين، فيجب أن يكون سلطان الإسلام الأعلى؛ ليكون قادرًا على إخراجهم من أرضه. إن وجدوا بها بعد انتهاء مدتهم، فيلزمهم الخروج بعد انتفاء الضرورة، فبعض الحلفاء المستقدمين يحتلون من استغاثوا بهم، وهذا ما لم يعتد به من أفتوا بجواز الاستعانة بالغرب الصليبي في حروب المسلمين، فقد استجار به بعض النوكى، واستقدموه للتخلص من معارضيهم فاحتل وطنهم، وأقام لنفسه معسكرات، وفرض على المسلمين إتاوات يتمول بها، وفرض نفوذه على ثرواتهم واقتصادهم.

و- أن يكون من يُستعان بهم خارج أرض الإسلام من موالي المسلمين، وأن يكونوا ممن يوثق بهم في أمر المسلمين[1]، فإن كانوا غير مأمونين كجيوش المرتزقة المجلوبين من أرض العدو، لا تجوز الاستعانة بهم، وللجيش أن يستبعد العناصر المستغربة في الوطن من بين جنده لولائهم الغربي، وأن يردع المُخَذِّل مثبط الهمم والمُرْجِف.

ز- أن يكون بالمسلمين قلة، فتدعو الحاجة إليه، والأولى بالاستعانة أهل الكتاب من مواطني دار الإسلام؛ لأنهم في ضمان المسلمين ومن أبناء دار الإسلام.

ح- أن يوجهوا خارج دار الإسلام فيما لا يغني عنهم المسلمون فيه، فلا يكون عنهم

(١) ارجع إلى: المغني، ابن قدامة، ج ٨ / ٤١٤ – ٤١٥.

غناء؛ كأعمال التسمع للمسلمين (التخابر) في أرض العدو؛ لوجود شبهة اللون أو العلم بلسانهم والقدرة على التخفي فيهم، وأن يتحرى المسلمون صدق قولهم ورأيهم في العدو.

ط- أن يخرجوا طوعًا، وألا يقهروا على الخروج، وإذا خرجوا طوعًا، يجعل لهم فيه أجر، يقدر على قدر بلائهم ودفع ضررهم وانقلابهم على مصالح المسلمين.

ي- أن يُؤمن مكرهم بالمسلمين، وانقلابهم عليهم، وميلهم إلى العدو بعد أن اطلعوا على أحوال المسلمين.

ويتبين أن هذا الموضوع اجتهاد في وجه الإباحة لمصلحة مأمونة تقتضيه، وكلها بدليل، وقد اتفق العلماء جميعهم على عدم الاستعانة بمن يضرون المسلمين (من أهل النفاق والعمالة) بإثارة الفتن وتخذيل المسلمين والتسمع للعدو من أصحاب قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة]، أي: لم يزيدوكم هؤلاء المنافقون - وخطرهم أشد من المشركين، بخروجهم فيكم - إلا فسادًا وضرًّا؛ ولذلك ثبَّطتُهم عن الخروج معكم، وفيكم سماعون لحديثكم لهم، يؤدُّونه إليهم، وهم عيون لهم عليكم، وتجب عليهم عقوبة الخيانة. ويجوز أيضًا أن تحمل الآية على معنى التوهين، فيسمع لهم بعض الضعاف في التثبيط والفتنة، وهذه الآية دليل على استعباد ما لا يؤتمنون على الجيش من زنادقة وأذناب الغرب، ومن لهم ولاء غربي[1].

وما ورد من حديث يتعلق بسياقه الديني والأحوال، وعلاقته بالأحداث، والبعد الدعوي، والتفطن لقصد الطالب وللنتيجة رفض الاستعانة بهم، وهذه الأدلة التي ذكرتها هنا وشروط الاستعانة بغير المسلمين خارج الاستدلال عما نحن عليه اليوم من ضعف وهوان، ومن يعتمدها في استباحة الأعداء دماء المسلمين وأوطانهم، فهو منهم، ووليهم، وهو يدخل في حكم الآيات التي نهت عن موالاتهم، وقد ظهر لكل ذي عقل

(١) العجيب أن جيوش المسلمين تعفي بعض من لهم نشاط سياسي معارض، وبعض أتباع جماعة الإخوان، وبعض التيارات الدينية من الخدمة العسكرية، وتستبعد أصحاب الولاء الغربي، وهم أهل العمالة، وبعضهم كان سمَّاعًا لأجهزة التسمع الغربية (الاستخبارات).

فساد آراء كل من تواطأ على دخولهم والاستعانة بهم بعد أن انكشف مشروعهم في احتلال مراكز القوة والثروة في العالم الإسلامي، وتقويض قوة المسلمين، وفي المسلمين منقادون لهم، ويعملون بتوجيههم.

وقد نهانا الله تعالى عن مولاة أعداء الدين والوطن والتعاون معهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران]، وقد نزلت في شأن بعض المسلمين الذين كانوا يحالفون اليهود في الجاهلية، ويسرون إليهم بالمودة، ويرغبون في الاستنصار بهم في الحروب، وقد عرفوا بالموالي (الأتباع والأنصار في الحرب)، وقد كان بعض المنافقين ينتصرون لهم ويظاهرونهم، مثلما فعل عبد الله بن أبي بن سلول لحلفائه من يهود بني قريظة الذين غدروا بالمسلمين في غزوة الخندق، وقد أجاز الإسلام مصانعتهم؛ تقية في الضعف(١).

وهذا الرأي ليس في معاداة أبناء الوطن الأوفياء من أهل الكتاب، ولا يحمل عليهم، ويحرم التحريض عليهم به أو تخوينهم من غير دليل؛ لأن النبي ﷺ أقر بمواطنة يهود المدينة، وعاهدهم على تأمين المدينة والمصلحة العامة: "وإنَّ بينهم النصر على مَنْ دَهَمَ يثرب، وإذا دُعُوا إلى صلحٍ فإنهم يُصَالِحون، وإذا دُعُوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين،

---

(١) قال ابن عباس: كان الحجّاج بن عَمْرو، وكَهْمَس بن أبي الحقيق، وقيس بن زيد - وهؤلاء كانوا من اليهود - يُبَاطِنُون نفرًا من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رِفَاعة بن المُنْذِر، وعبد الله بن جُبير، وسعيد بن خَيْثَمَةَ لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود، واحذروا لُزُومَهُمْ ومُبَاطَنَتَهُمْ لا يفتنوكم عن دينكم. فأبى أولئك النفر إلا مُبَاطَنَتَهُمْ وملازمتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال الكلبي: نزلت في المنافقين: عبد الله بن أبيّ وأصحابه؛ كانوا يتولَّوْن اليهود والمشركين، ويأتونهم بالأخبار، ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم. وقال جُوَيْبر عن الضحاك، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نزلت في عُبَادَةَ بن الصَّامِت الأنصاري، وكان بَدْرِيًّا نَقِيبًا، وكان له حلفاء من اليهود، فلما خرج النبي ﷺ يوم الأحزاب قال عبادة: يا نبي الله، إن معي خمسمائة رجل من اليهود، وقد رأيت أن يخرجوا معي، فأستظهر بهم على العدوّ. فأنزل الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ [آل عمران:٢٨] الآية. ارجع إلى تفسير الواحدي وتفسير ابن كثير وتفسير الطبري.

إلَّا مَنْ حارب في الدين على كل أناس حِصَّتَهم من جانبهم الَّذي قِبَلَهُمْ "(١)، ولكن اليهود أخلوا بالمعاهدة، وسمح لبعض يهود خيبر بالبقاء فيها؛ للقيام على مزارعها(٢)، وأقر نصارى نجران على ما هم عليه في وطنهم(٣)، وتركهم على رئاستهم، وأتى يوحنا بن رُؤْبَة صاحب أَيلة رسول الله ﷺ، وهو بتبوك فأقره على رئاسته، وصالحه على الجزية، وكتب له كتابًا، وصالح كذلك أهل أَذرُح وأهل جَرْباء وأهل مِقْنا(٤)، وقد قام الخلفاء الراشدون

---

(١) العهد والاتفاق هو: الذمّة والأمان، اللتان يعطيهما المسلمون لغيرهم، والمهادنة، والموادعة، والمعاهدة.
وجاء في وثيقة المدينة بين المسلمين أنفسهم وبينهم وبين اليهود: "وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأَثِم، فإنه لا يوقع [أو يوتغ: يهلك] إلا نفسه وأهل بيته، وإن جَفْنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ... وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدثٍ، أو شجارٍ يُخاف فساده، فإن مردّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه". [ذكره ابن هشام في سيرته وذكره ابن كثير]، وقد شرحته في كتابي مفهوم الحكم في الإسلام، مكتبة الأنجلو.

(٢) سأل بعض أهل خيبر رسول الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف في زراعة أرضها، وقالوا : نحن أعلم بها منكم، وأعمر لها. فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، وصالحه أهل فَدَك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئًا بين المسلمين، وكانت فدك خالصةً لرسول الله ﷺ، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

(٣) كان أهل نجران جنوب غرب الجزيرة، عاهد النبي ﷺ بعض العرب خارج المدينة لأهداف تتعلق بمصلحة المسلمين، ونشْر الإسلام، وتأمين الطرق، فقد عاهد الرسول ﷺ، بني مدلج، وبني ضمرة (بودان غرب المدينة)؛ ليؤمّن الطرق التي يسلكها جيشه لمحاربة عدوّه. وعاهد يوحنا بن رؤبة في تبوك ناحية الشام؛ ليؤمن حدود الدولة من جهة الروم على حدود الشام. وذكر البخاري "في صحيحه" قصة معاهدة النبي ﷺ، مجوس هجر من جهة البحرين على عدم الاعتداء. وبقيت تلك المعاهدة إلى عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) صالح النبي في غزوة تَبُوك (٩هـ) من حولها؛ فقد أتاه صاحبُ أَيْلَة (قرية قرب العقبة)، فصالحَه وأعطاه الجزيةَ، وأتاه أهل جَرْبا، وأَذْرُح، فأعطَوْه الجزيَة، وكتب لهم رسولُ الله ﷺ كتابًا، فهو عِندهم، وكتب لِصاحب أَيْلة: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أَمَنَةٌ مِن الله، ومحمد النبي رسول الله لِيُحَنَّةَ بن رُؤْبَةَ، وأهلِ أَيْلَة، سُفنهم، وسيارتهم في البرِّ والبحرِ، لهم ذِمةُ اللهِ، ومحمد النبى، ومَنْ كان معهم مِن أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمَن أحدث منهم حَدَثًا، فإنه لا يَحولُ مالُه دونَ نفسه، وإنَّه لمن أخذه مِن الناس، وإنه لا يحِلُّ أن يُمنعوا ماءً يردونه، ولا طريقًا يردونه من بَحْرٍ أو بَرٍّ"، وأيلة مدينة العقبة حاليًا. وصالح ﷺ أُكَيْدر بن عبد الملِك بعد أن أسره جند المسلمين، وهو رجل مِن كِندة، وكان نصرانيًّا، وكان ملكًا على دومة الجندل، فحقن له دَمَه، وصالحه على الجزية، ثم خلَّى سبيله، فرجع إلى قريته. وروى أن أُكَيْدرًا ويُحَنَّة اجتمعا عند رسول الله ﷺ، فدعاهما إلى الإسلام، فأبيا، وأقرا بالجزية، فقاضاهما رسولُ الله ﷺ على قضية دُومة، وعلى تَبوك، وعلى أَيْلَة، وعلى تيماء، وكتب لهما كتابًا. [البداية والنهاية، لابن كثير، ج ٥/ ٢٢].

بمصالحة أهل الكتاب في أوطانهم من الدولة، وقد كتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أشهر عهوده لأهل إيلياء (القدس) من نصارى الروم والعرب[١]، وحالف بعض قبائل المشركين بالحجاز لتطويق مكة اقتصاديًّا وعسكريًّا، فتمكن من حصارهم والتضييق عليهم، فأضعفهم، فدخل مكة سلمًا، بمقتضى السياسة الشرعية الحكيمة التي تتحرى المنفعة العامة دون مخالفة الشرع أو الإضرار بالدين ومصالح الدنيا، وحالف قبيلة خزاعة التي دخلت في عهده ﷺ ؛ تحديثًا لحلف سابق مع جده عبد المطلب في صلح الحديبية مع قريش، عندما أعلنت قبيلة بني بكر دخولها في عهد قريش في صلح الحديبية، وكانت خزاعة في عمق نفوذ مكة، وكانت بعض القبائل تحالفه ﷺ لكثرة ما بها من المسلمين، وقد كان النبي ﷺ يستعين بالمشركين في المصالح العامة فيما أمن فيه المفسدة، وكان يمتنع عن الاستعانة بهم في الحرب؛ خشية المفسدة مما أطلعه الله عليه، وقد تقدم أنه امتنع عن محالفة بعض المشركين؛ بغية إسلامهم، فأسلموا، وهذه محمدة، تؤكد أن الإسلام ليس دينًا نهازًا يبتغي منافع الدنيا، ويقدمها على العقيدة.

وقد ثبت تاريخيًّا أن أهل الكتاب - وخاصة اليهود - لعبوا أدوارًا خطيرة في إضعاف الدول الإسلامية وإسقاطها، وساعدهم في هذا ثلة العملاء، وقد مثل التيار الأخير ثلة عبد الله بن أُبيّ بن سلول في الغزوات التي شاركوا فيها، وكانت المدينة المنورة مخترقة من قبل اليهود من مواطني المدينة، وكانوا يتسمعون ليهود خيبر ومن لاذ بهم من يهود المدينة، وقد أغروا قبائل العرب بغزو المدينة وحرشوهم بقتل المسلمين، ووعدوهم

---

(١) كتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عهدًا لساكني القدس من النصارى، عرف بالعهدة العمرية، جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الرومان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، وسقيمها، وبريئها، وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ... ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم"، وقد عثر المؤرخون على عهد أمان شبيه به من النبي ﷺ في دير سانت كاترين بسيناء، جاء فيه الأمان لأهل الدير ولمعابدهم ولأموالهم، وأن نسخته الأصلية أخذها السلطان محمد الفاتح، وترك لهم أمانًا شبيهًا به وله ترجمة بالتركية، وهذا العهد لا أصل له، ولعلهم صنعوه لأنفسهم؛ ليأخذوا الأمان لأنفسهم ممن حاول غزو الدير أو نهبه، وليجعلوا لأنفسهم منقبة على غيرهم من ساكني الأديرة.

بالنصرة، فألفت الأحزاب حملة عسكرية ضخمة لإبادة المسلمين، وقد حفظ الله تعالى دينه ورسوله ﷺ، وهزم الأحزاب وحده ﷻ.

وقد لعب اليهود دورًا سريًّا في فتنة مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد كان عبد الله بن سبأ اليهودي اليمني أحد موقديها[١]، وقد تآمر اليهود الأتراك سرًّا مع الغرب في إسقاط الخلافة العثمانية، وكان مصطفى أتاتورك[٢] أبرز قادة التمرد عليها، وقد ظهر مصلحًا، ثم

---

(١) اختلف العلماء في هوية عبد الله بن سبأ؛ لما أحاط به نفسه من السرية التي كان يحيط بها دعوته. وذهب عامة المؤرخين إلى أن أصله من صنعاء في اليمن، قيل من حِميَر، وقيل من همدان. وهو لأم حبشية، ولقب بـ"ابن السوداء". واتفقوا أيضًا على أن أصله يهودي، وأنه أسلم زمن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد تنقل بين بلاد المسلمين، فبدأ بالحجاز ثم البصرة سنة ٣٣ هـ، ثم الكوفة، ثم أتى الشام، ثم مصر سنة ٣٤ هـ، واستقر بها، وقيل إنه الذي وضع عقيدتي الوصية والرجعة اللتين تبنتهما الشيعة بعد تحول التشيع من نصرة سياسية إلى مذهب عقدي، وقد كوّن له في مصر أنصارًا من قبائل العرب المهاجرة بعد فتحها، وراسل أتباعه في الكوفة والبصرة. وجمع الساخطين على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلى عماله بالعراق وبعض الذين طلبوا من عثمان الولاية (مثل محمد بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومحمد بن أبي حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، فرفض استعمالهم؛ لما رآه فيهم من نزعة حب السلطان، وتجمعوا في المدينة، وقاموا بقتل عثمان بعد حصاره في داره، ولعب عبد الله بن سبأ دورًا سريًّا في الوقيعة بين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومخالفيه، وساهم في وقوع معركة الجمل بعد نجاحه في إفشال المفاوضات بين علي بن أبي طالب وبين طلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم أظهر الغلوّ في علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وميزه عن سائر الصحابة وقدمه عليهم، وقيل إنه أول من ادعى ألوهية علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وتمكن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه من إحراق بعض أتباعه لعظم ما قالوه فيه، ونفي ابن سبأ إلى المدائن ببلاد فارس، ولكنه عاد بعد استشهاد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورفض الاعتراف بقتله، وادعى غيبته بعد وفاته، وقد أطلق على أتباع ابن سبأ السبئية، ويعد المؤسس الأول للعقيدة الشيعية، وقد تبرأ الشيعة منه، وأنكروا وجوده التاريخي، ونظيره في تاريخ التشيع المختار الثقفي، وهو شخصية مثيرة للجدل أيضًا، والراجح أنه كان ذا طموح سياسي، وظف فيه الانتصار لآل البيت.

(٢) مصطفى كمال أتاتورك شخصية غامضة مختلف فيها مثل عبد الله بن سبأ مثله التاريخي، فهو من أصول صربية (قيل كان دعي النسب)، وأجداده الحقيقيون من طائفة يهود الدونمة، وهم طائفة من اليهود أظهروا الإسلام وأبطنوا اليهودية، ومارسوا العمل السري، وقد التحق أتاتورك بالجيش؛ ليصل منه إلى قمة الدولة، فهو سبيله إلى خطته السرية، وكانت سيرته غير محمودة، وقد كان نهازًا راغبًا في السلطة، فتقرب من البيت العثماني ممالقة، فأسندوا له رتبًا علية في الجيش، اتصل به الإنجليز، ونسقوا معه سرًّا لإسقاط الخلافة العثمانية، فبدأوا بإعلاء نجمه وزعامته؛ ليخدعوا به السلطة، فصار بطلًا قوميًّا، وتظاهر بعداوة الغرب، وادعى الغرب أنه يخشى خطره عليهم، وظهر مصطفى كمال أتاتورك بالمظهر الإسلامي، وأبدى حماسته =

جاهر بعداوته البغيضة للإسلام، ومحا الهوية الإسلامية في الدولة التركية القومية التي جعلها بديل الخلافة، وهو الزعيم الروحي للدهرية العرب.

وقد اصطف نصارى العراق مع الفرس المجوس سادتهم ضد المسلمين الموحدين في فتح العراق وفارس، وقد سعد المسلمون في مكة بانتصار نصارى الروم على الفرس المجوس، واحتفلوا بمكة بانتصار الدولة الرومية النصرانية على الفرس المجوس في بدء البعثة؛ لأنهم أهل كتاب، وأقرب لهم من الوثنيين، ولكن نصارى العراق تعصبوا لتحالفهم مع الفرس ضد الموحدين، وبدأ حقدهم على الإسلام الذي انتشر بين العرب، وأغضبهم انتصار المسلمين على "الفرس" الذين استعبدوهم في العراق، وفرضوا عليهم الجزية والقتال معهم في حروبهم، ونابوا عنهم في قتال إخوانهم النصارى العرب في الشام حلفاء الروم، وغاظهم انتصار المسلمين في معركة "ذات السلاسل" و"المذار"، وسقوط مدينة "الأُبُلَّة" منفذ "الفرس" الوحيد على الخليج، فأمر كسرى الفرس بإعداد جيشين من أقوى الجيوش الفارسية يقودهما القائدان "الأندر زغر" و"بهمن جاذويه"، وأمرهما

=

الدينية ومشاركته بالخطب في المناسبات الدينية وفي دفاعه عن الخلافة في كل محفل، وقد انتصر أتاتورك في بعض المعارك المفتعلة، فصار زعيم الأمة القومي، وتمكن - بمعاونة ثلته – من إسقاط الخليفة عبد الحميد الثاني، وأعلن مصطفى في ٢٧ رجب١٣٤١هـ إلغاء الخلافة العثمانية، وقيام الجمهورية التركية، وجاهر بولائه الغربي وعداوته الإسلام، وتسلط على الدولة بمعاونة أتباعه العسكريين الذين جعلهم على رأس الجيش، وقضى على مظاهر الدولة الإسلامية، وغربها، واستخدم الإعلام في تسويقه جماهيريًّا ودوليًّا، وصوره الإعلاميون بأنه زعيم ملهم، وأنه صاحب بطولات وإنجازات، ولم يبق من إنجازاته غير أنه سلخ الأتراك من هويتهم تحت رعاية الإنجليز، فألغى وزارة الأوقاف والمدارس الدينية، وحول الجوامع إلى متاحف، ومنع رحلات الحج والعمرة، وألغى الحجاب من مؤسسات الدولة، وحظر مظاهر الإسلام على المشاركين في السلطة ورؤساء المؤسسات، وألغى الحروف العربية، وألزم الأتراك بالتعبد باللغة التركية، ونقل الإجازة الأسبوعية ليوم الأحد مثل النصارى، وقضى على مظاهر الإسلام الاجتماعية، وألزم الناس لبس القبعة الفرنجية، وألغى الأعياد والمناسبات الدينية، وسلم أذربيجان للروس، واستبد بالسلطة، وقمع الحريات والمعارضين لسياساته، وهيمن على وسائل الإعلام، وجعلها لسانه في مخاطبة الجماهير، وصار موضوعها اليومي، وجعل الجيش راعي المذهب الدهري والأمين عليه، فقمع الجيش استرجاع هوية الدولة، وأقام تعاونًا عسكريًّا مع الكيان الصهيوني ضد العرب، وصارت القواعد التركية مدرج طائرات الغرب في ضرب المسلمين.

كسرى بالتوجه سريعًا إلى منطقة 'الوجلة' لصد 'خالد بن الوليد' رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن 'الحيرة' عاصمة العراق، ولكن خالد أفلت منه عبر الصحراء، وتمكن من دخول العراق، وانضمت قبائل بكر بن وائل العربية النصرانية ونصارى الحيرة ونصارى قبيلة تغلب إلى الجيش الفارسي لقتال المسلمين الموحدين، وقد انتصر المسلمون على التحالف 'المجوصليبي"، وكان مسلمو قبيلة "بكر بن وائل" أشد الناس على نصارى قبيلتهم الذين قاتلوا في صفوف الفرس أبناء العروبة وأبناء قبيلتهم الذين أسلموا؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة]، ولم يسكت النصارى العرب عن انتصار الإسلام على المجوسية الوثنية، فجمع كل نصارى العراق أنفسهم تحت لواء واحد بمدينة "أليس"، واستغاثوا بكسرى، وطلبوا منه الإمدادات، فراوده الأمل في استرجاع العراق، وسُر بتحالفهم معه - أيما سرور - وأسرع برسالة لقائده رَحِمَهَا اللَّهُ بهمن جاذويه" القريب منهم بأن ينضم إلى نصارى العراق بـ"أليس" في حربهم ضد المسلمين، ولكن الله تعالى حفظ دينه ونصر جنده، فقد فض جمعهم وابتلاهم بالكبر الذي صرفهم عن الاستعداد للقتال، ولم يهتموا بإقبال المسلمين عليهم، فهزموهم الهزيمة الكبرى بإذن الله، ولم تقم لهم قائمة بعدها[1]، وهنالك سؤال حول سبب تصدي النصارى العرب لإخوتهم في القومية، والعرب من أشد الأمم تعصبًا لجنسها. قد يكون الجواب: بدافع الولاء السابق. ولكن ما دوافع تحالف نصارى قبيلة تغلب ضد مسلمي تغلب الذين قاتلوا مع جيوش المسلمين؟ أحسبه الدافع نفسه الذي دفع يهود المدينة وخيبر لإغراء مشركي العرب بالقضاء على الإسلام، وبلغ بهم الحقد درجة الكذب في الدين، فقد ضللوا مشركي العرب عندما احتكموا إليهم في أمر دعوة النبي ﷺ، وعززوا وثنيتهم، وقالوا لهم: أنتم أهدى سبيلًا في وثنيتكم من دين محمد ﷺ .

(١) قال أبو بكر عندما وصلته أنباء انتصار خالد على الفرس: "يا معشر 'قريش' عدا أسدكم - يعني 'خالدًا'- على الأسد - يعني كسرى - فغلبه على خراذيله - أي: على فريسته - عجزت النساء أن ينشئن مثل 'خالد".

وقد كان نصارى العراق حلفاء الفرس المجوس ضد عرب الشام النصارى والروم النصارى، وكانوا يقاتلون إخوتهم العرب النصارى في الشام بالوكالة عن الفرس أيضًا، وكان أول غدر أحدثه النصارى في الإسلام تجاه رسول الله ﷺ حينما قتلوا رسوله الحارث بن عمير الأزدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي أرسله إلى شرحبيل بن عمر الغساني والي الروم على "بُصرى الشام"[عاصمة الغساسنة]؛ ليدعوه إلى الإسلام، فقتل شرحبيل مبعوث النبي ﷺ تطاولًا واحتقارًا، مخالفًا العرف السياسي في تأمين الرسل بينهم، فأنفذ إليه النبي ﷺ جيش غزوة مؤتة، فاستغاث بالروم، وجمع قبائل العرب بالشام للقتال مع الروم في مُؤتة جنوب الشام، وشارك نصارى الشام في حملة ضخمة أعدها الروم لغزو المدينة المنورة، وقد سار هرقل في جمع جنوده (٩هـ)، وجلب معهم قبائل غسان وجذام وبهراء وعاملة، وأنزل عساكره البلقاء .في الجنوبي الشرقي من الأردن على حدود الشام الجنوبية .ونزل هو حمص، فبادرهم النبي ﷺ بجيش غزوة تبوك، فانسحبوا شمالًا، فأقام النبي ﷺ أيامًا يراسل رؤساء المدن القريبة، ويصالحهم بمعاهدات؛ ليؤمن الجبهة الشمالية تجاه الشام، وقد أعد هرقل هذه الحملة؛ ليقضي على الإسلام الذي انتشر في ربوع الجزيرة، فقد وصلت الروم النصارى أنباء فتح مكة (٨هـ) ودخول قبائل العرب فيه، وقد توجه النبي ﷺ للدعوة العامة بعد أن عقد صلح الحديبية (٦هـ) مع قريش مدة عشر سنين، وتمكن أيضًا من التخلص من تهديد يهود خيبر الذين جمعوا عليه جيوش الأحزاب (٥ هـ) من قبل، وفوجئ الروم والفرس بقوة ثالثة دخلت الصراع معهما، وقد توقع قيصر بأنها ستغزو مملكته، ولكن رجال دولته استخفوا بها. وقابلها كسرى باستخفاف أيضًا، ومزق رسالة النبي ﷺ، وقال: عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: "مزق الله ملكه"، وكان كما قال، فقد مات كسرى بعد فترة من الزمن وتمزق ملكه.

السؤال هنا لأتباع القومية العربية المنكرين للرابطة الإسلامية: لماذا لا توجهون نقدكم للنصارى العرب الذين يحالفون الغرب الملحد على أمتهم العربية، ويسلكون مسالك أسلافهم في مظاهرة اليهود الذين يعتقدون أنهم أعداء المسيح عليه السلام وقتلته ومظاهرة الوثنيين والدهريين على الإسلام الذي أنصف المسيح وأمه عليهما السلام،

وكرمها؟ ولماذا لم يغلب النصارى العرب القومية العربية عندما قاتلوا في صفوف الفرس المجوس والروم الغربيين إخوانهم في العروبة؟ ولماذا لم يغلبوا ولاءهم الديني مثلما مال المسلمون إليهم للتقارب الديني في الصراع بين الروم النصارى والفرس المجوس، ومثلما جعلهم الإسلام أقرب مودة للمسلمين من اليهود، وفضلهم عن الوثنيين، وأباح التزوج منهم، وقد جعل الله تعالى من الاعتقاد الصحيح الإيمان بأن محمدًا رسول الله ﷺ وأن المسيح رسول الله عليه السلام، وكلمته (كُن بشرًا سويًّا) إلى مريم عليها السلام العفيفة المطهرة والمفضلة على لسان العالمين، وأن ميلاد المسيح نفسه آية ربانية ومعجزة شرفه الله تعالى بها، وجعل رفعه إلى السماء حيًّا معجزة أخرى شرفه الله تعالى بها؟ فماذا بعد هذا الحق والفضل إلا الضلال؟ ائتوني بمثله في إيمانكم بالله تعالى وبأنبيائه - عليهم السلام.

النوع الثالث: الأمة الشعبية الوطنية:

التي تقوم على المواطنة الجماهيرية الجامعة لكل طوائف الشعب وملله وأعراقه وأطيافه وفصائله، دون تمييز ديني أو عرقي أو طائفي أو طبقي.

والشعب لغة: "الاجتماع"، وهو الكثرة المتشعبة عن أصل، "وتشعب القوم: إذا تفرقوا، وشعبت الشيء تشعيبًا إذا فرقته، وتشعبت الشجرة إذا انتشرت أغصانها"، وقد أطلق العرب الشعب قبل الإسلام على "الحي العظيم من الناس نحو: حمير – وهي قبيلة كانت ذات سلطان باليمن – وقُضاعة وجرهم، والجمع الشعوب"[١]، وذهب ابن دريد إلى أن الشعب – من ناحية التكوين – أكبر من القبيلة: "القبيلة دون الشعب"، والشعب يعني التشعب والخروج من أصل واحد: "شعب الرأس، وهو شأنه الذي يضم قبائِله، وتشعبت أغصان الشجرة، وانشعبت: انتشرت وتفرقت[٢]، وإذا نظرنا إلى معنى الشعب من خلال تكوين القبيلة القائم على وحدة النسب، فهو "تباعد ما بين أبناء القبيلة، فالقبيلة

(١) هذه القبائل التي أشار إليها ابن دريد (ت٣٢١هـ) في معجمه "الجمهرة" التي كانت تسكن اليمن، وهاجر بعضهم نحو الشمال بعد سد مأرب، ومنها: جرهم وقضاعة وتنوخ، واستشهد ابن دريد بقوله تعالى: (وجعلناكم شعوبًا وقبائل).

(٢) معجم "الجمهرة"، مادة: شعب.

إذا ما عظمت واتسعت تفرقت بطونها وكونت قبائل، وهذا هو شأن القبائل التي هاجرت من اليمن، فنزلت العراق والشام والحجاز، فالغساسنة بالشام والأوس والخزرج بيثرب من أصل واحد.

ويمثل الشعب مرحلة تطور المجتمع القبلي التي تنصهر فيها القبائل، وتؤلف أفراد الشعب، وقد وقع هذا التطور في بعض الحواضر التي تتألف من الجماهير.

والشعب اصطلاحًا: جمهور الأفراد الذين يشكلون سكان الدولة، سواء أكانوا قوميين من جنس واحد، أو أخلاطًا، أو جلاليب (أخلاطًا من المهاجرين)، فالأساس التركيبي لكل شعب على نوعين؛ الأول: المجتمع القبلي العشائري الذي ينتمي لجنس واحد، وتستبد به وشيجة القرابة، ويحكم هذا النظام روابط قبلية أو عرقية، لها تقاليد خاصة، والأساس في هذا النوع الجنس أو القبيلة أو العنصر العرقي، وهذا النوع أسبق تاريخيًّا من الشعب، ويرتبط بالمجتمعات البدوية والبدائية، ويضعف تدريجيًّا في ظل الحضارة والمدنية، وتعد القبلية في الدولة قنبلة مؤقتة، تنتظر من ينزع فتيلها؛ فهي الفتنة النائمة التي تحرص الدولة على إخمادها؛ ترغيبًا أو ترهيبًا، وتستفرغ حميتها في المصالح العامة، ولكن بعض الأنظمة الفاسدة تعززها؛ لتكون أداتها في قمع المعارضة والمدن.

والنوع الآخر: المجتمع الجماهيري (الشعب) الذي تربطه المواطنة والعلاقات الاجتماعية والمصالح المشتركة التي تدعوه إلى المشاركة والتواصل والتعاون على مصالح الحياة، والفرد الأساس في هذا التجمع البشري، وليس للعنصر العرقي أو الجنس مكان فيه؛ فالفرد ينتمي إلى الجمهور لا العرق الجنسي، ويتعصب لمجتمعه ويواليه، وهذا النوع طاقة سلمية آمنة في الدولة، تساعد على النمو السريع نحو المدنية والتحضر، ومن أقدم الشعوب في العالم المجتمع المصري القديم، الذي تطور حضاريًّا في الحضر في مرحلة متقدمة من تاريخ البشرية، وقد استطاع المسلمون أن ينجزوا تقدمًا حضاريًّا في ظل هذا التعاون.

أواصر وحدة الجماهير:

يعضد وحدة الجماهير ما يأتي:

أ- الانتماء إلى الدين؛ فالعلاقة التي تجمع بين أفراد هذا المجتمع أخوة الدين، والدين

كبَّاحة القبلية وآصرة الإثنيات (التعدد العرقي) والفصائل الشعبية، وقد احتوى الإسلام قبائل العرب ووحدها، وقد فشل بعض أمراء الجاهلية في توحيدها أو توحيد بعضها، وقد كانت العصبية القبلية سببًا في إعاقة الدعوة الإسلامية بدء ظهورها، وظلت حربًا على الإسلام حتى عز سلطانه النصير، فدخل العرب فيه أفواجًا، واستفرغ طاقة القبائل في الجهاد، فانصرفت عن قتال بعضها، وعن مواجهة الدولة، وعرقلة اتساعها، وقد كانت سببًا في إعاقة النمو الاجتماعي وزعزعة الاستقرار السياسي، وما زالت، وقد قام الحكم على النظام الشعبي في الدولة الإسلامية الذي يقوم على الاختيار والبيعة، وجمهوره أخلاط الناس وأجناس تربطهم أخوة الدين، ولكن العصبية القبلية - التي تمثل الدولة العميقة - سرعان ما استعادت النظام الوراثي القائم على الغلبة بالقوة، وصار الحكم عضودًا جبريًّا بعد الحكم الراشد، وكانت هناك صيحات قبلية توقد نار الفتن، وظهرت في المجتمع الإسلامي نُعَرات شعوبية تتعصب للعرق، وتفرِق بين المسلمين، وكانت سببًا في حروب دامية وصراعات وحركات انفصالية واغتيالات، وكان من بواعثها الظلم والطبقية والتمييز العرقي.

ب- الانتماء إلى الوطن ومولاته: وذلك في ضوء لُحمة المواطنة بين أطياف الشعب المتعدد، ولكن بعض من يرفعون شعار المواطنة والوحدة الوطنية يريدون بهما باطلًا، فهم يضمرون إقصاء الدين، وهو المكون الروحي الضارب في أعماق الشخصية المسلمة، وخاصة الشخصية المصرية التي تفيء إليه تحننًا.

ج- وحدة اللسان: وسيلة التواصل الأولي والتعبير والإفهام.

د- الثقافة الجماهيرية والتراث والعرف المشترك.

ويتبين أن الشعب مرحلة التطور الاجتماعي من بعد القبيلة، وهو تطور نحو الأمة التي لا تجعل النسب أصلًا لها، بل الجماعة الواحدة، فالتكوين الاجتماعي بدأ بذكر وأنثى ثم قبائل وشعوبًا، وجاء ترتيب الشعوب قبل القبائل، لأن القرآن الكريم بدأ بالأهم والأولى والأقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحُجُرات]، فقد تقدم الذكر على الأنثى، وتقدمت

الشعوب على القبائل، وقد فسر سفيان الثوري (١٦١هـ) معنى الشعوب في الآية أنهم الذين كانوا ينتسبون إلى المخاليف والشعاب والجهات والمستقرات الحضرية (وهو رأي علماء اللغة أيضًا فيه)، وذكر أن القبائل هم الحجازيون، ويعني بهم البدو والحضر على السواء؛ إذ ما تزال القبيلة عندهم الوحدة الاجتماعية الأساسية، وهي وحدة عمادها النسب إلى أصل واحد ينتمي إليه أفراد القبيلة [١]، وكانت وحدة الشعب العربي الجنوبي تقوم على أسس دينية وقبلية أيضًا (أبناء القبائل الحميرية والسبئية والمعينية)، وتطور المجتمع على أساس اقتصادي؛ تأثرًا بموقعه التجاري وتفاعله مع الأمم الخارجية، وقيام نظام سياسي متطور، بلغت فيه المرأة رأس السلطة، وكانت محنكة سياسيًّا وخبيرة إداريًّا[٢]، ولم يكن النسب القبلي الأساس مهيمنًا في تكوين الشعب اليمني الجنوبي القديم، بل رابطة الدولة، ولكن الظروف الاقتصادية المتردية بعد انهيار السد، دفعت سكانه إلى هجرات جماعية، وبقيت النخالة القبلية سُقاط الشعوب المهاجرة متناحرة.

وقد يستخدم الشعب بدلالة عامة، تعني الأمة بالمفهوم القومي، وهي دلالة استخدمت في اليمن قبل الإسلام، فالشعب كان يعني أبناء الدولة والتابعين لها، وقد استخدم في ظل نمو الفكر القومي الحديث بمعنى أبناء العروبة، فالشعب العربي في الخطاب القومي في العصر الحديث يعني أبناء الوطن العربي، ولكن المشهور فيه حديثًا دلالة المواطنة أو أبناء القطر، فيقال: الشعب المصري والشعب العراقي والشعب السوري، وذلك بعد انحسار المد القومي، وتحول السياسية القطرية إلى داخل الدولة، والاتجاه الشعبي المعاصر يمثل خطرًا آخر على وحدة الأمة في السياسة المعاصرة؛ لأن كل دولة في هذه السياسة القطرية أو الذاتية لا تعترف إلا بشعبها ومصالحها الخاصة، دون أن تنهج نهجًا شموليًّا في ضوء الوحدة العامة، ونما في الفترة الأخيرة الشعور الوطني الذي يتعصب للوطن دون الأمة، فالمصري يتعصب لمصر، والعراقي يتعصب للعراق

(١) ارجع إلى: الأمة والجماعة والسلطة، رضوان السيد، دار اقرأ، ص٢٩، ٣٠. وقد ذكر مؤلفه بعض المفاهيم المعاصرة المتأثرة بالقومية والدهرية.

(٢) ملكة سبأ التي قص القرآن الكريم خبرها في سورة النمل، وكانت داهية واعية ومحنكة، وقد ذكرتها في كتابي الحكم القبلي، وحللت خطابها في كتابي تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة.

والخليجي يتعصب لدولته؛ نفورًا من علاقتها بأخواتها، وزاد الأمر خطرًا بنمو اتجاه قبلي في الجزيرة العربية يتعصب للدولة التي ينتمي إليها، ويقسم المجتمع العربي إلى طبقات، وزادت الفروق بين أبناء الأمة القومية، وأحدثت في العلاقات العربية شروخًا أضعفت جسم الأمة، وانتهى ببعض الدول العربية إلى مأزق خطير في حرب الخليج، فبعض الدول العربية اختارت الاحتلال صديقًا، وأقامت معه علاقات عسكرية واقتصادية، معرضة عن هويتها الدينية والقومية، وغير عابئة بمصالح الدول العربية الأخريات، وخطر هذه العلاقات المشبوهة عليها، وما يزيد الأمر خطورة الردة التاريخية في بعض الدول الإسلامية، فقد ظهرت نعرة التعصب الحضاري الفارسي في إيران عند الشعوبيين وبعض المتغربين؛ نكاية في هوية الدولة الإسلامية، وقد أثار هذه النعرة بعض الدهريين في مصر في النصف الأول من القرن العشرين، وكتب بعض أتباعها من الأدباء أعمالًا أدبية تخلد التاريخ الفرعوني، وتزكية نعرته في الجماهير؛ بغية محو الهوية الإسلامية والعربية عن مصر، وليس بعيب أن نتعلم تاريخنا، وهو من المندبات، بل الخطر أن نتحيز إليه في إقصاء جزء آخر مكمل له من تاريخ أمتنا.

النوع الرابع: الأمة القبلية (Tribal Nation)[1]:

التي تقوم على عُصبة القبيلة أو الجماعة القومية، ويسودها أحد أكابر عشائرها، والقبيلة من مادة (قبل)، و"القبيلة من الناس: بنو أب واحد"، وجعل بعض أهل اللغة – الزجاج – القبيلة في مقابل السِّبْط [في بني إسرائيل]، وهم بنو أب واحد أيضًا. قال الزجاج: "القبيلة من ولد إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كالسِّبط من ولد إسحق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، سموا بذلك ليفرق بينهما"، وهي تعني الجماعة الواحدة، واشتق الزجاج القبائل من قبائل الشجرة، وهي أغصانها، وقال أبو العباس المبرد: أخذت قبائل من قبائل الرأس؛ لاجتماعها وجماعتها الشَّعبْ، والقبائل دونها. ويقال: رأيت قبائل من الطير، أي: أصنافًا، وكل صنف منها قبيلة.

وكانت القبيلة دولة صغرى في الجزيرة العربية؛ فهي وطن أبنائها وملاذهم، ولا

(١) ارجع إلى: الحكم القبلي في العصر الجاهلي، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة الأنجلو المصرية.

يعرفون ولاء لغيرها أو حمية لسواها، بل كانت معوقًا لقيام الدولة أو الاتحاد القبلي، ولكن سنحت فكرة الدولة لبعض رؤساء القبائل الكبيرة، فأدخلوا قبائل أخرى في ولائها، وألزموها ضريبة قهرية عدتها مذلة، وعجلت بتمردها حينما حانت فرصة الانقلاب عليها انشقاقًا، وقد قامت أحلاف حربية (أحزاب) بين بعض القبائل لضرورة فرضتها، ولكنها انفضت بانتهاء الحرب، أو بالفرار من المعركة غدرًا بالحلفاء عندما لاحت الهزيمة.

وقد قامت مملكة المناذرة العربية في الحيرة بالعراق على أساس قبلي[1]، فأسرة المناذرة بطن من تنوخ اليمنية؛ وقد فرض الفرس نفوذهم عليها، وألزموا ملوكها صد بدو الصحراء، وجمع الضرائب من القبائل التي تقيم على الأرض التي تخضع للفرس؛ وجعلوهم في مواجهة مملكة الغساسنة بالشام، وكان أكثرهم على النصرانية، وقد سمح الأكاسرة الساسانيون باعتناق عرب العراق مذهب النسطورية النصرانية لأسباب سياسية، فهذه الطائفة تعاديها الأرثوذوكسية النصرانية مذهب أعدائهم البيزنطيين، ومن ثم كانت هنالك حروب بين الطائفتين، يؤججها الفرس والروم، وقد نجح الروم في نشر المذهب الأرثوذكسي في بعض العراق، فقامت عليه أسقفيتان عربيتان؛ أسقفية عاقولا وأسقفية الحيرة، وقد توجه المسلمون لفتح الحيرة؛ تنفيذًا لنبوءة النبي ﷺ، وهو يضرب

(١) المناذرة: ملوك الحيرة أبناء المنذر بن النعمان (الأول) بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة اللخمي، أول الملوك المناذرة بالحيرة في العراق، تولى بعد أبيه نحو سنة ٤٣١ م، وهي أسرة عربية حكمت العراق قبل الإسلام، وأصلهم من بني لخم (بطن من قبيلة تنوخ من كهلان)، وقد أسسوا مملكتهم في الحيرة (٢٦٦م - ٦٣٣م)، وقد اتخذوا الحيرة عاصمة لهم، وأقاموا مدن النجف وعاقولا وعين التمر والنعمانية وأُبلة والأنبار وهيت وعانة وبقة. وقد هاجرت تنوخ اليمنية نحو الشمال بعد خراب سد مأرب في اليمن؛ بسبب "سيل العرم" آخر الألف الأول قبل الميلاد. ومملكة المناذرة أقوى ممالك العراق العربية قبل الإسلام، ويقال إنها كانت امتدادًا للممالك العربية العراقية التي سبقتها، مثل مملكة ميسان ومملكة الحضر، وقد امتد سلطان المناذرة من العراق ومشارف الشام شمالًا حتى عُمان جنوبًا وساحل الخليج والبحرين وهجر، وقد احتلها الفرس في مهدها، وفرضوا نفوذهم عليها، ولكنها كانت شبه مستقلة، وكانت تعلن ثورتها وتتحالف معها قبائل العرب في قتال الفرس أحيانًا؛ نخوة لعروبتها، وكان لها نفوذ واسع بين قبائل العرب وما جاورها، مثل تدمر والأنباط والقرشيين، وقيل إن الآلهة التي عبدها العرب انتقلت إلى الحيرة، فظهر فيها اللات والعزى وهبل، وقد ضعفت قبيل الإسلام؛ بسبب حروبها مع الغساسنة والقبائل العربية وصراعها مع الفرس أيضًا، وانتهى حكمها بسبب تحالفها الأخير مع الفرس ضد الإسلام.

الصخرة التي استعصت عليهم، وهم يحفرون الخندق[١]، وقد قاتل نصارى العرب مع الفرس إخوانهم العرب المسلمين؛ ولاء وبغضًا للإسلام.

الغساسنة بطن من قبيلة الأزد اليمنية، نزلوا ماءً "غسان" بتهامة شمال الجزيرة، فنسبوا إليه، ثم دخلوا الشام[٢]، ثم صارت لهم الغلبة، فأقصوا قُضاعة عن سيادة الشام، فتحول إليهم الروم، وجعلوا عاصمتهم "بُصْرى"(جنوب سوريا)، وجعلوهم عملاءهم في الحروب على الفرس والقبائل العربية، وأسندوا إليهم ردع القبائل الصحراوية المغيرة، وكانوا من أوائل العرب الذين تنصروا، وقد بشر النبي ﷺ المسلمين بفتح الشام، وقد شاركوا مع الروم في حرب المسلمين، ولكن الجيوش الإسلامية تمكنت من قهرهم في مركزهم بالجولان بعد هزيمتهم مع الروم في اليرموك بالأردن، ودخلوا في الإسلام بعد أن قضى المسلمون على الاحتلال الروماني في الشام، وقد شاركوا في فتح شمال أفريقيا في الدولة الأموية، وكانت نواة الدولتين القبيلة، التي تمكنت - بمساعدة الدولتين - من فرض سيادتها على القبائل التي تقع في محيطها، فقد ساعد الفرس المناذرة التنوخيين في العراق على إخضاع قبائل العراق لسيادتهم، وساعد الروم الغساسنة في فرض سيادتهم على قبائل الشام، وقد استمر الصراع بين المملكتين حتى دخل الإسلام العراق والشام، ولكن الصراع القديم بقي متخفيًا، وظهر في حروب مقنعة بأسباب سياسية تتعلق بالخلافة، فقد استدعى العراقيون الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ ليظاهروه في ولاية الخلافة؛ وليقاتلوا من ورائه الشاميين الذين صمدوا خلف البيت الأموي؛ لتظل الشام مركز الخلافة، وظل العراقيون يتحينون الثورة، ولكن الأمويين كانوا لهم بالمرصاد بيد باطشة، ثم ظهر صراع آخر في العراق، تحركه اليمنية والقيسية في الدولة، وقد تورط فيه بعض

---

(١) قال رسول ﷺ: "اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ السَّاعَةَ"، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ، فَقَطَعَ الثُّلُثَ الآخِرَ، فَقَالَ: "اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ الْمَدَائِنِ الأَبْيَضَ"، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ، وَقَالَ: "بِسْمِ اللَّهِ" فَقَطَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: "اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، واللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذِهِ السَّاعَةَ"، رواه أحمد والنسائي والبيهقي وأبو نعيم.

(٢) هاجرت الأزد اليمنية شمالًا بعد سد مأرب في القرن الثالث الميلادي، ونزلوا ماء غسان بتهامة، ثم رحلوا إلى الشام.

رجال السلطة والطائفية، وظل العراق بركانًا، يخرج حممه في الدولة. والعجاب أن الشام والعراق ظلتا على خلاف متجدد حتى عصرنا.

وهنالك في الوطن العربي المقسم أطول صراع قبلي في العالم بين القبائل القيسية العدنانية التي انتسبت إلى القبائل العدنانية الشمالية، والقبائل اليمنية التي هاجرت شمالًا نحو الشام في الجاهلية ومازال حتى الآن، وقد عصفت هذه الفتنة بدولة الأمويين في الشام وبدولتهم في الأندلس، وظلت رواسبها في بلاد الشام والمغرب حتى العصر الحديث، وقد كان لهذه الفتنة أثرها في ظهور التيار الشعوبي (القومي) الذي خرب الدولة أيضًا، فقد وقف العنصر الفارسي خلف أبي مسلم الخراساني، الذي قاد التمرد ضد دولة الأمويين ذات الهوية العربية في خراسان، فأسقط الدولة الأموية في فارس والعراق، وزاد نفوذ الأعاجم في الدولة العباسية، وبهتت صبغتها العربية، وضعفت ريح العرب فيها، وما زالت القبلية والشعوبية مصدري التخريب في الدول العربية، وقد التهمت الصهيونية فلسطين بعد أن أضعف الصراع قبائلها التي استعصت على العثمانيين، بيد أنها هانت على نفسها، فالتهم العدو أرضهم، وقتل بعضهم وشرد بعضهم، وحبس من بقي في مضايق من وطنهم؛ ليحكم وطأته عليهم، فالعرب الأمة التي ما زالت ترزح تحت وطأة تراثها العدائي، وآخر ضحاياه انهيار العراق وسوريا واليمن وليبيا، ويأتي الضحايا المنتظرون تترى، وما بدلوا أخطاء الضحايا السابقين تبديلًا.

الارتداد المعاصر نحو عُبِّيَّة الجاهلية (نخوتها):

العودة إلى الخلف لاسترجاع الفائت وإحياء الميت عبثًا، والتشبث بأمجاد الأجداد وعقائدهم وتراثهم؛ عصفًا بحاضرهم، وطعنًا في وشائجهم المعاصرة، ونكاية في شركائهم في الوطن، وفتنة وتمييزًا واستنكافًا حق غيرهم، وعلوًّا، وشأن الأمم المغلوبة التي ترتد عن حاضرها إلى ماضيها الهالك، فتحاول تجميع رميمه، وتجهد نفسها فيما لا طائل منه، وغيرهم يستشرف المستقبل، ويخطط لمشاريعه فيه، ومن الهوالك في زماننا استرجاع القديم في غير زمنه، والتغني بتاريخ الهالكين بكاء على اللبن المسكوب، وبكاء على الأطلال الدارسة التي لا تصلح مقامًا ولا وقاء، ولا تنبت زرعًا، وهذا شأن من ينعي مجد أباه، وهو ذليل مهان، ومن يتمثل بسالف زمنه، والزمان غير الزمان والمكان غير

المكان والرجال غير الرجال، وقد أعلنها عبد الملك بن مروان هذه صراحة بواحًا على المنبر: "أنصفونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر! ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر! نسأل الله أن يعين كلًّا على كل"، وبعض أبناء عصرنا منهم يطلبون خلافة الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولو عادوا على ما كانوا عليه؛ لاستبحناهم وأبينا تدينهم وعدلهم وتقشفهم، واجترأنا عليهم؛ لتواضعهم مثلما اجترأ الأغرار على كرم خلق عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتواضعه، واستنكفت القبائل إذعان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لحكم كتاب الله في الحق وحقن دماء المسلمين، فكانت تريد إهلاك خصومها، فأبى عليهم، فانشقوا عليه وقتلوه، فالنفوس الضعيفة لا تذعها عقوبة الآخرة، ولا يردعها إلا سيف السلطان وهيبته، والراشدون تحروا رشدًا في رعية تربت على منهج النبوة الرشد، فلما استوفوا آجالهم، خلف من بعدهم خلف على إرث جاهليتهم، فاستعادوا الجاهلية، ووَأَدوا الخلافة الراشدة بعُبِّيَّة جاهليتهم (نخوة الجاهلية).

وقد شاع في عصرنا في المحيط العربي التخلي عن الحاضر والارتداد إلى المنصرم والميت، وهو دليل الإخفاق واليأس، فالكل يبحث عن ماضيه، ويتعصب له؛ طعنًا في الواقع وجنوحًا نحو التشرذم والتشظي والتناحر، ولي سؤال: كيف تستحيون الماضي الدارس، وقد عجزتم عن إصلاح الواقع الحي؟!

وهنالك تيار منحرف مضاد للردة، فيستبقها نحو الغرب، الذي يراه ملاذه ومنهى طموحه ونموذجه المثالي، ويرى أن ارتقاءه إليه بالقفز على الدين والعروبة والتراث واللغة والتماهي في التغرب، وقد كان طه حسين من رواد هذا التيار، ورسم الطريق إليه في كتابه "مستقبل الثقافة" ومقالاته التي نازع فيها من سماهم المحافظين؛ ليوحي بأنهم مثل المحافظين النصارى المتهمين بالمغالاة والتطرف، وقد كان متفرنسًا في زي عربي، ومن غرائب هذا التيار أنهم أذاعوا بين مريديهم أن مصر دخلت العالم الحديث زمن غزو الحملة الفرنسية مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) التي دمرت وخربت وسرقت كنوز مصر، فزعموا أنها بدأت المشروع العلمي ودفعت المصريين للمراجعة والحداثة في نحو ثلاث سنوات من الحروب داخل مصر، متجاهلين محمد علي باشا الذي أقام المؤسسات التعليمية وجلب المعلمين وأرسل البعثات العلمية، (وليس البعثات التخريبية التي

أفسدت عقول الناس وقيمهم)، وأقول لهؤلاء الكذابين: لقد كان لبلاد المغرب العربي النصيب الأكبر من الاحتلال الفرنسي، فقد دخل الجزائر ١٨٣٠م، وفرنس شعبها لغة، وعلمن كثيرًا من متعلميها، وبقي تحت تسميات التعاون الثقافي والفكري والفرانكفوني، ولم يخرج حتى الآنّ، فأين الجزائر الآن من أوربا؟ أيها المتفرنسون أصحاب الفرنسة المضللة بالفرانكفونية التنويرية! ومن ورائها تغريب وتخريب.

ثالثًا: الوطن:

"الوطن "(Country)[١]: منزل إقامة الإنسان ومقره؛ ولد به أو لم يولد، وهو مكان الإنسان ومحله، وهو نوعان؛ أولهما: الوطن الأم (Home country): الوطن الأصلي (Native country)، ويسمى بالأهلي، ووطن الفطرة والمهد (محل مولد الرجل). والآخر: وطن المهجر (Immigration country)، وأرض الهجرة وبلد الإقامة الدائمة، وقال ابن جُماعة في "المنهل الراوي": "قال الحاكم راويًا عن ابن المبارك: إن من أقام في مدينة أربع سنين فهو من أهلها"، وقال لي أحد علماء علم الأحياء الخلوي (البيولوجيا الخلوية: biology Cell) إن خلايا الجسد تتغير في عامين، إذن من نزل بساحة قوم عامين متتابعين صارت بنيته من محل إقامته، وقد وضعت بعض دول المهجر مدة زمنية للمتجنسين.

وحنين الوطن (Homesickness) (أو أرض المهد والمنشأ) لا يفارق المرتحل عنه، فحب الوطن غريزة، روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ قال في مكة عند هجرته منها: "ما أطيبك من بلدة، وأحبك إلي، ولولا أن قومك أخرجوني ما سكنت غيرك"[٢]، وقد دعا النبي ﷺ ربه بأن يرزقه حب المدينة: "اللّهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد"[٣].

---

(١) العرب تفرق لغة بين أنواع الأوطان بالأسماء، فيقولون: وطن الإنسان، وعطن الإبل، وعرين الأسد، وكناس الظبي، ووِجار الذئب والضبع، وعش الطائر، وكور الزنابير، ونافقاء اليربوع، وقرية النمل". ارجع إلى: كشف المشكل، لابن الجوزي (٣/٣٦٣)، و"الفتح" (٦/٣٥٨).

(٢) أخرجه الترمذي، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي في "الشعب"، والمقدسي في "المختارة" بسندٍ صحيح.

(٣) رواه الشيخان من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقد ظلت لواعج حب الوطن الأول تجتاح أفئدة المهاجرين، قال رسول الله ﷺ في مفارقة مكة كرهًا: "والله إني أعلم أنك خير أرض الله وأحبها إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجتُ"، وفي رواية أخرى: "ما أطيبَك من بلدٍ! وما أحبَّك إليَّ!، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنْتُ غيرك"(١)، وقال النبي ﷺ داعيًا، وقد اشتكى المهاجرون حنين الوطن، وتوعكوا من مناخ المدينة (الرطب)؛ لاختلافه عن مناخ مكة: "اللّهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وانقل حماها إلى الجُحفة، اللّهم بارك لنا في مدها وصاعها"(٢)، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "اللّهم اجعل بالمدينة ضِعْفي ما جعلت بمكة من البركة"(٣)، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال النبي ﷺ: "اللّهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه"(٤)، وقد اختار المدينة أرض الممات بعد فتح مكة؛ ليجعل لها حظًّا من حب المسلمين، وكانت نفسه ﷺ تهفو لزيارة وطنه والطواف بالبيت الحرام، وقد مكنه الله تعالى منه.

وقد شغف حب مكة المهاجرين، وكان النبي ﷺ يتنسم ريحها ممن قدم عليه منها، روي عن ابن شهاب قال: قدم أصيل الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل أن يضرب الحجاب على أزواج النبي ﷺ، فدخل على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالت له: يا أصيلُ! كيف عهدت مكة؟ قال: عهدتها قد أخصب جنابها، وابيضت بطحاؤها، قالت: أقم حتى يأتيك النبي ﷺ، فلم يلبث أن دخل النبي ﷺ، فقال له: "يا أصيل! كيف عهدت مكة؟" قال: والله عهدتها قد أخصب جنابها، وابيضت بطحاؤها، وأغدق إذخرها، وأسلت ثمامها، وأمشّ سَلَمها. فقال: "حسبك يا أصيل؛ لا تحزنا"(٥).

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه مسلم.

(٥) أخرجه الأزرقي في "أخبار مكة". وأخرجه باختصار أبو الفتح الأزدي في كتابه "المخزون في علم الحديث"، وابن ماكولا في "الإكمال". وفيه: قال رسول الله ﷺ: "ويهًا يا أصيل! دع القلوب تقر قرارها". وهذه الجملة من الحديث فيها ضعف، وأوردها ابن حجر في "الإصابة"(١/٩٢). وويه: اسم فعل أمر للتحريض، =

وقال الرافعي القزويني في "أخبار قزوين": ولو لا نزوع النفس إلى مسقط الرأس ودائرة الميلاد لم ينزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، أي: مكة، وقيل: يوم القيامة.

وقد جعل الإخراج من الوطن عقوبة توازي القتل؛ لشدة أثره في النفس، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾، جعل - الله تبارك وتعالى - مفارقة الأوطان؛ معادلة لقتل النفس، فهؤلاء في المرتبة الأولى: تركوا الأديان القديمة؛ لطلب مرضاة الله تعالى، وفي المرتبة الثانية: تركوا الأقارب والخلان والأوطان والجيران؛ لمرضاة الله تعالى"(١)، والعقوبة على نوعين: نوع عذاب، وهو على الكفار، فقد أخبر الله تبارك وتعالى عن هذا الصنف، فقال عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾ [الحشر]، معنى (الجلاء) في اللغة: الخروج من الوطن والتحول عنه، والجلاء نوع من أنواع التعذيب"(٢). وعقوبة حدية، وهو النفي: عقوبة تتعلق بحد الزنا الذي يغرب فيه الزاني عامًا.

وقد زعم بعض المعاصرين أن مفهوم الوطن غير واضح في الإسلام، وهو الاستقرار والحضارة ومقر الاستخلاف، الذي قال فيه تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، وزعموا أيضًا أن الإسلام لا يعرف المواطنة التعددية في العرق أو الملة، والصواب أن الإسلام قد أقام أول كيان سياسي جامع حقيقي في الجزيرة العربية (جزيرة

=

مثل: دونك. يريد أن يسكته. ومعنى: جناب: جوانب ونواحي، وإذخر: نبات صحراوي نجيلي، وثُمام: نبات نجيلي، وأمش سلمها: طاب نبات السَلَم، يريد طابت بالخير.

(١) التفسير الكبير، للرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، تفسير سورة الحشر.

(٢) التفسير الكبير، تفسير سورة الحشر. وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ [الحشر:٣]، أي: لولا أنه قضى أنه سيجليهم عن دارهم، وأنهم يبقون مدة فيؤمن بعضهم، ويولد لهم من يؤمن. لعذبهم في الدنيا، أي بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة. والجلاء: مفارقة الوطن، يقال: جلا بنفسه جلاء، وأجلاه غيره إجلاء. والفرق بين الجلاء والإخراج، وإن كان معناهما في الإبعاد واحدًا من وجهين: أحدهما: أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد. والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد. الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة ؛ قاله الماوردي. [القرطبي، دار الفكر، ج ١٨/ ٨].

العرب)، وأنه قد أسس أول وطن يقوم على مفهوم الأمة الجامعة للتكوين البشري، وقد بدأت مكونات الدولة الجديدة بوطن وثير يكتنف مواطنيه ويؤمنهم، ويوفر لهم سبل العيش والحماية، ثم تنشئة الشخصية الوطنية (تربية مجتمع إيماني) وتدعيمها، باستقدام عناصر تؤمن بمكونات الدولة، وهي عملية "الهجرة" التي أمدت الدولة بكفاءات من خيار العرب، وشكلت كوادرها العسكرية، وقد استوعبت المدينة المنورة هذه العناصر، وصارت مركز المنعة والقوة، وهي أول "مواطنة أممية" تتجاوز حدود دولة القبيلة الصغرى، وتسمح بالتعددية العرقية، وتقوم على المساواة في المواطنة (تحت مبدأ المؤاخاة في الدين)، وتجاوزت نزعات العرق واللون والطبقة الاجتماعية[1]، فقد آخى النبي ﷺ بين المسلمين، فصارت المؤاخاة في الدين آصرة الأمة، بين عنصريها المهاجرين والأنصار، فقد أحلت وشيجة الإخاء الديني محل رابطة عصبية القبيلة والتمييز في العرق واللون، مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرات:١٠]، وقد قضت هذه الأخوة على الصراع الدموي بين الأوس والخزرج في الجاهلية، فدخلوا في عصمة الدين التي أمر الله تعالى بها: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، ففقد نجح الإسلام في احتواء قبائل العرب في كيان واحد، وشيجته العقيدة، وقد استعصت القبائل قبل على كل محاولات الوحدة في الجاهلية، وقد تسببت في انهيار مملكة كندة التي قامت شرق الجزيرة على الخليج، بعد أن ثار بنو أسد على ملكها حُجْر بن الحارث الكندي؛ لأنه قهرهم وفرض عليهم ضرائب

---

(١) كان صناديد مشركي مكة يستنكفون من الإسلام؛ لأنه يسويهم بضعفائهم ويلزمهم بحقوقهم، وقد استنكروا وحدة المسلمين على غير التكتل القبلي، وقد سموا المسلمين الأخلاط والأوباش (مقلوبها الأوشاب)؛ لأنهم لا ينتسبون إلى قبيلة واحدة بل من خيار العرب، وقال عروة بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ، قبل أن يسلم في الحديبية: "يا محمد جمعت أوباشًا. أي أخلاط الناس. ثم جئت بهم إلى بيضتك. أي: أصلك وعشيرتك. لتفضها بهم، إنها قريش ...". وجاء في رواية البخاري: "وإني لأرى أشوابًا من الناس، خليقًا أن يفروا ويدعوك"، قال ابن حجر: (فتح الباري: ٥ / ٤٠٣): "قوله (أشوابًا) بتقديم المعجمة على الواو كذا للأكثر، وعليها اقتصر صاحب المشارق ووقع لأبي ذر عن الكشميهني (أوشابًا) بتقديم الواو، والأشواب: الأخلاط من أنواع شتى، والأوباش الأخلاط من السفلة، فالأوباش أخص من الأشواب".

(الإتاوة)، فعدوها مذلة، وثاروا عليه، وقتلوه، وفشل ابنه (امرؤ القيس الشاعر) في استرداد ملك أبيه، واستعان بالروم خصوم الفرس، ولكنهم خذلوه.

ولقد قامت أول وحدة وطنية معترفة بالتعدد العرقي والديني في التاريخ، بمعاهدة بين النبي ﷺ ويهود المدينة، تقوم على المواطنة والمصلحة العامة والدفاع المشترك، وجعل المدينة حرم المسلمين واليهود (وطنهم) يقاتلون عنه، وهذه الوحدة أقامها النبي ﷺ على وشيجة المواطنة (علاقة الولاء الوطني بين المسلمين واليهود)، فكتب ﷺ وثيقة المدينة، التي تمثل أول دستور رسمي للدولة، يتناول تنظيم الدولة والمؤسسات وحِمى المدينة (حدود الدولة ونفوذها)، وقانون المساواة العامة وقانون الأحوال الشخصية، ودور العشائر في حفظ الأمن والنظام وردع الخارجين على النظام العام، والضوابط التي تحكم علاقات العشائر ببعضها، ثم تناول حقوق المواطنة لغير المسلمين، وما لهم وما عليهم من حقوق المواطنة؛ كالدفاع العسكري المشترك عن الوطن وقتال أعدائه وقانون المعاملات وحرية اليهود في الأحوال الشخصية في التحاكم إلى الشريعة الإسلامية (مصدر التشريع في الدولة) أو إلى شريعتهم، وقد ضمن الميثاق حفظ ذمتهم الدينية وأرواحهم وأعراضهم ومعابدهم وحريتهم في التعبد، وقد أقام النبي ﷺ علاقات سياسية خارجية وتجارية وأحلافًا عسكرية مع قبائل العرب غير المسلمة، تقوم على الوفاء والمصالح، وكاتب كسرى الفرس وقيصر الروم؛ يدعوهما إلى الإسلام واثقًا بنصر الله ﷻ[1]، وكانت غايته تبليغهم حقيقة دعوته، وأن يأذنوا لرعيتهم بالحرية الدينية، ولم يبادهم بحرب استباقية، بل هم الذين بادروه.

وأهل الملل في الشريعة "أهل الكتاب" و"أهل الذمة" و"المُعَاهدين": المعاهَدون من النصارى واليهود والصابئة، ممَّن يُقيمون في دار الإسلام، وسُمُّوا بذلك لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم، فهم أصحاب الحق والحُرمّة بمقتضى العهد الذي يستوجب الوفاء؛

(١) ارجع إلى: تاريخ الحكم في الإسلام، الدكتور محمود عكاشة، مؤسسة المختار، ومفهوم الحكم في الإسلام، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة الأنجلو. وقد تناول المؤلف في الكتابين قيام الدولة في الإسلام وأسسها وتطورها، وفصل القضايا التي تتعلق بها، ومنها معاهدة المدينة والمؤاخاة ومكونات الدولة.

فالإسلام ليس عدو أهل الملل الأخرى، وليس حربًا عليهم، ولا يقصيهم أو يحتقرهم، وقد سماهم الله تعالى "أهل الكتاب" (نسبة إلى الكتب السماوية)؛ حثًّا لهم على الإيمان بالإسلام وتكريمًا، فهو سلام العالمين ونبيه ﷺ رحمتهم، وقاتل الله من صوبوه سلاحًا للترهيب والقتل، ومن سوَّسوه وشوهوه، وشاهد السلام في الإسلام أن الملل الأخرى باقية في أرضه إلى الآن، مقابل الجيوش التي رفعت لواء اليهودية والنصرانية ضد المسلمين، فقد أبادتهم جماعة وهجرتهم قسريًّا؛ لتطهير أرضهم منهم، ومازال الغرب مدعي التحضر، يمارس التحدر في سياسته، مخادعًا بالحرية والقضاء على أعداء الحضارة[1]، وسلطان الإسلام أول نظام سياسي يعترف بمشاركة الملل الأخرى في الدولة وبحقوقهم الوطنية، وهو الملة الوحيدة التي أثبت حقوق رعاياها ضمن شرائعها.

وأقول: إن المواطنة الصحيحة - بمفهوم الانتماء الوطني الذي يقوم على الولاء للوطن والمحافظة على أرواح أبنائه وترابه وأمنه الداخلي والخارجي ومصالحه الداخلية والخارجية - هي الوشيجة الوطنية الأولى التي أقرها الإسلام أول مرة في التاريخ بين أبناء الوطن ذوي الديانات والقبائل والأعراق، وإن العقيدة الإسلامية وشيجة المواطنة بين أعراق الوطن المسلمة وآصرة الأخوة في الدين على السوية والانقياد لشرع الله تعالى، ولا اعتبار لجدل الرُويبضة (الجُهَّال الأراعن) أو المتفيهقين. ولأهل الكتاب (من على نهج الكتب السماوية) أن يطالبوا بحقوقهم الوطنية على السوية مع أبناء الوطن، وأن تكون المواطنة آصرة علاقتهم بإخوانهم المسلمين (بمقتضى أخوة البشرية)، وليس من الدين أن يكلفوا ما لا يطيقون، أو أن يتظاهروا بما لا يؤمنون به، فالمواطنة هنا ليست بديل الدين أو إقصاءه، بل الولاء للوطن والاجتماع الوطني عليه دون ضرر بالإسلام والمسلمين أو

(١) لقد عاصرت نصارى مصر، وهم ينعمون بما لا ينعم به المسلمون، ولكن السلطة عبثت بهم، وميزتهم؛ لتثير غضب الأغلبية عليهم، فتضمن ولاءهم لها ودعمهم، وكان أمن السلطة يرهبهم، ويفتعل حوادث طائفية، متهمًا الإسلاميين الذين اتخذهم ورقة تهديد يخوفهم بها، وجند بعض عناصره، فادعوا أنهم جماعات إسلامية، ويصرحون بما يخيفهم، ويحرضون عليهم، ويصدرون بيانات تحريضية، ويتوهم العامة أنهم يمثلون التيارات الدينية، وقد تعلمت المخابرات العربية هذا من المخابرات الأمريكية، التي أجادت صنع رموز التطرف، ونسبوهم إلى الإسلام، وكانت تحركهم قبيل العمليات العسكرية، فيقومون بأعمال عدوانية محدودة، فترد بقوتها، وتغزو الدولة، وكانت وسائل الإعلام طلائعها التي توطئ الرأي العام.

شريعته التي يقصونها عن قوانين الدولة، وأحكام الشريعة ليست ملزمة لهم في أحوالهم الشخصية، بل اختيار لمن احتكم منهم إليها للفصل في التنازع بينهم، وتُغلَّب في الحكم بين المسلمين وبينهم.

وقد تعايش المسلمون والنصارى داخل الوطن آمنين، والمسلمون في صراع خارجي مع الروم النصارى، ولم يؤذوا بعد اندحار حملات الفرنجة وغيرهم عن بلاد الإسلام فيما عرف بالحروب الصليبية[1]، وكانت الفرصة سانحة للمسلمين للتخلص منهم؛ إبادة أو تهجيرًا قسريًّا؛ فيلحقوا بإخوانهم نصارى أوربا، وقد خير صلاح الدين النصارى الغربيين المقيمين من غير المقاتلين في بيت المقدس بين الإقامة أو الرحيل إلى بلادهم مع جيوشهم، وتاريخ المعايشة الطويل بين الملل في أرض دولة الإسلام يؤكد أن ما رسخه الإسلام من شرائع وقيم أخلاقية في المسلمين قد عزز قوة الدولة ووحدتها ونهضتها، وأنه قد أنصف النصارى، وقنن حقوقهم العامة في الدولة، ولا يضير النصارى انتماء المسلمين الديني؛ فهو في خدمة الدولة والأخلاق والمعاملات، ولا اعتبار لشائبة نزعة التعصب المدفوعة بالإحَن (الأحقاد) في بعض الموتورين، فلكل طيب زبد يذهب جُفاء، ويمكث ما ينفع

(١) تسمية الحروب الصليبية ظهرت في الغرب متأخرة في بدء اتجاه الغرب إلى التوسع الخارجي واحتلال الشعوب، لتوحي للنصارى أنها كانت لأمجاد المسيح، وأنها مقدسة، وقد بدأت في القرن الحادي عشر الميلادي، واستمرت نحو مائتي سنة تقريبًا، وعدد الحملات الصليبية مختلف فيه، وقد قاربت الثلاثين حملة في نحو مائتي سنة تقريبًا (١٠٩٦ – ١٢٩١م)، وقد أرخ المؤرخون للمشهور منها وما كانت له أحداث مؤثرة، وبعضها، تحول إلى غزو نصارى آخرين مخالفين، ومنها الحملة التي غزت القسطنطينية، وخربت كنائسها، وبعضها اندحر في الطريق، وأشهر الحملات: الحملة الصليبية الأولى عام ٤٨٩هـ بقيادة بطرس الناسك بتحريض من رجال الدين لاحتلال بيت المقدس، والحملة الصليبية الثانيه عام ٥٤١هـ بقيادة ملك ألمانيا، والثالثة عام ٥٨٥هـ بقيادة ريشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب ملك فرنسا؛ بحجة استعادة بيت المقدس بعد الانتصارات التي حققها البطل المجاهد صلاح الدين الأيوبي، والحملة الصليبية الرابعة عام ٥٩٤هـ بقيادة أمراء فرنسيين انتهت بالفشل، والخامسة عام ٦١٥هـ، والسادسة عام ٦٢٥هـ بقيادة ملك ألمانيا التي احتل فيها بيت المقدس، (وقد دخلوا المسجد ونهبوه، وجعلوه مأوى الدواب (الإسطبلات)، وثقبوا أعمدته؛ ليربطوا فيها دوابهم، ولو كانوا أصحاب دين لأبقوا عليه معبدًا أو اتخذوه كنيسة)، والسابعة كانت عام ٦٣٧هـ، إضافة إلى حملات أخرى. ويعد الغرب الحرب العالمية الأولى التي أسقطوا فيها الخلافة العثمانية واحتلوا البلاد العربية الحرب الصليبية المقدسة الانتقامية المعادلة لفتح القسطنطينية (١٤٥٣م).

الناس، ومن فضل الله تعالى على الناس أن الدين الحق فيما قاله الله تعالى لا في قول العباد عنه.

وقد عالج الإسلام المشاكل الاجتماعية؛ كالعبودية والطبقية في المجتمع والفقر والمساواة العامة، فجعل العِتق من الكفارات والفضائل، وحقت الزكاة للفقراء، وآخى بين العرب والموالي (الخدم والأتباع الأعاجم والقُيون[١] أرباب المهن التي ابتذلها العرب، وهم المهمشون في الجاهلية، فقد آخى النبي ﷺ بين حمزة عمه وزيد بن حارثة وبين أبي الدرداء وسلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)، وأعلن النبي ﷺ أن المسلمين تتكافأ دماؤهم[٢]، ويسعى بذمتهم أدناهم، فلكل مواطن ذمة خاصة لا تهدر حقوقها، وتستوي فيها المرأة مع الرجل.

وظهرت المؤسسة العسكرية بعد انتشار الإسلام في المدينة بعد اتفاق سكانها على قيادة النبي ﷺ، فقد عدل الأوس والخرج عن تسويد عبد الله بن أُبيّ عليهم إلى تفويض النبي ﷺ بالسيادة والأمر انقيادًا وتسليمًا، وهذا على غير المعهود في تسويد العرب أقوى

---

(١) القَيْن: الحداد والصانع (العمال) والعبد، والجمع: قُيون وأقيان، والمؤنث قينة: الأمة والجارية والمغنية، والجمع: قيان وقينات.

(٢) قال رسول الله ﷺ: "المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، يرد مشدهم على مضعفهم، ومتسريهم على قاعدهم ..."[رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه]، وتتكافأ (بالهمز في آخره)، أي: تتساوى دماؤهم في القصاص والديات، لا يفضل شريف على وضيع كما كان في الجاهلية، "يسعى بذمتهم"، أي: بأمانهم، أدناهم، أي عددًا، وهو الواحد، أو منزلة، يريد: فقيرهم، وقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الإجارة، فقد قبل النبي ﷺ إجارة أم هانئ بنت أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رجلين من أحمائها في فتح مكة قد استوجبا القتل، ولاحقهما علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يريد قتلهما، فاشتكته إلى النبي ﷺ، فقال: "قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ"[رواه أحمد، وأصحاب السير]، ومنعهما من علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال ابن تيمية في شرح السنة: "أي أن واحدًا من المسلمين إذا أمن كافرًا حرم على عامة المسلمين دمه، وإن كان هذا المجير أدناهم مثل أن يكون عبدًا أو امرأة أو عسيفًا تابعًا أو نحو ذلك فلا يخفر ذمته"، "ويجير عليهم أقصاهم": قال الخطابي: معناه أن بعض المسلمين، وإن كان قاصي الدار إذا عقد للكافر عقدًا لم يكن لأحد منهم أن ينقضه، وإن كان أقرب دار من المعقود له"، و"وهم يد على من سواهم"، قال أبو عبيدة: "أي المسلمون لا يسعهم التخاذل، بل يعاون بعضهم بعضًا على جميع الأديان والملل. ارجع إلى: عون المعبود، دار الفكر، محمد شمس الدين، شرح الحديث رقم: ٢٧٥١.

سيد في القبيلة التي لا تقر بتسويد الغرباء، وكان الجهاد (الجهادية أو الجندية) ندبًا ينهض إليه المجاهدون متطوعين عند النفير، ثم صار الجهاد واجبًا شرعيًّا على المسلم القادر الذي يملك عدة الحرب والراحلة والنفقة، وهي باعتبار العدد: نوعان؛ أحدهما: فرض كفاية على من يكفي قتال العدو على الجبهة، ويكلف الآخرون بالقيام على الجبهة الداخلية، والآخر: فرض عين على كل قادر مستطيع إذا داهمهم العدو، وتكاثر عليهم بالقض والقضيض، وقد ظهر ديوان الجند، ورصدت فيه أسماء من تفرغوا للجهاد، واستمر تطور الجيش استجابة لاتساع الدولة وآليات القتال وخططه، وكان التدريب على القتال والفروسية والمصارعة والعدو من الأعمال اليومية التي يمارسها الشباب، وكان التجهز للجهاد بوقف الرواحل له وإعداد العدة والمؤنة.

وقد شرع الله ﷻ القتال دفاعًا عن الوطن، وأوجب الصمود فيه أمام العدو، وجعل استعادته واجبة، قال تعالى على لسان من أُخرجوا بعد أن فرض عليهم الجهاد لاسترجاع وطنهم: ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]، وقد أكرم الله ﷻ الوطن أيما تكريم، فقد جعل الموت فيه شهادة.

وقد شهدت الدولة تطورًا مشهودًا بعد فتح مكة، فقد دخلت القبائل العربية في الإسلام أفواجًا، ودخلوا أيضًا في سلطتها، وجابت جيوشها الجزيرة العربية جنوبًا وشمالًا؛ للتخلص من النفوذ الأعجمي، وتوجهت طلائعها شمالًا نحو الشام، وكان الهدف الأول استقطاب القبائل العربية شمالًا وجنوبًا؛ ليكونوا جيوشها إلى العالم، ونجحت كل الحملات العسكرية في عصر النبوة في تطهير الجزيرة العربية من الاحتلال الخارجي حتى جنوب العراق والشام، ويعد دخول قبيلة تميم في قوة الدولة الفتح الثاني الأكبر بعد فتح مكة (٨هـ)، فهي أكبر قبيلة عربية، وأكثر القبائل بطونًا، وأشرسهم قتالًا، وأقوى قوة ضاربة في نجد، وقد مثلوا النصيب الأكبر في جيوش المسلمين العرب في فتح فارس والروم وشمال أفريقيا، فالأعاجم مازالوا في دولتي الفرس والروم، وقد أصدر النبي ﷺ أمره العسكري الأخير في مرضه الذي مات فيه ﷺ، لجيشه الذي حشد له جمعًا عظيمًا من المسلمين؛ ليتجه صوب الروم وحلفائهم العرب النصارى في الشام، وقيد الله لهذه الأمة أعظم رجالها أبا بكر الصديق الذي اقتدى بسياسة النبوة، وجعلها نهجه في

مرحلته السياسة المفعمة بتمرد بعض القبائل والقلاقل على الحدود، وقد استطاع هذا الرجل أن يعالج الأزمات التي واجهته بحنكة منقطعة النظير في مدة يسيرة، فقد وجه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حملاته إلى القبائل المتمردة، وتمسك أيضًا بإرسال الحملة العسكرية التي أعدها الرسول ﷺ لرد غزو الروم شمالًا، وتأديب القبائل النصرانية التي تطاولت على هيبة الدولة، وكان هذا أحكم قراراته، فقد رفع معنويات المسلمين في الداخل بعد صدمتهم بوفاة الرسول ﷺ، وحافظ على هيبة الدولة بين قبائل العرب، وخوَّف الروم الذين تراجعوا، وسحبوا جيوشهم من مواقعها الأمامية، وكان لهذه الحملة بعد سياسي حكيم، فقد صرفت القبائل البدوية المتمردة[1] على السلطة الجديدة عن مواجهتها إلى بلاد الروم والفرس، فكان الجهاد شمالًا في أرض الفرس والروم علاجًا ناجعًا لثورة هذه القبائل، فقد آثرته مكسبًا ومتنفسًا لطاقاتها ولفروسيتها على قتال إخوانهم، وكان للجهاد أثره في تمكين الدين من الأعراب، وتوطين قيمه فيهم بعد أن عايشوا واجبهم الدعوي في الجهاد، وحسن بلائهم فيه، وبدأ ظهور عناصر جديدة بثقافات مختلفة في الدولة، وقد فرضت هذه التركيبة على الدولة سياسات جديدة ومؤسسات وتغييرات؛ استجابة لمكوناتها وتوسعها على الأرض، فقد تمكنت من إمبراطورية الفرس كاملة ونصف أرض الإمبراطورية البيزنطية الشرقية حتى بلغت أسوار القسطنطينية، وصالحها الصينيون على الجزية، فصارت أعظم دولة عادلة في التاريخ تهزم أعظم قوتين في العالم في زمن واحد، وتجلى مفهوم الأمة العظمى في الإمامة العظمى (الخلافة الإسلامية وسلطان المسلمين الجامع)، وقد قامت على مكون بشري مزيج، تعجز السياسات والفلسفات أن تحتويه، وأن تستفيد منه، فقد انصهرت فيه معطيات الحضارات والثقافات والأعراق وتجاوبت معه الملل، وأنتج هذا المكون البشري أعظم القيم الأخلاقية، وأعظم رموز العالم، وأرقى فكر وأعظم آداب الدنيا، وأعظم تراث لغوي لأعظم لغة عالمية وأعظم سياسة شرعية

---

(١) عرفت هذه الثورات الانشقاقية بحروب الردة؛ لأنها عدت دفع الزكاة لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إتاوة، كإتاوة الفرس والروم، وبعضهم أنكر اختيار أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورأوا أن المهاجرين والأنصار تجاوزوا قرابة النبي ﷺ كالعباس أو علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ارجع إلى: تاريخ الطبري، ج٢، ص ٢٥٥، والبداية والنهاية، ج٦، ص٣١٣.

اقتدت بنهج النبوة، ولا يوجد دين في العالم نجح في تأليف أتباعه مثل الإسلام، ولا يوجد تراث عالمي نظير التراث الإسلامي كمًّا وكيفًا وزمنًا، وقد ساهمت فيه كل أعراقه وكل الملل التي تفيأت في كنف الإسلام وقيمه. ائتوني بنظير له في الدنيا! ليس بعد هذا مطعن لطاعن، ولا لغو لرويبضة.

ويتبين – مما سلف – أن الوطن هنا يتجاوز حيز جغرافية المواطن الضيقة إلى متسع الأرض للأمة الواحدة، والوطن نوعان باعتبار الحكم والجغرافية؛ أحدهما: الوطن الأصغر (الدولة والسلطنة والمملكة والإمارة والولاية) الذي يمثله الكيان السياسي (السلطة) والمؤسسات في حيز "الدولة" المعترف بها دوليًّا، والانتماء إليه، يقوم على المواطنة القائمة على وحدة ترابه وسلطته السياسية ومكوناته البشرية والعقدية والفكرية. والآخر: الوطن الأكبر جامع المكونات العامة الجامعة التي تشترك فيها شعوب دُوَله المقسمة إداريًّا إلى دويلات أو إمارات أو ولايات، ويسمى "الأمة الجامعة"، وأهم مكوناته أخوة الدين (في العالم الإسلامي) واللسان (العام المشترك بين مكوناتها البشرية والألسنة المحلية) والتراث والتاريخ والمصالح الدينية والدنيوية، والوطن فيه الأرض التي يقيم عليها أبناء الأمة، وهو يتسع جغرافيًّا باتساع الأمة ودخول آخرين في مكوناتها، وقد مثل الوطن الأكبر سياسيًّا "الخلافة الإسلامية الجامعة أو الإمامة العظمى"، وهي التي يخشاها الغرب الآن بعد أن أسقطها بمساعدة القوميين الأتراك والقوميين العرب في أرضها (١٩٢٤م)، ويرى أن استعادتها وهمًا في خيال من تسميهم المسلمين الجُدد أو الإسلاميين (في مقابل المحافظين الجدد)، وقد صارت "الأمة الإسلامية" الآن علاقة روحية بين المسلمين، ولا يمثلها كيان سياسي واحد (الخلافة أو الإمامة العظمى أو السلطان النصير الأعظم)، فالوطن الأكبر فكرة ماثلة في وعي المسلمين، وليست شاخصة في عالم الشهود، وليس للأمة الإسلامية صِنو في الأمم الأخرى، فهي تقوم على الأخوة الدينية (أخوة الإسلام) والأخوة البشرية (أخوة الناس)، وتتعالى على الجنس واللون وتعدد الألسنة. ولكن بعض التيارات الإسلامية المعاصرة تختزل الدين في الأسس التي تتبناها منه، وتحصر الأخوة في الدين دون أخوة الخلق البشري التي خوطب

بها الناس؛ مؤمنهم وكافرهم في القرآن الكريم، بل ميزت نفسها عن عامة المسلمين اجتماعيًّا وسلوكيًّا ومظهرًا وتسمية، وهي تمثل شريحة من المسلمين لا عامتهم[١].

رابعًا: اللسان:

المصطلح الأصيل للغة "اللسان"، وهو آلة الكلام، وقد أطلق على اللغة مجازًا، وهو مصطلح قرآني، يعني ما يتواصل به كل قوم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم:٤] أي: بلسانهم؛ ليفهمهم[٢]، وجاء في التعدد اللغوي: ﴿ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ ﴾ [الروم:٢٢]: لغاتكم، وتعدد الألسنة من آيات الله في الخلق، ويتبين أن مصطلح "اللسان" قرآني، وأنه الأسبق، وكان مصطلح "اللغة" في اصطلاح المتقدمين يعني "اللهجة"، فقولهم "لغات العرب": لهجاتهم، وقد توسع اللفظ للدلالة على اللسان العام. وبعض المغاربة ومن قلدهم عدلوا عن التسمية عبثًا إلى الألسن والألسنية واللسانيات، وكلها بدعية، وقد أضر اختلافها في البحث بكثرة الجدل، وقد عقد مؤتمر في إحدى بلاد المغرب؛ لتوحيد المصطلح اللساني، فطرح المتخصصون مصطلحات جديدة، وتعصب كل صاحب طرح لرأيه! وزعم بعض الباحثين أن "علم اللغة" خصيصي الدراسات اللغوية القديمة، وأن "اللسانيات" علم اللغة الحديث، ما لهم بذلك من علم أو مصدر!

---

١) لله در الداعية الشيخ عائض القرني الذي قال:

أنا الحجازُ أنا نجدٌ أنا يمنٌ أنا الجنوبُ بها دمعي وأشجَاني
بالشّامِ أهلي وبغدادُ الهوى وأنا بالرقمتينِ وبالفسطاطِ جِيراني
وفي رُبى مكةٍ تاريخُ ملحمةٍ على ثَراها بنينا العالمَ الفاني
دفنتُ في طيبة رُوحي ووالهي في روضةِ المُصطفى عُمْري ورِضْوَانِي
النيلُ مَائي ومِنْ عمّانِ تذكرتِي وفي الجزائرِ آمالي وتِطْوانِ
دمي تصبّبَ في كابول مُنْسَكِبًا ودمعتي سفحتْ في سفْحِ لُبْنانِ
فأينما ذُكر اسمُ اللهِ في بلدٍ عددتُ ذاكَ الحِمى من صلبُ أوطاني

٢) روى الإمام أحمد عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "لم يبعث الله عزَّ وجلَّ نبيًّا إلا بلغة قومه"، وصححه الألباني.

واللسان أصله أصوات منطوقة، يعبر بها المتكلم عن غرضه مع من يتواصل معهم به، ثم رمز المتكلم للمنطوق برموز كتابية، فهي ذات طبيعة صوتية، وظاهرة اجتماعية، ويستخدم المتكلم إلى جوار اللغة تعبيرات غير لغوية؛ كالتعبير الجسدي والحركي والتعبير الرمزي والإشاري في محيطه اللغوي الذي يستوعب دلالتها، وتفسيرها عند الأمم الأخرى يتطلب معرفة دلالتها مثل الألفاظ.

واللسان ليس شرطًا ملزمًا في المواطنة؛ فهو مثل الدين يخص صاحبه، بيد أنه من أواصر وحدة الوطن الأساسية.

واللسان في التعبد الإسلامي لازم بالعربية في الشعائر، فالعربية لسان القرآن ولغة التعبد، فهي لفظ كلام الله تعالى في القرآن الكريم، واللسان المشترك بين المسلمين، ولا تجده في ملة أخرى، بيد أن اليهود اتفقوا مؤخرًا على العبرية، واللغة العربية بمفهومها الديني لم تعد لغة العرق العربي القح، بل لسان من يتكلمها، وجاء في الحديث: "ليست العربية بأب لأحد منكم أو أمّ، وإنّما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي"[(١)]، وهذا الحديث ضعَّفه العلماء، ولكن معناه معمول به عند معظم المسلمين، فقد اتخذوا العربية لسانهم، واستعربوا، ولكن صعود النزعة القومية عند بعضهم ردتهم عنها، ولكن العربية بقيت لغة الدين الإسلامي، ولا تنفصم عنه، وبقيت معه لغة التعبد، وستبقى إلى يوم القيامة إن شاء الله، والعجاب أن أكثر العلماء بذلًا فيها المستعربون، فمعظم النحاة واللغويين من أصول أعجمية، وقد ساهم في تراثها بعض غير المسلمين!

وقد جعل الغربيون اللسان من مكونات القومية الحديثة، وبعض الدول استبعدته؛

---

(١) روى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي، فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هؤلاء؟ فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ تلبيبه، ثم أتى به النبي ﷺ، فأخبره مقالته، فقام النبي ﷺ يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودي: الصلاة جامعة، وقال: "أيها الناس، إن الربّ واحد والأب أب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي، فقام معاذ بن جبل، وهو آخذ بتلابيبه، قال: فما تأمرنا بهذا المنافق يا رسول الله؟ قال: دعه، إلى النار، فكان قيس ممن ارتد في الردة، فقتل [ذكره الألباني في "الأحاديث الضعيفة" (٩٢٦)، وقال: ضعيف جدًّا].

لتعدد ألسنة مواطنيها؛ حرصًا على وحدتها، واكتفت بوحدة التراب الوطني، فالمعايير القومية بمقتضى وحدة الوطن وحاجة مواطنيه، والدين واللسان من مكونات الوحدة في بلاد العرب، ولكن الاحتلال حرص على إيقاظ اللغات العرقية فيه؛ لتوسيع دائرة الخلاف التي تتسع لوجوده، فضيقها لا يتسع له، وقد ساهم في هذه النعرات دخول غزو المد القومي الساحة العربية، فأيقظ قوميات الأمازير والأكراد والقوميات الآشورية والكلدانية والآرامية والسريانية، وتنادت كل قومية بلغتها، وهنالك نعرة نصرانية في مصر، تتجه نحو نصرنة الدولة بإظهار معالم النصرانية، ممثلة في كثرة الكنائس، ورفع أبراجها إلى مستوى مآذن المساجد، وتعميم تعليم القبطية في الكنائس، والتسمي بغير الأسماء العربية، وإشهار الصلبان والتحلي بها، في ظل غياب سلطة الدولة التي ملأت الكنيسة فراغها، ونصبت نفسها سلطة موازية لها، فأصبحت مرجعية النصارى دون الدولة، واللغة القبطية ليست مصرية قحة، بل لهجة من بقايا المصرية واللغة اليونانية والألفاظ الدخيلة، ومعظم حروفها يونانية، فقد نشأت زمن الاحتلال قبل الإسلام، ثم بدأ التعريب في مصر بعد الفتح، واستمر التعريب سلمًا حتى القرن الرابع الهجري، فلم يكرههم المسلمون العرب على تعلم العربية والتحدث بها، وقامت مصر بدورها الديني والثقافي، فقد صارت القوة العسكرية والعاصمة الثقافية للعالم الإسلامي والتعليمية، ولكن القوميين العرب أصروا على استبعاد الدين من المكون الوطني، وجعلوا العربية اللغة الرسمية في دستور الدولة، ولكنها لم تشهد تفعيلًا حقيقيًّا في مؤسساتها، ولم تحظ بدعم الدولة التي تركتها فريسة اللغات الدخيلة وسخرية وسائل الإعلام، والسلطيون أنفسهم لا يحسنون الحديث بها، ويتكلمون العامية المبتذلة كالسوقة تجاوزًا.

واللسان ـ لا شك ـ عنصر رئيس في الانتماء الوطني والقومي والثقافي؛ فهو معيار المستوى الحضاري والثقافي والشخصية الوطنية، وأهم وسائل الاتصال وأكثرها استعمالًا، ومعيار الإعلام الفعال المتميز، ودليل رجل الدولة الفذ اللِسن.

وهنالك علاقة وطيدة بين اللسان والهوية، وقد استقر هذا في وعي متقدمي العرب، الذين رأوا أن اللسان أصوات يعبر به كل قوم عن أغراضهم، فهو تعبير عن جماعة متماسكة ومتواصلة، وهي تعبير عن فكر ومقاصد، وقد بسط العلماء قول المتقدمين في

علاقة اللغة بالجنس والدين، وقد غالى بعض علماء العربية في حبه؛ فنالوا ممن لم ير أنها أفضل اللغات وأسبقها وأنها لغة أهل الجنة، وقد ذكر بعض اللغويين مرويات منسوبة إلى النبي ﷺ، تذكر حبه ﷺ العربية، وقد تتبعتها، فلم تثبت عنه ﷺ، بيد أن معناها صحيح، فهو عربي فصيح، وقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، ويكفي العربية أنها لفظ خطاب القرآن الكريم، وأن التعبد بها في الأركان، وأنها بصريح لفظ القرآن الكريم اللسان المبين، وأنها محفوظة بحفظ كتاب الله ﷻ.

إن العلاقة بين اللغة وأصحابها مثل وشائج القرابة، يصعب معها الفصل بين الطرفين؛ فهي من مكونات الهوية الأساسية، وقد رأى علماء الاجتماع أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وهذه حقيقة، وقف عليها المتقدمون الذين رأوا أنها تعبير عن اصطلاح اجتماعي في مجتمع ذي مكونات واحدة، وأنها ذات صلة بوجدان متكلميها، فكل شعب متعلق بلغته؛ لأن الأفراد دائمًا يرتبطون بأبنيتهم الاجتماعية؛ فهي مظهر من مظاهر الهوية والوجود، ومعلم من معالم الشخصية، وقُصاراك أن تعلم وأن تذوق المعنى والتصور، لا يكونان إلا ممن نشأ في كنف اللغة.

ومستوى اللغة ومصيرها قيد الهوية؛ فاللغة أحد أعمدة الهوية الوطنية، وهوية الشعب أعمدة بنائه، وظرف مكوناته، وهوية العرب الدين والعروبة والأرض والتراث، وترتبط أيضًا بالدين، وتكتسب قداسته عند غير الناطقين بها، فضياعها يعني ضياع أحد المقدسات. لكن الله – سبحانه – قد حفظها من التفكك والموت؛ فاللغة العربية لغة الدين الإسلامي ولغة من يتكلمها، واللغة جزء من هوية متكلميها، فـ"الهوية" أعم، واللغة أهم مقوماتها، وأشدها خصبًا وعمقًا وتركيبًا. إن العلاقة بين اللغة والهوية علاقة الخاص بالعام، وعلاقة تعبيرية كعلاقة المتكلم بكلامه الذي يعبر عنه.

و"اللغة" التي يستهدف المخربون قواعدها ودلالتها؛ لهدمها قواعديًّا ولتفريغ مضمونها دلاليًّا، وقد أكدت أن تخريب قواعد اللغة ليس في طاقة فرد أو جماعة، بل في تقهقر أهلها وتفكك بنيتهم الاجتماعية، وتواطئهم على التغريب بالتوسع في مؤسسات تعليم اللغات الأجنبية للنشء، فيفطمون على التغريب دون رضاعة اللغة الأم، وليس من سبيل للمخربين غير العبث بدلالة اللغة؛ لتفريغها من مضمونها، وهو هدف رئيس؛ لأن

المعنى مادة الفكر، وتخريبه تخريب الفكر، والدين مصدر القيم وتهذيب السلوك، وإزاحته عن المجتمع تخريب الكيان الأخلاقي.

إنّ الشّعوب العربيّة تحتاج إلى العناية بكلّ دعائم هويّتها، وأبرزها الإسلام واللّغة والتّاريخ والتراث وثرواتها البشرية والطبيعية والفكرية، إضافة إلى التكيّف الاجتماعيّ البيولوجي، وتنشئة مواطن أكثر وعيًا ومعرفة ومرونة مع عصره، وتجاوز هذه الدعائم الحضارية كسلًا أو غفلةً أو إهمالًا، عواقبه خطيرة دينيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وحضاريًّا.

واللغة العربية تواجه حربًا في الخطاب الإعلامي ومؤسسات التعليم في ظل الاختراق السياسي الغربي والإعلامي والثقافي والاقتصادي والصراع السلطي والعرقي الداخلي وثورة الاتصال الحديثة، بما فيها من منافع وإيجابيات ومعايب، وبما عليها من تبعات؛ فقد يسرت التواصل البشري والتفاعل الحضاري والمعلوماتي والثقافي، ولكنها استُخدمت أيضًا للتضليل والإثارة والحشد والتوجيه والضغط السياسي، وقد تجاوزت الحدود واخترقت الجُدر، واغتالت العقول وغزت الشعوب، ومواجهة الخطر تستوجب وعيًا وتأسيسًا متينًا بترسيخ القيم الدينية والأصول الثقافية والتربية الوطنية، وتطوير المؤسسات التعليمية والتّربوية والتنمية اللّغوية، واللغة أداة رئيسة في تأصيل القيم في النشء ومؤسسات الدولة، وتنمية اللغة تتطلب مؤسسات تقوم على تحصيلها ومعرفة قواعدها واستخدام الوسائل التعليمية العلمية في تعليمها وتأهيل معلمها علميًّا ونفسيًّا وسلوكيًّا وحضاريًّا، ودعمه ماديًّا واجتماعيًّا، وتعزيزه وتوقيره، وترغيب طلابها فيها وإغرائهم بها، ودعمهم ماديًّا ومعنويًّا، وتهيئة المناخ العلمي لها، وإقامة المؤسسات التعليمية المتطورة لمتعلميها ومعلميها، وتطوير أساليب تعلميها التقليدية بطرق التدريس العلمية الحديثة وبالتقنية الحديثة والوسائل الإرشادية المتطورة، والاستفادة من المناهج العلمية الأخرى، والتجارب الغربية في تعليم اللغة، وتقنينها في الاصطلاح العلمي والخطاب التعليمي ووسائل الإعلام التي تمكنها من الخطاب اليومي، فيتعلم العامة أساليبها الراقية سماعًا؛ فوسائل الإعلام وسيلة تعليمية ناجعة ومتاحة لكل الفئات، وتفعيلها في مؤسسات الدولة وخاصة التعليمية والحقول العلمية، ونشر آدابها وتعريف العالم بها؛ لتصبح لغة حضاريّة قادرة على التّعاطي مع معطيات عصرنا، وما يطلبه من

معرفة جامعة وتقنية متقدمة، تستوعب الحاجة العصرية، ولتستجيب لآليّات العولمة في ضوء التّفاعل والاحتكاك، وتطوّر الوسائل التّقنية المتطوّرة في عالم الاتّصال والإعلام، ولتصبح لغة معاصرة، تتصدى لغزو اللغات الأجنبية، وهذا كله يؤتي ثماره بالنهضة الحضارية والمساهمة في الواجب البشري بمقتضى تكليف الاستخلاف في عمارة الأرض.

ولا شك أن الهَويّة اللّغوية وتعليم اللغة القومية وخطر التعدّد اللّغوي واللغات الأجنبية عليها، قضايا لها جذور قديمة، ولها آثار في استقرار الدول ووحدتها، وهي موضوع بحث المؤسسات العلميّة واللّغوية والسّياسية، وتعلم أن مشروع تفتيت الدول العربية (المنقسمة على نفسها والمقسمة حدوديًّا)، يستنفر عصبية الأعراق، وإحياء لغاتها، وتغذية النعرات القومية (عُبِّيَّة الجاهلية: تغليب نخوة العرق على المصلحة العانة)، وتغذية النعرة الطائفية والدينية، ويستقطب العناصر الضعيفة والموتورة؛ لتقوم بمهمة الاستنفار والتمرد، وقد تصدى الاحتلال الإنجليزي لتعريب جنوب السودان وأسلمته، فنصره تبشيريًّا، وقام المبشرون النصارى بتعليم اللغة الإنجليزية لأبنائه، وظل غريبًا عن وطنه الأم السودان، واستقطب الغرب بعض أبنائه، فتبنوا مشروع الانفصال عن الوطن الأم؛ لأنهم غير عرب وغير مسلمين، فالدين واللغة والثروة أهداف الاحتلال، ووسائله إليها الفتن والنعرات القومية والطائفية والدينية.

والمشهد اللّغوي العربي يواجه مشكلات متعددة، منها التعدّدُ اللغويّ واللهجيّ والانحصار والضعف والركاكة والدخيل، وعدم تفعيل اللغة الفصحى في الخطاب اليومي والرسمي والمؤسسات والاقتصاد والأوساط العلميّة.

ووضع اللّغة العربيّة يستوجب التحوّل من السّياسة اللّغوية العشواء، المبنيّة على المصالح السياسية الخاصّة، إلى التّخطيط اللغوي الذي يوفّر حلول أزماتها المعاصرة وفق رؤيةٍ علميّة، تستحضر إدماج اللّغة الوطنيّة وقيمتها النّوعية في التّنمية والتحضر، والتعبير عن شخصيتها التي تنطلق من ثوابت انتماء راسخة في تكوينها، فتعليم اللّغة العربيّة في المدارس والجامعات يشوبه غياب التّخطيط وخلل السّياسات التعليمية وهشاشتها، فليس هنالك خطة تعليمية واضحة ترصد الدولة تطورها، وهذا يتطلب إعادة النظر في

مادة الدراسة والمنهج، وتأهيل المعلم، ورفع قدراته التدريسية وتحفيزه، وتطوير الوسائل التعليمية.

وتساهم المؤسّسات التّربوية والتّعليمية العشواء أيضًا في أزمات العربية المعاصرة؛ لميلها إلى تقديم اللغات الأجنبيّة عليها؛ تربحًا واستقواءً وعلوًا وتغربًا، وتساهم بعض مؤسسات الدولة أيضًا في أزماتها، وأكثرها حربًا عليها المؤسسة الإعلامية، التي تستبدل العامية والابتذال والإسفاف بها عمدًا، وتضع من قيمتها، وتحتقر معلمها، وتساهم السلطة أيضًا بارتجالها الخطاب اليومي الهش في حديثها دون اللسان الرسمي، وتغالي التيارات العلمانية المهيمنة على مؤسسات القرار في الدولة، في إقصائها والعبث بها؛ خشية تنامي الهوية الإسلامية الناهضة في الجماهير، وهذا الإقصاء عمد في وسائل الإعلام ومؤسسات التعليم الخاصة التي تتخذ اللغات الأجنبية إغراء ودعاية عن غير بواعث علميّة، فالهدف الأول التربح في المدارس والجامعات الخاصّة في البلدان العربيّة والإسلاميّة، وتحوّل هذه المؤسّسات إلى مؤسّساتٍ ربحيّة، جعلها تفقد روحها الوطنيّة القوميّة، فهي تسهم بتجاوزها العربية والتربية الإسلامية والوطنية، في توفير قاعدة خلفيّة للاحتلال ومصالحه في بلداننا العربيّة والإسلاميّة، والنّمط غير العلمي لهذه المؤسّسات أفرز عينة من الخرّيجين أكثر تبعيّةً وتغريبًا من غيرهم.

والسّياسات التّعليمية الناضجة تقوم على اللّغة والهويّة، والتّعليم الذي يقوم على مادة غنية قيمة ومنتقاة وفق خطة تدريسية لإعداد الكفاءات التي تتبنى التّنمية على أصعدة المؤسسات؛ ومن ثم يجب الاهتمام بعلاقة المؤسسات التعليمية الوطنيّة بحاجة المؤسسات الأخرى، وبحاجة المجتمع، وبالتّنمية الشاملة، ويجب كذلك العناية بالمقررات الدراسية ومادتها ونجاعتها، ويجب النظر في وسائل التنهيض والتطوير، وتمنية الإبداع والمهارات، دون التعثر في رتابة المؤسسات وبطئها وكثرة ضوابطها التي تؤخر التنمية وتعرقلها، ويجب التخلص من الوسائل العقيمة، وأسباب تردي المستوى اللغوي، وتسرب الطلاب من دارسة اللغة العربية، فقد ساهم الإعلام في تنفير الطلاب منها، وكذلك سوء حال معلم اللغة العربية وسلوكه غير التربوي، وصورته النّمطية المهلهلة، والخلفية المشوهة عنها، وادعاء عجزها عن مواكبة التقدّم والحداثة، والعلوم التّطبيقية أيضًا في إقصائها،

والإضرار بها في عصرنا، وتقهقرها أمام اللغات الأجنبية الغازية، ناهيك بوسائل الإعلام التي قوضت وجودها في الخطاب اليومي، مثلما عبثت بالمكون الحضاري التراثي العربي والثقافي.

ويجب على المؤسسة السيادية تبني مشروع النّهوض باللّغة العربية؛ للتوجّه نحو مجتمع المعرفة بعيدًا عن الاعتزال والتهميش والتجهيل، فالتوجّه المخالف يحيز اللّغة العربيّة عن دورها بين اللغات العالمية الفعالة، وله أثر سلبي في النهضة الحضاريّة وتطلّعات الأمّة لإثبات هويّتها، فاللغات الأجنبية ليست حلًّا حضاريًّا وحيدًا في التحدث دون لسان وطني، يمثل قاعدة الوحدة والانطلاق، فالدول المتعددة عرقيًّا ولغويًّا تتخذ الانتماء الوطني قاعدة، وتتخذ أكثر الألسنة انتشارًا لسانًا رسميًّا، وتسمح باللغات المحلية في التواصل دون تضييق؛ حفاظًا على المصلحة العامة التي تغلبها في قرارتها.

واللغة – لا شك – من أواصر الوطنية الأساسية، وأهم روابط العروبة، وقد حرص الغزاة على فرضها قسرًا على الأمم المغزوة، بيد أن العربية اختارتها بعض الشعوب الإسلامية لسانًا؛ حبًّا في الإسلام، وانسجامًا مع كل المسلمين، أو جعلتها لسانًا ثانيًا بعد لغتها القومية، وتعلم أن إسرائيل جعلت العربية لغة رسمية بعد العبرية قانونًا، ومن حق المواطن الإسرائيلي أن يتعامل بها كتابة وتكلمًا مع الجهات الرسمية، وتعد اللغات العالمية التي غزت مهد العربية وأهلها لغات أجنبية، وهي لغات أكثر مهاجريها، ولم يطلب المهاجرون الاعتراف بلغاتهم الأصلية، وقد نجحت إسرائيل في إحياء اللغة العبرية وتعميمها في الخطاب العام بعد أن كانت حبيسة كتبهم الدينية وحاخامات الكنس، فلا يعرفها عامة اليهود، وحدثوا خطها، ولم تستخدم هذه اللغة قبل لسانًا عامًّا في الدولة إلا حديثًا، فلم تك اللغة الرسمية فيما عرف بمملكة داود عليه السلام، بل استخدم اليهود اللغة المحلية المنتشرة في فلسطين (الكنعانية)، واللغة العبرية نفسها كانت لهجة متأخرة من لهجات الكنعانية، تأثرت باللغات الأخرى المحلية كالموأبية والفلسطينية، وتأثرت بلغة الغزاة الآشوريين والكلدان، وأحاجّ الذين يطعنون في العربية غير عابئين بأنها لغة القرآن الكريم ولغة قوميتهم وثقافتهم، بما فعلته الصهيونية التي لم تعبأ بلغات أوربا وثقافتها في

بناء شخصيتها العنصرية الجديدة، وهي التي عاشت تاريخها كله تتحدث ألسنة الشعوب التي عايشتها، وقلدتها في معايشها، ولكنها في بناء وطنها العنصري في فلسطين تجردت من كل خلفياتها ولغاتها في سبيل بناء الشخصية اليهودية المميزة، ولم تحتج الأغلبية الأوربية المهيمنة على محو تراثها الأوربي وهويتها الغربية وتغيير علمانيتها، بل هي التي قادت مشروع عبرنة الدولة الجديدة على أساس ديني[1]، ولم يتصد العلمانيون اليهود لهوية الدولة اليهودية، ولم يستنكفوا التحدث بلغة سابقة ميتة منذ قرون عندما تبنى أحد زعماء

(١) يعد إليعازر بن يهودا (١٨٥٧ ـ ١٩٢٢م) رائد إحياء اللغة العبرية الحديثة، ولد في إحدى قرى ليتوانيا (شمال أوربا الشرقية)، وتلقى تعليمًا دينيًّا تقليديًّا، واستهوته الأفكار الاشتراكية والعدمية والأفكار القومية العضوية (ذات الطابع الفاشي) التي انتشرت في أوربا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ونقل عنها أفكار "روح العصر"، و"روح الشعب"، و"الشعب العضوي" التي أقام عليها فكرته الصهيونية التي تحتاج وطنًا وثقافة خاصة، فيصير الآخر فيه منبوذًا، فاتجه إلى تبني الحل الإمبريالي للمسألة اليهودية (الحل الصهيوني)، ثم رحل ابن يهودا إلى فلسطين عام ١٨٨١ مع زوجته، وقام بالتدريس في مدارس الأليانس، وأخذ تصريحًا بتدريس الموضوعات اليهودية بالعبرية، واشترك في العام نفسه في تأسيس جمعية صهيونية تبنت تأسيس الوطن في فلسطين وإحياء اللغة العبرية والأدب العبري الحديث وغرس الروح القومية في الشباب، وبدأ في نشر أفكاره الصهيونية في مجلة (ها أور) منذ عام ١٩١٠م، فهاجم نظام الصدقة (حالوقة)، ودعا إلى العمل الزراعي، وأدرك ابن يهودا أهمية إحياء اللغة العبرية في تجربته الاستيطانية الصهيونية، وأنه لا يمكن إنجاز الواحد دون الآخر، وأن اليهود الذين سيقدمون إلى فلسطين لن يؤسسوا جماعة دينية تلتزم بقيم أخلاقية تعوق مصالحها بالمثل الدينية التي لم تنجح إلا في إنتاج أمة يهودية ميّتة لا أرض لها ولا لغة، أمة روحية ناقصة تثير ضحك الأمم الأخرى، وقد انصبّت جهوده الكبرى على إحياء اللغة العبرية، فبحث في أدب العبرية الكلاسيكي عن الألفاظ التي تصلح للاستعمال في الحياة اليومية في العصر الحديث، وقام باشتقاق كلمات عبرية جديدة، واستعار بعض الألفاظ والعبارات من اللغة العربية، وقام بتطوير أسلوب عبري جديد وبسيط، وأخرج "المعجم العبري القديم" و"المعجم الحديث" في أربعين عامًا، وقد أسس جمعية اللغة العبرية عام ١٨٥٩م، وعمل رئيسًا لها حتى وفاته ١٩٢٢م، وقد تحوّلت هذه الجمعية عام ١٩٥٣م إلى أكاديمية اللغة العبرية التي قامت بإكمال مشروع ابن يهودا، وأصدرت المعجم كاملًا سبعة عشر جزءًا عام ١٩٥٩م، وقد أصر أليعازر بن يهودا على فكرة القومية العضوية المرتبطة بالأرض، ولكنه أيد مشروع شرق أفريقيا بدلًا من فلسطين، وكان من أوائل الداعين إلى تقبل وجود اليهود خارج فلسطين (الشتات)، واشترط أن تربطهم رابطة ثقافية مع (وطنهم) حيث يتحوّل هذا الوطن إلى مركز روحي، وقد جلب عليه اهتمامه بالعبرية لعنة اليهود الأرثوذكس الذين كانوا يعدون اللغة العبرية لغة مقدسة، لا تستخدم إلا في الصلاة.

الصهيونية مشروع عبرنة ألسنة الدولة في مؤسساتها التعليمية، فنجح في تنشئة جيل صهيوني جديد يتحدث العبرية في مدة لم تتجاوز عشرين سنة، وربط هذا المشروع العبرية بالشعائر اليهودية التي لا تصح بغيرها، وألزم الكهنة رعيتهم التعبد بها والتحدث في كنسهم[1]، ودعمها رجال الأعمال بالمال وإقامة مؤسساتها التعليمية، ناهيك

(١) اللغة العبرية لهجة كنعانية متأخرة، وبعض الآرامية التي شاعت في الشام والعراق وبعض الفينيقية، وحروفها ـ قيل ـ فينيقية، وقيل كنعانية، فالعبرية إحدى اللهجات الكنعانية، ولذلك سميت "لغة كنعان" [إش ١٩: ١٨]، وسميت أيضًا "اللسان اليهودي" [٢٢مل ١٨: ٢٦ و٢٨، نح١٣: ٤، إش ١١:٣٦ و١٣]، وقد سُميت "العبرية" في مقدمة سفر حكمة يشوع بن سيراخ، وسميت "العبرانية" في العهد الجديد [انظر يو ٥: ٢، ١٩: ١٣و١٧و٢٠، أع ٢١: ٤٠، رؤ ٩: ١١]، وقد نشأت عبرانية الكتاب المقدس، لغة منفصلة عن اللغة الكنعانية في القرون الأولى من الألف الثانية قبل الميلاد، جاء في سفر التثنية [٢٦: ٥] أن الشعب العبراني من أصل آرامي، وقد أوجب الكهان على العباد أن يعترفوا بهذا: "... ثم تجيء، وتقول بين يدي الرب إلهك: إن أبي كان آراميًّا تائهًا، فهبط مصر، ونزل هناك في رجال قلائل فصار أمة عظيمة شديدة كثيرة". يزعمون أن إبراهيم عليه السلام كان آراميًّا، ويتحدث الآرامية، وهو من كور الكلدانيين، ولو سلمنا بالآرامية، فهذا لا ينفي أنهم تكلموا لغة الكنعانيين بعد هجرتهم إلى أرض كنعان (فلسطين).

وقد مرت العبرية بمراحل تطور مختلفة قديمًا وحديثًا، والشعوب التي استخدمتها بقية شعوب بني إسرائيل وأدوم ومؤاب وعمون، وكونوا معًا ما يعرف بالشعب العبري، وأصل التسمية على الراجح "الخبيرو" اسم جيل نازح من شرق الخليج إلى العراق، ثم نزحوا إلى فلسطين، وقيل "عبيرو" تعني القبائل الرحل، وقد سموا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بإبرام العبري زورًا، والصحيح أنه كلداني، ولعلهم تحدثوا الآرامية التي شاعت في فارس والعراق والشام، ونسبوا إبراهيم عليه السلام أيضًا إليها زورًا (إبراهيم الآرامي)، وهذا يؤكد أنهم نازحون من غرب إيران، وأنهم ليسوا بني إسرائيل الذين هاجروا من مصر إلى بيت المقدس، ولكن الله تعالى عاقبهم، فانحرفوا ناحية الأردن في التيه، ثم دخلوه مع داود عليه السلام، والعبريون غير الإسرائيليين، فهم من الفرع الآسيوي (من غرب إيران)، وهاجروا إلى العراق، نزحوا من العراق إلى أرض كنعان (فلسطين) في القرن الثالث عشر ق. م، وكانوا يتكلمون لهجة تقترب من إحدى لهجات الآرامية القديمة المنتشرة في العراق، ثم استعملوا لغة كنعان، وغلبت على لغتهم الأصلية، وأضحت اللغة الكنعانية لغتهم في بداية القرن الحادي عشر، ويذكرون في صلاتهم ما جاء في سفر التثنية: "كان أبي آراميًّا تائها"، وهو عليه السلام ليس منهم، بل من الكلدانيين، والدليل على أنه ليس عبريًّا وأن العبرية لم تكن لغة زمن إبراهيم عليه السلام قبل هجرته إلى كنعان، أنهم دعوه "آراميًّا" (تث ٢٦: ٥)، كما كانت لغة لابان بن ناحور خال يعقوب عليه السلام الأصلية هي الآرامية (تك ٣١: ٤٧).

وبعض الكلمات التي وردت في فترة وجودهم في أرض كنعان تدل على أنهم تحدثوا لسان الكنعانيين، فكلمة "البحر" تستخدم للدلالة على الغرب، و"النقب"، للدلالة على الجنوب، وهذه لغة أرض كنعان [انظر إش =

باستحواذهم على المؤسسات العالمية المؤثرة، التي وظفوها لخدمة الصهيونية ومصالحها (مثل وسائل الإعلام المنطوقة والمكتوبة والسينما والإذاعة)، ودعمها المثقفون اليهود برؤيتهم وعطائهم الفكري، وإحياء الشخصية اليهودية، وتنهيض الثقافة اليهودية التي تعبر عن المكون الإسرائيلي، وساهم الأدباء فيها برسم معالم الشخصية اليهودية المعاصرة، واستلهام التاريخ اليهودي، وتفويج الدور اليهود في الحياة العامة في أعمالهم الأدبية، وتبنى بعضهم مشروع الأدب العبري باللغة العبرية؛ ليكون داعمًا للغة العبرية وهوية اليهود الدينية، وقد لعب الإعلاميون اليهود الدور الأعظم في خدمة المشروع الصهيوني على مستوى العالم، فقد استحوذوا على وسائل الإعلام الغربية، وأقنعوا الجمهور الغربي بوجود إسرائيل وشرعيتها، ومشروعية حروبها دفاعًا عن النفس بين قبائل العرب الهمج المتطرفين أعداء السلام وأرباب العنف، والعرب غافلون عن ساحة الدفاع والحضور في المشهد العالمي إلا ببعض الإسفاف الفني والتجسيد المشوه والممارسات السياسية المشينة التي يعدها الغرب تعبيرًا عن الشخصية المسلمة العنيفة البدائية.

=

١٩: ١٨]، وقد هجرت العبرية الكنعانية من الاستعمال في السبي البابلي، وهي التي شاعت في مملكة داود عليه السلام وبعدها حتى وقعوا في السبي في بابل، وبعضهم هرب إلى مصر، وأصبح استخدام العبرية قاصرًا على الدين، وأضحت الأرامية هي لغة الحديث. وقد جاء في سفر نحميا (٨:٨) أن الشعب لا يفهم لغة الكتاب المقدس عند قراءتها لهم، وظلت حبيسة الكتاب المقدس، وظلت اللغة الدينية المقدسة فقط، ولا يعلمها سوى الكهان الذين حافظوا عليها، وكان بعضهم يرفض أن تكون لسان الدولة الحديثة؛ لأنها لغة مقدسة.

وحاول اليهود إحياء العبرية بين يهود الأندلس؛ تأثرًا بالعربية (خلال القرون من العاشر إلى الخامس عشر بعد الميلاد الذي دخلت فيها أوربا القرون العصور الوسطى)، وهي الفترة التي عاشوا فيها أزهى تاريخهم، وقد أصبحت عبرية العصور الوسطى أداة للثقافة الشعرية والفلسفية والعلمية. وقد تأثرت عبرية الأندلس باللغة العربية كثيرًا في الكلمات وفي التراكيب، ثم انتكست بنكسة المسلمين في الأندلس، ولكنها استعادت قوتها بظهور الحركة الصهيونية في القرنين التاسع عشر والعشرين، وقوي وجودها وارتباطها بالكتاب المقدس، وبظهور التيار الصهيوني في العالم، وبتأثرها بالمجتمع التكنولوجي الغربي، وقد تبناها بعض أقطاب اليهود في العالم، ودعموها ماليًّا وتربويًّا وتعليميًا وتأليفًا، ودعوا إلى إنتاج أدب عبري باللغة العربية.

ليس بعيب إذن أن نتمسك بعربيتنا في زماننا هذا، فقد أحيى الاحتلال الصهيوني عبريته الميتة، وجعلها لسان الدولة الرسمي ولغة العلوم، وهو ابن اللغات الغربية؛ فلم يتورع عن ترك لغاته الأصلية وثقافاته المتعددة، ولم يستح من اتخاذ لغة ميتة لسانًا وبديلا للغات العالمية التي نزح من مواطنها، وحري به أن يختار الإنجليزية لغة داعميه وممولیه، ولكنه تعالى عليهم وعلى العالم بيهوديته ولغته ونقاء عرقه الزائف، وقد فاخرهم بنسب دعي ولغة ميتة، تكلمتها شِرذمة قليلون بادوا من العالم. لقد نجحت شِرْذِمة من أخلاط جُلَباء في الهيمنة على شعوب العالم ماديًّا وإعلاميًّا، والاستبداد بتوجيهها، وإقناعها بوجودها، وفرض إرادتها على أوربا التي لفظتهم ونفتهم إلى فلسطين، وأخفق المسلمون الذين يمثلون أكثر من ثلث العالم في تحرير أوطانهم أو إثبات حقهم الآدمي في الحياة!

وقد حرص الاحتلال الفرنسي على فرنسة الدول التي احتلها؛ ليجعلها امتداده وثراء ثقافته، فقد اجتهد في الفرنسة لإيجاد أرض فرنسية جديدة والهجرة إليها، واستقطب بعض أبناء المغرب الذين تربوا على عينه ولغته وثقافته؛ ليكونوا كوادره في مشروع الفرنسة، فجاهروا بالانتماء الثقافي الفرنسي، وبعداوة معطيات الثقافة الإسلامية العربية، وقد تخفى هؤلاء تحت تسميات التنوير والاستنارة والحداثة وتجديد الفكر الديني والتفاعل الثقافي، بيد أن الأوفياء للولاء الإسلامي والعربي يتصدون لهذا التخطيط الغزوي، وصامدون في الذود عن حياض الإسلام، ومقارعة أهداف الاحتلال والتغريب والفرنسة، ولا يعبؤون بصيحات الدهريين المفرنسين وحملات الإعلام العدائية، ولا يستسلمون للتضييق والتهميش والإقصاء والحرب التحريضية وتحيز السلطة للفئة المنحرفة[1]، ومازالت مشاريع التخطيط اللغوي الغربي تحمل خططًا غزوية

(١) تستهدف الثقافة الفرنسية المغالية في العلمانية علمنة المنطقة العربية، وهي من أخطر الثقافات (والاحتلال الفرنسي الأخبث أيضًا) فهي الأكثر تأثيرًا في العرب، ولا نجد التأثير نفسه في المجال العلمي، فالغرب يستهدف العقل والثقافة، وقلما نجا باحثًا من براثن الفرنسة، وقد استمرأها كثير من طلاب البعثات من الرواد، وأشهرهم الدكتور أحمد لطفي السيد بمصر زعيم حزب الأمة، الذي عاب على الحزب الوطني الذي أسسه الزعيم الشاب الوطني المسلم مصطفى كامل ترسيخ هويته الإسلامية العربية، فقد جعل الإسلام أحد مرتكزات الوطنية، وكذلك اللغة العربية، وانتماء مصر للعالم الإسلامي، ممثلًا في الخلافة الإسلامية، فسخر من هذا قائلًا: سفينة الخلافة غارقة، وعلى كل من على متنها أن يقفز منها، وهو الذي احتضن =

لتغريب الشعوب الأخرى، ويعد هذا مشروعه الأول في دول الثروة الطبيعية، واللغة الأجنبية الطليعة الأولى من طلائع الغزاة الجُدد.

ولقد أدرك أهمية القيمة اللغوية في دعائم الدولة أصحاب المشاريع الغزوية والتوسعية والوطنية، والسياسيون المحنكون، ومن يحرصون على تقوية دعائم دولهم ووطنيتهم وشخصيتهم الوطنية، والتجربة الصهيونية حجة بالغة على بعض العرب المخربين من السلطيين والإعلاميين، وأدعياء الفكر الذين أقصوا لغتهم عن مشروعهم الحضاري الوهمي؛ فقد نجح الصهاينة المتطرفون في ترسيخ لغة قومية تعبر عن الهوية اليهودية؛ لتكون أحد أعمدة الدولة، فقد دعا "يهودا القلعي "(ت ١٨٧٨م)[1]

=

الدكتور طه حسين بعد أن فصله الأزهر بما كتبه من أفكار فاسدة عن الأنبياء عليهم السلام والدين، وآراء أدبية غير علمية؛ طعنًا في التراث العربي، ومخالفة لآراء العلماء المحققين والإجماع، نقلًا عن المستشرقين اليهود المتعصبين (وخاصة مرجليوث الصهيوني)، ناسبًا آراءهم إلى نفسه، فصار طه حسين بوق التيار الدهري الذي يقف من ورائه، ولم يتوقف عن هذا الدور إلا في سنيه المتأخرة، حيث كتب عن أعلام الإسلام، ولا تخلو أيضًا من نقد؛ تأثرًا لعهده الطويل في العلمانية.

وقد تماهى في الفرنسة بعض المغاربة الذين تصدروا قوائم المثقفين والمفكرين والسياسيين والأدباء، وأشهرهم: محمد عابد الجابري ومحمد أركون الذي اعتمد في كتاباته الإسلامية على كتابات الغربيين، وكتب كتابات مجافية حقيقة الإسلام باللغة الفرنسية، وكانا يعيشان في فرنسا، وهو من أقطاب مشروع الفرنسة.

وبعض العلمانيين متهمين بالماسونية، مثل الشاعر أدونيس والشاعر سعيد عقل في لبنان، وقد أغرى بعض العلمانيين بعض قليلي المؤنة بقتلهم، مثل فرج فودة، ونجا نجيب محفوظ من القتل، وبعضهم قتله البوليس السياسي، ليتهم فيهم التيار الإسلامي، وشبهة قتل شكري بالعيد التونسي في البوليس السلطي وزوجه وغريمه وآخرين.

(١) يهودا القلعي (١٧٩٨-١٨٧٨م) (Yehudah Alkalai): حاخام ورائد من رواد الفكر الصهيوني، وُلد في سيراييفو (في البوسنة والهرسك) التي كانت جزءًا من الدولة العثمانية آنذاك، وقد تأثر بالصراعات القومية في الدولة العثمانية التي غزاها الأوربيون وشبه جزيرة البلقان، التي تمور بالصراعات القومية الحادة بين الصرب والبلغار والرومانيين. وكانت يوغسلافيا النقطة التي يلتقي فيها السفارد اليهود بالإشكناز، وكانت على مقربة من الإمبراطورية النمساوية التي تعاني من تتعدد الجماعات الإثنية والدينية، ولقد تبنى يهودا أفكار الصوفية الحلولية، شأنه شأن كل الصهاينة الإثنيين الدينيين، وهي رؤية حلولية عضوية، تجعل الإله يحل في الشعب والأرض ومؤسساته القومية، حيث يصبح هو مصدر التماسك العضوي بينهما، فاليهود لا يليق بهم أن يُلقَّبوا بـ«يسرائيل» إلا إذا كانوا في أرض يسرائيل، وبذلك تكون الرؤية الحلولية قد اقترنت بفكرة القومية العضوية السائدة في أوربا خارج إنجلترا وفرنسا، وهو من الذين طرحوا فكرة ظهور "المشيح

=

(Yehuda Alkalai) السرييفي – وهو أول يهودي نادى عام ١٨٣٤م بإنشاء دولة لليهود على أرض فلسطين في كتابه "اسمعي يا إسرائيل " – إلى إحياء اللغة العبرية وتوحيد استعمالها، قائلًا: "لن يكتب البقاء والاستمرار لأية أمة دون وجود لغة مشتركة لديها ..."، وساهم نفسه في هذا المشروع، وألف كتابًا لتدريس اللغة العبرية وقواعدها، وهاجر عام ١٨٧٤م إلى القدس، بقي هناك مرابطًا فيها حتى وفاته عام ١٨٧٨ م[١]، وقد كان يهوديًّا متطرفًا، فقد أسس الحركة الصهيونية العالمية المتطرفة[٢] التي ترعى مشروع الوطن

=

ابن داود" المخلص بفلسطين الذي سيحارب الأعداء، ويقضي عليهم، وهي الفكرة التي تبناها المحافظون الجدد في أمريكا، وهو الذي دعا إلى إنشاء منظمة صهيونية عالمية تباشر إقامة الوطن القومي اليهودي وتموله، وطاف أوربا يدعو إلى المساهمة في إقامة الوطن القومي، وألف كتابًا يشرح فيه رؤيته التي تبناها، ثم انتهى به الطواف إلى فلسطين، فمات فيها، ولكن فكرته لم تمت!

(١) ارجع إلى: مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الأولى، د. أمين عبد الله محمود، الكويت، فبراير ١٩٨٤، ص٥٢، ٩٠، ٩٧

(٢) الصهيونية: مشتقة من كلمة صهيون (صيُّون: ציון) وهي أحد أسماء جبل صهيون في القدس الذي ورد في سفر إشعياء [في العهد القديم]، وهي من نتائج أفكار بعض الرموز اليهودية في العالم في القرن التاسع عشر، وقد تبلورت جهودهم في الصهيونية التي تبنت المشروع القومي لليهود، وقد استخدم اسم صهيون أول مرة في العهد القديم في حديثه عن الملك داود عليه السلام، الذي أسس مملكته (١٠٠٠–٩٦٠ ق.م)، وهو الجبل الذي أقام عليه قصره عندما رفض اليبوسيون دخوله مدينتهم أورشليم، فاتخذ الجبل المطل عليها مقامًا له، ثم صار حيًّا من أحياء المدينة بعد أن دخلت في مصالحته، وقد زعم اليهود أن سليمان أقام عليه الهيكل، وأسرفوا في وصفه، وقد صاغ هذا المصطلح فكريًّا الفيلسوف ناتان بيرنباوم اليهودي في عام ١٨٩٠م؛ تعبيرًا عن معتقد حركة أحباء صهيون، وأقر التسمية المؤتمر الصهيوني الأول في عام ١٨٩٧م.

والحركة الصهيونية (الصيونوت: ציונות) حركة سياسية يهودية متطرفة، ظهرت وسط وشرق أوربا في أواخر القرن التاسع عشر، ودعت اليهود إلى العودة إلى أرض الآباء والأجداد (إيريتس يسرائيل: أرض إسرائيل)، ورفضت اندماج اليهود في المجتمعات الأخرى؛ للتحرر من معاداة السامية والاضطهاد الذي وقع عليهم في الشتات، ثم طالب قادة الحركة بإنشاء دولة منشودة في فلسطين التي كانت جزءًا من الخلافة العثمانية.

وقد ارتبطت الحركة الصهيونية الحديثة بشخصية اليهودي النمساوي هرتزل، الذي يعد الداعية الأول للفكر الصهيوني الحديث، والذي تقوم على آرائه الحركة الصهيونية في العالم، وقامت الحركة بالدعوة في أوربا لإنشاء الوطن الموعود، وجمعت له التبرعات من رجال الأعمال، فوفرت الدعم المالي والمعنوي لقيامها، ثم تبنت سياسة التهويد بشراء الأرض والبيوت، وتبنت الأيديولوجيات القومية والعنصرية المتطرفة في طرد الفلسطينيين من أرضهم.

ولهذه الحركة أذرع في الدول الأوربية والولايات المتحدة، تعدها امتدادها وظهيرها في مواجهة المسلمين.

القومي، واعتقد بعودة "المشيح" الإسرائيلي الذي سينطلق في قتال الأعداء من فلسطين، وهي الفكرة التي تبناها الإنجيليون الأمريكيون والمحافظون الجدد، وقد رأى أن العبرية يجب أن تكون أساس العمل التعليمي، وأنها ستكون لغة الدنيا لا لغة الدين كما كان يصر المتدينون، وقد تبنى هذه الفكرة ناعوم تشومسكي اليهودي الأمريكي في بناء قواعد عامة للغات العالمية، تعبر عن المنطق الذهني المشترك بين البشر، وقد خُدع بنظريته التوليدية التحويلية بعض العرب، فجعلوها موزاية قواعد النحو العربي.

وقد فعلت رموز يهودية عالمية أخرى فعله، فقد هاجر "إليعازر بن يهودا" (Eliezer Ben Yehuda) – صاحب المشروع الوطني الصهيوني "اللغة العبرية لغة الدولة اليهودية" – من لتوانيا شمال أوربا إلى القدس، وأقام بها، وقام بتدريس العبرية، وألف كتبًا تعليمية فيها، وهو القائل: "لا حياة لأمة دون لغة"، وعَبَّرَ أليعازر عن المفهوم القومي قائلًا: "هناك ثلاثة أشياء محفورة بأحرف من نار على راية القومية: بلاد، ولغة قومية، وثقافة قومية"، ووجه معظم جهوده إلى إحياء اللغة العبرية؛ لتحويلها من لغة مكتوبة تستعمل لأهداف دينية وعلمية، إلى لغة منطوقة تستعمل في الحياة اليومية، لتصبح "لغة اليهود القومية"، وبدأ تنفيذ مشروع إحياء العبرية ونشرها، وتقنين الخطاب بها في مؤسسات التعليم، فاستطاع في خمسين عاما ترسيخ اللغة العبرية في الخطاب اليومي ومؤسسات الدولة، وقال عن اللغة العبرية: إنها "لغتنا القومية ... وقد أخطأ آباؤنا باستبدالهم لغتنا بلغات أخرى ... إن بعث اللغة سيكون بمثابة إشارة إلى أن بعث الأمة لن يتأخر"، وقد رأى أن التشتت والاختلاف نتيجة طبيعية لعدم وجود لغة موحدة، فقد أدى "اضطراب الألسنة" إلى تشتت اليهود في أرجاء الأرض، وأنه لا مناص من إحياء اللغة الموحدة لتوحيد الشعب اليهودي وجمعه في وطن واحد يعبر عن كيانه؛ فبعث اللغة العبرية يؤدي إلى إعادة التجمع والتوحد، وأكد على أن من أهداف إحياء العبرية حماية اليهود من خطر الاندماج والذوبان في محيطهم نتيجة استعمالهم اللغات المحلية في أوطانهم، وقد شاعت بين يهود أوربا "لغة اليديش" المتأثرة باللهجات المحلية، فدعاهم إلى تعلم العبرية؛ لأنها لغة التوراة – حسب قوله – ودعا الأدباء اليهود والمثقفين في العالم إلى إعادة تحسين صورة اليهود، وتغيير الصورة النمطية لهم في الأدب الأوربي، فكتبوا أعمالًا أدبية تعظم دور الشخصية اليهودية في العالم، وافتعلوا شخصيات تاريخية تعرف بـ

"الإقدام والشجاعة"، وكتبوا عن الزعماء اليهود المحاربين والمقاتلين والنماذج العالمية الناجحة؛ بهدف محو صورة اليهود المشينة من خلفية العالم التي ارتبطت بالخداع والخيانة والانتهاز والاستغلال والبخل والممالقة والدناءة.

لقد تمكن بن يهودا وغيره من إحياء اللغة العبرية وتحديثها وإثرائها بالمفردات وخدمتها بالكتب التعليمية والمعاجم؛ تلبية لاحتياجات ظروف الحياة المعاصرة، ورأى أن أفضل الحلول وضع قاموس شامل للعبرية، يكون مرجعًا لمن يريد تعلمها ودراستها، وقد أمضى ابن يهودا مدة تزيد على أربعين عامًا، وهو يعمل على إخراج "القاموس العبري القديم والحديث"، معتمدًا في ذلك على دراسته التلمود والكتب والمخطوطات العبرية، إضافة إلى اللغة العربية التي استعار بعض مفرداتها؛ لقربها من العبرية، وقد صدر القاموس في سبعة عشر مجلدًا (صدر منها خمسة مجلدات في حياته، وصدر الباقي بعد موته، وقد أكمل مشروعه تلاميذه).

لقد أصبحت العبرية لغة الخطاب اليومي المنطوق لمعظم اليهود الجُلَّاب إلى فلسطين، وقد ساهمت المؤسسة التعليمية في نشرها بين التلاميذ والطلاب، وساهمت وسائل الإعلام الوطنية بأكبر دور في نشرها بين متكلمي اللغات الأجنبية، فاستغنت الدولة عن المترجمين الوسطاء بين المهاجرين أصحاب اللغات المختلفة في مؤسساتها، واستغنى الشعب عنهم في الحياة اليومية عندما تكلم لسانه القومي، بينما قام إعلامنا بدور الاحتلال في محاربة اللغة العربية الفصحى، وتغريب الشعب العربي وتغييب هويته، وتخريب شخصيته، وقام الحداثيون - أدعياء الحضارة - بتخريب المعتقد والفكر والتشكيك في ثوابت الأمة تضليلًا بالتحديث، والحداثة تبدأ بالتعليم العلمي والعلوم التجريبية، وليس بالمذاهب الأيديولوجية المخربة والمجلبة للجدل (السفسطة) والإلحاد والطعن في الدين.. لقد بدأ الهدامون المتغربون من حيث تسقط الأمم.

وقد كانت اللغة العبرية لغة دينية ميتة، لا يعرفها سوى بعض حاخامات اليهودية، وهي الآن اللسان الرسمي المعترف به دوليًّا لدولة إسرائيل، وتدرس من الروضة حتى الدكتوراه في علوم الفضاء والطب وسائر العلوم التجريبية والنظرية، فنجح المشروع اللغوي، وتجسدت الأمة اليهودية، وأصبح لها كيان يهدد أبناء العروبة والإسلام.

ويسخر الإعلام من الذين يطالبون بتدويل اللغة العربية؛ لأنه في حرب معها، وأعجب من هؤلاء الخوارين في لغتهم المستَذلين من الحرب عليهم والمتقهقرين أمام المنحرفة والنوكى دون مثابرة وإصرار، وغير مستأنسين بقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حين قال: "اللّٰهم إني أعوذ بك من جَلَدِ الكافِرِ وعَجز الثِقة"، وقد عزمت أن أرابط في مكاني غير منهزم مقتنصًا هدفي، ثم أقوم ناهضًا قدمًا نحو هدف آخر، لا آلو جهدًا، محتسبًا توفيق الله عز وجل ونصره.

لقد أصبحت اللغة العربية العاشرة عالميًّا، وهي أقدم لغة عالمية معاصرة وصاحبة أضخم تراث وأعظمه وأكبر معجم لغوي، ويتكلمها الآن ثلاثة ملايين وثلاثة أرباع المليون تقريبًا (٣٦٧٫٤ مليون نسمة من أصل ٧ مليارات نسمة عدد سكان العالم)!

وتعد اللغة العربية جزءًا أصيلًا من تكوين الأمة الإسلامية والعربية، ولا مناص لها عن هذا الأصل المتين الذي يميزها؛ ففيه عزتها وشأوها، وقد تمسك بهذا الأصل شآبيب أعلامها المخلصون، فهي سجل تاريخ الأمة ومادة فكرها ومداد تواصلها ووشيجة رحمها وآصرة القرابة، ويعد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رائد الهوية الإسلامية، فقد حرص على تخلية مجتمع المدينة من الدخلاء الذين يخشى فسادهم، فمنع استقدام الأعاجم من غير المسلمين إلى المدينة، واقتناء الجواري، وكره التشبه بالأعاجم وعلوجهم؛ درأ للفساد، وقد لقي حتفه على يدي أحد الأعاجم، وقد نسب إليه ما يؤكد ولاءه لدينه ولغته ومظاهر عروبته، ومما نسب إليه: "إياكم ورطانة الأعاجم"، وقال: "أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم؛ فإن فيه تفسير كتابكم"[1]. فقد أدرك بوعيه الوقاد عناصر الشخصية الإسلامية وتكوينها، وأن العربية مفتاح فهم الخطاب الشرعي، وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله

(١) الموافقات للشاطبي في أصول الشريعة، الإمام الشاطبي، ج٢/٨٨، لقد استوعب الشعر العربي الجاهلي كل خصائص الأصل العربي، وأحاط بأكثر المادة اللغوية في لغة العرب، واستعمل العرب في أشعارهم الثروة اللفظية الهائلة في فنهم الشعري، فكان الشعر الجاهلي فنًّا مستوفيًا أسباب النضج اللغوي والكمال الفني. ارجع إلى: أصول التفسير وقواعده، ص١٤١.

الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك". وفي رواية قال: "إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب"[١]، وجاء عن يحيى بن عتيق، قال: قلت للحسن [البصري] يا أبا سعيد، الرجل يتعلم اللغة العربية يلتمس بها حسن المنطق، ويقيم بها قراءته. قال الحسن: يا ابن أخي، فتعلمها فإن الرجل يقرأ الآية فيعْيَ بوجهها؛ فيهلك بها"[٢]، وقال الشاطبي: "من أراد تفهم القرآن فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة"[٣]، وقال الأديب المبدع مصطفى صادق الرافعي: "ما ذلّت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطّت إلا كان أمرها في ذهاب وإدبار، ومن هنا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضًا على الأمة التي يستعمرها، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها[٤]"، وقد اتخذها خصوم الأمة سبيلًا إلى إقصاء المسلمين عن الدين، والطعن في الإسلام واللغة والتراث؛ مدخلًا لزعزعة استقرارها وتغريبها؛ لتقويض أركانها، وقد ولاهم في هذا بعض المنتسبين إليها من الدهريين والمتغربين، وقد وظفوا وسائل الإعلام المأجورة أداة ضغط وتضليل وتشويه، وبعض السياسيين عملاء المصالح الغربية، وقد نجحت بعض وسائل الإعلام في تضليل بعض الجمهور ببعض الأغاليط والمفاهيم المحرفة، ونجحت كذلك في توهين حماس بعض العُروبيين (اللُّسن) الحريصين على لسانهم والقائمين عليه وإشاعة السخرية والأضاليل عن العربية ومتكليمها، وجسد بعض المشخصين هذه الصورة المشينة؛ لتنفير الجمهور من لغتهم، وأشاعوا بعض الأغاليط التي تضر بكيان الأمة ومصالحها وتاريخها ورموزها الدينية والتاريخية؛ ليجردوا الأمة من لغتها ورموزها التاريخيين، فتتخذ لغات الغزاة ورموزهم بديلًا، وقد خدع بهذا بعض المتغربين، وبعض المتخصصين في العربية لا يعرفون غير ما قدمه الغربيون من آراء تعبر عن عدم نضج البحث اللغوي وتأثرهم بالمادية والتجريبية والفلسفة، فأنتجوا نظريات لغوية فلسفية.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج١/ ١٢٠.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج ١/ ١٧٩.

(٣) الموفقات في أصول الشريعة للشاطبي، ج ٢/ ٦٤.

(٤) من وحي القلم، الرافعي.

خامسًا: الثقافة والتراث:

الثقافة (Culture): مصطلح حديث، يراد به من ثَقِف نفسه بالمعرفة والعلم، والمثقف الحاذق بالعلوم والماهر بالاستفادة منها، وهي بالمعنى العام: مجموع العلوم والمعارف والفنون التي يعرفها المثقفون، وتمثل وعيهم ونضجهم الفكري، والثقافة عندي: الحصيلة المعرفية العامة في أعالي المعارف التي تمثل المشترك البشري والنضج الثقافي، وهي حصيلة علوم البشرية وثمار تلاقحها في الأمم الحضارية، ويعد تراثها التاريخي في كل أمة مكونها الثقافي وشخصيتها، فالتراث العربي مكون حضاري تاريخي، يعبر عن العروبة، فالثقافة أعم من التراث، فهي تاريخية وآنية، والتراث تاريخي فقط، ويشكل جزءًا منها، والشطر الآخر المعارف المعاصرة، وقد رأى بعض من بحثوا الثقافة أن ثقافة الأمم الغالبة بداية التقدم والمعرفة[1]، وهذا عندي صورة من صور الاحتلال؛ فالدول المفرنسة احتلال فرنسي، والفرانكفونية بديل الاستعمار، وقد تصدت فرنسا لكل الهويات الإسلامية في الدول التي تفرض عليها وصايتها أو "الاحتلال الجديد"، والتي تطلق عليها تضليلًا "الفرانكفونية"، وتقدم دعمها للفرنسة ولأعوانها الدهريين الذين يعوقون التعريب والعودة للهوية الإسلامية العربية، وإيران تحامي عن هويتها الفارسية القديمة باللغة الفارسية والتراث الفارسي، وتاريخ الكسروية، والتشيع الذي كسته كثيرًا من أبعادها الكسروية، وخدعت به عامة الشيعة، وهو في جوهره تمرد على الصبغة العربية والخلافة العربية، وبلغ بها مغالاتها في فارسيتها الطعن في أبرز أعلام الإسلام من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين أسقطوا الإمبراطورية الفارسية؛ ادعاء أنهم نزعوا الخلافة من آل البيت، والحقيقة أنهم أخضعوا رقاب الفرس للخلفاء العرب، وما زالت إيران تخطط لاستعادة مناطق نفوذ الإمبراطورية الفارسية في الخليج واليمن والعراق، متجاهلة تاريخها الإسلامي، وقد أخذ التشيع فيها صبغة شعوبية، فحلفاؤها في البلاد العربية ممثلين في بعض الطوائف يوالونها دون أوطانهم.

---

(١) تبنى الدكتور طه حسين في مشروعه عن مستقبل الثقافة العربية الثقافة الغربية ممثلة في الثقافة الفرنسية، ورأى أن نبدأ من حيث بدأ الغرب بالثورة والتمرد على المرجعيات والمعوقات التي تعطل الانفتاح الثقافي، وقد اختزل الثقافة في الأيديولوجيات دون العلم التجريبي.

وأرى أن الثقافة الحقيقية تقوم على البحث العلمي والتجريب والتنقيب وتفسير الظواهر علميًّا، ودعم البحث، ورعاية المواهب، وتنمية قدراتها، ودعم المؤسسات العلمية والباحثين، وتنحية الجدل الفلسفي والأيديولوجي عن ساحة البحث، وإقصاء أهل الجدل عن مسيرة البحث العلمي، فهؤلاء المستغربون صنعهم الغرب لتخريب عقول الأمة، وعرقلتها عن البحث العلمي الحقيقي، ويصدرهم إلينا بعد أن يعيد صناعتهم بإعادة تدويرهم وتشكيلهم، ويدعمهم ويوجههم، بينما يستأثر بالنابغين العلميين لخدمته، ويحجبهم عن خدمة أوطانهم، وأنصحك بمراجعة الجذور الثقافية لأعلام التنوير والثقافة والإعلام، وتاريخ نشاطهم الثقافي والإعلامي، وبحث ما يقدمونه للجمهور، ومستواهم المادي، وطبيعة علاقاتهم بالمؤسسات الثقافية الغربية، وأنصحك أيضًا أن تنظر إلى علاقة السلطة بهم، وعلاقة السلطة بالبحث العلمي، والدعم المقدم للطرفين؛ لتتعرف أنت نفسك على طبيعة المشروع الثقافي والبحث العلمي، فالثقافة التي تتبناها الدولة ثقافة ميول الثلة التي تهيمن على المؤسسات الثقافية، والتي تحرص على تصديرها للجماهير، مستغلة النفوذ السياسي وأموال الدولة، فالثقافة في البلاد العربية غامضة وهويتها غربية، وليست عربية، وتجافي عقيدة الجماهير وأعرافهم، وقد تجاوزت التوعية والإرشاد والتوجيه الوطني إلى التغريب الصريح.

والثقافة نوعان - باعتبار طبقتها:

أولهما: الثقافة النظرية الدارجة التي لا تعدو التعلم وقراءة بعض الكتب الأدبية والفلسفية والسياسية، ومساوقة مظاهر العصر في القول والزي والسلوك، وأصحابها على طبقات، وأعلاها الذين تسلقوا إلى المراكز الثقافية في السلطة وفي مؤسسات الدولة، وهؤلاء أبواق السلطة ووكلاء المشاريع العالمية، وأوسطهم أنصاف المثقفين الذين يحملون دراسات أدبية وفلسفية وبعض الأدباء أصحاب المذاهب والمشاريع، ويغلب عليهم المذهبية الدولية، ويسمون أنفسهم التنويريين والنخبة والصفوة؛ تعاليًا على الواقع وعموم الجماهير، ولهم فرضيات يرونها مسلمات غير قابلة للنقض، وهؤلاء أكثر تسلطًا وتعصبًا وتطرفًا من السلطة، فهم يتسلطون بأفكارهم ويتعصبون لهواهم ورأيهم، ويغالون في الأفكار والشذوذ، وقد ظهر تيار مضاد لهم في التعصب والتعالي، يرى نفسه

أكثر صلاحًا وأصالة، ولا يعترف إلا بمن على مذهبه ورأيه، ومخالفوه في الهوى مارقون ومبتدعون، وقد استخدمت السلطة الطبقة المتوسطة في مواجهة الصحوة الإسلامية السياسية، وقد أدوا خدمات للسلطة في ضرب التيارات السياسية الإسلامية المعارضة، ولا يفوتني أن أذكر أن التطرف الديني المفتعل سلطيًّا رد فعل للمذاهب الغالية في دهريتها وتطرفها الفكري، والثقافة الشائعة ثقافة أدنى الطبقات: أكلة الخبز، وهم الذين يتكسبون ببعض الكلمات في نخاسة الأدب، وهم سنيدة الطبقة الوسطى وبطانتهم، ومدد السلطة في مواجهة الصفوة.

وهنالك طبقة خارج هذا النظام، وهي الطبقة المعتزلة التي اعتزلت مزاحمة أدعياء الثقافة والمتصارعين على السلطة والخبز، وهي طبقة تعيش داخل نفسها، وترصد العالم والمجتمع من خلال المعلومات الوافدة من الإعلام، أو مما يسمعونه من وراء الجدر، وفكرهم صومعي أو خلوي، وهم يفرون من مواجهة المجتمع ومقاومة السلطة إلى أقلامهم، ويسقطون رغباتهم وأفعالهم على أوراقهم؛ ظنًّا منهم أنهم يخشون الفتنة والشتات وتبديد الوقت والطاقة، وهذا مذهب بعض العلماء في كافة العلوم!

والنوع الآخر: الثقافة العلمية التجريبية، وهي التي أنادي بدعمها وتغليبها في العالم الإسلامي، فهي الأصل الذي انطلقت منه الحضارة الغربية، وقد دعا إليها المسلمون من قبل الشيخ جمال الدين الأفغاني، الذي دعا كذلك إلى استرجاع هوية الخلافة الإسلامية، المتمثلة في الدين واللغة العربية والثقافة الإسلامية، وقد غلَبت العلوم النظرية، وأسقطت عليها بعض أسسها، فقد غلب على العلوم الإنسانية في القرن التاسع عشر البحث التجريبي، ثم ارتدت إلى نفسها، والثقافة العلمية التجريبية في العالم العربي مهمشة، ولا تتجاوز المتخصصين فيها، ويرجع هذا إلى أسباب، منها: تجاهل السلطة البحث العلمي؛ لجهلها وضيق أفقها، واستحواذ بعض المتكلمين على منافذ الثقافة ومؤسساتها ووسائل الإعلام، واختزالهم الثقافة في مفهومهم الخاص (الأدب والفلسفة والفكر وأرباب الملاهي)، وتزلفهم إلى السلطة وممالأتها، وهجرة العقول الواعية إلى مواطن أخرى، تقدر علمها، وتستوعب فكرها، وتوفر لها مادة البحث ونفقته وبيئته، وتحفظ حقوقهم، وتقدر إنتاجهم العلمي، ومن رجال السلطة ضحول بُهت حرب على العلم وأهله، وقد أدركت

منهم من يبغض أهل العلم، وينفر منهم، ويضيق عليهم غيرة وحسدًا، والثانية لا تكون إلا من جاهل، وتساهم في إقصاء العلماء وسائل الإعلام التي لا تعرف من أعلام المجتمع ورموزه إلا الرُّقاص والزُّمار والمشخصين! وتعد العلماء شواذًا ومجانين وكهفيين، والحقيقة أنهم لا يستوعبون عقلهم ومعطياتهم، وهو موقف الغِر الهَش.

والثقافة العلمية أولى بالدعم والرعاية؛ لما تجلبه من منافع عامة وعلمية، ولأنها تنمي المواهب العلمية وترعاها، والدولة الهشة ترعى مواهب أهل الملاهي، وتقيم لها المؤسسات، والناس معوزون فيها، وتتجاهل مواهب أطفالها العلمية التي دون توجيههم وتنميتهم(١).

ولا شك أن الثقافة النظرية التي تدور في فلك الجدل والنقض ثقافة تخريبية، وهي أول مهاوي السقوط، وقد شغلتنا هذه الثقافة عن النظر في مستقبلنا بمفاهيم فضفاضة ومحرفة، وبعضها أسقط علينا وبعضها دخيل، وبعض ما أسمعه من هذا الخطاب لا يعكس الثقافة العربية الإسلامية، وكأني بهم يتحدثون عن ثقافة أخرى مشوهة، وهم يتحدثون عن الدولة الدينية والإسلام السياسي الأصولي والدولة المدنية والأصولية والليبرالية، وهي مصطلحات غربية خالصة، بيد أن إخواننا الذين بغوا علينا يطلقونها على النظام الإسلامي والإسلام، وأغرب ما سمعت قول بعضهم على المسلمين المحمديين؛ لتوازي المسيحيين والعيسويين.

---

(١) لقد كنت في صغري أهوى الصناعات وتقليدها والابتكار والنظر في الآلات والهندسة والهياكل والرسوم والتماثيل، وقد ابتكرت بعض الآلات البدائية، وقد كان الناس يعجبون مما أوتيته من مواهب تقنية، وحبي الهندسة والكيمياء والطبيعة والرياضيات التي تقدمت فيها دراسيًّا، بيد أنني تحولت عنها؛ لما ألم بي من فقد أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واغترابي النفسي، وقد كنت نظرت في الدراسات التي تهيئ لي المناخ العلمي؛ فوجدتها تقوم على التلقين دون التبني والابتكار، ولم أجد موجهًا أمينًا، وهذا الأمر يتطلب مني التفرغ له، ولم أدر أين أجد نفسي أو من يتولاني غير الله تعالى، وكفى به معينًا وحافظًا! وما زلت آسى على ما ضيعت من أمري، ولا أرجو أن لا يضيع الطريق من الناشئة، فوقفت بعض جهدي لرعاية مواهبهم؛ لعلي أجد فيهم ما استدبرت وما أستقبله، ولكني لا أجد المواهب التي كنت متمتعًا بها في تلاميذي.

وثقافة الأمة الإسلامية ثقافة بشرية، ساهمت فيها الأعراق والملل والمذاهب، وانصهرت فيها معطيات الحضارات السابقة عليها، فليست ثقافة عرق أو جنس أو ملة، وتتميز عن غيرها بالضابط الأخلاقي المنبعث من الدين والمقاصد النافعة، فلا تجد فيها شذوذًا أو عدواة أو مثالب أو خرقًا للعرف البشري العام أو سنن الطبيعة والخلق والفترة الصالحة، وأنها تقوم على الأسباب العلمية والضرورات وسد الذرائع.

وقد عبث الخطاب الإعلامي المعاصر ببعض المفاهيم المتعلقة بتكويننا الوطني والفكري والحضاري، والتعصب عامل رئيس في الاستنفار والاحتقان والارتياب من المعطيات الدينية، وللتضليل أثر فعال في الجدل الإعلامي، وتحريف الألفاظ، وتغيير المفاهيم؛ تضليلًا وتحريشًا وفتنة، والغاية إثارة الإحن والتعصب توطئة للتفتيت، وقد استنكف بعض نصارى مصر من تسميتهم التراثية العريقة، فعدلوا عنها إلى المسيحيين؛ لأنهم يظنون أن النصرانية تسمية إسلامية، والحقيقة أنها سابقة على الإسلام، أصيلة في خطاب العرب والنصارى الجاهليين، فقد أطلقها نصارى العرب على أنفسهم بقولهم (إنا نصارى)، واستخدمها علماء النصارى ومؤرخوهم وأدباؤهم الذين ساهموا في الثقافة العربية؛ فكرًا وأدبًا ولغة، وجاهروا بانتمائهم إلى الثقافة العربية الإسلامية، ولكن بعض نصارى مصر يستنكفون من العربية وثقافتها ومن الانتساب إليها، ويسمون أنفسهم أقباطًا لا عربًا، وهذا من بقايا محاولات الاحتلال الإنجليزي فصلهم عن العروبة، مثلما حالوا دون تعريب جنوب السودان، وحولوه من الوثنية إلى النصرانية، ونشروا فيه الإنجليزية فترة الاحتلال؛ ليظل منقسمًا ومختلفًا دينًا ولغة عن بقية الوطن، والقبطية من بقايا عصر الاحتلال الإغريقي البيزنطي، فقد أطلقوا على المصريين لفظ القبط، وغيروا هويتهم الثقافية وتغلبوا على لغتهم مثلما تسلطوا على أرضهم وأبدانهم، والأصل لفظ "مصر"، فهو اسم أقدم دولة ووطن أعرق شعب في العالم، ولم ير الغرب يومًا أن نصارى مصر منهم، فقد تسلطوا عليهم قبل الإسلام، وحاولوا تغيير مذهبهم، فأنقذهم المسلمون منهم، وقد دافع المسلمون عنهم مرة أخرى زمن الحروب الصليبية التي خرب فيها نصارى أوربا الهمج كنائسهم ونهبوها، وما زال الصراع المذهبي ممثلًا في الكنيستين الكبريين.

وأحسب أن الذي بقي لنا من بشريتنا بعد أن حرمنا السلطيون الاستبداديون من آدميتنا، أننا على يقين من عقيدتنا ومن مآلينا، وهذا ما لا يرضي الحداثيين، ويعدونه عقر الظلام، وأهم إنجازهم أنهم حررونا من الملبس وربقة الدين، بيد أنني أسأل: لماذا يكرهنا الغرب الذي يواليه الحداثيون؟ ولماذا نحن أذل أمة وأهونها عليه؟ ولماذا يستهدفنا وحدنا؟ ولماذا يدعو أولياءه إلى الوحدة، ويقسِّمنا، ويغزونا؟ ولماذا يخوفنا الحداثيون من الدين والمتدينين، ويغروننا بمظاهر الحياة الغربية والثقافة النظرية، ويتجاهلون الهجوم الغربي علينا، ولا يدينون فترة احتلاله لأقطارنا وجرائمه؟! ولماذا ينكرون عداوة الغرب وخططه السرية ويهونون من خطره ويخوفوننا التيارات الدينية وخطرها؟ ولماذا استعان بهم السلطيون المستبدون في طرح قضايا جدلية وتشكيكية لشغل الشعوب عن النظر في فسادهم؟ ولماذا تطلق لهم السلطة باحات الإعلام وتغدق عليهم بالأموال والمناصب، وتسميهم مفكرين وتنويريين، وتضيق على من خالفها من الوطنيين والإسلاميين مارقين وإرهابيين وظلاميين، ولا تتورع عن وصفهم بالعملاء وأصحاب الأجندات الخاصة والسرية، وهي نفسها تحالف الغرب، وتتبنى مشاريعه في العالم الإسلامي؟! ولماذا صارت التيارات الدينية والعرف والعربية أسباب أزمات الدولة والتخلف؟ ولا أدري ما حكمهم على من لم يتورع من السلطيين وأشياعهم عن العبث بأمن الوطن ومصالحه ووحدة أبنائه، فأغروا العدواة بين الطوائف والمسلمين والنصارى، وتاجروا بالعلاقة بينهم، بل افتعلوا عنفًا وقتلًا لإثارة الفتنة بينهم والحرب الأهلية، ووادُّوا خصوم الوطن المتربصين (الصهاينة)، وعادوا أبناء وطنهم وجلدتهم وعقيدتهم؟! وما حكم من سلك سياسة القضاء على الولاء للوطن والدين، وأدت سياسته إلى تغريب الشعب في وطنه وتخريب العقول وتمييع الهوية والقيم والثقافة؟

وهنالك جنوح ومغالاة في تديننا وتفكرينا وحداثتنا القشرية المصطنعة التي لا تتجاوز السفور والإباحية والخروج عن الأصول والثوابت والقيم عند دعاة التطرف الدهري الذي يصفون به مخالفيهم المتدينين (على غير بصيرة) بالظلاميين والمتطرفين، والحداثة لا تعدو الخطاب الكلامي إلى العمل التجريبي، فهي حداثة جدلية، والتحديث في تغيير الخطاب لا الواقع الشعبي المتخم بالفقر والمرض، وأول إنجازات التحديث إقصاء

الدين؟! وثقافتنا المعاصرة كلامية جدلية، وليست علمية، ولا يعدو التنوير الحداثي عند الدهريين (العلمانيين) الجدل الفلسفي الغربي والتخليط والهذيان الإنساني الذي ابتلي به الغرب بعد شنق آخر ملك بأمعاء آخر رجل دين!! إنها ثقافة التطرف السلوكي النفعي.

ولا شك أن انشغالنا بالرد على غيرنا، صرفنا عن الابتكار، ورسخ فينا الجدل المفسد والنقد الهدام، وأشاع فينا التباغض والتحاسد الذين قتل فينا الإبداع والتجديد، ولم يبق في أيدينا مما حصلناه سوى معاول الهدم، فكيف نشرع في البناء؟! وكيف نبني وغيرنا يتعقب ما شيدناه ليهدمه حسدًا؟! ومن المستفيد غير الخصم الذي يكفيه صراعنا الداخلي مؤنة القتال، وينوب عنه ذيوله المستغربون في تخريب أوطانهم.

ويرجع ضمور الشخصية الثقافي إلى افتتان الأمم الضعيفة بالثقافة الخاصة بغيرهم، التي تخالف موروثها وعقيدتها؛ وهذا يؤذن بالشعور بالدونية والتماهي في التقليد السطحي، ويتهافت على خصيصة ثقافة الأغيار خِفاف مؤنة العلم الذين يشعرون بالزهو؛ لقولهم بقول غيرهم، ويتضاءلون أمامهم صغارًا واستجداء الهبة، ومثير الدهشة أن تلك الأفكار قد تُوأد في مهدها، وتبقى ذيولها تتحرك في عقول الأمم الخربة التي تعجز عن إيجاد بديل، فقد سمعت من يتوقعون عودة الاشتراكية الماركسية بعد سقوطها في أرضها، ويذكرون أنها ستكون مخلص العالم (المتخلف) من احتكار "الرأسمالية المتوحشة"، وهم لا يستوعبون أن الاشتراكيين يبحثون عن رؤية أخرى تجد حلولًا لما أخفقوا فيه، وقد سلموا بأن ما هم عليه ليس حلًّا؛ لأنها تعجز عن الحل والصمود أمام التطورات الأخرى، وليس لديهم القدرة على نفي أفكارهم الباهتة؛ لأنها صارت رانًا في وعي الأمم التي تعيش عالة على غيرها، وقد تصبح الأمة المحتلة أثيرة الاحتلال بعد فواته؛ لأنها ألفته، وتغلغل في شخصيتها الخاوية الضعيفة.

وقد نجح الاحتلال الفرنسي - خاصة - في غزو البلاد العربية التي لم يدخلها عبر اللغة والمنح الدراسية والثقافة، وحرص على إعادة هيكلة شخصية الباحث العربي بعد تفكيك بنيته البدائية البكر التي جاء بها؛ وكانت تعهد بهذه المهمة إلى أساتذة هؤلاء الباحثين. ومعظمهم من اليهود المستشرقين الذين درسوا الشخصية العربية خدمة الغزو. ومهمة إعادة تأهيل الباحث أو تجنيده كانت الهدف الباطني من وراء التوجيه الأكاديمي،

ولم ينج من الاستقطاب والتجنيد إلا قليل منهم، ممن كانوا على أصول ثابتة ومنبت حسن، وقد فعل العائدون المستغربون بثقافتهم ودينهم ما عجز عنه الغزاة، وقد أحدثوا شروخًا قاسمة في أعمدة الأمة، وهم سبب ظهور تيارات تنتسب إلى الدين، موازية لهم في التطرف، والهدف رد فعل لهم؛ وسيظل لها الحضور الشعبي في وجود سلطة سياسية متواطئة مع هذه التيارات المستغربة.

وقد حرص الغازي الفرنسي على فرنسة الشعوب التي غزاها لغويًّا؛ ليصبحوا تدريجيًّا موالي فرنسا؛ وقد تحقق شيء كثير من هذا في بلاد المغرب العربي، وخاصة في الوسط الأكاديمي النظري. دون العلوم التجريبية التي حجبها الغرب عن العرب. فكثير من معلمي العربية مثالًا في المدارس والجامعات يدرسون العربية على طريقة تعلم الفرنسية باستبدال الجمل الفرنسية بمقابلها العربي الحرفي نحو: عُقدت الجلسة بحضور الرئيس، وبعض الأساتذة حللوا الخطاب العربي في ضوء تحليل الخطاب الغربي، فالقواعد التوليدية والتحويلية حلت محل النحو العربي ومصطلحاته، وصار النحو العربي القواعد التقليدية والمعيارية القديمة، وحل البراجماتية (التداولية) والحجاج الغربي (القائم على قواعد المناظرة المنطقية والخطابة الأرسطية) محل البلاغة العربية، تحت اسم "البلاغة الجديدة"، وصارت البلاغة العربية "البلاغة القديمة"، فهنالك غزو عارم لهذه المنتجات الغربية قادم من جهة المغرب العربي، يأتي على معالم اللغة العربية وقواعدها عن غير قصد من الباحثين المغاربة؛ لأنهم يفهمون الخطاب العربي من منطلق اللغة الفرنسية، ومن ثم حملت مصطلحاتهم سمات اللغة الفرنسية في معظمها، وكذلك أساليب الخطاب، وقد امتد أثره إلى تفسير الخطاب الشرعي (القرآن الكريم والحديث الشريف)، وقد أطلقت على هذه الظاهرة الدخيلة التي اجتاحت العربية من قبل المغرب اسم "اللغة العربية الفرانكفونية"؛ لتفشي تأثير الفرنسية خاصة في كل مستوياتها؛ لاستخدام بعض الباحثين النظام القواعدي الغربي في تحليلها.

وقد كان التنويريون الأوائل محظوظين؛ لأنهم خدعونا بما لم نسمعه من قبل وأغرونا به. والمرء يغريه الجديد. وأعلنوا بعض الأفكار الشاذة وبعض الآراء الطاعنة في التراث والدين، وقد توهم بعض الجهال أنها من بنات أفكارهم وإبداعهم الفذ، فإذا هي سرقات

مبكرة لأعمال الغربيين، واجترار ما قالوا، وقد فضحهم ترجمة هذه الأعمال إلى العربية، فاكتشف المتلقي الواعي أن بعض الذين قادوا التنوير الغربي في أمتنا ليسوا إلا نقالين، وادعوا النقول لأنفسهم وزوروا القول فيها، فعميت على كثيرين أنها مسروقة، وكل لص يترك دليلًا عليه، ومن هذه الأدلة أنهم أنكروا بعض الثوابت الإسلامية، وتورطوا في نقل بعض المفاهيم الغربية الفاسدة في الإسلام وفي فهم النصوص، وزعم أصحاب النقول أنها رؤية جديدة تنويرية، وأنهم غير مسبوقين، وهنالك أخطاء فاشية بين الباحثين الذين نقلوا عنهم، وهذا من أخطاء المؤسسات العلمية التي ترسل طلاب العلوم النظرية من فئة قليلي المؤنة دون توعية ودون مرشد، فعادوا برؤية مشوهة، ولم يستطيعوا انتقاء ما ينفع أمتهم من حضارة الغرب، بل حملوا كل ما سمعوه في سلة واحدة، فأصاب فاسدها صالحها، ودخلت الأمة في أزمة الصراع، وأضعنا وقتنا وطاقتنا في فض النزاع بين المستغربين وبين جبهة الأصالة.

والعُجاب في هذه الأمة المخترقة، وأن لديها ثوابت عقدية قطعت عليها الجدل، وسدت باب القنوط واليأس، وأنها على يقين من غايتها، بيد أنها لم تنصرف إلى الابتكار، بل انقلبت تجادل في عقيدتها وهدفها، والغرب انطلق إلى العمل، بيد أنه يخشى أن يعيد النظر في عقيدته وغايته؛ لأنه يعلم يقينا أن الانهيار آتيه من قبل معتقده الأجوف واختلاف لغاته وأعراقه، ومن ثم لا يريد أن يرتد إلى ذاته، ويتشاغل بعدو يتوقعه أو يغيب وعيه عن الحياة بوسائل الترفيه عند الفراغ، وبذلك يستبقي على وجوده في الحياة، وجعل العداوة متجددة؛ فبقاؤه قيد الخوف من غيره، ويجعل منه هدفًا، والمسلمون معافون من هذا بعقيدة وهدف، بيد أنهم مبتلون بآفات الجهل والحسد والفراغ، وهي تكفي إفساد العقيدة وتغييب الهدف.

وما يقال في الساحة الثقافية لا يمثل الابتكار الحضاري، بل الاجترار من التراث أو النقل عن الغرب دون نظر أو انتقاء أو تمصير، وهذا شأن من أطلق عليهم أنصاف المثقفين، وهنالك أزمة صنعها من يدعون بالمفكرين في وعينا وإعلامنا، وهي أنهم أطلقوا على ما نقلوه عن غيرهم فكرًا، وادعوه لهم، وليسوا إلا مجترين لما ولغوا فيه من موائد غيرهم دون استيعابه، وليس لهم فيه فضل ابتكار ولا زيادة.

وجل المثقفين ينشغلون بالعلوم النظرية وجدلها العقيم، وليس لديهم الثقافة العلمية التي تفتح آفاقهم للابتكار والتجديد، وقد شغلوا الناس بالجدل والتشكيك، وهذان مادة الإعلام الغث الذي يتاجر بأزمات وطنه وأمته وهموم شعبه ومعاناتهم، وقد استفادت السلطة مما يقدمه الإعلام من مادة رخيصة وقضايا مثيرة، يلتهي بها الشعب عن ممارسة حقوقه، والمشاركة في المسئولية الوطنية التي استبد بها ثلة النظام الفاسد، وبعضهم اتبع سياسة التجهيل والتضليل والتهميش، وعزل الشعب عن وطنه، والإغراء الإعلامي والجدل، وهذه سياسة قذرة تدنس بها السياسيون الضعاف الذين استعانوا على شعوبهم بالجهل والفتن والأضاليل، وجيشوا أجهزة إعلام الدولة للإضرار بشعبها، وفعلوا بشعوبهم ما عجز الاحتلال عن فعله، وأزمة مصر الحقيقية تكمن في حكام غير مؤهلين لحكمها، صعدهم إلى قمتها اختيار مشبوه أو ولاية الغصب والضرورة، فلم ينطلقوا في حكمها من أنها أم العالم ومركز ثقله وأن شعبها المطواع المبدع خلاصة الشعوب وعنوان الوجود، بل انطقوا من مشرب عطن وسياسة آسنة أعيت الشعب وأفشت الآفات، وهمشت الأفذاذ، وسطحت العقول، وخربت الدخول.

ولا أعرف من قول بعض الحداثيين .وهي تسمية في غير موضعها .إنجازًا علميًّا ناجعًا غير تعقب الدينيين، ويعدون هذا إنجازهم الوحيد وشغلهم الفريد، ووفرت لهم السلطة وسائل الإعلام الرسمية لملاحقتهم، وآتت تلك الحملات ثمارها، فقد ازداد التيار الديني انتشارًا وشعبية! وأرى كل من أزبد وتشدق وأجلب على دينه وأبناء جلدته إلى زوال، وقد صارت دعوتهم جُفاء وتبخرت بموتهم، وهم لا يصبرون عليها ولا يخلصون لغير الانتفاع بها، والله تعالى يجري سننه في خلقه، فلم يبق غير ما ينفع الناس وما عداه جُفاء.

والإعلام وبعض الحداثيين جناحان متوازيان يعملان معًا، ويحملان رسالة مجهولة ومهمة مضمرة للدين والعربية والعروبة، وأحسبهما من غير أصحاب النقد البناء؛ لأنهما يقوضان دون تقديم البديل الصالح، ويقبحان دون ذكر المحاسن، ويسكتان عن الحسن؛ إنكارًا وحسدًا، ويسميان هدمهما تنويرًا، بل تدمير وتضليل.

وتغييب الهوية هدف غَزوي قديم، فهو في صدارة مقاصد الاحتلال في الأوطان التي

غزاها، والعُجاب أن تمارسه السلطة الاستبدادية في سياسة شعوبها التي استولت على مقادتها قهرًا، ولم تحفظ ما استُؤمنت عليه، والمنكر أن يشاركهم بعض المنتسبين إلى الثقافة والعلم؛ اتباعًا لهواهم التغريبي ومصالحهم التي غلبوها على مصالح وطنهم، وهؤلاء يعذرون فيما استكرهوا عليه، بيد أنهم آثمون عندما قالوا للطغاة أنتم أهدى سبيلًا، والجريمة الكُبارة أنهم استخدموا أموال الشعب في قهره وتدميره وتغييب هويته وزعزة وطنيته، وشواهد هذا اغتراب الناس في أوطانهم، ولواذهم بعدوهم وهجرتهم، وتمني الموت والعيش بلا غاية، والقنوط من المستقبل، فهل بعد هذا حياة أو وطنية أو دين بعد أن أوردوا الناس المهالك وقنَّطوهم؟!

وقد تربى في كنف الظلم أزلام أفسدوا الحياة، وقد أصاب الصالحون دخن، فتورطوا بصمتهم عن الطغاة، واكتفوا بعزلتهم تنسكًا عن رد الفاسدين ومجاهدتهم، وقد أهلك الله أمثالهم من بني إسرائيل مع من اعتزلوهم من أهل المعاصي، وقد ألف الناس في هذه البيئة الغلط حتى نفروا من الصواب، وصار الصلاح مستنكرًا، والأمين مستهجنًا، ونزلت المنكرات من الناس منزلة العرف، وصار الشذاذ تنويريين ورموزًا، واتخذ الناس الجهال أئمة، فضلوا وأضلوا، وشواهد هذا استهجان الدين وأهله والسُّخْرة من الأصالة والعرف الحسن، والتعالق بمظاهر الغرباء، والتباهي بفعل السفهاء، ومضاهاة الفجار، والتفاخر بالرذائل، وامتعاض الفضائل، وانقسام الإخوة على أنفسهم قددًا، واختلاف قلوبهم وشقاقهم، وهذا من تفشي الفساد وابتعاد العباد عن هدي رب العباد.

وقد أدركت بعض من ينتسبون إلى العلم يوالون أعداء دينهم ووطنهم، ويضاهئون قولهم، ويسلكون مسالكهم، ويقولون في دينهم وأمتهم بقولهم فيهما، وسمعت بعض السياسيين السُّلطيين يقولون ويمارسون، وعاصرت فترة من تاريخ أمتي يحكمها أراذلها، لم أعلم بمثلها في أحلك تاريخها، ولا تضاهيها حِقبتي غزو التتار وغزو الصليبيين، فقد صبر الناس على دينهم، وتنادوا به في جهادهم للدفاع عن النفس والأرض والأموال، وقادهم شآبيب صالحون أخلصوا لربهم ولأمتهم، فلم تبق لأعدائهم باقية، ولكنني في زمان غابت فيه القدوة وعميت فيه البصيرة، وابتلي أهله بالجدل، وهو نذير هلاكهم.

وقد أسهم بعض المُصعَدين من الجهلاء إلى السلطة وبعض الموتورين والمغربين في تغريب الأمة وتغييبها، ووظفت السلطة الضحلة وسائلَ الإعلام وطاقتها في مشروع التخريب المعد والمنظم خارجيًّا وداخليًّا، فقد وجهت للشعب أبواق الهدامين تضليلًا وتشكيكًا، وصدرت المضللين - تنويريين وحداثيين ومفكرين - وهم شذاذ في الهوى والقول والسلوك، وساقت نماذج دعوية مأجورة، وحسبوها على الدين وعلمائه على أنهم معتدلون ومفكرون وتنويريون، وقد تآمر الإعلاميون مع السلطة على إهانة الإسلام داخليًّا وخارجيًّا، فقد سكتوا عن المفسدين والمجرمين، وتتبعوا العلماء والدعاة تشويهًا وافتراء في حملة جماعية، وشككوا في مقالتهم، ولم يتورعوا عن نسب التطرف والإرهاب إلى الإسلام، وقد أضاعوا منا مفاهيم المصطلحات والثوابت مثلما أضاعوا أوطانهم، وبددوا القيم، وأشكلوا علينا ديننا؛ لنكون طرائق قِددًا؛ ولتختلف قلوبنا، وقد أطلقوا القول في كل متدين، واستبدلوا بالعلماء بعض الدراويش والدجالين والحمقى والجهال، ممثلين عن التيار الديني المعتدل، وجعلوا بعض المتحولين عن العلمانية والشيوعية واحتراف الملاهي (الفن) بعد إخفاقهم وانصراف الناس عنهم مفكرين إسلاميين ورموز دينية بجرأتهم على الفتوى عن غير علم وبصيرة وأهلية الفتوى، متجاهلين العلماء وكبار شيوخ الدعوة، وخلطوا بين الزُّهد وأباطيل المنتسبين إلى التصوف من المرتزقة والمُهلهِلين وطلاب الدنيا، وبعض الذين يخفون مذهبهم الطائفي وراء التصوف، ومن يسلكون غير مسالك الدين ومظهره، ويقولون قول الفلاسفة والفرق، وليسوا على عبادة الدين وقوله وعمله! وقد استخدمتهم السلطة للطعن في أهل العلم وشغل الناس بالخرافات، وإقامة المحافل والموالد، وغلبتهم في المناصب الدينية، ونصبت منهم مشايخ الأزهر، وكثيرهم من دارسي الفلسفة ومن المتصوفة، وليسوا من علماء الشريعة. أين هم من الزهد وأركان الدين المعلومة التي هجروها، وهم يمالقون السلطة، ويتعاونون مع حراسها وعسسها، ويستجدون أموال الحكام المستبدين؟! ليسوا على مسالك الزهاد وزهدهم وتعففهم وتورعهم عن الدماء والأعراض وأكل بالباطل. وليس هؤلاء المتسلفة الذين يأكلون بدينهم ودعوتهم على منهج السلف الصحيح، الذين أكلوا من عمل أيديهم، وأنفقوا على العلم وفقراء تلاميذهم، وأوقفوا بعض أموالهم على طلاب العلم الفقراء والوافدين

ومعاهد العلم، وتعففوا عن أجرة السلطة وعطائها وعن صدقات المساجد، واكتفوا من دنياهم بمعايشهم، ولم يكونوا تخمة ولا مزواجين ولا متنطعين، ولم يجعلوا تدينهم منًّا على الناس، وحجة على فسادهم، بل خشوا أن يكونوا أفسد الناس، وممن لا تقبل أعمالهم بعد أن أخلصوا فيها أو أن يشوبها الرياء.

فهل هؤلاء على رشد، وقد نفروا العامة من تدينهم، وأتوا من متع الحياة ما تورع عنه السلف، وآثروا به غيرهم من أهل الخصاصة؟! لم أر في بعضهم من أفعال السلف وقولهم وزهدهم غير ما يلزمون به غيرهم أو ما يخاصمون به مخالفيهم أو ما يضيقون به معايش الناس، وسلكوا مسالك المتعالين في الناس، فقد توهموا أنهم الصفوة والفرقة الناجية، ومن دونهم مبتدعة وأهل ضلالة، وتركوهم على ضلالتهم، مكتفين بأنفسهم مودة وإحسانًا وسلامًا، فنفرت العامة منهم بعد أن مارسوا التقسيم والفئوية؛ توازيًا مع قول السلطة الضالة التي قسمت شعبها بشعارها: نحن شعب، وهم شعب، وسلطت بعض الشعب على بعضه، فقد استعانت بالبدو على الحضر، واستعانت بالعامة على الخاصة، وبأنصارها على معارضيها، فالعالم العربي المنهزم حضاريًّا وفكريًّا يسير في الاتجاه المعاكس نحو مزيد من التقسيم والتشظي، بينما يسير الغرب المختلف عرقيًّا ولغويًّا وثقافيًّا وتاريخيًّا واجتماعيًّا نحو الوحدة وتجاوز الاختلافات والعداوة، وانتبه إلى أن من يسيرون عكس اتجاه الوحدة من كل الأطياف أنهم ضالون أو مأجورون، ومن هؤلاء الذين يقفون وراء انشقاق الأقليات الإسلامية عن أوطانها، فهم أجزاء منها ومواطنوها، والإسلام دين الدنيا كلها، وقد أعلن النبي ﷺ أنه "لا هجرة بعد الفتح"؛ فكل مسلم داعية في وطنه ووتد لدينه فيه، والعدل أن ننتصف لحقوق المسلمين وحريتهم في أوطاننا أولًا، ثم حقوق إخواننا في البلاد التي تضيق عليهم أو تقصيهم أو تسلط عليهم الأغلبية، وليس لنا أن نتدخل في الدول التي تقر بالمواطنة العامة والمساواة بأشياء تميز المسلمين أو تخرجهم عن انتمائهم ووطنيتهم، فالوطن ـ وإن كان ليس مسلمًا خالصًا ـ له حقوق دينية على مسلميه، منها الوفاء له والدفاع عنه.

كل هؤلاء المضللون متورطون في الفعل والمعاونة والصمت على الظلم، بيد أني سأحاول ـ ولن آل جهدًا ـ أن أصحح أغاليط المجادلين وأوهام الجهال، وأن أميط غبار

حملة التغريب وزبد المتشديقين وخبث الحاقدين عن أصول المفاهيم، وأن أتعقب ما يطرحه الإعلام من مفاهيم دخيلة أو غلط أو موجهة أو محيَّدة أو محرَّفة.

الترجمة وأثرها في المفهوم الثقافي:

اختلف العلماء في تعريف الترجمة[١]، متأثرين بمذاهبهم وفهمهم وقصدهم، فقد عرفها كاتفورد (Catford) بأنها: إبدال مادة نصية في لغة (اللغة الأصلية) بمادة نصية مكافئة في لغة أخرى (اللغة المستهدفة)"[٢]، وهو يركز على التكافؤ (Equivalence) بين اللغتين، وعرفها جاكبسون (Jakobson) بأنها: "تأويل العلامات اللفظية عن طريق لغة أخرى"، وهو متأثر بنظرية إنتاج الدلالة (Semiotics)[٣]، وعرف هاوس[٣] الترجمة بإبدال نص مكتوب باللغة المنقول منها إلى نص مكتوب باللغة المنقول إليها، النص الثاني متكافئ مع الأول من حيث الدلالة ومن حيث الذرائعية والتكافؤ الوظيفي (الوظيفة: أن تستعمل نصًّا في حدود مقام معين)، ومن ثم يتكافأ النصان في المعنى"[٤]، وعرّفها "إدموند كاري"، بأنها: "العملية التي تقوم بإيجاد نظائر بين نصين معبر عنهما بلغتين مختلفتين على أن تراعى هذه النظائر بشكل دائم وضروري طبيعة النصين وجمهورهما (مستقبلي النصين) والعلاقات الكائنة بين ثقافة الشعبين ومناخهما النفسي والفكري والعاطفي، إضافة إلى جميع الظروف المحيطة بالعصر والمكان اللذين يترجم منهما

---

(١) ترجم: ترجمة، جاء في اللسان: التُرجمان، والتَّرجَمان: المفسر للسان، وهو الذي يترجم الكلام: أي: ينقله من لغة إلى أخرى، والجمع: التراجم، والتاء والنون زائدتان، اللسان دار الحديث، م١/٦٠١.

(٢) معجم دراسات الترجمة، مارك شتلويرث، ترجمة: جمال الجزيري، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٨م، ص٣٤٨.

(٣) ارجع إلى: معجم مصطلحات السميوطيقا، ماتن ورينجهام، ترجمة: عابد خزندار، المشروع القومي للترجمة، ط١/٢٠٠٨، ص١٦٩، والسميوطيقا: نظرية إنتاج الدلالة.

(٤) ارجع إلى: معجم دراسات الترجمة، ص٣٤٩، و Robert LAROSE، Théories contemproaines de la traduction ٢ème édition, ١٩٨٩, Presses de l'Université du Québec.

وإليهما"[١]. والترجمة عندي: "نقل المترجم المحترف المتمكن من اللغتين (المترجَمة والمترجم إليها) معنى النص المترجَم (لا معنى اللفظ المفرد المعجمي) إلى ما يقاربه في اللغة المترجم إليها بمقتضى عرف اللغتين في التعبير، وتحري الدلالات الخاصة في ثقافة أصحاب اللغة المترجَمة"، فالترجمة تقوم على المقاربة في معاني الجمل (معاني الألفاظ التركيبية الوظيفية)، وليس على النظير اللفظي المفرد، والجمل لا تتماثل لفظيًّا في اللغات، بل تتقارب في المضمون؛ لأنها معاني تركيبية سياقية ومقامية.

والترجمة تقوم على المعنى التركيبي، وليس على معنى اللفظ المعجمي، فالترجمة ليست استبدال ألفاظ بألفاظ من لغة أخرى، بل تقوم على مضمون روح النص الأصلي وأسلوبه، وتعبر عن الوظيفة الإيصالية، ومعنى اللفظ المفرد (الحرفي) يقتل الترجمة، بيد

---

(١) ارجع إلى: مجلة الكاتب العربي، العدد ٤٤، وعرف المعجم الفرنسي Ierbert "الترجمة" بأنها: "نقل ما يقال بلغة ما إلى لغة أخرى، مع الميل إلى معادلة معنى هذا القول وذلك"، والترجمة عند Kelly : "تطبيق للغويات من منظور افتراض توافر السعي لإخراج نص يحمل المعنى المعادل للنص الأصلي"، يرى فيجادل Newmark بأن "الترجمة: مهارة تتمثل في محاولة إحلال رسالة أو بيان مكتوب بإحدى اللغات برسالة و/أو بيان مكتوب بلغة أخرى"، ويقول Catford إن الترجمة هي: "عملية إحلال النص المكتوب بإحدى اللغات (ويسميها اللغة المصدر "SL" (source language) إلى نص يعادله مكتوب بلغة أخرى (ويسميها اللغة المستهدف النقل إليها، أو اللغة المترجم إليها target language "TL")". فهو يركز على نقل الأثر الذي ينتج عن النص المكتوب، وليس نقل المكونات اللغوية على مستوى المفردات أو القواعد، ويرى "Halliday" أن "المعادل النصي فيما بين نصي اللغة المصدر SL واللغة المنقول إليها TL لا يتطلب بالضرورة إيجاد المقابل الشكلي بين هذين النصين على مستوى المفردات أو القواعد، ولكن إيجاد معادل على مستوى النص بأكمله"، وعرف Forster الترجمة الجيدة بأنها: "الترجمة التي تفي الغرض نفسه في اللغة الجديدة مثلما فعل الغرض الأصلي في اللغة التي كُتب بها"، ووصف Orr عملية الترجمة بأنها: مطابقة لعملية الرسم إلى حد ما، وقال: "إن الرسام لا يستخرج كل تفصيل في المنظر"، فهو ينتقي ما يبدو أفضل له. وينطبق الشيء نفسه على المترجم، "إنها الروح – وليس المعنى الحرفي وحسب – التي يسعى المترجم لتجسيدها في ترجمته الخاصة" والمعادلة: "ما له القيمة نفسها أو الوظيفة نفسها"). ترجمة النص الأدبي، سامية أسعد، عالم الفكر، ع٤، يناير، فبراير، مارس ١٩٨٩، ص١٩، والترجمة الأدبية والتنمية الثقافية، جان ألكسان، مجلة الوحدة، ع٦١، ٦٢، أكتوبر ونوفمبر ١٩٨٩م، ص١٠٤، وارجع إلى : مجلة عالم الفكر، د.سامية أسعد، المجلد ١٩، العدد ٤.

أن روح المعنى يمنحها الحياة [١].

والترجمة مادتها اللغة، وموضوعها النص المترجم والمترجم إليه، وبحث العلاقة بين اللغة والترجمة[٢]، والهدف الرئيس من تقنينها وضع ضوابط عامة للمترجمين؛ لتلافي الأخطاء وعدم الدقة في الاختيار والصياغة[٣].

---

(١) أفضل التراجم ليست الترجمة التي تشعر القارئ أن هذا العمل ما هو إلا ترجمة وليس تأليفًا أصيلًا، بل الترجمة التي تجعل القارئ ينسى أنها ترجمة وتجعله يشعر أنه يتلقى من الكاتب نفسه تلقيًا مباشرًا، وهذا لا يعني تحريف الأصل، فالترجمة يجب أن تُحدث في ذهن القارئ الانطباع نفسه الذي يحققه انطباع النص الأصل في قرائه، والترجمة الصحيحة تستوفي الجوانب الآتية:

١- أن تعكس المعنى بوضوح. ٢- أن تنقل روح النص الأصل وأسلوبه. ٣- أن تكون الصياغة سهلة وسلسة. ٤- أن تولد استجابة مشابهة في ذهن قارئها. [ارجع إلى: الترجمة ونظرياتها، مدخل إلى: علم الترجمة، أمبارو أورتادو البير، ترجمة علي المنوفي، ٢٠٠٧م، ص٣٨، وما بعدها].

(٢) عملية الترجمة تنقسم إلى مرحلتين أساسيتين:

أولاهما: أن تهتم بتحليل analysis نص الرسالة المكتوبة باللغة الأصل (المصدر SL)؛ من أجل التوصل إلى المعنى الحقيقي الذي يتضمنه هذا النص.

وثانيتها: أن تهتم بصياغة synthesis معنى النص المترجم باللغة المترجم إليها (TL)؛ من أجل التوصل إلى أسلوب صحيح يماثل أساليب التعبير التي تستخدمها هذه اللغة؛ ليكون تعبيرًا أمينًا عن المضمون دون الخروج عن عرف اللغة المترجم إليها. [ارجع إلى: الترجمة ونظرياتها، مدخل إلى: علم الترجمة، ص٤٧ وما بعدها].

(٣) يترتب على الترجمة الغلط في الحقل السياسي ردود أفعال خطيرة وآثار سلبية على الرأي العام الذي يستوعب أثر الكلمة في مصالحه وأمنه، وقد اتخذ بعض الصحفيين الخبر الكذب وسيلة تكسب وشُهرة، وبعض المترجمين والمراسلين خالفوا المعنى المترجم في الخطاب، وقد ترتب على انحراف المترجم أزمات جعلته بمنزلة الخائن لعمله، ونعت بالكذاب أو الخائن في إيطاليا، عندما حدثت أزمة سياسية من سوء الترجمة أغضبت الرأي العام، فالمترجم قد لا يكون دقيقًا في نقله وترجمته، وقد لا ينقل المعنى المقصود، بل قد ينحرف عنه؛ مما يترتب عليه سوء الفهم، وهنالك أمثلة من الترجمة المغلوطة، ترتب عليها مواقف سياسية حرجة، كادت أن تؤدي إلى التدخل العسكري، مثل قصة المترجم البلغاري مع الرئيس الأمريكي، وقصة المترجم الروسي مع "خروتشوف" وجمال عبد الناصر، والترجمة الإنجليزية للرد الياباني على مطالبة الأمريكيين لهم بالاستسلام التي أسيء فهمها، فتعللت أمريكا بها، وألقت قنابلها المحرمة دوليًّا على "هيروشيما"، وقد يلجأ المترجم إلى صياغة جديدة للخبر، فيلجأ إلى البحث عن بديل للمعنى الذي يحدده السياق الذي حدا ببعضهم إلى إطلاق الوصف الإيطالي على كل مترجم، فنعتوه بالكذاب أو الخائن =

وقد قامت الترجمة (Translation) بدور رئيس في التواصل بين الشعوب وإزالة الحواجز بينها وانتقال الحضارات والعلوم، ولها دورها أيضًا في تنمية اللغة وتطورها، وكذلك وسائل الإعلام[١]، وتعد الترجمة معلمًا بارزًا وظاهرة تفرض نفسها على كل محلل للواقع الثقافي والفكري والسياسي في وطننًا العربي، والترجمة الدقيقة تعطي تصورًا صحيحًا للأفكار التي تعبر عنها لغة النص الأصلي: (Source Language) إلى اللغة المترجم إليها (Target Language)، وهي بمثابة استعادة للنص المترجم في لغة جديدة أو ولادة جديدة، ويثير هذا ما يسمى بالـ (Connotation) (المعاني المتداعية المجاورة للمعنى الأصلي)[٢].

والترجمة نوعان: أدبية وتقنية، والترجمة الأدبية تقوم على تأويل مضمون النص والاحتفاظ بعناصره الأدبية في اللغة المترجم إليها تمثيلًا أو تقريبًا، وتستخدم في التعبير

=

"Tradutore"، "Traditore"، "traitorous". ارجع إلى: في نظرية الترجمة، اتجاهات معاصرة، ص٩٧، ويسمى ويل المترجمين "الخونة الأمناء"، "faithful traitors"، والصعوبات الرئيسة تتمثل في كون الممتهن للترجمة لا ينقل المعنى المقصود، بل يذهب أحيانًا إلى أبعد منه؛ مما قد يؤدي إلى سوء الفهم في مجال العلاقات الدولية السياسية منها أو الاقتصادية أو غيرها.

(١) ارجع إلى: دلالة الألفاظ، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٧م، ص١٦٩، الترجمة تجلب أفكارًا جديدة وتسميات وتعابير جديدة واختراعات تبحث لها عن تسمية وأساليب وتفاعل بين الثقافات ومناهج بحثية استفادت منها اللغة عبر الترجمة، ولوسائل الإعلام الجماهيرية دور كبير أيضًا في تنمية اللغة وتطورها؛ لتفاعلها المباشر مع المجتمع والعالم الخارجي؛ فتولد مفردات اللغة وتستحدث دلالتها وتحيي كلمات تراثية وتوسع مفهومها وانتشارها وتنمي معانيها، بوضع معان، وتداول المفردات بين الحقول المختلفة والتفاعل بين العلوم والثقافات عبر وسائل الإعلام؛ مما يسهم في ابتكار كلمات جديدة بمعان جديدة، وتطور المعاني القديمة، وهوتطور مشروع في ضوء عرف اللغة التعبيري.

(٢) هنالك اختلاف في استخدام الترجمان والمترجم، يستخدم في الجزائر "Interprete" (الفرنسية) أو "Interpreter" (الإنجليزية) للترجمان؛ وذلك لتمييزه عن مدلولي كلمة "مترجم "Trducteur" (الفرنسية) أو مترجم "Translator" (الإنجليزية)، وتعني الذي يشتغل بالترجمة الفورية، وبعض البلدان تستخدم كلمة "مترجم"، وتضيف إليها وصف "فوري" أو "تحريري" أو "كتابي"، وارجع إلى: معجم دراسات الترجمة، ص٣٧٦ وما بعدها.

عنه لغة بلاغية تقاربه، ويتحرى المترجم الحفاظ على معالم الأسلوب الأدبي، والمترجم الذي ينقل نصًّا أدبيًّا إلى لغة أخرى يسعى إلى هدف جمالي بأشكال تعبيرية جديدة، وقد يستخدم بعض مصطلحات النص المترجم الذي ليس له مقابل، أو له خصوصية ثقافية، أو مشتق من أسماء الأعلام.

والترجمة العلمية مباشرة، وتستخدم المعنى الأول الأساسي دون الأساليب البلاغية، فالغرض هنا نقل المعنى لا الإمتاع الأدبي، ومترجم النصوص العلمية يوصل رسالة محددة، فالنصوص العلمية مباشرة، وترجمتها توازيها في مضمون النص، ومترجم النص العلمي يكون نصيًّا (يتحرى دلالة النص الظاهرة)، ويضاهيها بما يقابلها، وقد يستبقي على المصطلحات العلمية الأصلية لعدم وجود نظير تراثي دقيق لها، ولا يتصرف في ترجمة النص العلمي، ولا يحيد عنه إلى أسلوب يستحسنه، بل يتحرى مضاهاة الترجمة بالنص المترجم، ويلتزم الدقة التعبيرية المباشرة والأمانة في النقل دون تبديل أو تدخل منه، بيد أن المترجم الأدبي يتحرى عناصر النص الجمالية وأساليبه البلاغية، ويتصرف في الأسلوب، فلا يلتزم بظاهر النص بل يضاهيه بما يقاربه في اللغة الأدبية التي يترجم إليها، وقد يمصر النص (يوطنه ويكيفه مع المحيط الثقافي الجديد)، ويشترط في الترجمة الصحيحة ما يأتي:

- معرفة معاني الكلمات ووظائفها التركيبية ومعانيها السياقية.
- تحري مفاهيم المصطلحات والتراكيب الخاصة والتعابير الاصطلاحية والأمثال تحريًا دقيقًا؛ لمعرفة معانيها الخاصة، ولاختيار ما يعبر عنها تعبيرًا دقيقًا.
- تحصيل المعاني الثقافية والاجتماعية وأعراف التعبير الأسلوبي.
- مراعاة استعمال اللغة في سياقها ومقامها.
- اختيار المفردات السهلة والشائعة التي تعبرعنها تعبيرًا دقيقًا.
- الحفاظ على الجانب الجمالي في الأسلوب ومراعاة الدقة في التعبير العلمي .

- إتقان الأسلوب والصياغة السلسة التي تعكس المعنى الأصلي، وسلامة الترجمة من الأخطاء اللغوية.

- مراعاة خصوصية اللغات في التعبير عن المعاني، ومراعاة الفروق اللغوية والثقافية على مستوى المفردات [١].

الترجمة الصحفية:

ترجمة فردية غالبًا، وسريعة؛ لتواكب الحدث ولتحظى بالسبق الإعلامي، وتعتمد على مقدرة المترجم الصحفي على الترجمة ومستواه في اللغتين؛ المترجم منها والمترجم إليها، وفهمه وانطباعه عن المفاهيم ودرجة استيعابه المعنى وأسلوبه، وقد تكون ترجمته غير مباشرة عن ترجمة سابقة أو مصدر وسيط ينقل عنه، فتصبح الترجمة الثانية غير دقيقة، وقد يستعين المحرر أو المراسل بالمترجم الآلي، أو بمتخصص أكاديمي أو بمحترف، وبعض المؤسسات الضخمة تعتمد على مترجمين محترفين، أو تسند الترجمة إلى مؤسسة.

والترجمة الإعلامية قد لا تكون نصية (حرفية)، بل تترجم المضمون أو اختيارات منه

---

(١) هنالك بعض الأمثلة لتوضيح هذا مثل: كلمة "رياضة" قد تكون رياضة بدنية، أو رياضة روحية، أو رياضة بمعنى ترويض، أو رياضة بمعنى مادة الرياضيات. فإن كان المراد رياضة بدنية وضع له ما يقابله، وقد يصحب باللفظ الأصلي لإزالة اللبس والإبهام، مثل: رياضة بدنية (Sport)، ومثل: كاتب أو مؤلف (Writer)، ووكلمة "Bank": ركام أو منحدر أو شاطئ أو صف أو مصرف، وهي بمعنى: جزء من الأرض بامتداد جانب النهر، وتسمى: شاطئًا"Land along the side of a river" (Bank) : (شاطئ). وكلمة "Book": كتاب أو دفتر تجاري أو الكتاب المقدس، أو القيام بعملية التسجيل أو بعملية الحجز مقدمًا، ومصطلح "الحجز مقدمًا": To Reserve , (Book : يحجز).

وتراعى خصوصية اللغة على مستوى العبارة، فعبارة مثل: "قامت اللجنة المكونة من سبع دول بمناقشة مشروع القرار"، نجد أن عبارة "اللجنة الحكومية المكونة من سبع دول" معناها: اللجنة الحكومية التي تخص الدول السبع كلها، بمعنى عدم اقتصارها على حكومة دولة واحدة، والمعنى " "inter-governmental committee. وكلمة "مشروع القرار" تعني: مسودة القرار (draft)، فتترجم الجملة السابقة: The discussed the draft seven-state inter-governmental committee has resolution. ارجع إلى: إستراتيجية الترجمة، محمد حسن يوسف، منتدى جمعية الترجمة الثقافية وحوار الثقافات (شبكة المعلومات). ارجع إلى: الترجمة ونظرياتها، مدخل إلى: علم الترجمة، ص٣٥ وما بعدها.

أو يتصرف المترجم في الترجمة؛ لأسباب منها: الاختصار والتوضيح وضيق الوقت ومساحة الخبر الزمنية والكتابية، وقد يكون عن رغبة للتجديد والإبداع الصحفي والأسلوبي، والمتميز في نقل الخبر، والتحرر من الارتباط الوثيق ببعض مكونات النص الأصل، ومحاولة صياغة نص جديد يراعي نوعية المتلقي، وظروف التلقي الجديدة، ولا يجوز التغيير المخل في مضمون النص الأصل بتغييره أو النقص أو الزيادة في معناه[١]، وقد يكون التصرف لهدف مضمر أو الانتماء العقدي (الأيديولوجي) الخاص والتعصب لمذهب أو لقومية أو الانتماء السياسي[٢] أو لمذهب الصحيفة (الأيديولوجيا) وشروط النشر بها التي تقتضي العمل بمبادئها الفكرية والعقدية .

ولعامل السرعة أثر في ظهور الترجمة غير الناضجة، وما يترتب عليها من طرح الأغاليط من غير مراجعة، أو إعادة توجيه، يتناسب مع الرأي العام وموقفه من الحدث، فقد تخدم وسائل الإعلام مصالح العدو دون قصد، بترويج أكاذيبه؛ لتضليل الرأي العام، وبممارسة الحرب النفسية، ولا شك أن وسائل الإعلام العربية تورطت في دور العميل، بتطفلها على المعلومة المفتراة، أو بنقلها عن الإعلام الخارجي الموجه، فقد ظلت دراسات الباحثين قيد المكتبات دون تفعيل في وسائل الإعلام، واعتمد بعض الإعلاميين على

---

(١) قد يلجأ المترجم إلى ترجمة تلخيصية؛ تقتضيها المساحة المخصصة في الجريدة، وهذا شيء مقبول، ومشروط بالمحافظة على المعاني والأفكار الرئيسة دون تحريف أو تشويه، ولا يعني التصرف النقص في الترجمة عبر بتر الأفكار الرئيسة أو التخلص من الفقرات التي لم يوفق المترجم في ترجمتها، والتصرف بالزيادة في الترجمة عبر إدخال أفكار جديدة أو مناقضة لم ترد في النص الأصل، والتصرف في الترجمة يأتي للتواصل مع الجمهور المتلقي عبر تغيير واع لوظيفة النص الأصل (تلخيصه أو تفسير أفكاره أو تبسيط مستواه اللغوي ...) دون المساس بأفكاره التي تكون المعنى العام.

(٢) الخطاب السياسى له نفوذ قوي في وسائل الإعلام؛ بقوته السلطية، ودعمه المادي، وكونه ربيبه؛ فقد نشأ الإعلام في كنف السلطة، والإعلام نقّال أو راوٍ، والمتحدث السطة التي تسيطر على مقاليد القول ومضمونه وجهته، والتحليل الصحفي مادته خطاب السلطة، ومن ثم فهي المصدر، وكل ما يترتب عليه منسوب إليها، والمصطلح يحمل مفهوما خاصًّا في حقله الخاص، ويقع التحييد في ترجمة المصطلحات السياسية عن قصد لأهداف سياسية لمصالح تقتضيه، أو عن غير قصد للجهل بأصول الترجمة. ارجع إلى: لغة الخطاب السياسي، محمود عكاشة، ص٥، وما بعدها، وخطاب السلطة الإعلامي، عكاشة، ص٣١.

النقل المباشر دون تنقيح أو نقد، وبعضهم تورط في العمالة والتبعية المدفعوتين.

ويترتب على سوء الترجمة تغيير المعنى؛ بسبب الجهل بدلالة المصطلح في اللغة الأم، فقد أخطأ المترجمون في ترجمة كلمة "Governments" في عبارة "State governments" التي وردت في خبر صحفي أمريكي في ولاية "ماساتشوستس" في سياق الحديث عن إقرار قانون، فترجموها إلى الفرنسية "gouverenements"، وتعني "حكومات"، وهي في النظام الفرنسى "السلطة التنفيذية" (l`exécutif)، والمراد في النص الأصلي "السلطة التشريعية"(le législatif) ، وهي مجالس النواب التي تقر القانون في الولايات المتحدة الأمريكية، ويمكن ترجمة "governments" بـ "pouvoirs publics" (السلطات الحكومية)[1].

وتعد ترجمة المصطلحات أشق من ترجمة النصوص، فالأولى ترجمة مفاهيم، والأخرى ترجمة مضمون، والأولى تحتاج مراجعة وضبطًا اصطلاحيًّا ولفظيًّا، والخطأ فيها كثير، فكثير من المترجمين غير متخصصين لغويًّا وعلميًّا في حقل المفاهيم المطروحة، وسرعة الترجمة لا تمنحه المراجعة العلمية وضبط المصطلح بالرجوع إلى المصادر وقواعد الاصطلاح، ومن آفات بعض الصحفيين الضعف في اللغة المترجمة منها وإليها، وضحالة الوعي، وتردي الخلق وسوء القصد، وليس لديهم القدرة على التعريب والاستفادة من خيارات: الاختيار والاستبدال والحذف والتبديل في الترجمة.

***

(١) الترجمة، وفهمها وتعلمها، ص١٣٠.

الفصل الثاني

المفهوم الثقافي بين الارتقاء والتحدر في الخطاب العربي

اللفظ وعاء المعنى، بيد أن المعنى - كالكائن الحي - يتعلق في نموه بالمجتمع، فيرتقي المعنى برقي المجتمع، ويتطور في الدلالة التي تتسع بانتشاره وترتقي برقي حضارة المجتمع، فيصبح اللفظ جزءًا من حاضره وسجلًا لحضارة مستخدميه، وقد يتوقف عن نموه؛ مقيدًا بسكون مجتمعه، فيتخلف عن حاضره، ولا يستوعب تجربته المعاصرة.

والمعنى موضع التغير، وليس البنية التي تشكل قوالب ترمز إلى المعنى، فاللفظ قيد أبنية اللغة القياسية والاستثنائية (الصناعية)، والمعنى ميدان التطور، والتطور شاهد نضج اللغة وكفاءتها، والمصطلح عنصر حضاري، يجسد وعيها الفكري والعلمي، وللتطور أسس عامة تضبط المعنى، وتحدد حركته التي ترتبط بأصله في الوضع، أو يدور في حقله الدلالي.

ويعد الخطاب الإعلامي ميدانًا واسعًا للتفاعل اللغوي والثقافي والسياسي، وأرضًا خصبة للتطور اللغوي؛ ذلك أنه أكثر حركة وانتشارًا وتفاعلًا وتأثرًا، وأسرع وصولًا إلى المتلقي من الخطابات الأخرى، إضافة إلى أنه أكثر التصاقًا بالواقع وأكثر استجابة للحدث المباشر، ويحظى بدعم سلطي واقتصادي، ويتمتع بأدوات اتصالية وتقنيات متطورة ومثيرة ومؤثرة وجذابة، وله قنوات متنوعة ومباشرة وغير مباشرة، وجمهوره - على اختلافهم الطبقي والثقافي والإثني - أكثر عددًا من غيره، وأكثر تنوعًا، وأنه يستطيع تجاوز الحدود السياسية والطبيعة الجغرافية، ويخترق الموانع الصناعية، ومن ثم يعد الخطاب الإعلامي عاملًا رئيسًا من عوامل التطور اللغوي، بيد أنه يحتاج ضبطًا وتأصيلًا يمنعانه من الانزلاق في أوحال السلطة والتضليل والتسطيح والخطأ، وتوجيه رأس المال، وتأثير إعلام الغزاة الذي يستهدف الجمهور العربي، ويوجهه لأهدافه السياسية والاقتصادية.

ولن يكون الإعلام أمينًا في رسالته الجماهيرية وحرًّا في أدائه وتعبيره، وهو في قيد سلطة تقيد حركته، وتوجهه لمقتضى مصالحها الخاصة، وآفة الإعلام المصري في ظل السلطة أنه ألف مستنقع السلطة، واستنكر كل ما يخالفه، وصار الخطأ مألوفًا والصواب مستنكرًا؛ لطول عهده بالخطأ، فاستمرأ الفساد وألفه مثلما استمرأ الشعب التزوير والتضليل في ممارسة السلطة وقولها، فقد صارت مفاهيم السلطة وقوالبها الخطابية العقيمة مألوفة وما عداها مستنكرًا، ويعد ما يخالفها مروقًا وبدعة منكرة، وليست إلا أشكالًا تقليدية تُستدعى في كل مناسبة، تشبه ديباجة الرسائل التي يتجاوزها القارئ إلى المضمون، والمضمون نفسه صار مألوفًا، ونتائجه معلومة، فلا يقدم جديدًا، غير أسماء جديدة مضافة إلى أخرى في قائمة الخصوم السياسيين، ومقارنات فاسدة بأنظمة سابقة فاسدة، والقياس أن يقارن الشيء بنظيره الذي يشترك معه في الحدث والزمن، والقياس على الغابر والباطل مؤشر على فساد الحال، فالخطاب العربي السلطي تقويضي، يتهم اللاحق فيه السالف المقبور أو المخلوع، ويزعم أنه تصحيح له، والمضحك أن سالفه قد يكون أباه أو من استخلفه أو من أنابه عنه أو من جعله من المقربين، فلا يتورع عن ذمه وتخوينه أو قتله (جزاء سِنمَّار عن إحسانه وإتقانه).

والتغيير في اللغة نوعان؛ أحدهما: التغيير الإيجابي؛ تطورًا وارتقاء في المعنى واتساعًا وانتشارًا في الاستعمال. والآخر: التغيير السلبي؛ تحدرًا وتضييقًا وإسفافًا. وهما في المعنى، والتغيير في بنية اللفظ نوعان: تغيير قياسي بمقتضى علم الصرف بالزيادة والحذف، والتحويل من بناء إلى آخر؛ كالاشتقاق من الأفعال والأسماء، وتحويل الفعل إلى مصدره أو إلى أحد مشتقاته (أسماء الفاعل والمفعول والمكان والزمان والصفات المشبهات وصيغ المبالغة) لمعنى أو بلاغة أو ضرورة تقتضيه؛ كالوزن الشعري والسجع، وهذا التغيير دليل مرونة اللغة، واستجابتها لمتطلبات الخطاب والمعنى والتطور. والآخر: التغيير البنوي غير القياسي أو الشاذ؛ لأنه تحريف بنية اللفظ القياسية المعمول بها في عموم قواعد الصرف، ويدخل هذا النوع في الأخطاء اللغوية، وقد يقع في الكتابة تصحيفًا؛ بسبب توهم النطق المخالف أو زوال النقط من الحروف أو الزيادة فيه أو الاشتباه في الحرف، والمشهور في

الخطاب الإعلامي وخطابنا أنه حادث جهلًا بالبنية الصحيحة ومحاكاة لبنية الألفاظ الأجنبية (ظاهرة اللغة العربية الفرانكفونية).

أولا: ارتقاء المفهوم في الخطاب:

التطور في معنى اللفظ المعجمي في الاستعمال والأسلوب التعبيري والمعنى دون البنية القياسية، بيد أن بعض الباحثين توهمه خطأ في البنية، فساق بعض الأبنية غير القياسية في المصادر، والأبنية أو الصيغ الصرفية ليست موضع التغيير، بل اختيار اللفظ لمعنى في سياق يطلبه، ويقدم فيه على غيره من الألفاظ التي تقع في هذا الحقل.

وأفرق بين التطور بمعنى التوسع في المعنى والتطور بمعنى الارتقاء في المعنى، وهو الارتقاء بالقيم والمضمون الحسن الذي يرتقي بالذوق، فالتوسع في المعنى مثل: التوسع في معنى الحُكم والحكومة والدولة والمجلس في كثرة الاستعمال والانتشار إقليميًّا، والارتقاء الدلالي في التعبير عن المعاني الحضارية والفكرية وسمو التعبير الأسلوبي في الخطاب، فارتقاء دلالة اللفظ انتقاله من التعبير الحسي المباشر في بيئة ضيقة إلى دلالة المفهوم الفكري والحضاري؛ كارتقاء معاني ألفاظ الإسلام والسُّنة والشريعة والجهاد والعدل في خطاب الجاهليين إلى مفاهيم عقدية مضبوطة وواسعة الانتشار، ولها في وعي مستعمليها دلالة خاصة ومنزلة سامقة، ولا يدخل في التطور الخطأ في اللفظ والمعنى، فالخطأ اللغوي يدخل في الانحطاط اللغوي والغلط؛ لأنه يذهب باللفظ وبمعناه، وقد تناول بعض الباحثين تغيير اللفظ أو معناه بسبب التوهم أو الخطأ في السماع أو التصحيف أو في النطق في التطور اللغوي، وموضعه الصحيح في الأغلاط والأوهام، ومثال هذا كلمة "أحراش" التي يستعملها بعض الإعلاميين في حديثهم عن الغابات، واستعمل بعض النقاد "أحراش المعنى": المعاني الغريبة غير المألوفة، والصواب أنه "أحراج" جمع حَرَج: غيضة الشجر الملتفَّة، لا يقدر أَحدٌ أن يَنْفُذَ فيها، وقد شاع الخلط خطأ بين حرَش (مصدر: حرِش: الخشونة) وحَرَج في بعض المعاجم الحديثة؛ لنقلها عن الخطاب اليومي ووسائل الإعلام، وهذا ليس تطورًا، بل غلط عن جهل بأصل اللفظ، ويسمى الخطأ الشائع، وليس من التطور الدلالي التشويه المعزز بالصفات السلبية أو المقرون بصور

ومشاهد سيئة، نحو: الأصوليون المتشددون أو المتطرفون، هذا من تحقير المفهوم وليس من إعلائه.

ويرجع التطور الدلالي إلى أسباب لغوية، ودينية، وتاريخية، واجتماعية، وحضارية، وسياسية، والتفاعل بين الحقول العلمية، والتواصل بين الأمم والتقنية الحديثة والتطور العالمي، وسوف أتناول الأسباب الرئيسة في تطور المصطلح وأسباب تراجعه، وسوف أتناولها تطبيقًا على الواقع المعاصر لا قولًا، وسوف أتحرر من النقل عن المتقدمين الذي استغرق عمل بعض من كتب في التطور اللغوي، مفرقًا بين التطور والتراجع (الانحطاط)، والتوسع في استخدام اللفظ والارتقاء في معناه، والارتقاء يعني تشبع المعنى بالمدلول الخاص في دلالته على المعنى الإيجابي (الحسن) أو خلافه (المعنى السلبي)، وأهميته في وضوح المعنى، ومن الارتقاء الحسن: الشريعة بما تحمله من قيم التقديس والإحكام والعدل والمساواة والرحمة وحفظ الدين ومصالح الدنيا، والارتقاء في المعنى السلبي (النقيض)، مثل: الكفر بما يحمله من شناعة المعصية والعقاب عليها والجحود والضلال والكِبر.

أسباب ارتقاء المصطلح في الخطاب الإسلامي ما يأتي:

١ .الدين: الإسلام وعاء حفظ العربية ومداد إعاشتها وحيويتها، ولولاه لكانت في عداد اللغات الميتة أو المحرفة عن أصلها، أو في حيز جغرافي ضيق، ويميز الإسلام عن غيره، أنه دين البشرية أجمعها، وأن ثقافته شارك فيها كل الأعراق والملل والثقافات، واستوعبتهم جميعهم، وأنها أعظم ثقافة، وأنها منتجة أضخم تراث، ولسانها العربي أعرق الألسنة العالمية، وأنها لسان كل المسلمين الجامع، ويميز العربية أنها لغة العرق العربي واللسان الذي تكلمها تعربًا، وأنها ذات ثروة لفظية ونظام خاص وأساليب لا تطاول، ولن تبارى، وأنها تفاعلت مع كل الثقافات، وساهمت فيها الأجناس والملل والفرق، وأنها عبرت عن حضارات متنوعة وثقافات مختلفة، ووسعتهم جميعهم؛ لفظًا ومعنى وتعبيرًا وخطابًا.

والدين عنصر فعَّال في الحضارة التي عبرت عنها العربية، وهو أساس الدولة الجامعة، ومهد أول كيان سياسي عربي موحد، وقد أخفقت محاولات بعض أمراء الجاهلية في توحيدهم، فقد عاشوا قبائل تأبى الخضوع لسلطة الدولة، وقد حال تعصبهم القبلي دون قيام الدولة ذات المؤسسات، فجاء الإسلام فألف بينهم، وأقام لهم سلطانًا عظيمًا خضعت له القبائل، وملكوا به الأعاجم في فترة وجيزة؛ بفضل الإسلام، وقد كان لهذا الحدث العظيم أثره في المجتمع العربي واللغة العربية؛ فقد انتقلوا من البداوة إلى الحضارة، وانتقلت العربية من التعبير عن حياة البداوة إلى التعبير عن الدين ومفاهيمه وأسسه وآدابه وقيمه والفكر والحضارة والمدنية المتطورة والعلوم، وقد طرح الإسلام مفاهيم جديدة، عرفت بالألفاظ الإسلامية أو الكلمات الإسلامية، وهي مفردات عربية وضعت لمعاني تتعلق بالبيئة العربية، ثم انتقلت للدلالة على معاني إسلامية جديدة، وقد أنتجت العلوم الإسلامية معجمًا ضخمًا غنيًّا بالضوابط والقيم وغزير الدلالة، ومنها: الإسلام والإيمان والشهادة والشريعة والصلاة والزكاة والحِج والاجتهاد والخلافة والإمامة والبيعة والولاية الكبرى العامة والصغرى، وهي مصطلحات ذوات مفاهيم إسلامية، وتمثل الارتقاء الدلالي والحضاري والثقافي، ولها دلالتها الأولى التي وضعت لها تعبيرًا عن بيئتها، فالإسلام: التسليم والانقياد، والحج: القصد، والصلاة: الدعاء، والشريعة: مكان مهوى الماء، مثل القيعة، تأمها الدواب للشرب، ثم استعيرت مصدرًا للأحكام الإلهية[1]، وقد اكتسبت هذه الألفاظ معاني إسلامية خالصة، تخالف ما كانت عليه في الجاهلية، وأذكر منها:

"الجهاد" مصطلح إسلامي خالص، وهو نظير: الحرب والغزو والإغارة في الخطاب الجاهلي، وهي ألفاظ مرجعها البيئة القاسية والصراع القبلي، وقد تضمن الجهاد مفهومًا قيمًا مضبوطًا بضوابط شرعية؛ ليكون جهادًا في سبيل الله، ولم يستخدم لفظ الجهاد في الجاهلية بالطرح الإسلامي[2]. ومثله: "الفتح" الذي يحمل مفهوم الخير والنور ومبادئ

(١) ارجع إلى: المزهر للسيوطي، طبعة دار التراث، ج ١/ ٣٠١، وقد تناولها في باب سماه الألفاظ الإسلامية.

(٢) ارجع إلى: لسان العرب، لابن منظور، مادة: نفق، ج ٦/ ٤٥٠٧، المعجم الوسيط، مادة: نفق، ص٩٧٩، المصباح المنير ٢/ ٧٥٧، المفردات، ص٧٦٦، ونصب الراية للزيلعي، ج ٤/ ٥٦.

الدين[١]، وهو يختلف عن مفهوم النصر الذي يستهدف المصالح والمغانم من كل وجه، ومن عجيب ما درسته في منهج التاريخ الذي وضعه غير المؤهلين وغير المنصفين وغير المحققين علميًّا أن يسمى "الفتح العثماني" "الغزو العثماني" بينما سموا الغزو الإنجليزي والفرنسي "الاستعمار"، وليس بمستعمر وطن احتله، ولا شك أن الذي اختار لفظ "الاستعمار" بدل الغزو والاحتلال والعدوان أحد أربعة: أولهما جاهل أنوَك، والثاني مأجور وصنيعة مستأجريه، وهو شأن موالي الغرب، والثالث متحيز لهواه، الرابع موتور حاقد؛ لأسباب دينية أو عرقية[٢].

---

(١) فقه اللغة وخصائص العربية، الدكتور عبد التواب، ص ٢١٧.

(٢) سمعت أحد الأساتذة النصارى المتخصصين في التاريخ الحديث - المقيم في فرنسا، بعد أن يئس من العمل في الجامعات المصرية في أحد برامج قنوات النصرانية - يتحدث عن الغزو الفرنسي لمصر ١٧٩٨م، فذكر أن الفرنسيين قدموا مصر لتخليص المصريين من الغزو العثماني، وأن المصريين لم يقاوموا الفرنسيين بل المماليك موالي العثمانيين، وأشاد بالدور الوطني للمعلم يعقوب جرجس، أحد الأثرياء الذي حشد النصارى المرتزقة؛ ليقاتلوا مع الفرنسيين العثمانيين!. وقد استفاد يعقوب من علاقته بالمماليك، وتعاونه معهم في صراعاتهم الداخلية، وفي جمع الضرائب والإتاوات، وحصل منهم ثروة هائلة، وكان لديه فرقة من جنود المرتزقة النصارى، يقاتل بهم أجيرًا في الأقاليم، وكان بفرقته العسكرية إحدى أذرع الحملة الفرنسية في مواجهة مجاهدي مصر، والصمت هنا تعقيبًا أبلغ من الكلام، فظني بالقارئ الكريم أنه أعلم بالحقيقة. وهذا النوع من الكتابة خاضع لظروف شخصية، فقد توهم صاحبنا أنه حرم من التعيين؛ لأنه نصراني، وغفل أن كثيرًا من المسلمين حصلوا على شهادات متميزة وخبرات، ولم يدركوا مآربهم؛ ولم ينقلبوا على وطنهم، ولم يلوذوا بعدوهم، إلا ضعاف النفوس الذين قبلوا العمالة السرية في تخريب وطنهم وتشويه تاريخه. والمثير للدهشة أن بعض أعلام النصارى (الدكتور لويس عوض والدكتور شفيق غربال والدكتور أنور لوقا) في مصر رأوا أن يعقوب جرجس الذي أعطاه الفرنسيون لقب جنرال أثناء غزو مصر زعيم ثائر على الظلم العثماني، وبطل وطني، حاول جعل مصر مستقلة بمساعدة فرنسا أو إنجلترا، ولم يشر هؤلاء إلى قتاله إلى جوار الفرنسيين في الصعيد الذي تصدى للفرنسيين، وهو قائد فرقة (ميليشيا) مرتزقة من الحروب والصراعات وظهير المماليك في جمع الضرائب والإتاوات، بينما ينكر عامة النصارى مظاهرتهم الإنجليز زمن الاحتلال ومعاونتهم، ويرون هذا الاتهام طعنًا في وطنيتهم، وعار على بعض النصارى أن ينتسبوا إلى هذا المرتزق (البلطجي) الخائن الذي قاتل في صفوف الغزاة الفرنسيين في الأقاليم المصرية المجاهدين الأشراف في الصعيد وفي القاهرة (ثورة القاهرة)، وقد غادر مصر مع بقايا الحملة ١٨٠١م؛ ولكنه مات، فألقوا جسده في البحر، وليس في تاريخه غير أنه مرتزق، ولكن حاول بعض النصارى جعله زعيمًا وطنيًّا!، والغريب أن وزارة الثقافة المصرية في زمن ولاية د جابر عصفور الزعيم الروحي للعلمانيين، طبعت كتابًا يتناول سيرة =

وقد جاء في الإسلام مصطلحات حديثة في البنية والمفهوم، مثل: الرهبانية بمعنى العزلة والتبتل تدينًا وتنسكًا، وهي من زيادات النصارى، ومثله: الجاهلية، قال السيوطي: "إن لفظ الجاهلية اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة"[1]، وقِيس على هذا البناء: البدائية، والرجعية والمرجعية، والوجودية، والفاعلية، والمسئولية، والكيفية، واللائية، والديمقراطية، والربوبية، والعروبية، والشعوبية، والطفولية، والرفاهية، والرُّفهنية، والعُنجهية، والأنانية، والآنية، والدونية.

والمصطلحات الدينية (العقدية والفقهية) كانت تدل على معان في الجاهلية غير التي طرأت عليها، نحو "الإيمان" في الجاهلية، يدل على الأمان والتصديق، و"المؤمن" المصدق والآمن، ويدل في الإسلام على درجة أعلى من المسلم، وهو التقي الورع الملازم للطاعة والمصدق باطنًا وظاهرًا بوحدانية الله، وهو خلاف الكافر الجاحد، والمسلم من شهد ظاهره بالإسلام قولًا وعملًا، والكافر لغة: الجاحد والخافي، واصطلاحًا: منكر وجود الله وأنه المعبود بحق، والفاسق، ونحوه. ومما حدث من المصطلحات الشرعية الصلاة، وأصلها في العربية الدعاء، والطهارة، والركوع، والسجود، والحج، والزكاة، والنكاح،

=

يعقوب الزعيم الوطني، وطبعت كتاب الإسلام وأصول الحكم وبعض الكتب التي تسيء للزعماء الدينيين؛ كجمال الدين الأفغاني صاحب الجامعة الإسلامية، ونشرت كتب العلمانيين فقط، وأقامت مؤتمرات لبعض المتهمين؛ كأبي حيان التوحيدي، ومنحت جوائزها لمتعصبي العلمانية فقط، وكل هذا على نفقة الدولة! وكوفئ عصفور مرتين باختياره وزيرًا أثناء الثورة ٢٠١١م وقبل الوزارة قبيل انهيار نظام مبارك، والعجيب أن ثورة ٣٠ يونيو بقيادة المجلس العسكري اختارته وزيرًا!

(١) ارجع إلى: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، ج ٣٠١/١، والتطور الدلالي، عودة، ص ١٤٨ - ١٥٠. وهنالك الألفاظ المهجورة خلاف المتطورة (دثور الألفاظ مقابل تجدد غيرها)، وهي تركت لزوال مسماها، ولعدم استحداثها في دلالة مولدة، فقد أذهب الإسلام ألفاظًا أو أبطل مسمياتها، واستحدث بديلها، فقد محا من اللغة ألفاظًا جاهلية، منها: "المرباع" وهو ربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية، و"النشيطة": ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى بيضة القوم، أو ما يغنمه الغزاة في الطريق قبل الوصول إلى الموضع الذي قصدوه. و"المكس": دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية (صنو الضريبة والعشر الذي يجبيه العشارون من ضرائب). وكذلك: الإتاوة، والحُلْوان.

ومما أبطل من الكلام قولهم: "أنعم صباحًا وأنعم ظلامًا"، وقولهم الرعية لرئيسها: "أبيت اللعن"، وقول المملوك لمالكه: "ربي"، وقول السيد لغلامه: عبدي ولفتاته: أمتي. وتسمية من لم يحج "صرورة"؛ للنهي عنها.

والإيلاء، والعدة، والحضانة، والنفقة، والإعتاق، والتعزير، واللقيط، والآبق، والوديعة، والعارية، والشفعة، والفرائض، والقسامة، فقد كان لهذه الألفاظ وأشباهها معان تبدّلت بالإسلام وتنوّعت[١].

وقد أطلق العلماء على هذه الألفاظ التي استحدثت دلالتها في الإسلام "الألفاظ الإسلامية" و"الكلمات الإسلامية"، وعرف هذا النوع في علم اللسان الحديث بـ"الدلالة الثقافية" و"علم اللسان الثقافي"، فالعلماء المسلمون رواد هذا المبحث وما تعلق به من النقد الثقافي.

ب- التطور العلمي: عامل رئيس في تطور المجتمع واللغة والمفاهيم، ويرتبط تطور مفهوم المصطلح بالحقل العلمي ونشاطه وفروعه، وقد ظهرت المصطلحات في كنف تطور الحقول العلمية، ومن هذا مصطلحات أهل الفقه في السياسة: الخلافة والإمامة والولاية العظمى والشريعة والبيعة ونقض البيعة والخروج على الإمام والحاكم وشروط البيعة وعهد البيعة والبيعة العامة والبيعة الخاصة والوصيَّة والعَهد والاستخلاف وولاية الغلبة وبيعة الإكراه والسيف والبيعة السرية وبيعة العلن والولاء والبراء والتقية والخوارج (الخارجون علي الإمام الشرعي)، وهي ذوات مفاهيم إسلامية خالصة،

---

(١) أشهر من تناول الألفاظ الإسلامية ابن فارس وابن الأنباري والسيوطي، وقد تناولها العلماء عرضًا في معاجمهم، وثم تناولتها معاجم المصطلحات. قال ابن فارس في فقه اللغة (باب الأسباب الإسلامية): كانت العربُ في جاهليّتها على إرْث من إرْث آبائِهم في لُغاتهم وآدابهم ونَسَائِكهم وقَرَابينهم، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوالٌ، ونُسِخَتْ دِيانات، وأُبْطِلَت أمورٌ، ونُقِلَت من اللغة ألفاظٌ من مواضعَ إلى مواضع أُخَر، بزيادات زِيدَت، وشرائع شُرعت، وشرائط شُرِطت، فعفَّى الآخرُ الأولَ. فكان مما جاء في الإسلام ذكرُ المؤمن، والمسلم، والكافر، والمُنَافق، وإن العربَ إنما عرفتْ المؤمنَ من الأمان والإيمان، وهو التصديقُ، ثم زادتَ الشريعةُ شرائطَ وأوصافًا بها سُمِّي المؤمنُ بالإطلاقِ مؤمنًا. وكذلك الإسلام والمُسْلم، إنما عَرَفَتْ منه إسلامَ الشيء؛ ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء؛ وكذلك كانت لا تعرف من الكُفْر إلا الغطاء والسَّتْر؛ فأما المنافقُ فاسمٌ جاء به الإسلام لقوم أبْطَنوا غيرَ ما أظهروه، وكان الأصل من نافِقاء اليَرْبوع؛ ولم يعرفوا في الفِسْق إلا قولهم: فَسَقَتِ الرُّطَبة، إذا خرجت من قِشْرها، وجاء الشرع بأن الفِسْق الإفحاشُ في الخروج عن طاعة الله تعالى. ومما جاء في الشرع: الصلاة، وأصلُه في لغتهم الدّعاء، وقد كانوا يعرفون الرُّكوع والسجودَ، وإن لم يكن على هذه الهيئة".

وبعض ألفاظ المصطلحات دوَّارة في الحقول المختلفة، مثل لفظ "الحكم": استخدم في المعاجم السياسية والقضائية والفلسفية والمنطقية، وله في كل فرع منها مفهومه الخاص بهذا الحقل(١).

وأود أن أشير إلى أن نشأة المصطلح العلمية الدقيقة ظهرت في العلوم الإسلامية، وصارت علمًا مستقلًّا أفردت له الكتب في مجال كل علم، فهنالك مصطلحات الأصوليين والمحدثين واللغويين والفلاسفة والصوفية ومصطلحات العلوم التجريبية، ولم يضطرب علم الاصطلاح إلا في عصرنا؛ بسبب سوء الترجمة، وعدم دقة اللفظ والجهل بالعربية وبمجال علم المصطلح، وأرى أن من الكتب التي أفسدت الاصطلاح اللغوي كتاب "الأسلوب والأسلوبية" للدكتور عبد السلام المسدي في السبعينيات، وهو من الكتب الرائدة في ترجمة النظريات اللغوية والأدبية الحديثة، فقد بادر بترجمة بعض مصطلحات اللغة الفرنسية التي يجيدها، بينما أخفق في اختيار مقابلها العربي الدقيق، فوضع للقارئ خيارات دون تحديد، وبعض اختياراته العربية لم تكن دقيقة، وليس بعضها صحيحًا صرفيًّا، واختار بعض المصطلحات التراثية لغير ما يقابلها؛ كاختياره هو وغيره من الباحثين "العدول" و"الالتفات" و"الضرورة الشعرية" و"شجاعة العربية" و"إقدام العرب على الكلام" مقابل ((Lècart) و(Deviation)، وربطوا بين هذه المصطلحات وبين المصطلح الغربي الذي يمثل مرحلة خروج الأدباء في عصر النهضة على معيار اللغة المعتمدة في الخطاب المألوف، وقد نقلوا اختلاف الغربيين فيه: الانحراف والزيغ والمروق والابتعاد عن القاعدة والانتهاك والاختراق والهتك وكسر المألوف والابتعاد واللامألوف والشذوذ والغرابة والخروج على المعيار. واختلاف الغربيين في الاصطلاح سبب اضطراب المصطلحات الحديثة، فنقل هو وغيره اختلافهم في التعريف واختيار اللفظ إلى العربي، وقد شاعت اختياراته المتعددة في كتب الباحثين الذين لم يجدوا غير كتابه في هذه الفترة؛ ليتعرفوا على النظريات الغربية ومصطلحاتها(٢)، وقد تفشى في أعمال

---

(١) تناولت هذا مفصلًا في كتابي تاريخ الحكم في الإسلام، دراسة في مفهوم المصطلح وتطوره، ط مؤسسة المختار.

(٢) لقد عدل المسدي عن صيغ بعض المصطلحات العربية إلى صيغة المصدر الصناعي؛ تأثرًا بالفرنسية، فقد ترك =

الباحثين أثر الفرنسية، خاصة من نقول المغاربة الذين نقلوا بعض ظواهر الفرنسية إلى العربية، فظهرت أبنية مورفولوجية (تشبه أبنية الصرف) دخيلة، وأساليب الفرنسية في العربية التي شكلت ظاهرة "العربية الفرانكفونية".

ج- وسائل الإعلام: عامل رئيس في تطور اللغة عامة وانتشارها، وقد أدت دورًا مهمًّا في شيوع بعض المصطلحات، بيد أن فسادها المذهبي وولاءها السلطي واعتمادها على الإعلام الخارجي حيدها عن دورها التعليمي والثقافي، وحمَّلها أغاليط وضلالات، وساهم الإعلام في الفساد السياسي والاجتماعي، فهو متورط مع الاستبداديين في تخريب الأوطان وتدمير العقول ووأد الحرية والفكر والإبداع وتسطيح الوعي، وقد أدى خدمات مجانية للإعلام السياسي الغربي الذي جعله مصدره في الخبر والرأي دون مراجعة أو ضبط، فقد أشاع عنه بعض الأغاليط عن قضايا الأمة والدين؛ كالشرق الأوسط والسلام في الشرق الأوسط وقضية الشرق الأوسط، وهو تحييد الوطن العربي الذي اختفى من الخطاب الإعلامي عن موقعه الجغرافي مركز العالم وتذويبه في محيطه الجغرافي (مشروع الشرق الأوسط الكبير الجامع لإسرائيل وإيران وتركيا)، وتحييد احتلال فلسطين الذي صار قضية عامة تتجاهل الشعب الفلسطيني في "قضية الشرق الأوسط"، ومثلها قولهم عن المجاهدين الفلسطينيين: الإرهاب الفلسطيني وأعمال العنف وجماعات مسلحة وناشطين وكتائب كذا وجماعة كذا، وتراجع الإعلام عن جيش التحرير والمقاومة

=

علم الأسلوب الشائع، واستخدم الأسلوبية تأثرًا ببنية الفرنسية (Stylistique) جذره "أسلوب" "Style"، ولاحقته "ـيّة" "ique"، فشاعت اللاحقة الفرنسية في المصطلحات، وهذه ظاهرة في ترجمات المغاربة الذين استحدثوا في العربية ظاهرة "العربية الفرانكفونية": اللسانية والألسنية والسردية والمسردية والتحويلية والتوليدية والتوزيعية، والأصل ألا يعدل عن المصدر العام أو الاسم إلا لضرورة التفرقة بين المصطلحات، أو للتعبير عن معاني أحداث الأسماء؛ كالتصحر والتشجير والتدويل.

وقد تناولت هذا في بحثي عن مصطلح الانزياح وبحثي عن السرد، وكتابي البناء الصرفي، ومن ألفاظ المصطلحات المتعددة: علم اللسان، وهو مصطلح قرآني أصيل، واللسانيات، والألسنية، والألسنيات، والألسن، والسرد والسرديات والسردية، وجاء منه على غير قياس: السردانيات والمسردية. وبعض الترجمات اختارت المصطلح الأجنبي غير الدقيق نحو (Scientiste) (العلم)، والصواب أنه: (Secularism) (اللادين أو الدهرية).

الفلسطينية، وسكت عن استخدام الصهيونية وجيش الاحتلال، واستخدم دولة إسرائيل وجيش الدفاع، وقد استطاع الإعلام العميل أن يجعل الفصائل المجاهدة في فلسطين بديل العدو الصهيوني في الخطر على محيط فلسطين، فينسب إليها أحداث الإرهاب التي يدبرها العدو الصهيوني دون توجيه الأنظار إلى أنه المستفيد الوحيد، وقد فضح تآمره تستره على مذبحة في فلسطين، واستخدام التعبيرات المائلة له في مقابل تشويه المرابطين من الفلسطينيين في وطنهم المغتصب قيد الحصار والغارات والاعتقالات، وشوَّه دينه لأغراض سياسية وغربية، نحو: الإرهاب الإسلامي والأصوليين المتطرفين والعنف الإسلامي[1] والإسلام السياسي، وحسَّن المشوه: الشرعية الدولية (قرارات أمريكا المنفردة دون قرار مجلس الأمن في حروبها على الإسلام والهيمنة على مصادر الثروة في العالم)، والحرب على الإرهاب والحرب المقدسة والحرب الصليبية الحديثة (هي الحرب على الإسلام)[2]، وقد نقل الإعلام العربي هذه المصطلحات، وضلل بها المتلقي العربي المغيب سياسيًّا، وبعض الإعلاميين لا يستوعبون أبعاد الخطاب ومفاهيمه؛ فهم أبواق ذاعقة وأبيار ناضحة في أجساد نافقة.

ومن مصطلحاته السيَّارة: الرأي العام والدعاية والإعلان والإذاعة والنشر والصحافة والتحرير والبيان والتقرير والموجز والخبر والنبأ والنشرة الإخبارية والبث الهوائي والبث التلفازي والبث الفضائي وقلب الحدث وسبق النشر والتسجيل والنقل المباشر والإذاعة السمعية والقنوات المرئية والفضائية والفضائيات.

---

(١) قال البابا شنودة في لقاء تلفزيوني - أكثر من مرة - إن الإرهاب عند المسلمين مادي مسلح (بالسلاح)، فسألته المذيعة عن وجوده في المسيحيين، قال إرهاب المسيحيين معنوي لا يتجاوز الكلمات، فأسقط في يدها، والحقيقة أن الإرهاب في المسلمين فردي أو خروج عن الجماعة، ولكنه في النصارى كنسي تدبره الكنيسة لإبادة الديانات الأخرى، وهذا ثابت تاريخيًّا، وأشهره قديمًا إبادة مسلمي الأندلس والحروب الصليبية وحروب البوسنة والهرسك، وغيرها من الحروب الوحشية التي حركها كهنة الكنيسة، ويحرض على إبادة الفلسطينيين كهان اليهود المتطرفون، ولم يعرف التطرف في المسلمين في الأفراد والجماعات إلا حديثًا، ومن ورائه الظلم السياسي والتمويل الغربي والتجنيد.

(٢) طرح هذا المصطلح الخطاب الأمريكي في الخمسينيات بعد العدوان الثلاثي والتقارب المصري السوفيتي، وأعاد طرحه الجناح المتطرف في السياسة الأمريكية.

د- العوامل الاجتماعية: اللغة ظاهرة اجتماعية؛ فهي تعبير عنه، واكتملت بعد قيام المجتمع ونضجه، وترتبط به في نموه وتطوره وتحدره، وتعد ديوان المجتمع ولسانه وصورته الذهنية، ومراحل حركته، وعنوان مكانه وطبيعته وسجله التاريخي، والمحلل والمؤرخ والباحث الاجتماعي يرصد حركة المجتمع، ويتعرف على تكوينه وفكره من اللغة التي تعبر عنه، ويعد ظهيرها القوي الذي تتصدى به لغزو اللغات الأخرى، وقد تطور المجتمع العربي القبلي في الحواضر، وتأثر بالحضارات العالمية والمجتمعات التي أسلمت، وحدث انصهار عرقي وثقافي لا صنو له في المجتمعات الأجنبية والحضارات الأخرى.

وقد تطورت المصطلحات التي تتعلق بالحقل العلمي والتطور الاجتماعي في العيش والعلاقات والتكوين الأسري، الذي صار بديل القبيلة في المدن والأعراق الدخيلة والطبقات، وهنالك ألفاظ اجتماعية تتعلق بالأعراف والتكوين الاجتماعي والتنوع العرقي والثقافي والطبقي والمنازل ـ وقد عالج الجاحظ هذا في كتبه الاجتماعية والأدبية، ويعد أول باحث اجتماعي علمي (أنثربولوجي)، وأول باحث عرقي (إثنوجرافي)، في الأجناس وخصائصها وثقافتها ـ وقد تطور بعضها بتطور المجتمع، مثل: "الرئيس": انتقل من رأس الأسرة والقوم والقبيلة إلى رأس الدولة، وكذلك "الرئاسة": انتقلت من السيادة في نطاق التجمع الضيق إلى مجتمع الدولة، وكان المَلك والمُلك في نطاق ضيق إلى سعة في ضوء تطور المجتمع والدولة، وقد استخدم الخطاب القرآني "المُلك" بمعنى السلطة في الوراثي وغيره؛ لغلبته في الاستعمال للدلالة على الحكم، ومن ثم استحدث المسلمون تسمية جديدة (الخلافة، وإمارة المؤمنين)، وغلبت التسمية الجديدة، وظلت مستعملة في الحكم الوراثي، ولم يأت لفظ السلطة بمعناه المعاصر، بل "السلطان" بمعنى "ولاية السلطة وهيمنة النفوذ والسيطرة والمَنَعَة والقوة"، ومنه: "السلطان النصير": القوة المستمدة من المجتمع التي تلزم الطاعة والخضوع، ولكن بعض الباحثين توهم جهلًا أن لفظ "الحكم" في القرآن الكريم والحديث خصيصي السلطة، والحكم في القرآن الكريم بمعناه المعجمي العام الجامع للقضاء والفصل والتحكم والإحكام والإتقان والفهم

والحِكْمة، والحكم بمعنى السلطة من أصل معنى لفظ "الحَكَمَة": مقادة (حبل الشعر) في أنف البعير، يقاد منه مثل لجام الفرس والحلقة التي توضع في أنف الدواب؛ لتذليله لقائده ولإخضاعه لطاعته، ومنه: حَكَم الرعية: تحكم فيها، وقادها وأخضعها لسلطانه، وقد انتقل لفظ السياسة من تهذيب الفرس خاصة وترويضه الذي يتطلب جهدًا لجموحه وتمرده، فالأصل في السياسة التهذيب والترويض، ثم انتقل إلى قيادة الناس وسياستهم بالحكمة وحفظ أرواحهم ومصالحهم وأوطانهم، وقد صار حفظ الدين في صدر وظائف السلطة، وقد أقام الدين الإسلامي أول نظام حكم سياسي، يستمد شرعيته في تولي السلطة من شروط إلهية عامة ثابتة (في ولاية كل رئيس) واختيار الشعب وبيعته (بناء على الاجتهاد البشري)، دون العصمة والحق الإلهي والوراثة والغصب في العالم[1].

وقد بحث العلماء السياسة تحت ما يعرف بالأحكام السلطانية، واصطلحوا على تسميات: الخلافة والإمامة والإمارة وسلطان المسلمين وإمرتهم وخلافة المؤمنين، والحل والعقد، وتدبير الخلافة، والبيعة، وأهل البيعة، وأهل الشورى، والرعية، والحسبة.

وقد تجافى الحكام عن ألقاب ملك الملوك (شاه شاه) وكسرى وقيصر والإمبراطور والنجاشي وذي القرنين والفرعون، والملك الذي يحمل مفهوم الملك العضود، واستحدثوا ألقابًا إسلامية خالصة: الخليفة، أمير المؤمنين، وقد استمر العمل بهما في الدولة الأموية، ثم ظهرت ألقاب أخرى في الدولة العباسية، نحو: المنصور، والرشيد، والهادي، والمأمون، والعزيز بالله، والناصر لدين الله، والمتوكل على الله، والمستعين بالله، والقائم بأمر الله، والمستنصر بالله، وغيرها، ثم استخدم لقب الإمام إلى جانب الخليفة وأمير المؤمنين في الدولة الفاطمية، واستخدم السلطان والملك في العصر الأيوبي ثم المملوكي إلى جانب الألقاب، مثل: قاهر التتار وركن الدولة وركن الأمة وغياث الدين والأمم.

---

(١) تناولت نظام الحكم في الإسلام في كتابي "تاريخ الحكم في الإسلام"، وتناولت الحكم عند العرب قبل الإسلام في "الحكم القبلي في العصر الجاهلي"، وتناولت الحكم الديني في أوربا في "مملكة الحكم الإلهي في أوربا".

وقد استحدثت مناصب: رئيس القلم (رئيس الوزارة)، والكاتب أو رئيس الديوان، وظهرت ألفاظ تشير إلى ظهور مراكز القوة في السلطة نحو: يمين أمير المؤمنين، ثم قسيم أمير المؤمنين عندما ضعفت سلطة الخليفة، ورئاسة السيف (قائد الجيش).

وألفاظ الحاشية: أهل الحل والعقد والخاصة ورجال البلاط وأهل المجلس (المجلس) والنادي.

وظهرت ألفاظ اجتماعية تعبر عن المحكومين، مثل الرعية (عامة المحكومين)، وأصله: ما يرعى أو المرعي (اسم المفعول)، وقد أطلق على العامة وسواد الناس، وعلى عامَّة النَّاس الذين عليهم والٍ يرعى مصالحهم وأمورهم، جاء في الحديث: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" [البخاري]، وجمعه رعايا، ومنه رعايا الدولة في الخارج (مواطنوها المغتربون)، والرعايا الأجانب: الأجانب المقيمون في الدولة، ويرعاهم السفراء والقناصل، والسوقة: أوساطُ الناس، وتطلق على الواحد وغيره، يقال: هو سُوقَةٌ، وهم سُوقَة والجمع: سُوَق، وقد يراد بهم الطبقة الدنيا خدم الثروة، والأخلاط (من لا ينتسبون إلى القبائل من العرب وغيرهم)، وأخلاط الناس: أوباشهم (مقلوبها أوشاب)، سِفْلَتهم. والأجلاب (جمع جَلْب: جالب الإبل وغيرها)، وأجلاب الناس: الفئات الدنيا، والموالي: الأعاجم المقيمون بين أظهر العرب وبعض الخلعاء العرب (من نبذتهم قبائل لجريرة أو تمرد وبعض أصحاب المهن المبتذلة؛ كالملاهي والغناء من العرب الذين لا ينتسبون إليهم، وهم مثل الغجر من الدخلاء)، والجمهور: معظم الناس وأشرافهم وكثيرهم، وجمهور العلماء: معظمهم في الإجماع على الرأي، والجمهور في خطابنا: معاينو قائل الخطاب ومستمعوه، وجمهور الألعاب: مشجعوها، ويراد به جموع الشعب المحشودة، والمشاهدون في الخطاب الإعلامي، وقد صار مخصوصًا بمن يتلقى الخطاب السياسي. والشعب: في خطابنا: أبناء الوطن من يحملون جنسيته، وقد تطور لفظ الشعب، فأصله في اللغة ما تفرع عن غيره، وهو عند علماء الأنساب النسب الذي تفرقت فيه بطون القبائل، أو تجتمع فيه، فهو تشعبهم وملتقاهم، وذهب بعض العلماء إلى أن الشعب اجتماع الناس على غير نسب، وأن القبائل اجتماع الناس على النسب، ثم انتقل إلى الدلالة على التجمعات الاجتماعية العامة التي تربط بينها روابط عامة، وقيل الشعب

مقابل القبيلة، والجمهور أصله: معظم الشيء، ومنه إجماع جمهور العلماء وأشرافهم، ثم أطلق على عموم الناس والشعب، ثم جُمع في بعض الخطاب، ليدل على الحشود الكثيرة والإجماع: جماهير الشعب، والنظام الجمهوري: حكم الجمهور، ثم استحدث أحد السلطيين: الجماهيرية الشعبية، وادعى الحكم فيها للجماهير عن طريق ممثليهم الشعبيين الذين هم عيونه على الجماهير.

الفئة: الفرقة، ويراد به القلة، نحو: الفئة المنشقة والمتطرفة والمنحرفة، وقد يراد به الطرف الثاني نحو: الفئة الباغية في مقابل فئة الإمام العادل، وقد يراد بها التصنيف: فئات العمال والفلاحين، والطبقات: فئات الشعب، وجمعها فئات، والنسب إليها: فئوي.

الثُّلة: الجماعة، والعُصبة، والطائفة، والجمع: ثُلل، يقال: ثُلة السلطة (العصبة المستحوذة على القرار والمصالح) وحرف في الخطاب، فصار "شِلة"، نحو: تحول المجلس إلى شلل (عصب متأمرة أو متواطئة على الخطأ والمصالح).

والشِّعار: ما ولي شَعرَ جَسَد الإِنسان دون ما سواه من الثياب، ثم على الرمز أو الإشارة، وأطلق على ما يتخذ من الألفاظ رمزًا، فأطلق على ما يتنادى به في الحرب (شعار الجند، كلمة السر)، وأطلق على شعار الدولة (العلم الوطني، ورمز الوطن)، وأطلق على العنوان أيضًا، نحو: شعار المؤتمر والمطالب السياسية.

وقد كان لانتقال العرب من البداوة إلى الحضارة أثره في تطور اللغة، فالألفاظ انتقلت من التعبير عن أشياء في البيئة العربية، إلى الدلالة على معانٍ حضارية، نحو: الفناء أصله الساحة الخالية تلقى فيها النفايات، ثم ارتقت لمعنى ساحة البيت الأمامية وغيره، ثم انتقل إلى الدلالة على الساحة أمام الدار والسعة، ثم انتقلت إلى الدلالة على أفنية الساحات العامة والساحات داخل البيوت.

والساحة: المكان الخالي بين الدور، ثم المكان الواسع الخلو، وساحة الحرْب أو القتال أو المعركة: ميدان الحرب، أو القتال، أو المعركة.

والحظر أصله من الحظيرة، وهو المكان الذي تحبس فيه الدواب، ثم انتقل إلى الدلالة على المنع والحجر والحبس، ومنه: الحظر السياسي وحظر النشر.

وقد تأثر نظام الحكم بالأنظمة العالمية الحديثة في مظاهر الملك والمؤسسات والممارسة، فظهر مصطلحات الوزارة والحجابة والديوان والقيادة واللواء والولاية ورتب الجيش، وما تقسم عليه الدولة من إمارات وخدمات وممارسات ظهرت في ظل التطور الاجتماعي ومذاهب دينية وفرقية، استحدثت لها مصطلحات بمفاهيمها الخاصة، وقد قام وسائل الإعلام بنشر الألفاظ الحضارية، والغلبة هنا للأمم المتحضرة ذات الثقل والقوة.

هـ- الحضارة (Civilization) والثقافة (Calture): التطور الحضاري عامل رئيس في تطور المجتمع ولغته، والحضارة: الانتقال من البداوة إلى الحضر، والحضارة غاية البداوة، وهو من العناصر التي أوجبها الإسلام في بدء الدعوة، ممثلة في "الهجرة" إلى المدينة لتعزيز الكيان الإسلامي ودعمه، ونُهي المسلمون عن التبدي (العودة إلى البادية)، وحرص ولاة الأمر على تحضير البدو ودمجهم في المجتمع الحضري (المدني)، وحرصوا على سياسة التوطين من خلال تهجير القبائل لتوطينها في الحواضر الجديدة، ولتعريب بلاد الفتح، وكان لهذه السياسة أثرها في تعريب الدولة، وإقامة حواضر جديدة، وتذويب الفروق الاجتماعية وتنشيط الركود الاقتصادي، والتوسع في الزراعة والعمران والمستوطنات.

والحضارة في الثقافة الغربية من الإقامة في القُرى أو المدينة (الحضر)، فكلمة "Civilization" (الحضارة) من الكلمة اللاتينية "Civitce" بمعنى مدينة، و"civic" بمعنى ساكن المدينة، ودلت على معنى التحضر في العيش والسلوك (civilization) في القرن الثامن عشر، ثم دلت على مزيج من الصفات الروحية والخلقية في حياة المجتمع الأوربي، مثل: لين الطبع أو اللياقة والأدب والرقة والاعتدال والارتقاء في المعيشة والخطاب والسلوك والفكر والتعليم والثقافة، وهي العناصر التي شكلت المفهوم الجديد، وصار المصطلح العربي (التحضر) حديثًا بمفهوم التغريب (محاكاة المعايش الغربية وثقافتهم الكلامية والسلوكية) دون التحضر العقلي والعلمي والتقني، وبعض المنحرفين يقودون عملية التنوير الحضاري، وأقطاب التحضر الحقيقيون العلماء والتقنيون لا أهل الكلام.

وتطور المجتمع يتطلب ألفاظًا مولدة تعبر عن معطيات الحضارة الجديدة، والأسماء تتطور في التطور الحضاري من الدلالة على البدائيات والأوليات إلى التعبير على المستحدثات، وما طرأ من مفاهيم جديدة، وقد ظهرت ألفاظ متعلقة بالحضارة تدل عليها إيجابًا أو سلبًا، نحو: "Civilité" (متحضر)، وهو الشخص المطيع للقانون والملتزم به في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، واستخدم في مقابله:"Savage" (وحشي)، و"Barbarian" (همجي) في وصف الذين يفتقرون إلى الكياسة والتحضر والحكمة الإدارية، وقد استُخدم في تشوه العنصر البوني في شمال أفريقيا بعد أن وقعوا تحت الاحتلال اليوناني ثم الروماني، ثم أطلقوا على أنفسهم "الأمازير" (الأحرار، الأسياد)، وحلت كلمة "Civilité"، محل "Polic" (مدني)؛ لتدل على مطيع القانون.

والثقافة: أصلها الذكاء والفطنة، وثَقِف الشيء أدركه بفطنة ودراية، ثم انتقلت إلى الدلالة على العلم المصحوب بوعي، ثم ظهر في مثقفي السلطة المثقفون الكاملون وأنصافهم وسِفلتهم، وهم أولياء السلطة، وبعض الباحثين توهموا أنه مصطلح أجنبي، والصواب أنه لفظه عربي، وأسقط عليه مفهوم المصطلح الغربي "Culture" في الإنجليزية و"Calture" في الفرنسية، وجذرها (cult)، ومعناها: عبادة ودين.

وقد شاع المصطلح (Culture) في الغرب في القرن التاسع عشر؛ تعبيرًا عن المذاهب والتيارات والمناهج، وقد أرادوا به تحصيل قدر من العلم بالمعارف العامة (الأدب والفلسفة والقانون والاجتماع والنفس والأخلاق والجمال والفنون)، وجعلوا الدين من فروع الثقافة وروافدها، وهو عند المسلمين مستقل عنها؛ لأنه لا يدخل في المعارف الإنسانية بل هو عقيدة إلهية مصدرها الوحي، وهو مصدر رئيس في الثقافة الإسلامية التي انتسبت إليه، واستفادت كذلك من العلوم البشرية، وهي الثقافة التي نشأت في كنف الإسلام، واستقت منه أسسه، واحتكمت إلى ضوابطه، والثقافة العربية ثقافة إسلامية، وعبرت عنها اللغة العربية، وشارك فيها غير المسلمين والمستعربين.

وقد غشيها حديثًا بعض الثقافة الغربية وبعض الاتجاهات التي جردتها من قيمها الدينية والروحية، وأسقطت عليها الفلسفة المادية التي تعنى بالبنية دون الجوهر.

وبعض موالي السلطة – ممن انتسبوا إلى الثقافة – تعالوا على الشعب، فاحتقروا الفكر والثقافة والتنوير لأنفسهم ولذيولهم، وأقاموا نظام الثلة (الشلة) الذي عرف بالثلالية، مضاهئين عصابة السلطة التي احتقرتها دون مشاركة الجمهور، ففرضوا الوصاية الثقافية على الشعب بدعم من السلطة، وهيمنوا على وسائل الإعلام بمباركة السلطة، وعقدت مؤامرات (صفقات سياسية) بينهم وبين السلطة لمنافع متبادلة، فخصمهم واحد (التيار المتدين بالإسلام)، ويتحمل نفقة المؤامرة وخسرائها وعواقبها الشعب، فدعمت السلطة قادة التيار العلماني، وجعلتهم على رءوس المؤسسات الثقافية والإعلامية والفنية، وأنزلت المتدينين في الأدراك السفلى، وافتعلت صراعًا محتدمًا ينوب عنها فيه العلمانيون في وسائل الإعلام؛ لتشغل الشعب به عن فسادها الذي أهوى بها سريعًا[1].

وقد انتقلت بعض الألفاظ العربية الحضارية إلى اللغات الأوربية مثل: (Sultan): السلطان، و(Vizier : Wazir): الوزير، و (Guide): القائد والمرشد، و(Master): المسيطر، و(Canon) من القانون، قيل أصلها فارسي، ودخلت العربية، ثم انتقلت إلى اللغات الغربية، و(Amir): الأمير، و(Admiral): أمير البحر، و(Arsenal): دار الصناعة، و(Divan): الديوان، أصله فارسي، وأُخذ عن العرب، و(Castle): القصر، وينطقها الإسبانيون (Alcazar)، و(Magazine) مجلة ومخزن الذخيرة والبضائع (Magazine)، و(Paradise): الفردوس، و(Cave): الكهف، و(House): الحوش (البيت)، و(Defence): الدفاع، و(Allowance): العلاوة، و(Negotiate) التفاوض (النقاش) الفرنسي (Négocier)، و(Nation): الناس، و(Wise): الواعظ، و(tariff):

---

(١) لقد كانت عصابات موالي السلطة منهم تتسلط في مؤسسات الدولة على كل من يتحسسوا منه الدين والصلاح، فيتهمونه بأنه من أتباع الجماعات، ويحولون بينه وبين حاجته، وقد أدركت بعضهم في وزارة الثقافة وجامعتي القاهرة وعين شمس يضطهدون بعض الباحثين الملتزمين، وينكرون حقهم في التعيين في هيئة التدريس، ويرفضون بحوثهم، ويخطئونهم في مسائل علمية، ويقضون فيها بهواهم العلماني، وينعتونهم بأنهم إرهابيون، وقد كنت واحدًا ممن ابتلي بأذاهم، ولم يروا مني غير بحثي الذي تناول موضوعًا يمس الحكم السياسي، فحالوا بيني وبين تسجيله مع أستاذ عدل فقيه في تخصصه؛ قتلًا للموضوع وحسدًا لزميلهم الذي مات متأثرًا بتآمرهم عليه، ولولا أن يُعرفوا .وقد مضوا إلى ربهم، وأنا منهم بمنزلة التلميذ المتعفف عن ذكر هنات أساتذته.لذكرت أستاذي هذا من بينهم وفاء وشكرًا، غفر الله تعالى له وجزاه عني خيرًا.

التعريف، و(Chimie)، و(Chemist): الكيمياء من الكميّ، وهو القوي، أو الخفي؛ لأنه من علوم الخاصة التي يخفون سرها عن العامة كما ورد في التراث، وهذا يرجح أنه عربي، وقيل من كيمي: لفظ مصري قديم كيم أو كمت: نسبة إلى الأرض البنية الداكنة، وهو لون طمي النيل، و(Alcool): محلول الكحول، ومثل: (Naphtha): النَفْط والنِفْط والكسر أفصح: دُهن يوقد به، و(Germ): الجرثوم، و(Algèbre): الجبر، و(Zero)، وSifr: الصفر، و(Serat :Street): الصراط، وقد زعم بعض الباحثين أن الصراط لفظ دخيل، والصواب العكس، و(Channel): القناة (التُّرعة)، و(Bouquet): الباقة، و(Cable): الحبل، و(Earth): الأرض، و(Cup): الكوب (Syrup): الشراب، و(mirror): المرآة، و(Tall): الطول، و(Thick): الكث (الغليظ - الثخين – السميك)، و(Waist): الوسْط، و(Wail): العويل، و(Merry): المرح، و(Tail): الذيل، و(Jail): الغل (الحبس – القيد)، و(Kill): القتل، وغيرها من الألفاظ العربية.

وقد حدث العكس في عصرنا، فقد أصبح العرب مقترضون وعالة، واغتال لسانهم اللغات الدخيلة بأيديهم، وساهمت وسائل الإعلام في غزو اللغات الأوربية،

نحو: الدكتاتورية (Dictatorship): التعسف والاستبداد، وكنترول (Control): السيطرة والتحكم، وكلاس: الفصل، الطبقة، الدور، من الفرنسية (Classe)، ومن الإنجليزية (Class)، وأرستقراطي: طبقة الأشراف والأعيان، من الفرنسي (Aristocrate)، والبرنامج (برنامه، وProgram): الخُطة، نحو: برنامج الحكومة. وقد صارت اللغات الأجنبية عنوان التحضر والطبقة الغنية، وقد احتقر الإعلام اللغة العربية، وفضل العامية الدارجة التي تعبر عن مستواه الضحل ومادته السطحية، وصار معلم العربية سُخَرَة يتندر به الإعلام، وضرب المثل للأبله بالمعمم (عالم الدين)، يقال: ألبسه العمة وعممه، أي: خدعه، وصار التدين تخلفًا وتزمتًا، وصار التزمت (طول الصمت رمز الوقار) تعصبًا وتطرفًا، ومثله الالتزام، وصار الحنبلي (نسبة إلى الإمام أحمد بن حنبل رمز احترام المبدأ والصبر على الابتلاء والتعفف): متعنتًا ومتعصبًا وعنيفًا ورجعيًّا، ويدخل هذا في تفريغ الألفاظ من مضمونها القيمي، ومن سخافة الإعلام تصوير العرب الجاهليين أغلاظًا أجلافًا وحياة المجون، متجاهلًا العربي الكريم والوفي والمنجد

والفارس والشجاع والغيور والشاعر والخطيب والمفوه والحكيم، وناهيك بصورة المرأة المحتقرة والسيئة خلقًا ووضعًا، متجاهلًا المرأة العفيفة والوفية والحكيمة والأديبة والمسيطرة والقوية الأبية، ولم تكن المرأة متبرجة في الجاهلية ولا متحررة، فقد استنكرت هند بنت عتبة في بيعتها النبي ﷺ على الإسلام بعد فتح مكة. وهي محتجبة. أن تزني المرأة الحرة، ورفضت المرأة المشركة التي حملت رسالة حاطب بن أبي بلتعة إلى مشركي مكة أن يفتشها علي والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وطلبت منهما أن يستديرا، وأخرجتها من تحت خمارها. فأين المرأة العربية الخليعة والسافرة والعارية التي نراها في الأفلام، التي عالجت أحداث التاريخ المزيفة معالجة سطحية مفتعلة لا تخلو من تزييف الواقع، وتستهدف الإثارة؟!

وقد مكن الإعلام للألفاظ الدخيلة في الخطاب اليومي. وقد ساهم الحاسوب أيضًا في إدخال بعض الدخيل من مجاله، نحو: يشيت "chat"، ويفرمت بمعنى يجري "format"، ويسيف "Saves" (يحفظ)، وساهمت المؤسسات التعليمية التي تبنت تعليم اللغات الأجنبية وميزتها عن تعليم العربية، وساهم الأساتذة الذين تصدوا للتعريب؛ لعدم استيعابهم جدواه، ولعدم فهم الخطاب العربي، وتمكنهم منه في التدريس، هؤلاء كلهم متورطون في إضعاف لغتهم وإقصائها عن المؤسسات والخطاب الرسمي واليومي.

و- التطور التاريخي: تطور الشيء عما كان عليه في مرحلة تاريخية سابقة، والتطور هنا تطور في الشيء ومعناه أو تطور في المعنى فقط، فالتطور الدلالي المصاحب للشيء في مثل مصطلح الدولة وما دل عليه: سلطان الخلافة والسلطنة والإمارة والملك، تطورت في الواقع السياسي (بلغ سلطان الخلافة نحو ثلث العالم القديم!) الأرض وتطور اللفظ في المعنى، ومثله لفظ "الشريعة": تطور في الواقع والقيمة الحسنة في دولة الخلافة، ثم حُيِّد في العصر الحديث، فاشتق منه لمعنى القوانين الوضعية التشريع (التقنين)، ومثله "السُّنة"، أخذ منه: سن القوانين الحديثة، وقد ارتقى لفظ السنة في الإسلام عما كان عليه في الجاهلية في الواقع (الطريقة والنهج) والقيمة الحسنة، والتطور في المعنى مثل: الإمامة، استخدم في صدر الإسلام في إمامة الصلاة، ثم غلب عليه الطابع السياسي، فصار قسيم الخلافة والمُلك والحكم بالمفهوم المعاصر، وهو هنا يسمى التوسع في المعنى لا الارتقاء الدلالي، فالرقي في القيمة الدلالية، والسياسة في الإمامة ليست بقيمة حسنة بل في الدين،

ومصطلح المُلك مطلق السلطة في القرآن الكريم والحياة العامة، وهو قسيم السلطان والخلافة والإمامة والإمرة والإمارة، بيد أن الإمامة تحمل طابعًا إسلاميًّا يجمع بين حفظ الدين ومصالح الدنيا، وقد ضيق مفهوم الملك في عصرنا، فصار وقفًا على الحكم الوراثي، وبعض المجتهدين حملوه على الوراثة قديمًا، والحقيقة أنه استخدم بمعناه اللغوي الأصيل الذي يدور في معنى الاستحواذ والسيطرة والتحكم، والسلطان بمعنى التسلط على زمام المُلك والهيمنة عليه، ولا تعني هذه المصطلحات في جوهرها العمل بنظام الوراثة، فنظام الحكم فرضه الوضع السياسي، وبعض المصطلحات تحولت من سعة إلى ضيق، منها الخلافة مطلق الحكم في الدولة، ويراد خلافة النبي ﷺ في مصالح الدين والدنيا، ولم يك من أصل استخدامه الوراثة، بل الاختيار والشورى والأفضلية دون الغلبة على الحكم، وهو نظام فريد استحدثه الإسلام في العالم، ولكن ما لبث أن انقلبت عليه العصبية والمصالح، فصار وراثة على المألوف من الأنظمة التقليدية السابقة، وهو نظام الغَلبة، وليس الملك الجبري على أساس ديني، بل نظام دنيوي بحت، وقد أَسقط القوميون الأتراك الدهريون (مصطفى أتاتورك ورفقاؤه أعوان الغرب) نظام الدولة الإسلامية العامة، والعمل بمصطلح الخلافة في مؤتمر لوزان عام ١٩٢٤م، بعد مؤامرة غربية عديدة، منها الديون وتجنيد العملاء الموالي، وصار أتاتورك رمز التيار المناهض للدولة الجامعة، واتخذه العلمانيون العرب رمزًا، وقامت هنالك دول وإمارات وسلطنات بدل الخلافة الجامعة.

وتطور المعنى لا يقع في مرحلة تاريخية واحدة قصيرة، بل عبر المراحل المتعاقبة، والأصل في الألفاظ العربية أنها وضعت لأعيان المسميات في مرحلة متقدمة، ثم انتقلت إلى معانٍ بسببها، وأنها وضعت لمعنى واحد، ثم تعدد المعنى بسبب وجوه الاستعمال والمقام واختلاف المتكلمين وأغراضهم في الخطاب المنطوق، وليس في المدون الثابت قيد لفظه، ودراسة التطور لا تكون بالمنهج الوصفي وحده الذي يصف اللغة في وضعها حال الدراسة أو في الحقبة المعينة، ولكن التطور يتناوله المنهج التاريخي الذي يستعين بالوصفي في وصف اللغة في وصف كل حقبة تاريخية، وتعد اللغة المصدر التاريخي الوحيد عند افتقاد الأثر والدليل العيني والوثيقة في البيئات البدائية والصحراوية غير المستقرة، فيقوم

المؤرخ برصد الألفاظ التي تعلقت بهذه الحقبة، ويبحث معانيها؛ للتعرف على موطن اللفظ الأول، ومراحل تغيره واتساع دلالته ومواضع انتشاره، ولا شك أن الخطاب الإعلامي في عصرنا، سيكون دليلًا على أن العرب يعيشون أسوأ مراحل تاريخهم وترديهم الأخلاقي والثقافي.

ز- الاستعارة من اللغات الأجنبية، ويعرف هذا النوع الذي يحتفظ بلفظه بالدخيل، وبعضه يصاغ على الأبنية العربية القياسية نحو: البرمجة والهيكلة، والآخر يشذ عن القياس الصرفي، ومعيار اقتراض الألفاظ الأجنبية أن لا يوجد لفظ دقيق في العربية، يعبر عن مفهومها الخاص بالثقافة التي نشأ فيها، أو أن يشيع اللفظ في الخطاب، ويستحيل استبداله.

والاستعارة أو الاقتراض من اللغات الأجنبية نوعان؛ أحدهما: استعارة اللفظ والمعنى، والآخر استعارة المعنى دون اللفظ.

النوع الأول: استعارة اللفظ والمعنى، وهو جائز فيما ليس له مقابل في العربية، وفيما اشتهر في الخطاب واستحال ترجمته أو رده، وفيما له دلالة خاصة في ثقافته، وفيما يسيء للثقافة العربية، وفي أسماء المذاهب المنسوبة إلى تسميات أصحابها شرط أن تعرَّب على أبنية العربية، مثل: الديمقراطية (Democracy) (وهي مشتقة من الكلمة اليونانية "Δήμος" أو "Demos"، معناها: عامة الناس، وKρατία أو kratia، معناها: حكم، ومعنى التركيب "Demoacratia": حكم عامة الشعب عن طريق نخبة تمثله)، وهو من المصطلحات الشائعة عالميًّا، وله دلالة خاصة في الثقافة الإغريقية القديمة أن حق التشريح للشعب أو الشعب مصدر التشريع، وهو الحق الذي اختص الله تعالى به نفسه في العبادات والمعاملات والحدود، وللعباد حق تنظيم حياتهم الدنيوية بضوابط لا تخالف الشرع الإلهي، وهي المساحة التي يختلف فيها بعض من يتنازعون في الديمقراطية، وتستخدم الديمقراطية في غير مجال الاختصاص في البيئة الإسلامية مرادفة للحرية، وبعض ضيقي الأفق يتحفظون على استخدام هذا المصطلح؛ لمحاذير دينية، فهم يعتقدون أنه قسيم التشريع الإسلامي من مصدريه القرآن الكريم والسنة النبوية، وهو لا يستخدم على هذا النحو في التشريع الدستوري، فالجزء الذي يتعلق بتنظيم الدولة ومؤسساتها

يتعلق بالجزء المباح للبشر في تقنين شئون دولتهم ونظامها، وهو حق البشر، والشعب مصدر التشريع فيه (والمباح منه يدخل في السياسة الشرعية)، والتشريع المتعلق بالمجتمع وعلاقاته ومعاملاته وسلوكه مصدره الشريعة الإسلامية، وهي شريعة عامة تضبط حياة المسلمين وعلاقتهم بالأمم الأخرى، فهي لا تخص المسلمين وحدهم على نحو تضييق بعض المجتهدين ومخالفي تطبيقها، بل شريعة عالمية مُلزمة للمسلمين وحدهم واختيار لغيرهم، والمخاوف التي تفتعل في تطبيقها من سوء فهم بعض مُدعيها وتطبيقهم وبغض حاسديها والمنفِّرين منها، والقول عندي أنها حكم الله تعالى الخالق العادل الذي أحاط علمًا بخلقه وما يصلحهم، وليس في نصها ما يُطعن فيه، ويقع النظر والمراجعة في الفهم وأسلوب التطبيق، ومن سوء قول بعض الجهال أن العمل بها تضييق على الناس وظلم غير المسلمين، وهم يأخذون عن غير المسلمين قوانين تحتمل المراجعة، وقد يتحقق عنها مظالم ومناقضات الدين، وهم لا يعرفون عن الشريعة غير الجلد والقطع والمنع! دون الإشارة إلى الكليات الخمس التي صانتها الشريعة: الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والمال.

ومصطلح الثيوقراطية (Theocracy) الذي يستخدمه العلمانيون في تشويه الحكم الإسلامي من الأصل اليوناني: (θεοκρατία)، من ثيو وكراتك، ويعني حكم الدين (الحكم الإلهي)، ويراد به: حكم رأس الكنيسة نائب المسيح (الله حسب الاعتقاد الكنسي) والحاكم بإرادته والناطق بوحيه، وهو مفهوم يخالف الحكم في الإسلام (الخلافة)، فالحاكم (الخليفة، أمير المؤمنين، السُّلطان) تبايعه الأمة على السمع والطاعة فيما لا يخالف شرع الله، فإن بدل وظلم، فلا سمع ولا طاعة، والأمة صاحبة الأمر في توليه وخلعه، وحكمه من اجتهاده في إدارة الدولة، ويحتمل المراجعة والنظر والمشاورة، وبعض الدهريين يسميه الحكم الديني؛ ليجعله هو والحكم الكنسي سواء، ويزعم بعضهم أن الإمامة عند الشيعة بهذا المفهوم، وهو مجاف للحقيقة، فالإمام يحكم وفق الإسلام، وليست له قداسة رأس الكنيسة، ولا يعتقد فيه أهل المذهب شيئًا يخالف طبيعته البشرية، ولا يمنحونه ولاية فوق إمامة الناس في الدين وولاية السلطة، فليس بصاحب وحي أو إلهام أو حكم إلهي.

ويُستدعى النموذج الكنسي الأوربي للطعن في الحكم الإسلامي الذي تتبناه الأحزاب الإسلامية، وللتخويف من عواقبه، ومن يترجم اللفظ بمعنى "الحكم الديني" غير مصيب، فالصواب العمل بلفظه الدخيل أو بنسبه إلى من عمل به "الحكم الكنسي أو البابوي الكهنوتي"، وإطلاقه على الحكم الذي عُمل به في تاريخ المسلمين بكل أنواعه الانتخابية والملكية والانقلابية، جهل أو افتراء وتضليل، وبعض المضللين يستشهدون بمدائح شعراء البلاط وخطباء النفاق، وببلاغة السياسيين الفصحاء في إثبات كهنوتية سلطان الحاكم، وليست بشيء أمام كتاب الله تعالى والسنة الشريفة، ثم قول أهل الورع من العلماء لا عبيد السلطة[1].

و"الليبرالية"(liberalism) من الأصل اللاتيني "liber" (الحر)، وهو مذهب اجتماعي سياسي، يهدف إلى تحرير الإنسان فردًا وجماعة من القيود السلطية الثلاثة :السياسية والاقتصادية والثقافية، ويوجه نحو أهداف المتكلم، ويتكيف في الخطاب تجانسًا مع عرف المجتمع وقيمه، وقد استخدم في الحقل السياسي للدلالة على مذهب سياسي، يقوم على استقلال الفرد وتمتعه بالحرية الشخصية والسياسية والمدنية، وتأييد الحريات العامة بكل أنواعها، والنظم الديمقراطية البرلمانية، والإصلاحات الاجتماعية، وهو مذهب اقتصادي (الليبرالية الاقتصادية) أيضًا يقوم على حرية رأس المال المطلقة.

---

(١) كتب القاضي علي عبد الرازق كتيب "الإسلام وأصول الحكم" الذي ينفي فيه علاقة الإسلام بالدولة؛ تحالفًا مع الأحزاب العلمانية التي تصدت لإقامة الخلافة الإسلامية في مصر بعد أن أسقط العلمانيون الأتراك القوميون الخلافة العثمانية ١٩٢٤م، ورفضوا أن يحمل ملك مصر لقب الخليفة وأن ينال البيعة بالخلافة من الوفود التي جاءت من بعض أقطار الإسلام؛ حفاظًا على وجود سلطة عامة قوية، وعدوا مصر مركز القوة الحقيقي للإسلام، وقد نقل عليّ معظم مادته عن المستشرقين، وبها أغاليط، ولا يرقى ما كتبه إلى مستوى آراء الفقهاء، وأحسب هذا الكتاب المشبوه دون الشهرة التي صنعها الإعلام العميل وذيول الغزاة، وأرى أن العلمانيين والقوميين في بلاد العرب خدموا المشروع الغربي في تفتيت وحدة الأمة وإثارة النعرات العرقية، وكان الغزاة يقفون وراء بعض الحكام والأمراء ودعاة الإصلاح ورؤساء الأحزاب في إسقاط الدولة العثمانية؛ ولينوبوا عنهم في القضاء على الكيان الإسلام ومحاولات إحيائه والهوية الإسلامية، ثم اتجهوا إلى القضاء على الهوية العربية والوطن العربي.

وقد استخدم لمعانٍ أخرى، منها: الحرية بمفهوم الشيوع (الإباحية) والعلمانية والتيار الدهري، وقد يستخدم في العملية الانتخابية للطعن في الخصم بمعنى الإباحية، ويستخدمه التيار غير الديني بمفهومه الخاص المضاد للتيار الإسلامي، والأصل فيه: التيار الذي يقدس الحرية بكل أبعادها وما تحمله من تحرر سلوكي وسياسي، وقد استخدمها التيار الإسلامي في موادعة التيار غير الديني (العلمانيين والشيوعيين واليساريين)، وقد يستخدمه الملحدون غطاء يتخفون خلفه من الاتهام بالدعوة إلى الزندقة، ويمارسون دعوتهم مدعين الحرية والتنوير، خالعين ربقة الدين.

وهنالك مصطلحات أخرى تنسب إلى أصحابها: الماركسية، والأتاتوركية، والساميَّة (Semitic languages: نسبة إلى سام بن نوح، وهو مصطلح صهيوني عنصري زعم نقاء العرق الإسرائيلي، وضعه المستشرقون اليهود، وشاع بين اللسانيين)، وقد استخدمه الإعلام الصهيوني الغربي في "اضطهاد السامية" و"معادة السامية"، وجعله الصهيونية خصيصي "اليهود" دون الشعوب الأخرى التي تنتمي إلى العنصر الأوسطي (السامي)، وهم العرب والأحباش وبقايا السريان والآشوريين والكلدانيين واليزيديين في عصرنا، ولكن الصهاينة يختزلون الأوسطيين فيهم، مثلما اختذلوا تاريخ البشرية الأول في أولاد سام وحام ويافث، ثم استبقوا على تاريخ أولاد سام وحدهم، فرصدوه، واختذلوه فيهم دون العرب والآشوريين والأكديين والكنعانيين (قيل جنس من العرب) والآراميين والفنيقيين والمندعيين والبونيين (قيل جنس من الفنيقيين، وهم أجداد الأمازير في شمال أفريقيا)؛ لتأكيد نقاء العنصر الصهيوني، ومن ظاهر التزييف والتضليل أنهم استبعدوا الكنعانيين من الفرع البشري الأوسطي (الساميين)، وهم أوسطيون أقحاح وسكنوا فلسطين، وأحلوا مكانهم في النسب العيلاميين، وهم جنس آسيوي نزح إلى آسيا الصغرى، ومنهم الحِيثيين، وهذا يؤكد رأي بعض العلماء الأنثروبولجيين أن العبريين ليسوا من الفرع الأوسطي، بل من قبائل "عبيرو" النازحة من آسيا إلى العراق، ثم استقرت جنوب الشام، وقد ادعى الصهاينة أيضًا أنهم أبناء إسرائيل (يعقوب عليه السلام)، وسموا دولتهم .الهالكة بإذن الله .إسرائيل زورًا، وقد ذابت أسباط بني إسرائيل (اثنتا عشرة قبيلة) في الشعوب، وآخر ذكر من بقي منهم قبائل يثرب (بنو قريظة وقينقاع)

وخيبر وتيماء، وهاجر بعضهم إلى الأندلس، ثم ذابوا في الناس مثل العرب الأندلسيين، ولعل يهود المغرب وحدهم من بقاياهم، وبعض العوائل اليهودية التي نزلت شمال مصر مع مهاجري المغرب، ويهود إسرائيل، جلهم أوربيون وآسيويون اعتنقوا اليهودية، وليسوا بني إسرائيل يقينًا، وهذا لا ينفي وجود بعض العوائل التي تنحدر منهم، ولكنهم مجهولون قلة في عامة مهاجري الصهاينة في فلسطين.

وهذا النوع من المصطلحات والتسميات لا يعرَّب، بل يبقى على لفظه؛ ليكون دالًّا على نسبه ومفهومه. وبعض الألفاظ تبقى على أصلها؛ لأصالتها فيه، مثل البراجماتية (Pragmatism)، وترجمت إلى المنفعة والذرائعية، والأول أدق[1]، ويرجع إلى الكلمة اليونانية (rogma) (عمل)، وانتقل إلى الرومانية (rogmaticus) "المتمرس" في المسائل القانونية، وقد ظهر حديثًا في كتابات كانْت وشارل بيرس وجيمس، وهو مذهب فلسفي سياسي، يعد نجاح العمل المعيار الوحيد للحقيقة؛ فالسياسي البراجماتي يدعي أنه يعمل للمصلحة العليا وتحصيل النتائج العملية المثمرة، التي تبيح له الغايات والوسائل؛ لتحقيق المنفعة العامة، ولا مانع من التضحية ببعض الأشياء مقابل أرباح أعلى، أو وقوع ضحايا، ولا يتخذ قراره بوحي من فكرة مسبقة أو أيديولوجية سياسية محددة، بل من خلال النتيجة المتوقعة للعمل، والبراجماتيون لا يعترفون بوجود أنظمة ديمقراطية مثالية، بل ينادون بأيديولوجية مثالية مستترة قائمة على الحرية المطلقة ومعاداة كل النظريات الشمولية، وأولها الماركسية والعقيدة الجامعة التي يعدونها من الشمولية، وأخطرها عليهم الإسلام، وقد وظف الإعلام الغربي المسوس بهذه الفلسفة خطابه لخدمة الأهداف السياسية، وقد اتجه بعض أتباعه إلى دراسة وجوه استعمال اللغة وما يتحقق عنها من مقاصد منجزة في اللفظ والواقع، وقد ترجمه بعض الباحثين بـ"التداولية"، واختاروا له (Pragmatics) للتفرقة بين المذهب الفلسفي والبراجماتية اللسانية التي تدرس وظائف اللغة (Functions of Language) في الخطاب (القصد اللغوي)، و"التداولية" ترجمة بعيدة، فالتحاور في العربية في باب وظيفة اللغة التواصلية، وقد ارتبطت به نظرية أفعال

(١) تناولته في كتاب "النظرية البراجماتية"، مكتبة الآداب.

الكلام لأوستين، وقد شاع في دراسات المغاربة؛ تأثرًا بالمشروع الفرانكفوني، الذي يستهدف فرنسة اللغة العربية والهوية، وبعض باحثي اللغة استخدموا البراجماتية في دراسة العربية دون العلم بأهدافها السياسية، واستخدموا التوليدية التشومسكية دون العلم بهدفها في دمج لغات الشعوب في نظام لغوي واحد (نظام الإنجليزية، وهو مشروع عولمة اللغات الذي تبناه اليهودي الأمريكي أفرام ناعوم تشومسكي)، وتبناه بعض التشومسكيين العرب (أشهرهم الفاسي الفهري وداود عبده وميشال زكريا)، وقلدهم الباحثون، فجعلوا القواعد التشومسكية بديل النحو العربي!

وقد عِيبَ استخدام المصطلح الأجنبي والتسمية الدخيلة في ظل وجود المصطلح العربي والاسم في الخطاب العربي؛ كقولهم المديا (الإعلام) والبروباجندا (الدعاية المثيرة) والأجندة السياسية والأجندة الخاصة (الخطة)، والجورنال من الفرنسي (Journal) (Newspaper)[1].

النوع الآخر: اقتراض المعنى فقط للفظ عربي، وهو جائز في الاقتراض الحضاري والتحديث، واللغة العربية تتسع للتجديد الدلالي والتوليد والتوسع، نحو لفظ "الصحيفة": القرطاس والقِمطر الذي يتخذ للكتابة، بمعنى "الورقة" (ذات الوجهين)، وقد اقترضت الصحيفة معنى "الجريدة" من الكلمة الفرنسية "Feuille"، وقد أطلق بعض الباحثين كلمة "الورقة" على البحث العلمي (Research) مقابل لفظ "Paper" ورقة أو وثيقة، و"الورقة" في العربية واحدة الورق، ولا تعني البحث العلمي المكتوب.

---

(١) بعض الألفاظ وقع الوهم في أنها من الدخيل، فتنسب إلى لغة أجنبية، وهي عربية، وقد ذكرت بعضها في المتن، ومثلها: down: دون، lick: لعق، cut: قطع، والكلمة الفرنسية (zero) والإنجليزية مأخوذة من اللاتينية (zephirum) من الصفر، و(Safari) الرحلة، وخاصة رحلات القنص، مأخوذة من الكلمة العربية (سفري) نسبة الى سفر، و(Orange) مأخوذة عن الفرنسية (orange) المأخوذة من الفارسية (naranga) (نارنج) بمعنى شجرة البرتقال المتخدمة في العربية، من الكلمة العربية (مخزن)، و(Lemon) مأخوذة عن اللاتينية (lymon) من العربية (ليمون)، و(Amber) الكهرمان، مأخوذة من الإنجليزية (ambra) المأخوذة من اللاتينية، وأصلها عربي (عنبر)، و(Jar) من الجرة العربية، وفي الفرنسية (Jarre)، و(Cotton): قطن، وقد نقل الأوربيون الأسماء العربية من الأندلس وزمن الحروب الصليبية.

ولفظ "الطبقة" الذي اقترض معنى "الفئة" (الاجتماعية) من اللفظ الفرنسي "Couche"، ولفظ "الحقل" الذي اقترض معانيه في الميادين الفيزيائية والنفطية والسياسية من اللفظ الفرنسي "domaine"، ومن اللفظ الإنجليزي "field"، ولفظ "الحركة" الذي اقترض معنى "التيار" أو "الاتجاه الفكرى أو السياسي" من لفظ "Mouvemant" الفرنسية. ولفظ "الجبهة" الذي اقترض معنى "المنظمة السياسية" من لفظ "Front" الفرنسية، ولفظ "الإطار" الذي اقترض معنى "الكادر" بصيغة الجمع "الإطارات"، أو "الأُطر" من كلمة "Cadre" الفرنسية، ولفظ "الإدارة" الذي اقترض من مقابله الإنجليزي "Administration" معنى "الحكومة" في الخطاب الأمريكي، ولفظ "المشروع" الذي اقترض من لفظ "Project" الإنجليزي معنى الهدف الصناعي أو الوحدة الصناعية.

وحملت بعض الأفعال دلالة مقابلها الغربي نحو الفعل "شلّ" الذي اقترض معنى "أحبط" من مقابله الفرنسي "Paralyser"(Paralysis)، ومنه: "الشلل الاقتصادي".

وبعض الأسماء الوصفية والمصادر والمشتقات التي دخلت في الاصطلاح حملت دلالة وافدة، نحو: "اليساري" التي اقترضت المعنى السياسي من اللفظ الفرنسي "Gauchisant"، و" المسؤول " الذي اقترض معنى "المسؤول السياسي" من اللفظ الفرنسي "Responsable"، و"الأوساط " (Milieu)، و"السلّم" (Escalier, échelle) و"القمة" (Summit , Semmet).

وقد يقع التطور بسبب التشابه في اللفظ بين الدخيل والأصيل، نحو كلمة "نواة" العربية التي اقترضت معنى "نواة الذرَّة" من اللفظ الفرنسي "noyau" الذي كان يعبر عن المعنيين، وقد توهم بعض الباحثين أن لفظ "اللغة" العربي من اللفظ اليوناني لوجوس ((Logos: λόγος: كلمة، خطاب)، والانتقال هنا مستبعد؛ لأصالة مادة "لغو" في العربية فيما نقل عن العرب الأقحاح[1]، ولو صح النقل؛ لبقيت اللاحقة اليونانية "يوس" على

(١) لفظ اللغة قيل أصله: لوجوس اليونانية (Logos: λόγος) بمعنى الكلمة والخطاب واللغة، العقل الكلي، كلمة الإله، واللغة في الأصل تعني المنطوق (اللغو) وما يلغو به المتكلم (اللهجة واللغوة)، ثم عمت في اللسان العام، والثابت أن لفظ اللغة عربي أصل في الأصوات والتصريف والاشتقاق والدلالة، ولعله من =

نحو ما بقيت في "بطرس" (بطرا+ يوس)، وهو مترجم عن السريانية "إيقا" (جبل، صخر).

وقد توسعت العربية المعاصرة في النحت والمصدر الصناعي؛ تعبيرًا عن المعاني الحديثة، واستيعابًا للمعاني الوافدة، واختصارًا للمصطلح الطويل والدخيل، والاختصار بالنحت نحو: "قُروسطي" منحوت من الاسم "القرون" المختصر في "قُر" والنسبة "وسطي" اقتداء بالكلمة الفرنسية "médiéval"، وأفرو – آسيوي (afro-asiatique)، وأنجلو – سكسوني (Anglo – Saxon)، وأنجلو – أمريكي (anglo – americain)، والثيوقراطية من الكلمة اليونانية (Theokratia) وتعني حكم الدين، والديمقراطية Democracy مشتقة من كلمتين يونانيتين (Demos) "الشعب" وKratos "سلطة"، ومعناها الحكم الذي تكون فيه السلطة للشعب، وتطور إلى نظام الحكم الذي يكون الشعب (مجالسه النيابية) رقيبًا على أعمال الحكومة، ويكون لنواب الأمة سلطة إصدار القوانين، والفرانكفونية (Francophonie) بالإنجليزية: (Francophone): وهو من كلمتين: (phonie, France نطق الفرنسية، صوت الفرنسية)، مصطلح وضعه عالم الجغرافيا الفرنسي أونزيم ركلو (Onesime Reclus) في أواخر القرن التاسع عشر: ١٨٨٠م؛ للدلالة على الدول التي تستعمل اللغة الفرنسية، ثم صار دالًّا على مجموع المستعمرات الفرنسية القديمة الناطقة كليًّا أو جزئيًّا باللغة الفرنسية؛ فحمل معاني الهيمنة الثقافية والسياسية[1].

=

الألفاظ القديمة الأولى التي وقعت في بعض اللغات، مثل لفظ الأم والأب، الميم دوارة في تسميات الأم اللغات، وكذلك الباء في أب التي صارت الباء فيه فاء في اللغات الأوربية، والتبادل بين الباء والفاء جارٍ، والعرب الأقحاح: الذين عاشوا في البوادي، ولم يخالطوا الدخلاء، فظلت عربيتهم خالصة نقية حتى ظهر الإسلام، فخرج أهل البوادي من محبسهم الصحراوي إلى الحواضر.

(١) الفرانكوفونية (La Francophonie) أو المنظمة الدولية للفرانكوفونية (بالفرنسية: Organisation Internationale de la Francophonie): منظمة دولية للدول الناطقة باللغة الفرنسية (كلغة رسمية أو لغة مستعملة فيها)، وتحتوي المنظمة على ٥٥ عضوا وحكومة و٣٠ مراقبًا، وتضم دول المغرب العربي ولبنان والدول الأفريقية التي احتلتها فرنسا، وقد سعت فرنسا من ورائه إلى الهيمنة الجديدة ثقافيًّا ولغويًّا

=

ونحت بعض المعرّبين صيغهم من الألفاظ العربية على الطريقة اللاتينية، فقالوا برمائي: Amphibious، ولا سلكي: Wireless، ونحتوا من اللفظ الدخيل فقالوا: تربنة (نقب العظم والجمجمة، ويقصد بها في الخطاب الخلل الذهني) Trepanning، والإسلاموفوبيا: الخوف المفتعل من الإسلام، وبناء الإسلاموية: شاذ صرفيًّا، وهو من أثر اللغات الأجنية ((Islamisme)) في اصطلاح المغاربة.

وقد توسع الخطاب الإعلامي في هذا النوع مثل: التكامل المصري السوداني، والحدود المصرية السودانية، واتفاق غزة أريحا.

والأصل أن يستعمل المصدر الصناعي (وهو اللفظ الذي لحقت به ياء مشددة وتاء معقودة .لغير التأنيث بل للنقل .للدلالة على معنى الحدث المجرد من الزمان والمكان والعدد والنوع)؛ لأداء معنًى لا يؤديه المصدر الأصلي، وقد توسع الخطاب في استعمال المصادر الصناعية المزيلة باللاحقة "يّة" التي تحاكي أسماء مجردة غربية، وخاصة الفرنسية التي تنتهي باللواحق: "isme." أو "ité." أو "été." أو "ique -"، مثل: "اليسارية" مركَّبة من الاسم "يسار" واللاحقة "ية"؛ تأثرًا بالكلمة الفرنسية "gauchisme"، و"السطحية" (Superficialité)، والأسلوب في الفرنسية (Stylistique): ترجموه "الأسلوبية"، جذره "أسلوب" "Style"، ولاحقته "ـيّة"[1]، وقد أجروا المصدر الصناعي في المصدر العام الأصلي، نحو: "الانتهازية" (Opportunisme)، والأرجح فيه "النهَّازية"، وشاع في مثل: التداولية، والأصل ألا يعدل عن المصدر العام "الانتهاز" إلا للتفرقة بين معنيين، مثل: العدول عن التحويل والتوليد إلى التحويلية (Transformationnalisme) والنحو التوليدي (Generative)؛ لأنهما مستعملان في التراث اللغوي بمفهومين مختلفين عنهما في

=

على الدول المنتمية إلى هذه المجموعة، التي توحي لها بأنها امتداد الدولة الفرنسية، وهو صورة الاحتلال الجديدة الذي استخدم اللغة غطاء، وقد تبنى سياسة الفرنسة هذه بعض العرب المتفرنسيين مثل محمد عابد الجابري ومحمد أركون وغيرهما.

(١) جاء تأثرًا بالإنجليزية عن السكسونيين: "الأفريقانية (Africanism)، والتاريخانية (Historicism)، والشخصانية (personalism)، والشكلانية (formalism)، والعلمانية (secularism)، وهي مقيسة على الرهبانية والروحانية.

الاصطلاح الغربي، فالتحويل عند النحاة: الانتقال من بناء إلى آخر لغرض دلالي بمقتضى النحو، والتحويل الغربي تغيير شكل الجملة بالتقديم والتأخير والزيادة والحذف والإضمار، والتوليد كذلك، وباختيار عناصر من خارج الجملة؛ لتوفير أشكال تركيبية كثيرة يختار منها المتكلم ما يشاء، وهي عند الغربيين بمعنى واحد لجملة نواة، ولكنها ليست بمعنى واحد في العربية، وبعض أشكالها تشذ عن العربية.

والمصدر الصناعي قياسي فيما دل على معاني الأحداث من الأسماء الجامدة والمشتقة والمبنية[1] والمنحوتة، نحو: الجاهلية، الرهبانية، الأريحية، الفروسية، العبقرية، العبودية، الألمعية، الألوهية، الربوبية، الوحدانية، الإنسانية، الحيوانية، الجزئية، الكُلِّية، الكمية، الكيفية، الأنانية، الماهية، الماورائية، الرأسمالية، وجاء عليه من المصادر العامة: الرُّفهنية والبُلهنية والعُنجهية، ولا يجوز العدول عن المصدر العام إليه؛ لأنه للضرورة، ويجوز العدول عن العام للتفرقة بين المعاني، نحو: "الإباحة" مصدرعام، من أباحه: أَحَلَّهُ وأطلقه، نقيض "التحريم"، وهو مصطلح أصولي، والإباحية: التحلل من قيود القوانين والأخلاق. و"الاتفاق": مصدر عام: ما تمَّت الموافقة عليه، ويقابله (Agreement)، والاتفاقية: صكٌّ ما اتُّفق عليه، ويقابله (Convention). و"الاشتراك" مصدر عام: التعاون، والاشتراكية: المذهب السياسي والاقتصادي القائم على سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج وعدالة التوزيع والتخطيط الشامل، والشيوع، مصدر عام: الانتشار والتفشي، والشيوعية: مذهبٌ يقوم على إشاعة الملكية، وأن يعمل الفرد على قدر طاقته، وأن يأخذ على قدر حاجته، وارتبط بالاشتراكية، ورفعا شعار العدالة الاجتماعية والمساواة، واتخذوا كارل ماركس إمامهم، وهو يهودي اعتنق النصرانية ظاهرًا زلفى ومصانعة لجذب الأتباع، وهو دهري متطرف، وقد انتقل هذا المذهب من الاتحاد

---

(١) المشتقات: أسماء الفاعل والمفعول والزمان والمكان والصفات المشبهات وصيغ المبالغة، مثل: الشفّافية: مصدر صناعي مصنوع من (الشفّاف)، مثل الحسّاسية المصنوع من الحسّاس، وقد أجاز مجمع القاهرة تخفيف الفاء والسين المشددتين في المصدرين، جاء في المعجم الوسيط: "شفَّ الثوبُ ونحوُه يَشِفُّ شُفُوفًا: رَقَّ حتى يُرى ما خَلْفَه"، وقد استخدم المصدر الصناعي في الخطاب لمعنى الصراحة والوضوح، وليس لما شف.

السوفيتي إلى البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى، فظهرت الأحزاب الشيوعية، وقد جاهر بعض أتباعه بإلحادهم، والطريف حدوث تقارب بينه وبين خصمه الاتجاه العلماني الغربي، فالشيوعيون الماركسيون في مصر تحولوا إلى المعسكر الغربي الرأسمالي، ورفعوا شعار العلمانية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي[1]، و"التقدم" مصدر عام، خلاف التقهقر والتخلف، والتقدمية: المذهب السياسي والاقتصادي الذي يدافع عنه أنصار التطور (التقدميون)، الرجوع (والرجْع) مصدر عام نقيض الذهاب، والرجعية: التخلف نقيض التقدم.

وقد قامت وسائل الإعلام بتفعيل هذه المعاني في الاستعمال ونشرها وتوسيع دلالتها.

ح- الاقتراض من الحقول العلمية ومن اللغات الأخرى والتعريب والتفاعل الحضاري: ومن ذلك: ميزان القوة، محور الشر، المثلث الشيعي (إيران، حزب البعث العلوي، حزب الله)، الشرق الأوسط، الشرق الأدني، والحرب الكيماوية، والتدخل بمعنى التدخل السياسي والتدخل الجراحي، والتدخل السياسي، وتزاوج السلطة ورأس المال، والترهل السياسي، والتضخم الاقتصادي، والانفصال، والالتحام، والبؤرة، والمدرسة: بمعنى مكان الدراسة وبمعنى المذهب، والمشروع السياسي والتفويض والإنابة والوكالة، و"العملية" (Operation): إجراء طبي (العملية الجراحية)، والحدث العسكري والأمني والسياسي، وعملية التواصل:(Operation of Communication) .

وانتقلت بعض مصطلحات العلوم التجريبية إلى علم اللسان؛ تأثرًا بالغربيين الذين أسقطوا أسس العلوم التجريبية على اللغة، وجعلوا اللغة مبحثًا فلسفيًّا أو منطقيًّا، ومن مصطلحات العلوم في اللغة: فعل التواصل: (processo of Communication)،

(١) كان الأستاذ محمود أمين العالم، وهو أحد أعلام الاتجاه الماركسي حليفًا للدكتور جابر عصفور، الذي يجاهر بعلمانيته وتعصبه لها وولائه الغربي (خاصة الأمريكي)، وكنت أحسبه الذراع الغربية في وزارة الثقافة الغربية، وقد جمع الدكتور جابر عصفور بقايا الماركسيين والعلمانيين موالي الغرب، وذرع أتباعه في مراكز وزارة الثقافة، ودشن بهم مركز قوة له في وزارة الثقافة، ولكنني لا أستطيع أن أنكر ما كان يتمتع به الأستاذ أمين العالم من أسلوب راق وأدب وتواضع، وكنت أستثنيه من المرتزقة الآخرين أدعياء التنوير الذين تحالفوا على تبادل المنافع ونهب وزارة الثقافة واستغلالها في نشر أعمالهم الرخيصة وتقاسم جوائزها.

وبعضهم يستخدم الاتصال، وهو خصيصي الآلي (Contact)، والتحليل (Analysis): تفتيت المادة، والتفسير والشرح، تحليل الخطاب (Analysis of Discourse)، والأصل: تفسير الخطاب وشرحه، وشاع في التواصل والخطاب السرد والحكي: المرسل (Sender)، والمصدر (Source) والمستقبل (Receiver, Recipient)، وهي في الآلات، والصواب: الطرف الناطق باعتبار نوع الخطاب منطوقًا أو مكتوبًا: المتكلم (Speaker) والكاتب (Writer) والمؤلف (Author)، والطرف المتلقي: المستمع (Listener) والقارئ (Reader) والمشاهد والمتفرج (Spectator) والجمهور (Public).

ط- انتقال اللفظ من الدلالة المباشرة الحسية إلى المعنى والتصور والفكر: إن الدلالة على الحس الأصل في الوضع، ثم تجرد للدلالة على المعاني والمفاهيم، وهذا الانتقال يقع في كنف تطور اجتماعي وحضاري وثقافي وفكري، وأصل مفردات المعجم منقول عن معنى حسي، مثل: الشرف: ما شرف من الأرض وعلا، ومنه مشارف الأرض: أعاليها، ثم انتقل للدلالة على علو المنزلة[1]، واللباقة من لبق: خلط الطعام وخلطه حتى يلين، ثم انتقل إلى الدلالة على اللين في الطبع والظرف، قال الزمخشري: "رجل لَبِق ولَبيق: لين الأخلاق لطيف ظريف"[2]، ثم دل على المهارة بحسن الحديث، والتحريش من حرش: خدش، وحك، وهيج، واستخدم في الخطاب لمعنى التحريض، والتحرش: الاستفزاز والإثارة، ومنه التحرش بالمواطنين، والتحريض على العنف: الحض عليه والتهييج.

ويأتي المعنى المولد من أصل المعنى، مثل: الشريعة، قيل فيها: الموضع الذي ينحدر إلى الماء منه، واصطلاحًا: ما شرعه الله لعباده من الدين، مثل الصوم والصلاة والحج ... وغير ذلك، وإنما سمي شريعة لأنه يقصد ويلجأ إليه، كما يلجأ إلى الماء عند العطش، ومنه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية:١٨]، وقوله عز وجل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، ومثله: لفظ الفشل بمعنى الإخفاق، وأصله الخوف والجبن، والإخفاق بسبب منهما، والزكاة أصلها

(١) أساس البلاغة، مادة: شرف، ص٣٢٦.

(٢) أساس البلاغة، مادة: لبق، ص ٥٥٧، ٥٥٨.

النماء، وأطلقت في الإسلام على قدر يسير يدفع؛ لأنها مبعث البركة في الكثرة الباقية، والبخل محق، ومثله: المجد، أصله امتلاء البطن، ثم أطلق على الكريم الفياض، ثم على الشرف، ومنه: مجد الوطن: عزته وغناه، ثم احتقره الساسة، فزعموا المجد السياسي، ونسوا أن أصله الشبع والتعفف لا النهم وحب السلطة.

ي- علاقة المعنى القديم بالمعنى المعاصر: مثل: السياسة من سياسة الدواب، أي: ترويدها وتهذيبها، ثم انتقل إلى سياسة أمر الناس بالحِنْكة والخبرة وحسن القيادة، ثم حمل المفهوم معاني غير أخلاقية؛ كفن ممارسة التسلط والكذب والخداع والمغالبة، والحُكْم من الحَكَمة التي توضع في أنف البعير مقادة، فاستخدم لقيادة الرعية وتوجيهها بقوة السلطة، فالمعنى مأخوذ من وظيفة الشيء، و"النفاق" من النفق الذي يحفره اليربوع له مخارج لمخادعة صائديه، فإذا طُلب من أحدها هرب من واحد آخر، وقيل: السِّرب الذي يختبئ فيه[1]، ثم اشتق منه معنى المخادعة في الاعتقاد، وهو غير حسي وغير مسبوق في الاستعمال، قال السيوطي: "المنافق اسم إسلامي لم يعرف في الجاهلية ..."[2]، وقد اشتق منه: النفاق السياسي (المداهنة)، والنقد النافق (الرائج) خلاف النقد الكاسد، وترشيد الإنفاق (النفقة)،

ومثل: الاعتراض: إتيان عرض الشيء، ثم استُخدم لمعنى المخالفة، والاجترار بمعنى إعادة الكلام، والأصل اجترار الدابة الطعام (إعادة مضغه بعد التهامه)، ومنه: الاسترجاع والترجيع، والتذويق والتزوير، والرائد والرئيس.

ك- المعنى المجازي[3]: نقل اللفظ إلى الدلالة على غير ما وضع له في أصل الوضع

---

(١) ارجع إلى: لسان العرب، لابن منظور، مادة: نفق، ج ٤٥٠٧/٦، المعجم الوسيط، مادة: نفق، ص ٩٧٩، المصباح المنير ٧٥٧/٢، المفردات، ص٧٦٦، ونصب الراية للزيلعي، ج ٥٦/٤.

(٢) النفاق: مصدر نافق، يقُال: نافق نفاقًا ومنافقته، وهو من النافقاء: أحد مخارج اليربوع من جحره، فإذا طُلب من مخرج هرب من الآخر، وخرج منه، وقيل: هو من النفق ومن السِّربُ الذي يستتر فيه. ارجع إلى: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، ج ٣٠١/١، والتطور الدلالي، عودة ١٤٨: ١٥٠.

(٣) دلالة اللفظ أنواع؛ أولها: دلالة الاختصاص: اختصاص اللفظ بمعنى واحد. والثاني: دلالة الاشتراك: دلالة اللفظ على معان متباينة متعددة بالوضع الحقيقي وبالمجاز، نحو: العين للشيء المعاين في الحس، كالجسد =

بالنقل لا الاختصاص به، وهو المعنى المجازي بالكناية أو التعريض، ولا يقع الوضع عشواء بل لأسباب منها: العلاقة السببية أو المشابهة أو المجاورة أو الملابسة، ويتحقق عن هذا المعنى المجازي المنقول جمال المعنى واتساعه والارتقاء به، وتطوير الأسلوب الذي يستحسنه المتذوق والإيجاز الذي يفرضه الموقف ومساحة الوقت، وقد يقع المجاز لأسباب؛ كالحرج والاستحياء والخوف والضغط والتشفير أو الترميز.

ومن أمثلة التراكيب المجازية في المصطلحات التي جاء ت في الخطاب السياسي: عبور النفق، والظروف الحالكة والأزمة، والنفق المظلم (الأمر غير معلوم العاقبة وغير مدروس)، والسياسات النافقة (غير الصالحة)، والحرب الباردة، والقنابل الذكية (التي

=

(الشاهد في الوجود)، والجمع الأعيان، ولحاسة البصر، ولعين الماء، للجاسوس (مجاز) وللحسد (مجاز). الثالث: دلالة المنقول: انتقال اللفظ من أصل معناه؛ للدلالة على معنى آخر أكثر تطورًا، أو هو اللفظ الذي تعدَّد معناه، وقد وضع للجميع كالمشترك، ويفرق بينهما أن الوضع لأحدها مسبوق بالوضع للآخر مع ملاحظة المناسبة للمعنيين في الوضع اللاحق، مثل: كلمة الصلاة وضعت أوَّلًا للدعاء، ثم نُقِلَت في الشرع الإسلامي لهذه الأفعال المخصوصة من قيام وركوع وسجود ونحوها، وكذا الحج والصوم والزكاة وغيرها. وكلمة السيارة وضعت لكل ما يسير ثم نُقِلت إلى وسيلة النقل المعروفة. وجميع مصطلحات العلوم من هذا القبيل، منقولة من معناها اللغوي إلى المعنى المُصطلح (دلالة نقل).

و قد يُهجَر المعنى الأوَّل من المنقول، فينسى، فلا يستعمل اللفظ فيه، فلا يعرف له إلا المعنى المنقول المجازي أو الاصطلاحي، فيصير مخصوصًا بمعناه المنقول، ويشتهر به، فلا يفتقر إلى القرينة في المجاز لشهرته، فيصير كالحقيقة؛ كشهرة لفظ الغائط في قضاء الحاجة، وشهرة الفناء في ساحة المنزل دون معناه القديم موضع العذرة (القاذورات والنفايات)، وقد يشتهر اللفظ في المعنى المنقول نحو: النكاح بمعنى الزواج والعقد، وأصله الوطء أو الجماع؛ فانتقل إلى تسمية السبب لحرمته في العرف دون العقد، ولكن معاني القرآن الكريم المباركة والأحاديث الشريفة يعتبر فيها الأصل لا النقل الذي يشترط فيه الدليل أو القرينة؛ فللنص الإلهي حكم في الفهم غير معاني كلام الناس، فلا نقول في القرآن الكريم: الإنشاء يحتمل الصدق والكذب، فقول الله تعالى الخبري ثابت، وأساليبه غير الخبرية لا تحتمل إلا الصدق. الرابع: دلالة الارتجال: الذي يسمى به ارتجالًا دون قصد، وهو شائع في التسمية (في الأعلام)، فاسم العلم قد لا يكون له نصيب من معناه، فبعض الشيوعيين والزنادقة أسماؤهم أسماء مسلمين، وليسوا على الإسلام، واللفظ المرتجل كالمنقول بلا فرق، إلا أنه لم تُلْحَظ فيه المناسبة بين المعنيين، وأكثر الأعلام الشخصية من هذا النوع كجميل وكريم التي هي أسماء أشخاص، ولكن المعنى الأصلي في المرتجل باقٍ على حاله غير مهجور، فيُستعمل اللفظ فيه وصفًا أو إخبارًا نحو: محمد الأمين، ومحمد أمين.

توجه إلى منطقة الضعف)، والكيل بمكيالين (كناية عن الظلم)، وتزواج المال والسلطة (التواطؤ على المصالح الخاصة)، وتجفيف المنابع (استئصال الجذور)، وتجميد العروق، وتصقيع الثروة والأرض، وتحريك الماء الراكد، وتمشيط المنطقة، وذيول النظام وأذنابه وفلوله، والاستقبال البارد والفاتر، والمخاض المتعسر، وجذور القضية، ووأد الفتنة أو إيقاظها، ودولة مقطوعة الرأس وبلا رأس (تتعثر ويتنازع أمرها أعوان النظام)، ونظام عقيم، والعقم السياسي، ورأب الصدع، وشق عصا الطاعة، والتكشير على الأنياب، وبتر الذراعين، وبتر الرجلين، وسياسة التقشف، وعنق الزجاجة (الأزمة الحرجة)، والخندق الضيق، وصناعة الأزمة، والنفق المظلم، والنظام البائد، وتعرية النظام (فضحه)، وجلد الذات (الإسراف في نقدها)، والقلق السياسي (الارتياب والتردد والاضطراب)، وحنين الوطن، ودفء الوطن وحضنه وكنفه.

والمجاز صورة من صور التعبير اللغوي الثانوية غير الرئيسة "التواضع والاصطلاح"، ويمثل مرحلة ارتقاء المعنى والتذوق الإبداعي، وقد توسع الخطاب العربي فيه في الأسماء؛ بفضل العقيدة والتطور الاجتماعي والأدبي وطبيعة الشخصية العربية الوجدانية المبدعة، ويستخدمه العوام في الخطاب عفوًا دون قصد أو افتعال، نحو: عمود العائلة (الرأس) وتاج رأسها (كبيرها)، ورأس البلد ودفتها: الرئيس، ويستخدمه الخاصة أيضًا إبداعًا وتنميقًا، نحو: النسيج الوطني ولُحْمته (الوشيجة والآصرة الرابطة)، ورحم الإنتاج، والعيون الساهرة: الأمن.

وهذه المعاني تفهم بالقرينة اللفظية أو المقامية، نحو: "العين" يحتمل معانيه المتعددة، ويعينه المقام، نحو: هذا العين .تريد بيتًا أو أرضًا، وأنت تشير إليه في الوجود .ملكي، ونحو: أمسكت المخابرات أحد العيون (الجاسوس)، ونحو: أصابت فلان عين (الحسد)، واشتكى فلان عينيه، وحفر فلان عينًا (بئرًا).

وقد يستخدم المتكلم الكناية والتعريض في المسكوت عنه؛ لخطورة التصريح به، فهنالك أسباب سياسية واجتماعية وأمنية وشخصية ونفسية تمنع التصريح ببعض الألفاظ والحقائق، فيتحايل المتكلم للتعبير عنها بالمرادف أو بالكناية أو بالتعريض أو بمس اللفظ دون التصريح، وهو المسمى باللحن بكلام يفهمه المتلقي على نحو مراد اللاحن، وهو ما

يعرف في السياسة بالمواربة والمخاتلة في المعنى، وجاء فيه حديث النبي لسعد بن عبادة "فالحن لي بكلام أعرفه"؛ لئلا يعلم المسلمون. وهم في ضيق الحرب. غدر اليهود؛ فيوثر هذا في عزيمة المسلمين وصبرهم.

وقد يكون المعنى المجازي للإثارة والإغراء أو التحسين والتلطيف، نحو: الربيع العربي، وحماة الديار (القوات المسلحة)، ودرع الوطن، وأطلق على مصر: أرض الكنانة، وقلب العروبة النابض، والشقيقة الكبرى، أو للمخادعة نحو: واحة الديمقراطية (إسرائيل)، والفوضى الخلاقة، والفوضى تأتي بالخراب والتقويض!

وقد يكون بتخصيص المعنى أو تعميمه، والتخصيص: نقل اللفظ من دلالته العامة إلى الدلالة على جزء من معناه، وهو العرف المتبع في الاصطلاح، فهو نوع من تخصيص المعنى، ودليل الدقة في التعبير والرقي الحضاري؛ كألفاظ الخلافة والإمامة والحج، تعني في أصول معانيها العموم في دلالتها، فالخلافة في كل شيء، والإمامة التصدر في كل شيء، والحج قصد كل شيء، ثم خُصت بمفاهيم اصطلاحية معلومة، واشتهرت بها في الخطاب، وليس هذا من تضييق المعنى الذي يدل على تحدر اللغة، فالتخصيص في المجال العلمي دليل رقي اللفظ؛ لأنه معرف بمفهوم واحد مستقر ومستعمل، ويعبث المضلل بتعميمه بعد أن كان خصيصي مسماه؛ كعبثه بمفهوم "الإسلام" (الدين الإسلامي) بذكر معانيه المعجمية العامة؛ ليجرده من أركانه وخصائصه، ويجعله عامًّا في الملل السابقة تضليلًا، وعبثه بمكونات مفاهيمه الأخرى كالجهاد (Jihad) في سبيل الله، فقد زحزحته بعض الفرق عن مفهومه الشرعي (مقاتلة العدو المعتدي والمقاتل بوجه شرعي: الدفاع عن الدين والنفس والعرض والأرض)، ومنهم بعض الصوفية؛ حيث جعلوا أعلى مراتبه "جهاد النفس" خلاف الثابت نصًّا أن الجهاد في سبيل الله أحب الأعمال إلى الله وأعلاها، وقيد الجهاد الشرعي أن يكون في سبيل الله، وليس جهادًا دون شروطه الشرعية، وقد قامت وسائل الإعلام بتشويهه وجعله إرهابًا؛ خدمة العدو الذي صرف المسلمين عنه من كل وجه، بينما يقتلهم دون وجه، وقد خدع المسلمين به، فاستفاد منه لصالحه عندما وجههم لقتال عدوه الاتحاد السوفيتي في أفغانستان واستنزافه ومنع وصوله إلى مياه المحيط جنوبًا، فقام بمساعدة عملائه العرب ممولي الحرب، بتوجيه الشباب المسلمين إلى

تحرير أرض الإسلام (أفغانستان)، بينما حرموا الجهاد في فلسطين؛ لتحرير الحرم الثالث من الصهيونية الأمريكية، وهو أولى، والعجاب أن الإعلام الغربي استخدم مصطلح الجهاد بلفظه القرآني (Jihad)، وشاع في اللغات، وسمى من خُدعوا عن أنفسهم لصالح الهدف الأمريكي (المجاهدين الأفغان والعرب)، وتدفقت أموال الخليج لسد حاجة الجهاد في سبيل الله، وخرج السوفيت منهزمين، ولكن الغرب أبى أن يحكم المجاهدون السابقون (البلهاء بدليل أنهم لم يتركوا خلافاتهم، ولم يقفوا صفًّا في وجه المد الأمريكي، بل نفذوا ما أراد عدوهم الحقيقي، فتقاتلوا، وصفوا قياداتهم السابقة لصالح أمريكا)، وأتى الأمريكان بحكومة صنعها بنفسه؛ لتصبح أفغانستان منطقة النفوذ الأمريكي، وتغير الخطاب الأمريكي، فسماهم "الإرهابيين"، وابتكرت المخابرات الأمريكية "منظمة القاعدة" (على عادتها في صناعة العدو الوهمي)؛ لتجييش الشعب الأمريكي وخداع العالم؛ ويذيع الإعلام بيانًا لأحد قادتها "الملغزين" و"المجهولين" على فترات، وتستدعيه توطئة لكل غزو جديد أو قبيل العملية الأمريكية، والغريب أن هذه الأصوات اختفت بعد تحول الأمريكان إلى مشروع آخر، فليس في حاجة إلى بيانات القاعدة وتصريحاتها؛ لأنه اختُرع قادة جدد وخطاب آخر، والإعلام العربي له موقف مريب وعجيب؛ فهو لا يختلف في مادته عن الخطاب الغربي؛ تطوعًا وخدمة سيده، فهو عبد لا يستطيع خدمة سيدين معًا، وليس شأنه وحده بل شأن الحكام العرب الذين باركوا الجهاد من قبل في أفغانستان، وتركوا الإعلام بأمر من أمريكا؛ لإقناع الجماهير بمشروعيته ووجوبه، فلم تتبع المخابرات "المجاهدين العرب"، ثم انقلب الموقف السياسي وفي ذيله الإعلام المخترق، فصار المجاهدين إرهابيين بعد أن تحولوا لقتال الاحتلال الأمريكي، فسكت نفير الحرب وفقهاء الجهاد في الخليج، ولاحقت الأجهزة الأمنية العائدين الذين صاروا خطرًا على الأمن الوطني، وألقت بهم في المعتقلات، وصاروا مادة الإعلام لإقناع الجمهور بأنهم مضللون ومغرر بهم، وقد كانوا قبل رافعي راية الجهاد! القرار السيادي إذن فيما تقدم لسيد واحد غير منازَع في بلاد العرب، والإعلام هنا قدم خدمة خارقة، فقد استطاع أن يوفق بين خدمة سيده الخارجي وسيده الداخلي؛ لأن الأخير يعمل في خدمة الأول.

وبعض التعبيرات المجازية مستعارة من الخطاب اليومي والتراث الشعبي، ومن هذا "النعوش الطائرة" مستعار من ادعاء الصوفية طيران الأولياء[١]، والمراد به في الخطاب

(١) روى لي من لا أتهم أن الشيخ أحمد عكاشة، الذي كان يعمل رئيس العمال المصريين في الشركة الاتحادية (الإنجليزية) للاصطلاح الأراضي في الدلتا، قد استقطبه أحد أعلام الصوفية المشهورين (الشيخ عطية حسن) صاحب المقام المعروف بشربين من أعمال الدقهلية بمصر، فترك عمله وأرضه، وباع كثيرها للنفقة على نفسه وأهل الطريقة، وصار من أصفيائه، وجعل خلافته في الطريقة له، ولم يك الشيخ أحمد فقيهًا بعلوم الشرع بالقدر الذي يؤهله لهذه المنزلة العالية بين العامة والخاصة، فقد اجتمع عليه خلق كثيرون من الصوفية من نواحي أقطار مصر، يعظمونه، ويقدمونه، ويرحلون بترحاله تطوافًا على موالد مصر، وكان يغيب شهورًا في أسفاره، ثم يعود؛ ليأخذ ما جمعه ابناه من مال وزاد، ويعاود خروجه أو هجرته عائلًا أتباعه الذين تفرغوا للسياحة في الأرض، وكان ابنه الأصغر يتكبد من توفير المال لأبيه بعد وفاة شقيقه؛ وقد سمعت بعض بره لأبيه وطاعته، فغضبت لأجله إشفاقًا وترحمًا، وقلت له وأنا صغير .لما تكلفت ما لا تطيق فيما لا أصل له، فنظر إلي مبتسمًا: لم يكن أبناء جيلي على ما أنت عليه وأصحابك ممن علمهم التلفزيون الجرأة على آبائهم والتمرد عليهم، لقد كنا لا نعرف إلا الطاعة والبر، وكان الناس يهابون أبي، ويكبرونه تقديرًا لمنزلته، ويعتقدون أنه من أصحاب الكرامات والولاية، وكان لهذه المنزلة ثمنها في الضيافة والنفقة على مريديه في مقامه وأسفاره، وقد كان الابن رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبر والديه برًّا عظيمًا وهما مقعدين، ويصل قرابتهما، ويصل أهل ود أبيه وأمه.

والشاهد المضحك أن بعض من عاصروا وفاة الشيخ أحمد خبروني أن الصوفية وأخصاءه اجتمعوا لجنازته، وحشدوا حشودهم استعدادًا لطيران نعشه على عادة طيران نعوش كبار أقطاب الصوفية؛ لتقام لهم الأضرحة والموالد، وكانوا يختارون الأرض الخالية التي ينزلون بها، موصين أصحابها بإقامة الضريح، وكان أصحابها يستجيبون اعتقادًا أنه من الأعمال الصالحة ونزول البركات، وقد أخبرني الشيخ زاكي العيسوي (شيخي) أن أحمد أوصاه أن يدفنه بأرضه، فقال له: يا شيخ أحمد، طر وانزل بها، وأنا أقيم لك بها مقامًا. فتعجبت من قوله، فأخبرني أن عامة الناس كانوا يتوهمون هذا من الدين، فأردت أن أصرفه تأدبًا، وما هو بطائر، ولو قلت ما تقوله الآن في زمنه؛ لاتهموني بالمروق والعقوق. أعود إلى ما أخبرني به من كانوا شبابًا زمن وفاة الشيخ أنهم اتفقوا فيما بينهم أن يحملوا النعش، وأن يمنعوا الصوفية من حمله؛ لئلا يوهمون الناس أن النعش يتحرك ويتحول عن طريق المقابر إلى أحد الحقول؛ ليقيموا مقامًا بها، فحاول الصوفية العبث بالنعش، فحال الشباب دونهم ودون النعش، حتى وصل المشيعون إلى المقابر، والمثير للاستنكار والسخرية أنهم أحضروا الأعلام والطبول التي يزفون بها "النعش الطائر" حتى هبوطه بمحل المقام، وقد استعدوا لطيران النعش، فخلعوا أحذيتهم، وجمعوا إليهم ثيابهم استعدادًا للهرولة خلفه، وبعضهم ينادي النعش: توكل على الله، وأرنا من كراماتك، واهبط بسلام، ولعلها كانت إشارات لمن يحملونه من رفقتهم بأن ينطلقوا به نحو جهة يبيتونها بليل، ويخدعون الناس بها، وقد كان هذا شائعًا في القرى والمدن في مناسبات =

السياسي النعوش المنقولة جوًّا لضحايا إهمال السلطة مواطنيها خارج البلاد وقتلى الجيش في تحالفات مشبوهة، ومثلها "عبَّارات الموت الجماعي" و"القبور الجماعية العائمة" لنواقل الركاب الغارقة دون إنقاذ راكبيها، وهي مستعارة من حوت يونس عليه السلام "القبر الذي تحرك بصاحبه"، فجعلوا السفن البالية المتهالكة قبورًا عائمة لراكبيها. وكنا .ونحن في مهب الغرق في نيل .نسخر من خراب النواقل النيلية ونقوبها وتسرب المياه فيها وإوشاكها على الغرق بأنها السفينة التي خرقها الخضر عليه السلام؛ لئلا يأخذها ابن الحاكم غصبًا، وقد شاع أنه يدخل شريكًا غصبًا في كل شركة حتى مصباح علاء الدين الذي اشتراه من دخل شركاتهم غصبًا؛ ليطلبوا من خادمه الجني أن يخرجه من شركاتهم، فخرج لهم من المصبح قبل الجني من المصباح الذي سبقهم إليه.

وقد يقع التخصيص لأسباب سياسية واجتماعية واقتصادية، مثل: "العيش" الذي انتقل للدلالة على الخبز (Bread)؛ لأنه عز في المجتمع، فأصبح أساس الحياة وأعز ما

=

موالد سادتي الحسين وزينب ونفيسة وزين العابدين رضي الله عنهم، وهم براء مما يحدثه الجهلاء؛ اقتداء بتراث الفاطميين الذين أقاموا المزارات والموالد، فذهبت دولتهم، ولكن بقيت بعض أضاليلهم، ممثلة فيمن ينتسبون إلى التصوف، ولا يقيمون أركان الإسلام، وعلى رأسها الصلاة التي يهملونها، وبعض العامة يصنعون هذا تبركًا وتدينًا جهلًا بأصول الدين، وأمن السلطة يحمي هذه المزارات والموالد؛ تسطيحًا للتدين وشغلًا للعامة وتضليلًا وحربًا على الاتجاه الأصولي المعتدل، والصوفية أنفسهم يالقون السلطة، ويستفيدون منها نظير تأييدها، وحشد أعوانهم لها في الانتخابات.

والباطنية الإسماعيلية عبثت بمكونات المصريين، فادعت قبرًا للحسين رضي الله عنه بالقاهرة، وزعمت أن رأسه به، وقيل إن محل المسجد غير الذي عليه الآن، والثابت أن زينب رضي الله عنها حملت رأس الحسين معها إلى المدينة المنورة، ودفنت بالبقيع، ومكثت شهورًا بها، ثم اختارت مصر، فأقامت بها، بعد أن رأت السلطة إبعادها عن المدينة؛ لأسباب سياسية، ولكن باطنية المغرب أرادوا أن يوجدوا لأنفسهم مقدسًا لآل البيت، فافتعلوا قبر الحسين رضي الله عنه مقابل مشهده بكربلاء، وظهرت رواية تزعم أنه حمل إلى مصر، ودفن بها، ولا دليل قوي غير تشبث الصوفية بخبر دفن رأسه بمصر، ويتهمون من ينكره بأنه معاد لآل بيت، على عادة الشيعة في الطعن في كل من ينكر بعض مروياتهم، وبعض طرق الصوفية متشيعة باطنية، تستتر خلف التصوف ومحبة آل البيت، وبعضها جاهر بتشيعه بعد الثورة وعلاقته بإيران، وبعضها يحمل أسماء آل البيت، ولهم ما يشبه الحسينيات في أحياء القاهرة، وقد عاينتها، ويتشاغلون عن الصلوات بأشياء بدعية، ويعادون أعلام أهل السنة، وعلى رأسهم ابن تيمية رحمه الله الذي تصدى لضلالات الباطنية.

يرجونه، وقد أطلق على الخبز في العبرية (לחם) (لحم)؛ لأنهم يؤمنون بفكرة الوطن، وخانوا الأوطان التي حلوا بها؛ فشردوا أشتاتًا في الأرض، وكانوا موضع الريبة والفتن والغضب؛ لبخلهم ولاحتقارهم حوائج الناس واستغلال أزماتهم؛ فمقتتهم الأمم، وضيقوا عليهم؛ فنزل اللحم موضع الخبز في خطابهم، وقد يحدث العكس في الرخاء، فكلمة "Meet" الإنجليزية كانت تعني الطعام، ثم انتقلت للدلالة على "اللحم". وقد يأتي التخصيص في الخطاب الإعلامي للتضليل، نحو: الشرعية الدولية والقرار الدولي والتحالف الدولي، ويراد بها ما يتعلق بأمريكا وحلفائها، ومثل "الإرهاب الدولي"، و"الحرب على الإرهاب"، يراد من يخالفون أمريكا ومعارضي سياستها ومقاومي احتلالها.

وقد عُد الأسلوب المجازي في الخطاب الغربي في عصر النهضة انحرافًا عن اللغة المعيارية (الأساليب القديمة المألوفة)، وقاوم القواعديون التقليديون هذا الاتجاه؛ لأنه خروج عن الأساليب المألوفة، وقد حدث العكس في الخطاب العربي، فقد تراجع في مستواه اللغوي والإبداعي، وكانت اللغة الفصيحة خطاب الخاصة الراقية المثقفة التي ترفعت عن العامية المبتذلة في خطابها الرسمي وفي المؤسسات السياسية والتعليمية والقضائية، وتأثر الخطاب الثقافي في الكتابة الصحفية والتأليف وتأثرت به بعض رجال الفن من الطبقة المثقفة؛ ولكن هذا الخطاب الراقي انهار بتصعيد المهمشين والضحالى، وتسلقهم مؤسسات الدولة في مصر بعد ١٩٥٢م؛ فقد استعان العسكريون بجماهيرية العوام الغفيرة في إقصاء سابقيهم، وصعَّدوا منهم عناصر نهازة حلت محل السابقين، وارتكبوا الجريمة في حق الوطن، باستعانتهم بغير الأكفاء في المؤسسات المؤثرة في الدولة، فقاموا بتخريب المؤسسات الثقافية القوية، وأفسدوا التعليم، وأضعفوا المؤسسات الإسلامية، وغلبوا فيها المرتزقة والضعاف، وفتحوا التعليم الديني للتلاميذ الضعاف، ووجهوا المتميزين إلى العلوم الدنيوية، فاشتغل بالدعوة بعض الضعفاء والمهمشين، وعكسوا ضعفهم ومرجعيتم الاجتماعية على أدائهم الدعوي، واستولى العسكريون على أوقاف الأزهر وأملاك الأوقاف، وتقاضى الدعاة معاشهم من رواتب الدولة، وخضعوا لقانون الموظفين، وسلطوا عليهم رؤساء ورقباء خاضعين للسلطة، فهمشوا دور الأزهر

والدعوة عن قصد، وقد أبعدوا الدعوة عن الأزهر؛ لتكون تحت إشراف وزير الحكومة في وزارة الأوقاف التي تدير شئون الوقف، واختاروا في ولاية الأزهر التابعين وبعض غير المتخصصين في العلوم الشرعية الرئيسة (معظمهم ممن حصلوا على شهادات فلسفية من أوربا ومن المتصوفة)، وهذه سياسة ممنهجة لإضعاف الهوية الدينية، وقد ساهم بعض العلماء في هذه الجريمة، أو سكت على تدخل السلطة في شئون الدين، ومما أفسد الحياة الكنسية أن رجال الدين وجهوا أطفال الشوارع واللاجئين واللقطاء والمهمشين إلى العمل الكنسي والرهبنة، وأنهم اشتغلوا بالتربح وإقامة مصالح مع السلطة والاستحواذ عليها، فأصبحوا جزءًا منها؛ وأن رأس الكنيسة كانت تظاهر الحكام الظالمين لمنافع، فحملت تبعات السلطة، فعم الفساد في أهم مؤسسة اجتماعية.

ل- استدعاء الألفاظ التراثية للمستجدات: وهو يمثل مراحل تطورها، ويقع في المفرادت التي تقع بسبب من أصلها، مثل: النادي والمجلس والقطار والسيارة والدبابة، فـ"المجلس" مكان الجلوس وأفراده، وقد بدأ بمجالس العائلة والقبيلة والقرية، وكان المجلس يطلق على من يجلسون ومكان الجلوس، يسمى المكان الذي يجتمع فيه الأعضاء "النادي" أيضًا، وقد تطور في الحقل السياسي حسب التطور في المؤسسة السياسية وحسب قانون تنظيم المجلس، وقد توسع مفهوم النادي إلى مجتمع الناس والعوائل، وأطلق على بعض المؤسسات؛ كالنادي الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ومنه: مجالس الشعب والشورى والأمة والشيوخ والعلماء، ومثل: "المكتب" أطلقت على قطعة صوف قوية، تستخدم في الاستناد إليها في الكتابة، ثم أطلقت على قطعة النسيج التي تغطيها، ثم أطلقت على لوحة الخشب التي تغطيها قطعة النسيج، ثم أطلق على المكان الذي يجلس فيه الكاتب، ثم مكان الإدارة، ثم مقر القيادة والدولة.

ومثله: الرائد: هو في الأصل رائد قومه في طلب الكلأ أو المرعى، ثم استخدم رتبة في الجيش، ومثله: اللواء، أصله العلَم دون راية القائد العام يحمله القائد، يعقد له في رأس رمحه أو في سارٍ؛ لتتبعه فرقته أو سريته، ثم أطلق على رتبة تعلو العميد ودون الفريق.

ومثل السفير: كانت تدل على حامل الأُجُرّة من الطين، وثم تطور إلى معنى المصلح بين متخاصمين (والسفارة بين الناس الإصلاح)، والسمسار، والخبير بالأصوات الحاذق

بها، والظريف العبقري، والرسول، ثم مندوب الدولة في الخارج وممثلها السياسي، وهو مأخوذ من معنى السفر: الذهاب والإياب.

ومثل: المَناخ: الجو العام، والحالة السياسية، والمناخ أصله: مبرك الجمال، وهو الموضع الذي تُناخ فيه (تبرك فيه)، ثم انتقل للدلالة على محل الإقامة، وارتفع للدلالة على الجو: مجموع العوامل الجوية كالحرارة، والضغط الجوي، والرياح، والأمطار، التي تعرف بها حالة مكان معين، من اعتدال الأحوال الجوية فيه أو تطرفها، ومنها المناخ المعتدل، والمناخ الصحراوي، واستعير للدلالة على الواقع والمعنى: المناخ السياسي.

والجريدة: سَعَفة طويلة من النخل، تُقَشَّر من خُوصها، وكانت تستخدم للكتابة عليها في البيئة العربية، ثم استخدمت في تسمية ما يكتب فيه أرزاق الجند والعطاء في الديوان، والجريدة الرسميَّة: التي تصدرها الحكومة، وتنشر فيها القوانين، واشتهرت في الصحيفة اليومية، والصحيفة أصلها: ما يكتب عليه من سعفة أو قطعة جلد أو ورقة واحدة (الكاغد الفارسي أو القرطاس)، وكانت للرسالة والصك والعقد والصلح، ثم أطلقت على مجموع الأوراق في الخطاب الإعلامي المعاصر.

ومثل تسمية بعض الآلات الحديثة: "الدبَّابة" و"المدفع" و"السيارة" و"القطار"، وهي آلات تطورت بتطور التقنية الصناعية، وقد اختلفت عن شكلها الأول.

م- العوامل السياسية[1]: ومنها: التطور السياسي ونمو المؤسسات وتطورها والصراع

---

(١) قد تكون السياسة من أهم العوامل أثرًا في تنمية اللغة عبر استحداث الكثير من الألفاظ والمصطلحات، فالسياسة الداعمة للغة تعطيها زخمًا وقوةً كبيرة، وتعزز مكانتها على كافة الأصعدة وتمنح أصحابها قوة متنامية ومجالًا رحبًا للإبداع والابتكار، وتعد السياسة في بعض المراحل والأحداث مصدرًا أساسيًّا ورئيسًا لقوة اللغة وزيادة مفرداتها، فقد أدت الأحداث السياسية والصراعات والحروب إلى ظهور مصطلحات جديدة مثل: "الحرب الباردة، صراع القوى، صنع القرار، البلقنة، ميزان القوى، الإعلام السياسي، الأحلاف العسكرية، قوات حفظ السلام، وتحتوي اللغات على بعض الكلمات واللغات التي تتقارب معانيها وتتفاوت دلالتها في سياقات مختلفة مثل: Fort: مدينة منيعة: Forte ille، صوت جوهرى: Voix Forte، مقدار كبير: Forte Dose، نظر ثاقب: Yeux Forte Des، كيل واف: Mesure Forte، عنيد: Forte tete، ورق كثيف: Fort Papier، أسلوب بليغ: Style Fort.

والمصالح والقهر والتضليل والتزييف والتحييد (الإقصاء) والاستقطاب والنفوذ والتحالفات ورأس المال والغلبة.

وقد تطورت المصطلحات بتطور المؤسسة السياسة، وقد أطلق على ممارسة الحكم "السياسة" (Policy، politique)، وهو لفظ عربي أصيل، وقد استخدم في العصر الجاهلي في سياسة أبناء القبيلة، ثم انتقل إلى النظام الملكي الضيق في بعض أطراف الجزيرة في العراق والشام وساحل الخليج، وقد قامت دولة كاملة في اليمن في التاريخ القديم عرفت الشورى والمؤسسات، ووصلت فيها المرأة إلى الملك في مملكة سبأ، قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النمل]، وقد انهارت الدولة في اليمن، وتحولت إلى إمارات صغيرة يحكمها أقيال (أمراء)، ثم دخلت في دولة الخلافة العظمى التي قامت على أول نظام انتخابي في العالم، وقد ظهرت دولة المدينة في بعض مدن اليونان، وعرفت بالدولة المدنية أو دولة المدينة (بوليس: Polis)، وظهر المجتمع المتمدن المتحضر ممثلًا في الدولة الكبرى الإمبراطورية الإغريقية، وتطور المصطلح (politica: πολιτική)، وصار فن السياسة، واستقر على فن حكم الدولة وفن حكم المجتمعات الإنسانية، ثم تطور إلى النظام القيصري، ومثله النظام الكسروي، وهما وراثيان، ولم يستخدم اللفظان في الحكم في العالم الإسلامي الذي غلب عليه الوراثة؛ لما وراءهما من خلفيات وثنية وكنسية ومفاهيم فاسدة، وقد أسقطهما الإسلام في البلاد المفتوحة، وقد استفادت الحضارة الإسلامية من مؤسسات الأنظمة التي سبقته والعلوم السابقة ومن الخبرات البشرية من كل الأجناس والملل التي دخلت في سلطان الدولة.

وقد تطورت المؤسسات بتطور الدولة، نحو: "بيت المال" المتواضع، ووزارة الخزانة العامة ووزارة المالية، وتطور الديوان أيضًا في هيئته وعمله؛ فقد كان مخصوصًا بأسماء الجند ونفتهم، ثم دخل فيه الصادر والوارد من النفقات والدخول، ثم انتقل من المركزية إلى الولايات التي تخضع للديوان العام، وتطور الجيش في التكوين والتدريب والسلاح والمعسكرات والأفرع والأعمال والخطط، وحمل أسماء: الجيش والعسكر والجند والجندية والجهادية والكتائب ووزارة الحربية ووزارة الدفاع والحرب، وقد أنكر بعض المعاصرين استخدام كلمة العسكر، وزعم أنها تسمية جنود المماليك من غير المواطنين والمقاتلين

المرتزقة (الميليشيات) ومقاتلي الأعراق والطوائف والمتمردين، والصواب أن عسكر تسمية عربية أصيلة في الجيش، والعَسْكر اسم جمع (يدل بلفظه المفرد على الجمع)، وواحده: العسكري، مثل: جُند: اسم جمع، وجمعه: جنود، ومفرده: جندي.

وقد تطور اسم الإدارة السياسية، فقد بدأ في الإسلام بأهل الحل والعقد من أعيان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأهل الشورى وأهل الرأي، ثم ظهر رجال البلاط وأعوان السلطان ومجلس الأعيان والشيوخ والوجهاء، وقد أسس محمد علي باشا أول مجلس عربي حديث ١٨٢٩م، باسم "مجلس المشورة"، وكانت وظيفته الأساسية إبداء الرأي في المسائل الإدارية العامة، دون أن يلتزم محمد علي بتنفيذها، فكان رأي المجلس استشاريًّا، وقد جعله نظير مجلس النواب في أوربا، وقد ظهر أول مجلس ممثل للإدارات والأقاليم في عهد الخديو اسماعيل، بقيام مجلس شورى النواب في ديسمبر من عام ١٨٦٦م، وقد تكون من خمس وسبعين نائبًا، ينتخبهم الشعب من طبقة كبار ملاك الأراضي الزراعية كل ثلاث سنوات، وعين فيه بعض العلماء، وكانت قراراته ملزمة، ولكن الاحتلال الإنجليزي حله؛ لموقفه من تدخله في شئون البلاد وجنوح الخديو توفيق للإنجليز، ووضع لورد دفرين (Duffrin) عام ١٨٨٣م القانون الأساسي لتنظيم الشئون الداخلية لمصر تحت سلطة الاحتلال البريطانية، ونص القانون علي إقامة مجلسين استشاريين لا تشريعيين، هما مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية للتداول في الشئون الداخلية لمصر، فانتهى بهما النظام البرلماني، ولكن بعض الأعضاء استطاعوا أن يستخلصوا بعض حقوق الوطن وإصدار القرارات، وبلغت معارضة المجلس للحكومة ذروتها عام ١٩٠٩م (بعد ٢٧ سنة من الاحتلال)، فقد تصدى المجلس لمشروع الحكومة برئاسة بطرس غالي باشا لمد امتياز قناة السويس أربعين سنة أخرى؛ مقابل الحصول على أربعة ملايين جنيه ونسبة من أرباح شركة قناة السويس، وتزعم الحزب الوطني بزعامة محمد فريد جبهة رفض المشروع، ولكن بطرس غالي الذي أتى به الاحتلال إلى رئاسة الوزارة، أصر على تنفيذ الاتفاق الجديد بمد الامتياز، وأعلنت الصحيفة الوطنية (جريدة اللواء الحزبية) هذا، فهاج الرأي العام المصري ضد الحكومة، وكان هذا أحد أسباب اغتيال بطرس غالي باشا، الذي عدوه خائنًا وعميلًا، فحولوا المشروع للتصويت عليه في مجلس شورى القوانين،

فرفضه معظم نواب المجلس عدا أعضاء الحكومة والنائب مرقص سميكة، فكان هذا النصر المؤزر للمجلس الذي فرض إرادته على إرادة الحكومة، وفضح العملاء. وتمخض عن دستور ١٩٢٣م أول مجلس نيابي حقيقي، له سلطة مساءلة الحكومة وسحب الثقة منها، وتعرض عليه الحكومة أو الملك القوانين الجديدة أو التشريعات، وله حق التصويت عليها بالرفض أو القبول، ولكن الملك حد من سلطاته، فجعل لنفسه حق إقالة الحكومة وحل المجلس متى شاء، ولكن فشا الفساد الحزبي والصراع بين حزب الأغلبية وأحزاب الأقلية، وشاع التزوير وتغيير النتائج بتدخل من الملك والحكومة والإنجليز، واحتال الملك فؤاد على دستور ١٩٢٣م، الذي تمتع فيه المجلس بحقوق واسعة أمام سلطة الملك، فعمد إلى إنشاء أحزاب موالية للقصر؛ لتوازن قوة الوفد وحزب الأحرار الدستوريين في الانتخابات وفي المجلس، فنشأ حزب الاتحاد الموالي للقصر و"حزب الشعب"، وظلت هذه السياسة متبعة في صناعة أحزاب موالية، وتدعمها السلطة وإعلامها في الانتخابات؛ لتشكل الحكومة، أو يفرض الإنجليز حزبًا معينًا على الملك، والانهيار الأخير في الحياة النيابية المصرية بعد حركة الضباط في يوليو ١٩٥٢م؛ حيث انتهى التعدد الحزبي والانتخابات الشعبية والليبرالية السياسية بما لها وما عليها، فقد صنع النظام العسكري حزبًا واحدًا ومجلسًا شكليًّا من أعوان النظام في العاصمة والأقاليم، يقوم بالتصديق على قرار السلطة، وقام السادات بعد حرب أكتوبر بتحسين الصورة؛ ليقنع أوربا بأنه النموذج المماثل لها في وسط العالم (الشرق الأوسط)، فسمح بأحزاب المعارضة وبالانتخابات الحرة؛ ولكنه لم يقبل وجود سلطة شعبية تحد من سلطته، فجاء خلفه، وقضى على كل شيء سلف، وقد أطلق على المجلس في العهد الناري "مجلس الأمة"؛ ليكون قريبًا من مشروع القومية العربية الفاشل سياسيًّا، فعدل السادات إلى تسميته "مجلس الشعب"؛ ليوافق سياسته المخالفة لسلفه في تأكيد الشخصية المصرية، والثابت من الممارسة أن المجالس الحديثة تأثرت بالأنظمة الأوربية شكلًا إلا في مواقف فريدة، وقد ذكرت هذا لتبيين العبث السياسي، واستهداف التقدم والحرية من الداخل والخارج، وأن المخلصين الأكفاء في السلطة كالشعرة البيضاء في ثور حالك السواد، لا يتعرف عليهم أحد، ومن ثم لا أثق بأي نظام سياسي، ولا أحكم عليه إلا من ممارسته ونتائجه، وما كنت مفوضًا الظالمين

والفاسدين في دم أو مال، ولا متخذهم بدلًا ممن اتقوا وأحسنوا وتعففوا، وأنا أبرأ إلى الله من كل متدين تشعر بالدين، ثم بدل وقصر وتجبر، فأساء لدينه وأضر بوطنه.

وقد أفرز التطور السياسي مصطلحات جديدة، تعبرعن الاتجاهات السياسية، مثل: التعددية والرأسمالية والمركزية، ومنها اللفظ الدخيل الذي دخل الحقل السياسي عبر تاريخ الحضاري الإسلامي، وبعضها دخل العربية قديمًا نحو: الديوان، والبوليتكا (السياسة) والديمقراطية والبراجماتية والثيوقراطية والأرستقراطية، والليبرالية، وقد أفرزت الاتجاهات الثورية بعض المصطلحات: الاصطفاف والتكتيل والتحزيب والانقسام والتشطير والحزبية والعصابة والنظام، واستعارت بعض الألفاظ التراثية: الردة والاعتصام والاعتكاف في الميدان، والخروج على السلطة، والخروج إلى الشارع والميادين والاحتجاج.

والعامل السياسي فعال في تحديث الدلالة سلبًا أو إيجابًا؛ فهو صاحب السلطة والقرار في توجيه مؤسسات الدولة وصاحب الثروة التي يساوم بها، ويستأجر عملاءه ووسائل الإعلام، وتوجيههم نحو مقاصده ومصالحه، وله علاقاته الخارجية وأدواته الخاصة في الاستقطاب والتهميش والتزوير والتعتيم، وأكتفي بما ذكرته هنا؛ استغناء بما ذكرته على طول الكتاب.

ن- التنوع والاختلاف: نتج عن اختلاف البشر اختلاف الألسنة في التعبير عن الفكر، وترتب على اختلاف المجتمعات وتفرقها اختلاف اللغات، ونتج عن اختلاف البيئات اختلاف الألوان والأشياء، وشكل هذا الاختلاف معاجم لغوية متنوعة، وقد نتج عن اختلاف العلوم والثقافات تنوع المصطلحات التي تحمل مفاهيم خاصة ترتبط بمستخدميها، مثل: الجهاد والكفاح والمقاومة والغزو والحرب، والاستشهاد والقتل، والعمليات الاستشهادية والانتحار، والفتح والنصر، والخلافة والإمامة والحكم والرئاسة، والجاهلية والبدائية والأمية.

والنسيج الإسلامي نسيج متداخل ومتناسق في النسق العام، وتتميز الثقافة الإسلامية بالتنوع والغزارة والانسجام والاتساع والانفتاح، فالألفاظ الحضارية والاجتماعية تحمل دلالة ثقافية متنوعة.

س- المعنى السياقي: المعنى الذي يتعلق بالسياق، ويأتي له، وقد يتعدد بتعدده، مثل لفظ "الأمة": أمة الناس: جماعتهم، وفلان أمة وحده: إمام وقوة، والأمة الإسلامية: مسلمو العالم تحت قيادة واحدة أو أقليات في دار الكفر (الدول غير الإسلامية جاحدة العقيدة الإسلامية) أو فرادى، ومن والاهم من الأديان الأخرى في ذمتهم أو عهدهم وضمانهم، وقد استخدم بمعنى القومية العرقية في خطابنا تأثرًا بالنزعات العرقية التي تبناها العرق الألماني تعصبًا لعرقه، ثم فشت في الغرب، وظهرت الحركات العرقية في القرن التاسع عشر، وتبنى العصبية العرقية بعض الأتراك المستغربين الذين استخدمتهم أوربا في تخريب الخلافة العثمانية، فرفعوا شعار الإصلاح والعدالة والتنوير، وافتضح تعصبهم العرقي وعمالتهم بعد أن أسقطوا الخلافة ١٩٢٤م، وتولوا السلطة، فتعصبوا للقومية الغربية والمظاهر الغربية، وحاربوا على كل ما يتعلق بمظاهر الإسلام والعربية، وظهرت تيارات عربية مستغربة موازية للأتراك، تدعو للانفصال وإعلاء القوميات (منهم ساطع الحصري، وكانت نزعته طورانية تركية بحتة، وعمل مع جمعية الاتحاد والترقي، وقد نشر عدة مقالات في الدعوة إلى الطورانية والتتريك، ثم انقلب فجأة، فأصبح رائدًا من رواد القومية العربية، وكانت في لغته رطانة، وتحالف مع القوميين الأتراك، ومثله شكيب أرسلان، ومشيل عفلق)، وقد أقصوا المظاهر الدينية، وتبنوا كل مبادئ القومية عدا الدين واللغة القومية (العربية)، فالحصري نفسه كان لا يحسنها نطقًا، فاستقدموا اللغات الأوربية، ودعموها تعلمًا وكتابة وفي بعض السجلات الرسمية موازاة بالعربية، واستعملوا التاريخ النصراني (أو الإفرنجي أو الميلادي)، وعموا على التاريخ الإسلامي، وقد قام أول كيان سياسي واسع ومكين على الدين الإسلامي واللغة العربية، ولم يكن للعرب سلطان موحد سابق، بل كانوا قبائل متناحرة.

وعجائب السلطة المصرية أنها وافقت على الوحدة المصرية السورية؛ لتكون نواة الأمة العربية، وهو مشروع القومية العربية الذي تبناه عبد الناصر بعد حكم مصر فجأة؛ ليكون زعيم العرب بعد أن ضحى بالسودان المصري أرضًا وتاريخًا وعرقًا وأرضًا وحياة وثقافة وتكوينًا وهوى، فالمصريون الأوائل أفارقة، وهم العرق الذي انتشر في وادي النيل (مصر والسودان وأثيوبيا وأوغندا وتشاد)، وقد كان حكم الفراعنة في السودان ومصر

بدءًا من جنوب ولاية الخرطوم حتى الدلتا والواحات الغربية في مصر، ثم وفدت قبل العرب إلى مصر، ونزل بعضها إلى السودان، وحدث العكس؛ فوفد قبائل اليمن عن طريق باب المندب إلى الساحل الحبشي، ثم نزلت السودان، واتجهت شمالًا إلى صعيد مصر، فاللسان واحد والعرقين المصري القديم والعربي والأرض واحدة، والمسقى واحد، ولكن عبد الناصر فرط في الجنوب قبل انفصاله؛ لأنه رفض خلعه الرئيس محمد نجيب رئيس مصر والسودان؛ لينفرد بحكم مصر، وقد نشأ في السودان نظام ديمقراطي، ولكن عسكر مصر أغروا عسكر السودان بالانقلاب عليه، والعجيب أيضًا أن الزعيم العربي ضيع الجزء الفلسطيني التابع لمصر (غزة) والضفة، وكاد يضيع مصر كلها مرتين (١٩٥٦م و١٩٦٧م)، لولا تدخل أمريكا والسوفيت في ١٩٥٦م، فخرج الكذابون البوَّاقون يقولون: انتصرنا (على العدوان الثلاثي)، ولولا أن إسرائيل اكتفت بسيناء بعد أن ضربت قواعد القاهرة العسكرية، فكذبوا على الشعب، وسموا الهزيمة العسكرية "النكسة" و"المؤامرة"، وحملها عبد الناصر غريمة السياسي "عامر" قائده العسكري الذي تخلص منه فيها، وقد كان الإعلام السلطي الخائن الآخر بعد السلطة في الحربين اللتين خسر فيهما الجيش المصري، وكادت السلطة أن تسقط أيضًا فيهما، وحاول السادات أن يقيم مشروع وحدة "وادي النيل"؛ ولكن الفساد السلطي أفسده، فالمعلن غير الباطن، فأتى خلف السادات على كل شيء، ولكنه نجح في إقامة "التحالف الأمريكي الصهيوني العربي"، وهنالك تيار خفي في الإعلام المصري يوطئ لوحدة مصرية إسرائيلية ترعاها أمريكا، تحت تسمية "علاقات حسن الجوار والنوايا" أو "التكامل الاقتصادي" أو "التعاون التجاري" أو "التنسيق المشترك" أو "تأمين الحدود" أو "الحرب على الجماعات الإرهابية"، فالتسميات مفتوحة، والتنسيق قائم سرًّا وعلنًا على المستوى العسكري والسياسي، والعدو الشرقي لمصر الآن في الإعلام المسوَّس "غزة" (العدو المشترك لمصالح الدولتين) والغربي ليبيا، والجنوبي السودان، ويوجه الإعلام سريعًا الجمهور نحو اتهام غزة عندما ينفذ عملاء الموساد الإسرائيلي عملية تخريبية في سيناء، ويوجهه نحو اتهام التيار الإسلامي في ليبيا في الغرب، وإلى الإخوان السودانيين في الجنوب، ويستبعد الإعلام إسرائيل من شبهة الاحتمال.

وقد سمح الغرب بقيام "مجلس التعاون الخليجي"؛ لتأمين مصدر النفط في منظمة ذات قرار واحد، واستبعدت العراق؛ لأنها كانت تشكل بقوتها العسكرية وخبرتها البشرية مع سلاح النفط في الخليج قوة تهدد الغرب، وخشوا أن تستقطب العراق منطقة الخليج، فدبروا حرب الكويت التي استدرجوا إليها عميلهم السابق المتمرد "صدام"؛ ليخلصوا من قوة العراق، ثم استنهضوا خصم الخليجيين المتربص؛ ليلتهمهم أيديولوجيًّا وثروة؛ ليستعيد أمجاد تاريخه الفارسي قبل الإسلام، وتسمية "الخليج الفارسي" بدويلاته، فالفرس على طول تاريخهم قوميون، ولم ينسوا أن أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قضيا على الإمبراطورية الفارسية؛ فنالوا منهما، وأغروا بهما عامة الفرس تضليلًا بالتشيع، ومجدوا الحسن ونسله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خاصة؛ لأنهم من زوجه الفارسية بنت ملوك الفرس، وضللوا العامة عن ترك ولاية أبناء الحسن بدعوى تنازله لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، متجاهلين الدين، وحاول الفرس مرارًا التقلب على الدولة الجامعة، فأقاموا الدولة الصفوية القومية المذهبية؛ انشقاقًا عن وحدة المسلمين، وسياسة إيران المعاصرة تحركها العصبية العرقية والمذهبية تجاه العرب الراكدين تحت حماية الغرب النهَّاز.

وهنالك مصطلحات أخرى تعبر عن الرعية، مثل: الجمهور: جمهور العلماء: معظمهم، وجمهور الناس: سوادهم وعامتهم، وجمهور الشعب: عمومهم، ولفظ "الناس" يأتي في سياق العلاقات البشرية والتعاون والعدل العام وعموم الدعوة ومخاطبة عموم الخلق، وجاءت ألفاظ الكفار والمشركين وأهل الكتاب في مقام المخالفة في الاعتقاد والحوار الديني والصراع والطعن في الإسلام، ومن الأخطاء التي يقع فيها السياسيون والإعلاميون مخاطبة الشعب خطابًا طائفيًّا وفئويًّا وطبقيًّا وحِزبيًّا، ويخص كل فئة بخطاب، فيستخدمون ألفاظ المسلمين والنصارى والطبقة المتوسطة والعمال، والأصل أن يخاطب أبناء الوطن في سياق وطني عام، وقد جرى أيضًا التقسيم في العدل.

ع- الاختصار: يرجع الاختصار في اللفظ لأشياء، منها: العلم بالشيء وشيوعه والسرعة في الأداء والاختزال والترميز والإسرار، ويكون في الأسماء الطويلة والقرارات والعمليات والمؤتمرات والمؤسسات والجمعيات؛ كقولهم اختصارًا: العملية والخطة والضربة، وهي في الأصل متبوعة بالنعت "الحربية"، ومثلها: المكتب والقصر والسرايا

والقلعة، يريدون أصحاب القرار في المؤسسة، نحو: أعلن القصر كذا، والقصر يشجب ويستنكر. والاختصار في الأسماء الطويلة كاختصار أسماء الدول والمؤسسات في حروفها الرئيسة، نحو: (ج. م.ع)، (جمهورية مصر العربية)، و(U.S.A): (الولايات المتحدة الأمريكية)، والترميز، نحو: عاصفة الصحراء، والنسر، والصقر، وقد يستدعي اسمًا تراثيًا، نحو: بدر، خيبر، وقد يكون الرمز أيقونة أو رسمًا، والتشعير: استخدام الشعار (كلمة أو تركيب أو جملة أو رسم أو صورة أو راية)، والتشفير: استخدام الرمز المتفق عليه بين مستخدميه في العمل السري (الاستخبارات) أو في الحروب؛ لتمييز المستخبرين والعيون، وقد تناولت هذا في حديثي عن أنواع المصطلحات.

وقد تأثر الخطاب بالاختصار في المصطلحات الدخيلة، نحو: "الفرانكوفونية" (La Francophonie): المنظمة الدولية للفرانكوفونية (بالفرنسية: Organisation Internationale de la Francophonie)، منظمة دولية جمعت فيها فرنسا دول احتلالها الناطقة باللغة الفرنسية (كلغة رسمية أو لغة مستعملة فيها)، والظاهر أنها جامعة على أساس لغوي، والباطن أنها جمعية نفوذ فرنسي، تستهدف فرنسة هذه الدول، ومن آثارها الخطرة فرنسة الخطاب المغاربي، والتضييق على الشخصية العربية، وتماهي أعلام المفكرين والأساتذة في الفرانكفونية؛ ثقافة وفكرًا وتحليلًا، بلغ الخطاب القرآني والحديثي، وغياب الأثر التراثي في الدراسات الحديثة، فالبحث اللغوي غربي خالص في المصطلحات والنظريات والتحليل، والنقد ليس فيه إلا النص الأدبي، والعُجاب أنني وجدت بعض أعمال محللي الخطاب الديني وبعض النقاد المغاربة باللغة الفرنسية، ثم ترجمت؛ لأنهم لا يحسنون الكتابة العربية، ومصادرهم كتابات المستشرقين الأوربيين في الإسلام، ولا تجد اختلافًا كثيرًا بينهما في الفكرة، وأما النقاد، فخطابهم فلسفي محض، ولا يخرجون فيه عن النقاد الأوربيين أصحاب النظريات المتطرفة والمنبعثة في معظمها عن تجاربهم الشخصية في الشذوذ والإدمان، والسير الشخصية لكثير من المفكرين الغربيين لا تخلو من حياة غير سوية، كانت وراء تمردهم على القيم والعرف وشذوذهم، وكانوا يخوضون تجاربهم الدراسية وتجارب عيناتهم، ثم لا يستطيعون الخروج منها، وبعضهم

لقي حتفه فيها، وارجع ـ إن شئت إلى سيرة جاستون باشلار (١٩٦٢م) (مؤسس النقد الأدبي الظاهري)، وميشال فوكو (صاحب النقد البنيوي، وقد مات بالإيدز ١٩٨٤م).

وتعد فرنسا أكثر الدول الأوربية حرصًا على نشر لغتها خارجها وهيمنتها ثقافيًّا، ويعد الاحتلال الفرنسي أخبث الاحتلال الأوربي عنفًا وتغييرًا لهوية الشعوب (بسياسة الفرنسة)، وقد امتد أثره إلى مصر زمن الاحتلال الإنجليزي، واستقطب بعض العناصر المصرية، وفرنسها، فأثاروا جدلًا في قضايا التراث والعقيدة، وأحدثوا ازدواجية ثقافية (الحداثيين والتقليديين) وانقسامات وتصنيفات، فصدعت الشخصية المصرية المؤتلفة، وأقاموا مراكز قوة داخل مؤسسات الدولة (السياسية والإعلامية والثقافية والاقتصادية والتعليمية)، وهذا لصالح الغازي الأوربي، الذي استخلف المستغربين المخترقين في السلطة ومؤسسات الدولة المؤثرة في الشعب، فمازالت هذه الدول خاضعة لنفوذ الغازي السابق.

ف- الاختراع والإبداع والحاجة: وهو ضرورة التحديث والتطور والرغبة في التجديد والميل إليه، وللأدب دور فعال في تهذيب اللغة وتلطيفها، والتهذيب طابع إنساني وتطور طبيعي، يوكب حركة المجتمع وتطوره وتطور الكيان السياسي والنظام العالمي، ومنه تسمية الأحزاب والطوائف بالطيف السياسي، وتسمية المذهب والاتجاه بالتيار، وتسمية العرق والأقلية والفرقة بالطائفة بدل ألفاظ الفرق، وتستوجب الضرورة ابتكار مصطلحات تلبي حاجة الاختراع والعلم، نحو: الاستنساخ والمذياع والتلفاز، وقد سقت نماذج كثيرة مستحدثة في الكتاب.

ص- الترجمة اليومية: المراد المصطلحات التي تأتي من الترجمة، وتنتشر في الخطاب الإعلامي الذي ينقل عن وسائل الإعلام العالمية، الورقة السياسية (البيان والتقرير والخطة، وقد يراد بها ما يساوم به في المفاوضات)، والأجندة السياسية، والحقيبة السياسية (المضمون والمشروع السياسي)، ومنه بعض المصطلحات السياسية التي تحمل دلالة سياسية خاصة: الشرق الأوسط الجديد (بدل الوطن العربي والعالم الأوسط ومركز العالم)، دولة إسرائيل التي شاعت في الإعلام والخطاب الرسمي العربي، وكانت من قبل الكيان الصهيوني دولة الاحتلال.

ومثل العولمة: من الفعل المولد عولم من العالم، مثل قولبَ (لمعنى القالب)، وهوجل (تحامق ومشى على غير هدى)، والعولمة ترجمة المصطلح الإنجليزي (Globalization)، ومعناه: الكونية، والقطبية والكوكبة والشوملة (الشمولية) والكوكلَة (من كوكا كولا الشركة العالمية التي تمثل النفوذ الاقتصادي الأمريكي)، واستقر العمل بمصطلح العولمة بين الباحثين، وهو أكثر الترجمات شيوعًا بين أهل السياسة والاقتصاد والإعلام، وقد رأى "ناعوم تشومسكي" (Noam Chomsky) أن مصطلح العولمة يستخدم في المسكوت عنه في العلاقات الدولية للإشارة إلى شكل الليبرالية الجديدة في العولمة الاقتصادية، ورأى "هيرمان إيه دالي" (Herman E. Daly) أنه يستخدم مرادفًا لمصطلح "التدويل"، ومصطلح "التدويل"، وهذا المصطلح العنوان الكنائي للشركات العملاقة التي هيمنت على الاقتصاد العالمي، وتديرها مؤسسات ضخمة في أمريكا، وهي تطبق السياسة الاقتصادية المفتوحة بين الدول.

ومثل "الإرهاب": يرجع هذا المصطلح في الخطاب المعاصر إلى ترجمة "Terror" الإنجليزية ذات الأصل اللاتيني، وقد استقر عليه في الاصطلاح بلفظ "terrorism" الإرهاب، ويراد به الترهيب والترويع، وهي تقابل في اللغة العربية مصطلح "الحرابة" بما له من خصوص المعنى في كتب الفقه (محاربة الإسلام والإفساد في الأرض بغير الحق)، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة]، ومصطلح الحرب على الإرهاب (War on Terrorism)، والحرب العالمية على الإرهاب [الإسلامي]، وقد أضمر الوصف الذي ينسب الإرهاب للإسلام، وقد عدلت الإدارة الأمريكية عن استعمال مصطلح الحرب على الإرهاب في يوليو ٢٠٠٥م إلى استعمال "الصراع الدولي ضد التطرف العنيف "Global Struggle Against Violent Extremism"، ولكن الممارسة لم تتغير، وقد تورط الإعلام العربي في استخدام هذه المصطلحات التي تسيء إلى هويته!

وقد حاولت بعض المؤسسات تعريف الإرهاب لتبرئة ساحة العرب منه، ومنه التعريف اللغوي: القتل، والاغتيال، والتخريب، والتدمير، ونشر الشائعات، والتهديد،

وصنوف الابتزاز، والاعتداء، والأنشطة التي تستهدف إشاعة الفوضى والإثارة والتحريش، وهي تعريفات عامة؛ لخدمة أغراض سياسية داخلية وإستراتيجية، وتعريفه القانوني: استخدام العنف ضد أفراد أو التلويح به، وتعريض الأرواح للخطر وتهديد الحريات والابتزار بالقوة والتهديد؛ لأغراض سياسية؛ بهدف التأثير في موقف أو سلوك مجموعة مستهدفة، وهو تعريف مسوس أيضًا، وجاء التعريف الأمني له عن مجلس وزراء الداخلية والعدل العرب: "الإرهاب كل فعل من أفعال العنف أو التهديد أيًّا كانت بواعثه أو أغراضه، ويقع تنفيذًا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، ويهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بإيذائهم، أو تعريض حياتهم أو أمنهم للخطر، أو إلحاق الضرر بالبيئة، أو بأحد المرافق أو الأملاك العامة أو الخاصة، أو اختلاسها أو الاستيلاء عليها، أو تعريض أحد الموارد الوطنية للخطر"، وعرفه المجمع الفقهي: "العدوان الذي يمارسه أفراد أو جماعات أو دول بغيًا على الإنسان (دينه، ودمه، وعقله، وماله، وعرضه)"، وهذا التعريف خاصة بممارسات أفراد من العرب والمسلمين، ولكن فات المؤسسات الرسمية أن تعرف الاعتداءات الأمريكية على الدول الإسلامية، والعمليات الصهيونية في فلسطين.

ومثل "حقوق الأنسان" (Human Rights Watch): مصطلح يستخدم في التدخل في شئون الدول الضعيفة أحيانًا، فهم يحرصون عليه في العراق وسوريا وجنوب السودان، ويتجاهلونه في فلسطين والحكومات الصديقة في المنطقة.

وسوف أتناول أثر الترجمة في المفهوم لاحقًا.

ق- تحسين المعنى: الانتقال بالمعنى المنفر والمثير والمستقبح وما يستحى منه وما يجافي الذوق العام إلى مستوى القبول في الذوق، وعرف بالتلطف في المعنى، والتلطف والتحسين والكناية والتعريض من الأساليب التي هذبها الإسلام وقال بها العرب، ولدينا تراث عتيق لا يبارى في هذا الأدب، ولكن يفتقر إليه بعض ضعاف الدين والأدب والبلاغة في أعمالهم الصريحة التي تفتقد إلى القيمة وعناصر الأدب الذي يدعونه، وهي دليل غياب الموهبة الإبداعية والمادة والفكر، وهؤلاء يرفعون شعار "حرية الإبداع"؛ تحسينًا لضعفهم الإبداعي، وأعمالهم لا تتجاوز الابتذال والإثارة في أسلوب ركيك.

وبعض المصطلحات لها وقع سيئ في غير ثقافتها وعرفها، فيعدل بها عن أصل لفظ المصطلح إلى لفظ أخف وقعًا، وقد يستخدم اللفظ الأجنبي تعمية؛ لرفع الحرج، فالألفاظ الأجنبية تقف عند معناها الحرفي، بينما لغة المنشأ تستدعي خواطر ذهنية،

ويستخدم الخطاب السياسي التحسين في التضليل أو تخفيف وقع الحدث أو امتصاص الغضب أو المناورة والمساومة أو الرضوخ والخنوع أو الموالاة، وقد يكون التحسين في الحدث تهوينًا، مثل: النيران الصديقة (التي تقع خطأ من الحلفاء)، ومقتل ناشطين وسقوط ضحايا، ويستخدم الاستعمار بدل الاستخراب والمستوطنات بدل المدن غير القانونية تضليلًا، والإعلاميون يجتمعون في الباطل، ويختلفون في الحق، فلا يختلفون فيما ينقلونه عن الإعلام الغربي الموجه للعرب، ويختلفون في ثوابتهم وعقيدتهم، بل ينكرون ما يجهلونه منها؛ لجهلهم بها، وحجتهم مرجعيتهم المعرفية الضحلة التي لا يستوعبون بها فهم دينهم ومعرفة ثقافتهم.

وقد يكون التحسين في المهمة: العميل (الجاسوس) والعميل المزدوج (المتخابر لصالح الطرفين)، والحليف والصديق والرفيق (العميل والتابع، وهو الخائن في الشرع وفي العرف الوطني والقومي)، وهم "الحكام بالوكالة" و"رعاة النفوذ الأمريكي وحماته"، وكان الحاكم المصري "الحليف الإستراتيجي" بمعنى الراعي الأول للنفوذ الأمريكي في المنطقة، وهو رأس محور الاعتدال، وقد ذكر تشومسكي في كتابه "أوهام الشرق الأوسط" أن لهذه الطبقة الحاكمة الموالية لـ"شرطي العالم"(الولايات المتحدة) مطلق الحرية في سياسة شعوبهم، فكل ما يخدم المصالح الأمريكية مباح في "مناطق النفوذ الأمريكي"، وأطلق على بريطانيا "الكلب التابع الوفي" يريد موالاة السياسة الأمريكية، وقد أطلقت أمريكا على علاقتها مع العراق في مواجهة إيران "المصاهرة الذهبية"، وهي مرحلة "تدفق الأرباح"، وقد قام بعض العرب بـ"خدمة التوصيل" مجانًا، وقد سلكت أمريكا سياسة "احتواء صحاري المنطقة" و"تأمين الصحراء" و"تحظير الخراف الضالة" في "جزيرة العرب"، و"الدماء العربية الرخيصة"، حيث قتلت إسرائيل نحو خمسة وأربعين ألفًا في لبنان ونحو أربعة آلاف وزيادة في غزة، وهو عدد خارج الإحصاء الأمريكي الذي يبدأ من جندي إسرائيلي فاثنين فثلاثة، وهذا العدد يكفي لاتهام المجاهدين الفلسطينيين

بمجرمي الحرب والإبادة وأعداء الإنسانية وأعداء السلام، وتبيح لإسرائيل "الحرب الشاملة" تحت تسمية "الدفاع عن النفس"، وهي حرب الإبادة والتطهير، وجعلت الصواريخ اليدوية البدائية بمنزلة "الترسانة الحربية"، والمنكر أن يتاجر السلطيون العرب بأرواح أمتهم، فيدعون إلى التهدئة وضبط النفس ووقف الاعتداء من كلا الطرفين، فجعلوا الضحية والقاتل سواء، ولا يجرؤ "الحليف الإستراتيجي"(العميل) على إدانة من قتل الآلاف ودمر المدن واستخدم الأسلحة المحظورة دوليًّا (المحرمة)، والحلفاء الآخرون يأخذون برخص الصمت والشجب والاستنكار والسماح لأئمة المساجد بالدعاء للمنكوبين والمقتولين دون المجاهرة بذكر القاتل، وبعض الأحرار دعا إلى إحياء سنة القنوت للدعاء على مبيدي المسلمين وصلاة الغائب على ضحايا المسلمين في الأرض، فكل ما يُبتلى به المسلمون فيه خير لهم، فقد أحيينا كل سنن الابتلاء المتروكة بعد أن صارت دماء المسلمين أرخص الدماء!

وقد استخدم الإعلام العربي التحسين استجابة للضغوط السياسية، فترك لغة الممانعة، وسالم عدو وطنه بلغة التلطف، فقد ترك الصهيونية والعدو والاحتلال، واستخدم دولة إسرائيل، وخلا الخطاب الإخباري والمناهج التعليمية من كل ما كل ما يشير إلى تاريخهم السيئ وعداوتهم المسلمين واحتلالهم وأنهم العدو الأول، واستخدم لغة التحسين فيما يرضي الصهيونية وحلفاءها، في حين يجرد المجاهدين والمرابطين في فلسطين من صفاتهم وحقوقهم في خطابه المضلل عنهم.

ر- النظام العالمي: هو من العوامل المعاصرة التي فرضت في ظل الإعلام العالمي والمؤسسات الدولية وهيمنة القوة الاقتصادية والعسكرية وتطور وسائل الإعلام والتواصل والنقل السريع والتقنية العلمية والثورة المعلوماتية الحديثة والانفتاح على العالم الخارجي وسرعة التواصل معه، ولهذا كله أثره في الدلالة والمفهوم والمعرفة والفكر، وقد ظهر معجم حديث يعبر عن هذه الثقافة العامة، ومن هذا مصطلحات: حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية والانتخابات النزيهة والليبرالية.

ثانيًا: عوامل تحدر المصطلح في الخطاب:

المراد بالتحدر اللغوي (الانتكاس والانحطاط والابتذال الدلالي: Degeneration): تحدر اللغة من مرتقاها في التعبير والمعنى والأسلوب والخطاب (الاستعمال)، والتحدر في المعنى: انحطاطه وتسفله وابتذاله وانحرافه وتحيزه إلى جزء من معانيه، والتحدر والانحدار الهبوط والنزول من علو، والانحطاط يكون في المعاني النبيلة والقيم والأخلاق، وبعض الباحثين خلطوا بين التطور في المعنى والخطأ والتزييف، فالعبث باللغة ليس تطورًا بل إفساد، فالتطور ارتقاء باللفظ وبمعناه، ويرجع التحدر في المعنى إلى أسباب، منها:

أ- الانحطاط الاجتماعي: اللغة قيد المجتمع الذي تعبر عنه، فترتقي برقيه، وتنحدر بانحطاطه الفكري والحضاري والخلقي، فيفشو اللحن والتحريف والابتذال والضعف، فتحتقر اللغة اجتماعيًّا، وتُقصى دوليًّا؛ لضعف الدولة التي تتخذها لغة قومية، ويؤثر هذا في تراجع بعض المعاني عن دلالتها المستحسنة إلى دلالة مبتزلة؛ كاحتقار الألفاظ التي تدل على منازل الناس ومراتبهم في العمل، فتبتذل في غير مواضعها، نحو: الريِّس والباشا، وابن العائلة وابن الناس.

وساهم الإعلام في الحط من بعض الألفاظ وتحييدها، منها: الشيخ والأستاذ والمفكر والرمز الاجتماعي، فالشيخ جسَّده الإعلام في الرجل العشواء المتبذل في الزي والسلوك، وضرب المثل بالشيخ المعمم في البلاهة تشويهًا، وصارت عِمامة الشيخ رمز الخداع، يقال: "ألبسه العِمامة": خدعه، و"ألبسه الطربوش" الذي صار رمز الرعونة، ومثله الأستاذ: السُّخرة من تلاميذه والنهم في ابتزاز أموالهم، والمفكر: أوقف على فئة الخوارج على الدين والعرف وخصوم التيار الديني وعلماء البلاط أو السلطة والشذاذ في الرأي والمشعوذين والهراطقة، والرمز الاجتماعي عُدل به عن النموذج القدوة الذي يحتذى في الخلق والممارسة والفكر والرواد الأفذاذ والزعماء والعلماء، إلى ثلة التشخيص والملاهي، ناهيك عن تحقير العلماء وتشويههم، ونقيض هذا تزيين بعض أصحاب المهن الوضيعة التي عفها المجتمع المتدين الراقي، مثل: التشخيص والترقيص والتزمير، وأصولها: لا تحمل دلالة مبتذلة، فالتشخيص: التجسيد والتجسيم ومثله التمثيل: ضرب المثل وعمل مثال الشيء

وصنوه، وقد اشتهر بتجسيد الشخصية الفنية، وقد كان عملًا مستهجنًا عند المسلمين والمثقفين والأشراف؛ لكونه عملًا حقيرًا معيبًا، يترفع عنه الأحرار، وكان المشخص غير ثقة، فلا تقبل شهادته في التقاضي، ولا يُزوج من الأسر الشريفة، وكان محترفوه من المهمشين الأوباش والجُلَّاب والمقطوعين واللقطاء، ومنهم قديمًا "الحبشة" (لاعبو الحراب)، ثم الغجر والهنجرانية والتتر والنَّور والمساليب، وهم من المهمشين المنتسبين إلى قبائل عربية، وقد عرفوا بأصحاب المساخر، وبعضهم احترف السرقة بعد كساد مهنتهم، ولا تحترفه بنات الأشراف، وقد امتهنته في البدء بعض الكتابيات وبنات الإيواء والمجهولات، وعرفن بالعوالم (صواحب الأعلام)، والتزمير: سمي تطريبًا، أي: تطريب الجمهور بالآلة، وأصله تحسين الصوت وتمديد مدوده وترجيعه في المباح دون آلة، ومنه تطريب القرآن الكريم بلحون العرب: أداؤه العربي التعبيري، وهو التغنِّي به تجويدًا وترجيعًا، فابتذله المغنون في غناء الشعر، وصار أهل التزمير من محترفي العمل بالآلة في الملاهي والترقيص مطربين ومُلحنين، فابتُذلَ لفظًا التطريب والتلحين، واستخدم لفظ التطريب في غير موضعه وسياقه وأهله، وكذلك لفظ التغنِّي: الترتيل والإنشاد والترنُّم، ومنه التغني بالقرآن، فصار وقفًا على الميل بالصوت مصحوبًا بالتزمير، وبعض العلماء احتج بغناء الجواري وحُداة الإبل والترنم بالشعر أو إنشاده في المسجد في العهد النبوي في تجويز إسفاف عصرنا، والقياس فاسد، فحكم الجواري والإماء (الخادمات غير الحرائر) غير حكم الحرائر العواقل، وحكم تطريب الإبل لتنشط في سيرها ولجمعها غير إثارة البشر، والإنشاد يختلف عما عليه غناء عصرنا، ومثله التحبير: تزيين الصوت وتحسينه وتجويده، ثم استقر معناه على تحبير الخط بالمداد: تزيينه وتنميقه، وتلحين القرآن: تطريب الصوت به بترنيم الحروف، وإطالة المدود بأقدار معلومه، واللحن: الأداء الصوتي الحسن، والقراءة بالألحان للتعبير عن المعاني وللتأثير دون مبالغة جائزة، بل مستحبة في إظهار المعاني والتعبير عنها[1]، وهي مردودة بقوانين الموسيقى، ولَحْنُ القول: فحواه وما

---

(١) روى الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: "ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن"، وروى أبو داود والنسائي وغيرهما عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: "زينوا القرآن بأصواتكم"، وهذا عام للرجال وهو للنساء دون إسماع الرجال، والمراد تحسين الصوت بالقرآن ليقع في القلوب، وحكم =

يفهمه السامع بالتأمل فيه من وراء لفظه، قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠]، واللحن: الأداء الصوتي الخاص تحبيرًا ومدًّا، وهو اللهجة، ومنه "لحن قريش": لهجتهم، و"لحون العرب": لهجاتهم، والجمع: ألحان ولحون، ولا يعرف الإعلام منها غير التزمير والعزف (صوت الدف ونواح الناي والعود والطنبور وصوت الريح عند احتكاكها بالرمال وصوت المطر في الصحراء)، والإنشاد: أنشد الشعر قاله مُسمعًا، وألقاه مجوّدًا، والترنم بما ينشد في الأداء، والتجويد: إخرج الصوت من مخرجه وتمكينه منه من غير غنة، والغُنة: أصلها غنة الصوت في تجويف الأنف وإخراجه منه، وهي في النون المغلظة والميم، ثم أطلقت في تطريب الصوت، والصوت الأغن: الحسن المطرب، والأُغنية: ما يُترنَّم به من الكلام الموزون وغيره، والجمع: أَغانٍ، والملاحن: وقد توهم العامة أن الكتب التراثية التي تسمت بالأغاني والملاحن صنو ما نسمعه الآن، وقد أطلق المتقدمون على تجويد الصوت: تحبيره، والملاحن: الألغاز اللغوية تفسر بالفطنة، ويراد غير ظاهر لفظها، ومنها التورية باللفظ والمعاريض والأحاجي اللغوية، وقد ألف فيه بعض الأفاضل أشهرهم ابن دريد الأزدي (٣٢١هـ)، ثم أطلقت على تحبير الصوت وتحسينه، والرقص والترقيص: في الكلام بمعنى: سوء الكلام أو العجلة فيه والسرعة، والرقص في الحركة: رفع الجسم وخفضه والقفز والاستدارة والخيلاء عُجْبًا وكيدًا: ومنه في التراث رقص الجنود لرفع الروح المعنوية وإحباط العدو ورقص النشوة فرحًا، ولم يبق منه غير ما افتن به نساء عصرنا من حركات الإثارة، والفن: النوع والصنف، كفنون العلوم: فن الأدب والمنطق، ثم اختص بالتطبيق العملي في العلوم كفن التفسير وفن الآلة (الهندسة)، ومصطلحه: القواعد المتبعة في الحرفة وضوابطها ووسائلها وممارستها ومرانها، واستقر أخيرًا في العلوم النظرية والملاهي كمجالات الأدب (الشعر والقصة) والتشخيص

=

قراءته بالألحان: التحريم فيما جاوز الاعتدال وخرج به إلى مشابهة الغناء، حكى عبد الوهاب المالكي عن مالك تحريم القراءة بالألحان، وحكاه أبو الطيب الطبري والماوردي وابن حمدان الحنبلي عن جماعة من أهل العلم، ومثله التطريب والتغني بالأذان، فقد كرهه السلف، روى ابن أبي شيبة عن عمر بن سعيد بن أبي الحسن أن مؤذنًا أذن فطرَّب في أذانه، فقال له عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أذن أذانًا سمحًا وإلا فاعتزلنا"، والله أعلم.

والغناء (بكل أشكاله) والتصوير والرسم والموسيقى، ولم يبق من معاني هذه الألفاظ غير المعاني الضيقة التي يستخدمها الإعلام والمتبذِّلون.

والانحطاط الأخلاقي عامل رئيس في تسفيل الدلالة، فالقيم الأخلاقية تصبح سُخْرة وتبتذل في الفعل ويستهزأ بأصحابها، وهنالك ألفاظ تستخدم بمعنى نقيضها في الخطاب السياسي الفاسد، نحو: الحليف والصديق: العميل، والمرونة السياسية تعني الاستجابة للإغراء والمطامع والمساومة والرِّشا، والعمولة: الرشوة والسمسرة، والهدية: الرشوة، وأبناء الناس وأبناء العائلات وأبناء الذوات: أصحاب الثروة دون اعتبار مصدرها، ولا يراد بها الحسَب والنسب (حسن السيرة والتاريخ وكرم الأصل)، والصديقة: المومس وفتاة الليل ونساء المتعة.

ومنه قلب المعايير الأخلاقية عند العامة، مثل: الشطارة والشاطر: قطع الطريق واحترافه، ثم استخدم بمعنى المهارة في المحاسن، وأبناء الشوارع تلطف في المشردين.

وبعض الألفاظ ساءت معانيها نحو: الاحتيال من الحيَل: تعدد وجوه إتيان الشيء، والمهارة في الحركة: "حال الشخص يحول إذا تحرك"[1]، والحذق وحسن التصرف: "الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف"[2]، ثم ابتذل المعنى في تحصيل الفعل من كل الوجوه، نحو: الاحتيال السياسي: الخداع والمراوغة، والاحتيال في طلب المال: تحصيله من وجوه غير مشروعة؛ كالخداع والغش والغبن.

ب- الانحطاط الحضاري: الذي يعكس على دلالة اللفظ، فالمعاني تتراجع أو تتجمد عند مرحلة معينة، أو تُرد إلى وضعها الأول، مثل: الخليفة التي أطلقت على منصب زعيم الأمة العظمى الذي تراجع إلى وضعه الأول، وهو من يخلف غيره، وأطلق على رئاسة الطرق الصوفية والجماعات والفرق، وبعض الألفاظ التي تحمل دلالة حسنة ابتُزلت، مثل: المُعلم والمهندس، وكلمة "الحاجب" كانت تعني في الدولة الأندلسية: "رئيس الوزراء" ثم انحدرت في وقتنا الحاضر إلى معنى "البواب"، وكلمة "الوزير" العربية

(١) ارجع إلى: أساس البلاغة، للزمخشري، مادة: حول، ص ١٤٨.
(٢) لسان العرب (حول)، ج ١١/١٨٥.

أصبحت تعني في الإسبانية "الشرطي"[(١)]، ومثلها "الكاتب" الذي بلغ درجة الوزير الأول في الدولة الأموية، وكانت في أهل المواهب والعلم والخط والأدب، وكان لها شأن عظيم في دواوين الدولة، وفي ارتقاء المناصب العليا، ثم أطلقت على موظفي الدولة "باشا كاتب" (كبير الكُتاب، أو رئيس ديوان الموظفين أو رئيس الديوان الأميري، ثم رئيس الأرشيف) ثم تحدرت إلى عامة الموظفين، ثم صارت ارتزاقًا أمام المؤسسات الحكومية مقابل أجر زهيد، وكلمة "باشا" (با شاه) من ألقاب السيادة في الدولة العثمانية (تابع الملك)، وكانت تمنح من السلطان لكبار رجال الدول، ثم فُوض الولاة بمنحها في الولايات، صار لقب المهنيين وبعض الرتب السفلى في العسكر والشُّرَطيين، وبعض المترجمين الحَرْفيين غير المحترفين زعموا أنه "قدم الملك" وفق ترجمته التركيبية، والثابت أنه يعني في التعبير المجازي مساعد الملك أو مساعد السيد، مثل قولنا في دارج الخطاب المصري: فلان ذراع أبيه ورجله أو يده ورجله، يُراد أنه عون أبيه.

ج- الأسباب السياسية: تتغير المصطلحات السياسية والإعلامية بنفوذ السلطة والقوة ورأس المال والهيمنة على الإعلام المحلي والدولي، والخطاب السياسي تعبير عن ممارسة قائليه صادقًا أو كاذبًا، وتعرف المعاني من مواقعتها واقعها وارتباطها بسياقيها السياسي، وهو المنهج الذي سلكته في بحث المفاهيم، وقد ظهر في كنف الفساد السياسي معاني تجسد التراجع السياسي وتقهقر الدولة، فظهرت السياسة الردية: التشكيك والتخوين والاتهام والاحتقار والتعالي، فالسلطة تهمش معارضيها وتحتقرهم إعلاميًّا، فتسميهم "فئةً" و"قلة" و"حفنة" احتقارًا واستعداءً، وظهرت الثلالية (الشلالية) في الممارسة السياسية، وقد أطلق على السلطة مصطلح "النظام"؛ للتحول من قيادة عامة للدولة إلى منظمة أو تنظيم يحميه الأمن ويتعزز بالدستور في شرعيته التي استحوذ عليها بالقوة، ويستغل موارد الدولة في تعزيز وجوده، والعُجاب أن السلطة نفسها استخدمت مصطلح "النظام" عن جهل منها بأصله ومدلوله الحقيقي، وقد اعترفت السلطات الأخرى به،

(١) ارجع إلى: دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، ص ١٥٧، والتطور اللغوي، د. رمضان عبد التواب، ص ١١٤.

فصارت "أنظمة" وعرت نفسها من لقب "حكومات"، فأسقطت شرعيتها قبل أن تسقطها شعوبها.

وتفرض الدول الكبري ما تراه بواسطة سطوتها الإعلاميها التي تتبعها وسائل الإعلام العالمية في القول والرأي والتوجيه، ولا شك أن الدول الكبرى تملك مؤسسات إعلامية ضخمة وواسعة الانتشار وذات تقنية عالية، تمكنها من غزو الدول الفقيرة وتوجيهها، وقد سمت الدول الكبرى حربيها الأولى والثانية بالحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، وهما حربان داخل أوربا ومناطق نفوذ الدول المتقاتلة في العالم، وقد أطلقت القوة الكبرى على شروطها التي تفرضها: السلام الدولي والحل الدولي والمشروع الدولي والعدالة الدولية، والرافض لها: المارق والمتمرد والإرهابي وعدو السلام.

ومنها العدول عن المصطلح إلى آخر مجرد من بعض قيمه، نحو: الجهاد ومشتقاته تركوها إلى الحرب والمقاومة والدفاع والقتال، والمجاهد: المقاوم والناشط، والتشريع والشريعة: القانون والدستور، والشورى: المناقشة والمباحثة والاستفتاء، والمبايعة: الانتخاب والاقتراع، وقد أثار الإعلام مخاوف الجمهور من الجهاد والحرابة والشريعة والسلفية والتيار الإسلامي.

ويستخدم الإعلام السلطي مصطلحات سلبية في وصف خصومه السياسيين، فالثوار: المخربون، الجماعات التخريبية، المتآمرون، المجموعات المسلحة، وقد تصفهم وصفًا تبناه خصومها، ومنه: تنظيم القاعدة، والقناصة، والمندسون، والعناصر المأجورة. وقد تحمله على مفهوم المصطلح الغربي المشوه، نحو: الأصولية المتطرفة (Fundamentalism)، ويصفون الخلافة بالحكم الديني (Theocracy).

وجاء في المقابل: الجيش المواجه للثورة أو حماة الديار: جيش السلطة، جيش النظام، كتائب السلطة، الجيش النظامي، المرتزقة، الكتائب، جيش الشبيحة، وقد تبين في الثورات أن السلطة استطاعت اختزال الجيش الوطني في حزبها وطائفتها وأنصارها؛ لطول عهدها بالسلطة.

وتسمي الثورة: المؤامرة، المؤامرة الدولية، المؤامرة الكونية، إسقاط الدولة، هدم حائط الممانعة، إسقاط جبهة الصمود، الاعتداء على الممتلكات، تخريب المنشآت العامة، وتسمي قمع الثورة بقوة الجيش والأمن: فض الاشتباك والاشتباك مع المتظاهرين، تراجع المواطنين، الانسحاب التلقائي، إنهاء العنف، وقف العنف، حفظ الأمن.

وقد يكون المصطلح الدولي وليد الموقف السياسي، مثل: الدول المارقة " Rogue States" (الدول التي لا تخضع للسياسة الأمريكية، وهي: أفغانستان وإيران وسوريا والعراق في فترة حكم المتشددين الأمريكيين من أتباع الكنيسة الجديدة)، ومثله: محور الشر، وهي الدول التي تهدد مصادر الطاقة الأمريكية والغربية، وحقيقة التركيب الذين لا يستجيبون لسياسة مرودهم، فالدول التي بها مصالح يجب أن تدخل الحظيرة الأمريكية، ويهددون المصالح الغربية، قال محمود عكاشة: "ابحث عن سياسة مصادر الثروة والطاقة في رائحة أفواه الصقور الغربيين، ونقِّب عن النفط تحت القوات الأمريكية"، وتسمي نفوذها العسكري تأمين المصالح الحيوية، وهي تبغي تأمين مصادر النفط.

وقد تكون التسمية رد فعل غير مباشر على السلطة، نحو إطلاق لفظ "المليشيات" (Milices) (Militias) على جهاز الأمن الداخلي وكتائب النظام، وقد أطلق على بعض الجيوش غير الوطنية "الكتائب" و"جيش النظام"، وأطلقوا على رجال الشرطة "تنابلة السلطان"، والتنبل البليد الكسول، وقد أرادوا به رجال الأمن المتسكعون الذين يتطفلون على أرزاق العامة، ويجمع على تنابيل وتنابل وتنابلة، وقد أطلق عليهم هذا عندما تيحيزوا للسلطة الغشوم، وقهروا شعوبهم، فجردهم الشعب من وطنيتهم، وقد تحيز الجيش والأمن إلى الشعب في بعض الدول، فتمسك الشعب بهم، وجعلهم رباط وحدته ودرعه، وهذا شأن الجيوش الوطنية العريقة، ومثله: الفلول: أتباع الأنظمة الفاسدة، مثله: العلوج جمع علج وهو على المشهور في البيئة العربية أبناء الأعاجم من ذوي البشرة الحمراء والأبدان الممتلئة، ثم أطلق على المرفهين من أبناء المترفين، ثم أطلق على أبناء الطبقة السياسية الفاسدة، ويتوهم العامة فيه معنى الشذوذ.

وقد امتد التحريف إلى أسماء مؤسسات الدولة، نحو: وزارة المعارف ووزارة التربية

والتعليم ووزارة الثقافة والإرشاد، وامتد إلى رمز الوطن لأسباب سياسية كتغيير العلم المصري بنجومه الثلاث ولونه الأخضر، واستبدل بالصقر ثم النسر رمزين، وهما من الجوارح العوادي وآكلات الجيف.

والفساد السياسي عامل رئيس في ابتذال الألفاظ وتفريغها من مضمونها، فالسلطيون الاستبداديون يوظفون بعض المصطلحات التي تحمل قيمًا دينية وإنسانية في خدمة سياستهم الفاسدة ومصالحهم، فيطلقون مصطلح "الشريعة" الذي يحمل أصولًا ربانية في الإسلام على ما افتعلته القوة العالمية من قرارات تحقق بها مصالحها وهيمنتها على الدول الضعيفة، فالصامدون أمام الأهداف الغربية خارجون على الشرعية ومارقون ومحور الشر، والقرارات التي فرضتها القوة العالمية على مجلس الأمن في غزو العراق وأفغانستان سموها قوانين الشرعية الدولية، فأسقطوا عليها الصبغة الإلهية؛ لئلا تُنظر أو تُراجع أو تُنقض، وكان من الحكام العرب من يروجون لهذه الأهداف في المنطقة العربية على أنها مشروعة، وقد أطلق عليهم أصحاب المصالح الحلفاء ومحور الاعتدال، وهم في الواقع العملاء، وأطلق المقاومون على أنفسهم جبهة الممانعة والصمود.

ويسمون استبدادهم بالسلطة "البيعة" التي يصفونها بالشعبية والقُطرية والبعثية والديمقراطية، ويسمون توريث السلطة أبناءهم في نظام جمهوري قهرًا "الخلافة"، بل بعض رجال الدين السلطيين يندبون الشعب لما يسمونه "البيعة الشرعية" في النظام الوراثي العضوض، وهي لا تتجاوز الولاية السياسية مجردة من خلفيتها الدينية، ونلاحظ أن هذه المفردات جردت من قيمتها الدينية، واستخدمت بمعناها المعجمي البدائي، وهو تراجع في مفهوم المصطلح وإسقاط قيمته الإسلامية والحضارية، وهي سياسة متبعة في كثير من المصطلحات الدينية المتقدمة، فقد ساهم السلطيون في تحقير المفاهيم وتسطيحها وتضبيب الفكرة من خلال العبث بالمفاهيم والممارسة السياسية وغرابة الأطوار.

ناهيك باستخدام الحرية والشورى والديمقراطية والانتحاب والاستفتاء والمساوة والعدالة الاجتماعية في غير وضعها الاصطلاحي، ووصف ممارستهم بالعدل والوطنية والحيادية والشفافية، وهي متجافية عن واقعها.

وقد بلغ النفوذ السياسي القيم الشعبية، نحو "اليد النظيفة" و"غسيل الأموال"

و"التطهير السياسي"، وهي ذات دلالة سياسية مريبة، تتعلق بـ"طول اليد" التي كانت تطلق مجازًا على الكرم، ثم انتقل إلى نقيض المعنى "السرقة"، ومثله اليد العليا: المُعطية، ثم دل على اليد الباطشة، ومنه في الخطاب السياسي "اليد الطويلة": النفوذ العسكري، والخلاصة أن المعجم السياسي الإعلامي زخم بالدلالات المحيزة عن وضعها، وقد تناولت مفرداته على طول الكتاب.

هـ- تحسين مفهوم الشيء المشين وتلطيف المروع تزييفًا، مثل: التطهير العرقي: إبادة العرق، والنكسة: الهزيمة، ورد الفعل المشبوه بالإدانة والشجب والاستنكار تجاه المجازر، ومن وراء هذه الألفاظ واقع دموي شنيع، وهي لتهوين رد الفعل على الأحداث الدموية المروعة، وجاء في المثل الصيني: "أن الرغبة الملحة بالإدانة، تختلق أدلة التجريم".

وبعض المفردات وضعت لغير تسميتها الصحيحة أو تسمية الشيء بغير مسماه الحقيقي، ومنه: الاستعمار، وأصل التسمية: النهب والتخريب والاحتلال واغتصاب الأوطان، وليس تعميرًا، والمستوطنات: مدن الغزاة غير القانونية (بؤر الغزاة)، والشرعية الدولية: قرارات القوى المتواطئة على الغزو، ولفظ "الدبلوماسية" الذي يستخدم في المخادعة، فبعض الدبلوماسيين يرون: "أن الدبلوماسية عملية مراوغة مشروعة في العمل السياسي حتى مع الحلفاء".

وقد يستخدم التحسين في الخداع، وهو من التحدر؛ لأنه تغيير الوضع باستخدام الألفاظ لغير ما هي له، ومنها توظيف الكلمات في الإعلام؛ توطئة للغزو من أجل "الأمن القومي الأمريكي" و"الدفاع عن الديمقراطية"، و"الحرب على الإرهاب"، والمراد الحرب على الإسلام وأمن إسرائيل وحصار إيران والسيطرة على منابع النفط.

وقد زعم النظام الأمريكي أنه "ملتزم بدعم الحكومات التي تعكس إرادة الشعب"، و"دعمه لأحقية العيش كما اختارها الإنسان"، والواقع أنه يدعم الأنظمة الاستبدادية التي توجه شعوبها نحو مطالب أمريكا.

والتسمية المتناقضة من صور التحريف والتضليل وتفريغ اللغة من المضمون، ومنه: العبث بالمكون الاجتماعي السياسي للأمة العربية، بما يعرف بـ "الفوضى الخلاقة"،

والفوضى لا تخلق ولا تبدع، بل تدمر، وليست إلا إيجاد واقع سياسي جديد، قائم على تقسيم المجزأ، بإحياء الصراع الإثني والطائفي والمذهبي بين مكونات الأمة العربية، ومثاله الأول لبنان ثم العراق ثم سوريا واليمن وليبيا.

و- تخصيص المعنى (Narrowing): تخصيص اللفظ العام لمعنى خاص أو لجزء من معناه، ويسمى الاختزال، وهو مبحث لغوي قديم، وهو من مباحث الدلالة عند الأصوليين، وقد عقد السيوطي مبحثًا في كتابه: "المزهر"، عنوانه: "فيما وضع عامًّا واستعمل خاصًّا"، والباحثون المعاصرون ينسبونه إلى الغربيين، ويستشهدون فيه بكلمات أجنبية لا عربية نقلا عنهم!، وهو معروف عند الأصوليين المفسرين واللغويين والبلاغيين، وبعضه وقع لأسباب علمية وبعضها لأسباب حضارية واجتماعية، والأسباب العلمية الشرعية المصطلحات الشرعية، مثل: الشهادة والإسلام والصلاة والصوم والحج والزكاة، خصصت لمفاهيم شرعية، وممن الألفاظ الاجتماعية: "المأتم" التي خصصت لمعنى اجتماع الناس في المصيبة، وأصلها الاجتماع في كل محفل، وهي خلاف توسعة كلمة "القوم" التي عامة في الرجال والنساء، والأصل أنها للرجال فقط، فاتسع معناها، وتخصيص كلمة "الحريم" للنساء فقط بعد أن كانت تطلق على كل مُحرم لا يمس، ويرجع هذا لشدة غيرة العرب على نسائهم، وتخصيص مسمى "الولد" للذكور، وهو لكل مولود من النوعين، وتخصيص كلمة "الزوج" للرجل، وهو للزوجين معًا، ويجوز تأنيثه للأنثى "زوجة"، والأفصح فيما ليس فيه ليس فيه التباس مسمى "زوج" للمرأة، ولا تؤنث الصفات الخاصة بالإناث تخصيصًا؛ لأنها مخصصة بالوصف البيولوجي أو الشرعي دون التأنيث اللفظي، نحو: حائض وطامث ومرضع ومئناث ومذكار (تلد الإناث أو الذكور فقط)، والشرعي: ناشز وطالق.

وقد يقلل اختزال المصطلح في جزء من معناه من قيمته الشرعية والاجتماعية، مثل اختزال "الشريعة" في القطع والجلد والتضييق على الناس دون العدل وحفظ الحقوق المصالح وجلب المنافع والأمن وضبط المعاملات والعلاقات وفض التنازع وسد باب التنازع والفتن والمظالم، وحبس مفهوم الإسلام على المخالفة في الاعتقاد بين المسلمين ومن خالفهم. ومن الكلمات التي خصصت كلمة "الطهارة"، فقد أصبحت تعني الختان

في الخطاب اليومي، وأصلها عامة في كل طهر، ومثله بعض الألقاب ذات القيم الاجتماعية التي اختزلت في رتب مهنية، مثل: اللواء والمقدم والرائد والنقيب والرئيس والشريف والحاكم والحَكَم.

وقد استخدم التخصيص في الخطاب السياسي للاستحواذ الدلالي، مثل: الحزب الوطني (يوجه إلى تخصيصهم بالوطنية)، والإخوان المسلمون يوجه إلى اختصاصهم بالأخوة والدين، والسلفية والسلفيون (يخصص لفئة دون عموم أهل السنة)، والأقباط الذي أطلق على عموم أهل مصر في الاحتلال الإغريقي والروماني قبل الإسلام، فجعله النصارى قصرًا عليهم لغرض سياسي، وهو تأصيل عنصرهم في الوطن، وأشاعته وسائل الإعلام بهذا التخصيص؛ لجهلها بمصدره ومعناه، ومنه التجزيء الوطني كقولهم حقوق أهل النوبة وأهل سيناء والأمازير والأكراد والأفارقة، وهي كلها تدخل تحت المواطنة العامة التي عبث بها الإعلام، فدس عليها مفهوم العلمانية بمدلولها الدنيوي، فحيَّزها عن الانتماء الوطني إلى الانتماء الدهري، وحمل الدولة المدنية على معنى الدولة العلمانية التي تقصي الدين وتجافيه، فهم يسقطون عليه المفهوم الأوربي المقابل للدولة الدينية، ومعناه العربي يحمل قيم الحضارة والرخاء، والانتقال من البداوة والبدائية إلى الحضرية، ولا يتعارض هذا مع ديننا.

ز- انحدار المصطلح وتضييق استعماله: هو تحول الأفضل إلى الأدنى، ويطلق عليه انحدار المعنى (Degeneration) أو انحطاط الدلالة؛ كتراجع استخدام المصطلح من سعة إلى ضيق، وتضييق المفهوم في جزء ضيق من معناه أو انحداره لما هو أقل منه؛ كاختزال مفهوم الخلافة الإسلامية في الأنظمة الوراثية التي قامت بعد الخلفاء الراشدين، وهي الأنظمة العضوضة التي اختزل فيها النظام السياسي في الإسلام[1]، وكإطلاق

(١) قد يستدعي المفهوم التراثي المرتبط بمرحلة النموذج الحضاري المفقود لشيء وضيع أو أقل منه رتبة؛ كاستدعاء مصطلح "الخلافة" الذي مثل مرحلة القمة الحضارية العالمية في الدولة الأسرية (الأموية والعباسية ودولة السلاطين)، والخلافة بما تحمله من بعد ديني وتاريخي يشق طرحها وتطبيقها في الواقع المعاصر؛ لأن أركان قيامها غير قائمة في الواقع، وندعو الله تعالى أن يهدي المسلمين إلى أمر رشد يجتمعون عليه، والوحدة الإسلامية القادمة لن تكون اجترار النمط التاريخي السابق في الواقع، بل ستجتر التسميات =

مصطلح الاشتراكية على الفكر الماركسي، ومصطلح الديمقراطية على النظام الليبرالي الرأسمالي، واختزال الإسلام في السياسية أو في سلوك بعض المسلمين والعناصر المتشددة، واختزال الدولة في الرئيس، واختزال الشعب في برلمانيين معينين.

وقد يرجع تضييق المعنى للتحدر الحضاري؛ كتضييق مفهوم "الخلافة" في فرق الدراويش، وانحطاط لفظ "المعلم" لتردي وضعه الاجتماعي، ومثله: الرئيس التي يستخدمها العمال، وتضييق "الطهارة" في الاغتسال والاستنجاء، وهي عامة في كل طهر.

وقد يزاح اللفظ عن معناه العام للدلالة على جزء منه؛ للتهوين من دلالته وأثره، نحو: الحرامي: المنسوب إلى اكتناف الحرام، ثم خصص لمعنى السرقة، فصار: اللص، ومثله: الحريم: "الذي حرم مسه فلا يدنى منه"[1]، ثم استخدمت بمعنى النساء، ثم ابتذلت لمعنى النساء الخوادم أو الجواري من الطبقة الدنيا دون هوانم الطبقة العليا، ومثلها: الحُرمة والولية والمرأة في خطاب العوام، وهي ألفاظ تتأفف منها بعض الطبقات، وبعضها عد سُبة مثل: النسوة والنسوان والولية، والأولى والثانية جمعان للقلة والكثرة، والثالثة مؤنث وليّ، ويراد بها التابعة، وهو كناية عن المرأة التي تتبع وليّها، وتفسيره بالبرذعة أو الوكاف وما يوضع على ظهر الركوبة بعيد عن الذوق وحرمتها في المجتمع المسلم.

ونلاحظ انزواء بعض الألفاظ، وانحدار بعض الألقاب؛ مثل باشا، بك أو بيه، وأفندي، بعد أن حُط قدرها بسبب منع السلطة استخدامها رسميًّا، فقام الإعلام بتشويهها، فجردت "باشا" من منزلتها الطبقية، وجردت "بك" و"أفندي" من قيمتها الاجتماعية، وكانت ذوات قيمة في العهد العثماني، وتمنحها الدولة، ومثل: حكمدار رئيس المؤسسة، استخدم لرتبة متواضعة، وكلمة "Ministro" (الوزير) نزلت في الخطاب

=

فقط، ويختلف الهيكل والمضمون، وقد أعيد طرح مصطلح الخلافة والخليفة في حيز ضيق لا يتجاوز رئيس طريقة كالصوفية (شيخ الطريقة) أو طائفة كالأحمدية، وهنالك مصطلحات وألقاب وقعت في حيز معاصر ضيق، مثل: أمير المؤمنين والأمير والسلطان.

(١) لسان العرب: (حرم)، ج ١٢/ ١٢٠.

الإسباني إلى رتبة (الشرطي)، وصارت في اللغة الإيطالية تعني (مساعد القائم بالإعدام: عشماوي).

ح- تحييد المعنى: تحييده إلى جزء من معناه أو تعميمه عليه نحو: المال العام: المراد مال الشعب أو الدولة، وهو ملك عموم الشعب، والمال العام يحمل دلالة الشيوع وكذلك الملكية العامة، فهو مستباح من السلطة، التي استبدت بمصاريفه، فاستقر في الوعي الشعبي أنه "مال الحكومة" و"أرض الحكومة" و"مؤسسة الحكومة"، وليس مال الدولة أو مال الشعب.

وقد يكون التحييد في دور مؤسسات الدولة الحيوية؛ لتحكم سيطرتها عليها ولتقصيها عن دورها الشعبي الفعال، وذلك بتغيير تسميتها أو بتنحيتها عن واجبها الجماهيري، نحو: وزارة الأوقاف، وهي في الأصل وزارة الدعوة والإرشاد والوعظ والشئون الإسلامية، والأوقاف جزء من مؤسساتها، ولكن السلطة - بأمر من الاحتلال - صيرتها كلها وقفًا لتحصيل المنفعة وإحكام السيطرة بولاية وزير يخضع للسلطة، فتحولت الوزارة إلى مؤسسة يديرها موظفون، وصار الدعاة الوعاظ موظفين، وصارت على رأس المؤسسات الفاسدة في الدولة! وشاع هذا في البلاد الإسلامية.

وقد لجأت السلطة إلى تجميد بعض المؤسسات الحيوية، فكبلت إرادتها وورونت أقطابها نحو: "شيخ الأزهر" موظف يخضع لكادر حكومي يتبع رئاسة الوزراء، واستحدث منصب "مفتي الدولة أو مفتي المملكة ثم مفتي الجمهورية"؛ ليكون جبهة أخرى في مواجهة شيخ الأزهر، تستخدمه السلطة عندما يتعزز شيخ الأزهر، واكتمل التثليث بوزارة الأوقاف[1]، فاختلفوا في الدين والاختصاص والنفوذ، وأضيف لفظ

(١) كانت وزارة الأوقاف زمن محمد علي يوان الأوقاف، ثم صارت نظارة الأوقاف (وزارة الأوقاف)، وكانت تعنى بإدارة الوقف الخيري ونفقته على المساجد والمعاهد الدينية والمشافي وطلاب العلم الشرعي وسبل الخير، وتدخلت السلطة فيها وفي شئون المساجد للهيمنة عليها معًا عام ١٩٥٣م، وأصدرت القانون رقم ٢٤٧ الذي قضى بنقل الإشراف على المساجد الموقوف عليها وقفًا خيريًّا إلى وزارة الأوقاف، ثم صدر القانون رقم ١٥٧ لسنة ١٩٦٠م الذي قضى بضم جميع المساجد الأهلية للوزارة أيضًا، لمنعها من التيارات الدينية، وليس خدمة للدين، وقد واكبت إخضاعها الكامل لوزارة الأوقاف، وتحولها إلى مؤسسة حكومة =

المفتي إلى الجمهورية (مفتي الجمهورية أو السلطة)؛ لتستخرج منه الفتوى السياسية عند الحاجة، واقتطعت السلطة الأوقاف الإسلامية من سلطة شيخ الأزهر، وجعلتها وزارة الأوقاف، وأسندتها إلى وزير حكومي، والعُجاب أنها انتزعت الاختصاصات الدينية الأساسية من شيخ الأزهر، وهي الدعوة والوعظ والدعاة والمساجد، وجعلتها من اختصاص وزارة الأوقاف؛ لتدخل حيز الوقف في التجميد والتحنيط، وليتحول الدعاة إلى موظفين، واستبقت لشيخ الأزهر الجامع الأزهر والمدارس والمعاهد، دون الجامعة التي تحمل اسم الأزهر فقط، فهي في الحقيقة تتبع سلطة الحكومة، وأصبح شيخ الأزهر مدير مؤسسات تعليمية، واسمًا مجردًا من أداء عمله القيادي الشعبي والدعوي والإرشادي والسيادي على المؤسسات الإسلامية، وزعيمًا عامًّا في العالم الإسلامي، فقد اكتسب هذه الزعامة بعد سقوط الخلافة، وبنضاله التاريخي، وبأداء واجبه العلمي، وبمنزلته التي اكتسبها من جهوده الإسلامية، والهدف إقصاؤه عن دوره التاريخي، الذي أعطى مصر مهابة ومنزلة فوق منازلها، وجعل علماءه فوق السلطة، وقد تجلى دوره الداخلي في الانتصاف للشعب من السلطة المستبدة والمنحرفة عن واجبها، والحفاظ على الدولة والأمن العام عند سقوط السلطة، والعُجاب أن السلطة التي استولت على أوقاف الإسلامية كاملة، لم تمس أوقاف الكنيسة، وأنها جعلت تعيين شيخ الأزهر من سلطة رئيس الدولة، وتركت اختيار كبير الكنيسة (بابا الكنيسة) لمجلس كنسي يختاره! والتعصب هنا ضد المسلمين.

وقد نجحت السلطة - التي سمت نفسها جمهورية - في الإجهاز على ما بقي من منزلة منصب شيخ الأزهر وهيبته، وقوضت سلطانه في القلوب داخل الدولة وخارجها وهمشته شعبيًّا، وحددت نفوذه الداخلي والخارجي، وأسقطت زعامته العالمية، ناهيك عما

=

مهملة دون أئمة أو دعاة، وقد فقدت دورها الدعوي، بيد أن الوزارة كانت تسمح للتيار السلفي الوافد من الجزيرة فقط في صعود منابرها بعد تغيب أئمتها، وكان الهدف من تمكين هذا التيار الموالي للسلطة التصدي للإخوان المسلمين، ولم يتتبع جهاز أمن السلطة هذا التيار؛ لأنه كان متصالحًا مع السلطة، ولم يعبأ الأمن بما يقدمه للجماهير من مادة مقبولة اجتماعيًّا أو مرفوضة.

أحدثته في علمائه وتخصيصه لطلاب البيئات المتواضعة وذوي الإعاقة وضعاف المستوى من غير حفظة القرآن والنجباء المتميزين، والتضييق عليه ماليًّا، وتولية مشيخته للضعفاء والمتحزبين لها؛ لإضعافه وتخريبه بعد أن سلبت أوقافه؛ لتنفير المعلمين والطلاب ولتخريب منشآته، وقد أتت هذه السياسة عطبها بعد حين، فبعض خريجيه ضعفاء لا يحفظون القرآن الكريم، وخفاف المؤنة، ومتبذلون سلوكًا ومظهرًا ومغيبون عن حاضرهم، وعدل الناس عن توجيه أولادهم إليه، وأخطر ما ابتلي به الأزهر ووقعت عواقبه على الإسلام والمصريين، تقهقر دعاة الأزهر وعلمائه من ساحة الدعوة الشعبية، أمام تقدم دعاة جدد ذوي انتماءات مذهبية وافدة وفكرية ضيقة لا تمثل كل قيم الإسلام وسماحته وجوهره، الذي يسع البشرية كلها، والروافد الثقافية المتنوعة التي شكلت الشخصية المصرية خاصة، ولا تتكيف مع مرونتها وفطرتها وحسن سجيتها وطبيعة المجتمع المصري الفريدة التي تحتكم إلى حسها ووعيها وتحضرها، ولا ترى من الإسلام إلا الحدود والزي والتضييق على الناس في المباح، والاستعداء على الفرق وغير المسلمين، ولا تقبل اجتهاد مذاهب المسلمين، ومرجعها في التفسير والفهم، متأثر بالبيئة التي نشأ فيها هذا المذهب الذي ينتسب إلى السلف بكل ما يقوله ويفعله، ويحمله تبعاته في الممارسة، وبات هذا التيار غريبًا في المجتمع في الرأي والزي، بيد أنه يتطور تطور وئيدًا، ويتكيف مع المجتمع المصري بعد انخراطه في الشأن العام السياسي والاجتماعي، ويسعى إلى جماهيرية أخرى ينافس بها التيارات الأخرى والأحزاب، ففتح حوارًا يستقطب به التيارات غير الإسلامية والنصارى، وقد ازدهر هذا التيار في الساحة الشعبية؛ بما يأتيه من تمويل، والمساحة التي منحتها له السلطة التي لا يمثل خطرًا عليها؛ ليضيق على الإخوان المسلمين في الدعوة، بما يستقطبه من أتباع وسياسة تشويه علماء الأزهر والتضييق عليهم وتقهقرهم، وبمعاونة وسائل الإعلام المتربحة، بيد أن صديق الأمس صار خطر الغد على السلطة، وقد تحول هذا التيار فجأة إلى العمل السياسي بعد سقوط السلطة، وأثار مخاوف الساسة داخليًّا وخارجيًّا ومخاوف الأحزاب والنصارى؛ بما له من شعبية تواليه أكثر من ولاء الدولة، بيد أنه سلك سياسة زادت الخائفين خوفًا، فقد عدل عن خطابه السابق، واستقطب الجماهير بأساليب السياسيين، وتصالح مع خصوم الأمس بكل تسمياتهم

(العلمانيين والشيوعيين واليساريين)، واصطلحوا على تسميتهم بالليبراليين توسطًا، ونعتوا النصارى بالإخوة النصارى جوازًا.

والعُجاب أن النصارى أكثر من يدعون إلى إعادة تعويم الأزهر في مساره الفعال وقيادته الشعبية ومرجعيته، بعد أن أفزعهم خطاب الدعاة الجدد الذين أسقطوا عنهم وطنيتهم، وأنهم سيعاملون وفق ما عومل به أهل الكتاب المقيمين من رعايا الدولة الإسلامية، ينذرونهم أربعة وعشرة في وطنهم، ثم تجرى عليهم الجزية، ويُميزونهم في المجتمع بشارة يعرفون بها، وأرى أن من وراء هذا التيار رجال السلطة الذين يخوفون الشعب ببعض نماذج مفتعلة شاذة، فقد اختفت هذه العناصر الشاذة بعد إسقاط التجربة الديمقراطية التي أتت بأحد مرشحي التيارات الدينية الشعبية، فقام الإعلام بحرب تشويه شرسة، ودعمها العسكر بأزمات الوقود والخبز والأمن وببعض العناصر الأمنية التي جسدت التطرف الديني في الخطاب والممارسة، وقد ساهم التيار الديني في إفشال أول تجربة سياسية حرة في مصر بسوء أدائه واختياراته وممارساته.

والسؤال: هل النصارى مواطنون، يشاركون في مسئولية الوطن في الجندية والحياة العامة والنفقات؟ أم رعايا يتمتعون بالإقامة الآمنة وحفظ النفس والمال والمصالح دون مسئولية؟ وما لا يعلمه النصارى مستنكفو الجزية أن إخوانهم المسلمين يدفعون ضريبة مالية سنوية نظير إقامتهم في البلاد الإسلامية، ولا مناص من دفعها، وقدرها يزيد عما عرف في الإسلام بالجزية التي تؤخذ من القادر فقط. والسؤال: ما حكم فرضها على المسلمين تحت أي تسمية؟ وهل هي في حكم الجبايات والضرائب والمكوس (العشور) التي تفرضها السلطة تحت تسميات مقننة أو مشرعنة؟[1].

والجزية في الإسلام لها ضوابط شرعية في دولة إسلامية راشدة، وهي تفرض على

---

(١) ما حكم إطلاق لفظ الأجنبي في بلد مسلمة تعمل بالشريعة على مسلم عربي مقيم فيه؟ والأجنبي الدخيل غير المسلم، وهو خلاف الأعجمي المسلم غير العربي؟

والإجابة عليه توجه إلى الدول التي ترعى هذا التيار الذي يفتي بفرض الجزية على النصارى في وطنهم الذي يتحملون المسئولية فيه، ويؤدون واجبه على نحو ما تؤديه جموع الشعب دون إعفاء من الجندية والأمن العام والضرائب والمشاركة في العمل العام الذي يقدم خدماته لعموم الشعب.

الديار التي فتحها المسلمون حربًا أو سلمًا؛ نظير حفظ الذمة والرعاية وقيام المسلمين على حفظ مصالحهم، وهم معافون من القتال، والصاغر ليس ابن الوطن، بل هو عزيز بين المسلمين، والصاغر المعتدي المنهزم الذي يقر بها اعترافًا بسلطان المسلمين عليه، وقد كانت بعض الحكومات الفاسدة تتمسك بالجزية لحاجتها إليها، ولا تعتد برغبة دافعيها في الإسلام، وبعض الظالمين كانوا يشككون في إسلام بعضهم بأنه هروب منها أو مصلحة، وليس لمسلم أن ينقب عن قلب مسلم، وقد وجب أن نقبل شهادة الإسلام ممن قالها.

ط- تشويه الخصم: أسلوب يستخدمه السلطيون والإعلام في تشويه خصومهم وما يتعلق بهم من دين وثقافة ومجتمع وحضارة؛ كقولهم على الاستشهاديين في مواجهة بطش جنود الاحتلال: الانتحاريون؛ ليسووا بينهم وبين من يزهقون أرواحًا يأسًا وملالًا، فهم أصحاب جريمة مثل من أجرموا في حق أنفسهم، بينما الطيارون غير المسلمين الذين غامروا بأنفسهم وبطائراتهم، فدخلوا مواقع العدو، وفجروا حمولتهم وقُتلوا، فدائيون ومُضحُّون وأبطال، وقد استخدم الإعلام العربي مصطلح الاستشهاديين والعمليات الاستشهادية داخل فلسطين، وقد أجازها بعض العلماء حتى نُهوا عنها، فعدل الإعلام عن تسميته الأولى إلى الانتحاريين والمُفجرين والناشطين، وجعلها عمليات فردية بعد أن أوجعت الاحتلال واستغاث منها، وكان بعض الحلفاء العرب يتوددون إلى الغربيين بقولهم العمليات الانتحارية والتطرف والإرهاب، ويعقدون المؤتمرات المنددة بالإرهاب، ويسخرون من مصطلح الجهاد، ومن وصفوا به في أفغانستان وفلسطين والعراق، والعُجاب أن الأمريكيين استخدموا مصطلح المجاهدين الأفغان على من جاهدوا السوفيتيين الغزاة، ثم أطلقوا عليهم المتطرفين والإرهابيين عندما جاهدوهم عندما خلفوا السوفيتيين في وطنهم، والحدث لم يتغير بل تغير المعتدِي! ومنه توجيه المعنى على الحدث دون القيمة والسبب كحمل الجهاد على معنى العنف والتشدد والترويع والتخريب، فالجهاد له ضوابط لا تتجاوز دفع الاعتداء وإحقاق الحق ومقاومة الظلم، وله درجات أعلاها الجهاد بالنفس وأدناها الاستنكار، فأخذ السلطيون العرب بالرخصة مع الغزاة، فاستنكروا وأدانوا وشجبوا وتظلموا واحتجوا، وأخذوا بالعزائم مع شعوبهم،

فجيشوا الجيوش وأبادوا قرى وأحياء ومدنًا وأعراقًا وجماعات ومعارضين ثُوار مسالمين من الوطن الذي اوتُمنوا عليه!

ومن عوامل التشويه قرن المصطلح بوصف سيئ، أو بوصف يحمل أبعادًا تسيء إليه كقولهم: الإسلام السياسي، والسياسة لها أبعاد غير أخلاقية في الغرب والعالم الإسلامي، فالسياسيون النهَّازون والأفاقون والنفعيون، والإسلام ابتدع "السياسة الشرعية" في العالم، تقوم على جلب المصالح النافعة وتحصيل الأهداف دون مخالفة شرعية أو جلب مفسدة عظمى تذهب بالمصالح والمنافع العامة، وهي سياسة تقدم المصالح العامة على الخاصة، وتدرأ المفاسد العامة بخسائر محدودة، وتنتهي عما يجلب المفاسد أو يوصل إليها، ومنها: مهادنة اليهود في المدينة، ما داموا سلمًا للمسملين في بدء الدعوة، وهم على خلاف معتقد المسلمين وإسرار العدواة، فلما جاهروا بالعداوة ورفعوا السلاح وحالفوا الأعداء اتبعت السياسة المعهودة مع المعتدين وناقضي العهد ومستبيحي الوطن والدماء، فقد أباحوا المدينة من جهتهم للغزاة وأعلنوا الحرب وطمعوا في مساكن المسلمين وضياعهم، ومنها صبر النبي ﷺ على المنافقين (الطابور الخامس الخائن ومجلب الفتن)؛ لئلا يشيع عنه خصومه أنه غدر بأهل يثرب الذين نصروه وآووه، فيخزِّلون عنه الناس، ويجلبون الفتن، ويشوهون دعوته، وظل النبي ﷺ موادعًا لهم حتى توفاه الله تعالى؛ طمعًا في توبتهم، ودرأ للدعاية المشبوهة، ومنها تقديم الموادعة والمصالحة على الحرب؛ حفظًا لأرواح المسلمين والناس ممن عادوه ورجاء إيمانهم أو إيمان ذريتهم، وهي سياسة طويلة الأجل تؤتي أكلها كل حين! فقد امتنع عن فتح مكة جبرًا عام الحديبية، وقد كان أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يودُّون فتحها، وهم قوة، فحفظ ﷺ حرمة مكة وقدر خسائر الأرواح والأموال، ففتحها الله تعالى عليه سلمًا، وانصرف عن الطائف، فأتوه مسلمين، وتألف قلوب بعض من تأخر إسلامهم، فخسروا زعامتهم؛ دفعًا لشرهم وشر أتباعهم، ثم أوقف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عطاءهم، متأولًا هذا بعز الإسلام وزوال خطرهم، فوكلهم إلى إيمانهم، وقد صدَّق الناس نبوته ﷺ عندما عفَّ عن أرواحهم وأموالهم، وقد جلبت هذه السياسة التي استقت منابعها من الإسلام منافع جمة انتفع بها المسلمون، ثم جنح السلطيون إلى السياسة الدنيوية، فأفسدوا أمر الناس وأوهنوا أوطانهم.

ويحصل التشويه بوصف الشيء المشين بالعنصر الحسن المراد تشويهه؛ كقولهم: التطرف الإسلامي والإرهابيون المسلمون والمتطرفون، فجعلوا التطرف والإرهاب قيد الإسلام، ونحو: "المنظمة الإرهابية" في الخطاب الأمريكي الصهيوني (حماس) التي أدخلها الخطاب في "التنظيمات العنفية" التي تهدد الأمن القومي الأمريكي.

ط- الاختلاف في تأصيل المفهوم وتعيينه: اختلف ضعفاء المتخصصين في تعيين مفاهيم بعض المصطلحات وترجمة بعضها، ويرجع هذا إلى الاختلاف حول الوضع أو الترجمة أو توجيه المعنى إلى مقاصد المفسر، وبعض الاختلاف يرجع إلى تدخل المفسر في توجيه مفهوم المصطلح لأسباب سياسية، مثل اللغط الذي أثاره الدنيويون حول تطبيق الشريعة في دستور الدولة، فهم يرفضون وجود مصطلح "أحكام الشريعة" مصدر التشريع، ويريدون مصطلح "مبادئ الشريعة" توهمًا أن لفظ "الأحكام" لا يحتمل الاختلاف، بينما "المبادئ" يمكن الاختلاف في العمل بالشريعة، وهذا جدال افتعلته النفوس المريضة التي تشمئز من كل ما يتعلق بالدين، فإذا ذُكر ما دونه إذا هم يستبشرون! ولفظ الحكم يحمل في مضمونه العمل المقضى به، وإضافة الأحكام إلى الشريعة تفيد النسبة أو التخصيص: أحكام الشريعة وحدها، أو الأحكام التي قضت بها الشريعة، وليست أحكام القاضي أو المجتهد، فالأخيرة من اجتهاد القاضي، والأولى الأحكام التي يقضي بها بعد ثبوت وقوعه بالأدلة القطعية على الحدث المقضى فيه، و"المبدأ" هنا محيد عن دلالة البدء والأصل والمرجع، فهم يريدون أنه غير ملزم للعمل، وأنه هنا ليس منفردًا بل مشتركًا مع القوانين الوضعية، والعمل بمصطلح "مبادئ الشريعة" سيكون مطعن من يأبى الأحكام الشرعية، بينما مصطلح "أحكام الشريعة" قطعي مانع للتنازع، وهو اصطلاحًا أضبط من سابقه وأوضح في المفهوم، وهذا يتطلب من المشرِّع أن يضع إلى جوار المصطلحات تعريفها، أو يجعله في ملاحق الدستور أو القانون أو في حاشيته لسد باب التنازع في التفسير والتطبيق.

ومن المصطلحات المثيرة للجدل: العلمانية: ترجمة "Secularism" في الإنجليزية، أو"Sécularité" في الفرنسية، وهو لا يخرج في المعنى المعجمي عن الدهرية والدنيوية واللا دينية والزندقة والإلحاد، وقد أجمعت المعاجم الغربية على أن الأصل فيه تمكين

الفكر الدنيوي وإقصاء الديني أو الروحي، وقد استخدم في الثورة على استبداد السلطة الكنسية وفسادها السياسي والاقتصادي والسلوكي.

جاء في دائرة المعارف البريطانية مادة: "Secularism": "حركة اجتماعية تستهدف توعية الناس بإجراء الفكر الدنيوي العملي، وإقصاء الخرافات الدينية التي زعمها الكنسيون وما ادعوه من حقوق لأنفسهم"، وقد كانت هذه الدعوة مقبولة في ظل تسلط الكنيسة وتضخمها السياسي والاقتصادي، وسوء أحوال رعياها في العصور الوسطى (ما بين القرنين الخامس الميلادي والخامس عشر)، وهي الفترة التي تقابلها مرحلة الازدهار الحضاري والعلمي والاقتصادي في العالم الإسلامي، وقد كان رواد التيار الدنيوي "Secularism" يستهدفون تنمية النزعة الإنسانية والتراث الإنساني في عصر النهضة، فاهتموا بالإنجازات الثقافية والبشرية، وبغاياتهم الدنيوية التي جعلوها آخر مآلهم وطموحهم.

وجاء في قاموس "العالم الجديد" لوبستر، في معنى المصطلح: الروح الدنيوية، أو الاتجاهات الدنيوية، وتفسيره: "نظام من المبادئ والتطبيقات "Practices" والممارسات العملية، وهو يُقصي العمل بالاعتقاد الديني والاعتقاد بأن الدين والكنيسة والإيمان بما تقوله مضللات الشعوب، ويجب إقصاؤها عن شئون الدولة والتربية العامة.

وجاء في "معجم أكسفورد مادة "Secular": دنيوي، أو مادي، لا ديني، غير روحي، ومنه: التربية اللادينية أو الفن أو الموسيقى اللا دينية، والسلطة اللا دينية (المدنية)، الحكومة المناقضة للكنيسة، والرأي الذي يرى إقصاء الدين عن الأخلاق والتربية.

وجاء في "المعجم الدولي الثالث الجديد" مادة "Secularism": اتجاه في الحياة أو في أي شأن خاص، يقوم على مبدأ إقصاء الدين أو الاعتبارات الدينية عن السلطة السياسية، وذلك بفصل السلطة الدينية عن سلطة الدولة، فتصبح سياسة الدولة سياسة دنيوية (لا دينية) بحتة في الحكم، وهو نظام اجتماعي في الأخلاق، مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون اعتبار الدين، وهو في الحقل السياسي حرية الاعتقاد والتحرر من المعتقدات الدينية في سياسة

الحكومات والأنظمة، وذلك بفصل الدولة عن العقائد الغيبيات والروحانيات، فالدولة كيان مادي.

وقد استخدم مصطلح "Secular" رسميًّا في توقيع صلح "وستفاليا" الذي أعلن نهاية الحروب التي اندلعت بين مشايعي الكنيسة، بزعامة الباباوات والملوك والأمراء وأنصار التيار الدنيوي، وقد كان النصر حليف الثوار الجدد على الكنيسة في أوربا عام ١٦٤٨م، وظهرت الدولة الحديثة (المدنية)، ثم الدولة القومية الحديثة في القرن التاسع عشر، وصودرت ممتلكات الكنيسة التي جبتها من رعايا بنظام المكوس والصكوك والضرائب والتبرعات والهبات والنذور، ومن تسخيرهم لخدمتها، ومن استحواذها على أملاك الرعية، وقد نقلت أملاك الكنيسة إلى سلطة الدولة، وجردت الكنيسة من سلطانها السياسي والاجتماعي، وقصر نشاطها على مبنى الكنيسة فقط.

ويتبين من هذا أن المصطلح يعني في الحقل أن الدولة كيان دنيوي خارج سلطة المؤسسة الدينية التي تمثلها الكنيسة، وهو مفهوم غربي خالص، ولا يصلح العمل به في الدولة الإسلامية؛ لانتفاء المعتقد الكنسي في الإسلام؛ ولأن الإسلام هو الذي أقام الدولة في بيئته، والدولة ليست من أركان الدين، بل من مصالح الدنيا التي أقامها الإسلام وضبطتها بالشريعة، وليس بصحيح ربط اللفظ بالعِلم أو بالعالم أو بالعقل لفظًا، فالعلم: "Science"، والمذهب العِلْمِي "Scientism"، والنسبة إلى العِلْم "Scientific" في الإنجليزية، "Scientifique" في الفرنسية، والعالم: "The world"، والعالمية الدنيوية "Worldly"، والعقل: "The mind"، والعقلانية: "Mentalim"، والمنطقية: "Rationality"، والثابت يقينًا أن المصطلح أطلق في الثورة على السلطة الكنسية لتجريدها من سلطانها الدنيوي على رعاياها، ثم حددت وظيفتها في الوعظ ومراسم الزواج داخل الكنيسة فقط دون ممارسة أي نشاط خارجها، واستقر على الفصل بين الدين والدولة.

وأميل إلى ترجمته إلى أقرب مصطلح يعبر عنه، وهو الدهرية والدنيوية، ولا أميل إلى استخدام الإلحاد أو التكفير؛ لأنه لا يتجه نحو إلغاء الدين معتقدًا بل تعطيله ممارسة، وقد حملهم على تطرفهم الدنيوي كثرة مظالم الكنيسة وتعسفها وفسادها وتسلطها على أفعال

الناس وتفكيرهم، وقمعها العلماء والابتكار وحركات التجديد، فظهر رد فعل متطرف مقابل غلو الكنيسة وتعسفها.

وقد تمسك به بعض السلطيين العرب في مواجهة الأحزاب الإسلامية ذوات الشعبية الجماهيرية، فقالوا: "لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة"، وقد سوغوا لأنفسهن تزييف الانتخابات؛ درأ لوصولهم إلى السلطة، وسلطوا الإعلام عليهم، فقام بحملات تشويه وترهيب زادت التيارات الإسلامية شعبية وتعاطفًا، فالوعي الشعبي يفطن إلى حقيقة التراكيب السياسية المستهلكة، وقد جعل المستبدون أنفسهم حائط صد أمام التمدد الإسلامي، الذي خوفوا به غير المسلمين في الداخل والخارج، ومن ثم أيدوهم في الداخل والخارج، وتغاضوا عن ممارستهم السياسية مع شعوبهم.

لقد تراجع السياسيون عن تعصبهم ضد الكنيسة؛ ليحظوا بتأييد أتباعها، وبعضهم نشأ نشأة كنسية، والممارسة السياسية المعاصرة من ورائها أبعاد كنسية وصهيونية، تمثلها الأحزاب الدينية أو المحافظون أو اليمينيون، وقد ظهر تيار جديد يعرف بالإنجيليين الجدد (البروتستانتيين)، تحالف مع الصهيونية العالمية، ويعد تطورًا لها، ويؤمن أتباعه بالنبوءة التوراتية الإنجيلية التي أنبأت بحرب الهرمجدون (آرما جدّون، أو مرج ابن عامر شمال فلسطين، أو وادي الملح)، وأنه ستقع إبادة شاملة، وسيقام الهيكل في أورشليم السماوية (القدس) بعد إبادة المسلمين، وهم يرون أن قيام إسرائيل ١٩٤٨م من بشائر تحقق النبوءة، وأنه من الواجب دعم إسرائيل بوابة النصر على أعداء المسيح (المسلمين وغيرهم)، وأكثر أتباع هذا التيار في الولايات المتحدة الأمريكية، ويحالفهم حزب المحافظين (الجدد)، وقد استخدم جورج بوش الابن مصطلح "الحملة الصليبية ضد الإرهاب" في بدء الحرب على المسلمين، ثم عدل عنه إلى "الحرب على الإرهاب"؛ تجنبًا لإثارة المسلمين، واستفادة من دعم بعض حكومات الدول الإسلامية، وقد نجح الإعلام الأمريكي وبعض السياسيين الموالين لأمريكا في تحييد العالم الإسلامي عن غزو الأمريكان أفغانستان ثم العراق، والإعلام العربي تبع الإعلام الأمريكي، فقد أذاع تصريح بوش أنه لا يستهدف الإسلام بل الإرهابيين والمارقين المستبدين، ثم أعلن أن الأهداف العسكرية أوكار الإرهاب والمنشآت العسكرية، وإسقاط الحكومات المستبدة،

وهو ما يعرف بسياسة التحييد، والإعلام الحكومي شريك في هذه المؤامرة؛ لأنه كان إيجابيًّا تبعًا لسياسة الولاء، ويظهر الحياد، ولم يمارس واجبه في توعية الشعب، بل كان مضللًا وعاملًا رئيسًا في تحييد الجمهور وتثبيطه عن رد فعله، وأن مصلحة الوطن العليا تقتضي الحياد، وأعلن عن تدفق الأموال على مصر من أمريكا، وإسقاط الديون العسكرية، وأشاد بحكمة الحاكم الحليف والصديق الإستراتيجي.

وقد أُعيد في الخطاب المعاصر النظر في بعض المصطلحات؛ لأسباب سياسية وعرقية ودينية وطائفية، وقد استغل المضللون جهل العامة، فأثاروا الجدل في ثوابتهم، وتولى رؤوس الجهال الحديث في وسائل الإعلام عن بعض المفاهيم، ومن المصطلحات التي أعيد طرحها زمن الاحتلال، وصعدها الإعلام جدلًا وإثارة: "أهل الكتاب" و"أهل الذمة" و"النصارى" و"المسيحيين" و"الأقباط" و"النوبة" في مصر و"الأمازير" في المغرب والأكراد والتركمان وغيرهم في العراق والسنة والشيعة، ولم تك موضع جدل سابق؛ ولكن الاحتلال أثار نعرات الانقسام، وقد تبناها الإعلام العميل المتربح من دماء المواطنين، متجاوزًا واجباته الوطنية والتثقيفية والتوعوية.

وقد ظهرت نُعَرة عرقية أشبه بالقبلية بين بعض أقباط المهجر، في الوقت الذي تحرص فيه مصر في الداخل على توحيد الصف الداخلي تحت لواء المواطنة، ونبذ العرقية التي ابتليت بها دول أخرى، وتقاتل مواطنوها عليها، ولم يتقاتل المصريون تحت هذا الشعار أبدًا قبل الإسلام وبعده بحفظ الله ﷻ وفضله، وأن مصر من البلاد الفريدة التي لا يشعر فيها المهاجر أنه ليس منها أو غريب عن أهلها الذين يحتفون بالأجنبي أكثر من احتفائهم بالقريب، ويبادرون بعرض المساعدة، ويقدمون له النصيحة، ويرشدونه إلى ما ينفعه، ومن ثم كانت مصر ملاذ المضطهدين وهدف الطامحين والحالمين، فهاجروا إليها، وحققوا أحلامهم فيها وبها، والقرن الثامن عشر والتاسع عشر يزخران بأعلام مهاجرة استوطنت مصر، وحققت نجاحًا بارزًا، وشاركت في بعض الحركات الفكرية والثورية التي انطلقت في مصر، ومنهم رواد الصحافة العربية الذين بدأوا منها، فمصر الوطن الذي انصهرت فيه الحضارات والثقافات والأفكار والأجناس، وتعايشت فيه الأديان، ولكن هذا التمييز الفريد شهد ردة على يد قلة متعصبة بعضها يرتدي زيًّا دينيًّا (مثل التيارات المتعصبة

الوافدة من خارجها) لا يعترفون بإثنيات دينية أو فكرية أو عرقية، وهو تيار. والحمد لله. غير مستجاب الدعوة في أبناء الوطن، ويعيش في الظلام، ولا نشعر به إلا من ملاحقة الأمن عناصره التي تنشط كلما حركتها قوة لها مصلحة، وبعض التيارات النصرانية المتعصبة خارج مصر يستأجرها الغرب لمساومة السلطة وتنازلاتها، ويحركها صوب أهدافه.

والتيار الأشد خطورة "أقباط المهجر"؛ لأنه جمع بين التعصب الديني والتعصب العرقي المفتعل، فهم يزعمون أنهم أبناء الوطن الأصليون وغيرهم عرب مهاجرون بدينهم، وأنهم أحق بهذا الوطن، وقد تركوه بحثًا عن الثروة طمعًا في الحلم الأمريكي الذي خدع المغامر وأغراه بالهجرة. وكم انتهب الغرب عقولًا أنفقت مصر على تنميتها واستفاد منها وابتزها بعد أن ضيقت عليها السلطة الفاسدة في مصر وأهملتها . ثم هم يدَّعون أنهم تركوا مصر هربًا من الاضطهاد أو العنف الطائفي، وليس ما يدَّعوه أكثر من الحساسية التي تشعر بها أقلية وسط محيط له أغلبية، هذا المحيط الذي استطاع فيه بعض النصارى تحقيق حلمهم المادي، فأصبحوا من كبار رجال الأعمال عالميًّا؛ بفضل محيط الأغلبية الإسلامي الذي لا يحمل هوية ظاهرة أو شعارًا أو زيًّا يميزه عن النصارى، ولم يمنع النصارى من ارتداء صلبانهم ومطاولة أبراج كنائسهم مآذن ألف مئذنة مؤخرًا . طعنًا في قول "القاهرة مدينة ألف مئذنة" وهي الآن تزيد آلافًا بفضل الله. ولا يستفزونهم بالكثرة والإجلاب عليهم في المعاملات اليومية، فلا تكاد تميز ديانة النصراني المصري إلا من بعض الأسماء أو إذا حمل صليبًا أو من بطاقته، لكن الشارع لا يميز بينهم، ولكن الذين ملأتهم العصبية الطائفية حسدوا هذا الشعب المتآلف واستكثروا وحدته، فأثاروا فيه الخلاف، وادَّعوا التحيز الطائفي، ومن ورائهم أصحاب المصالح والأطماع الصهيونية التي لها اليد الطولى في تحريك النزعة الطائفية؛ لتوهيم العالم بعدم استقرار مصر، وهدفها السياحة والاقتصاد المصري، وليس النصارى جميعهم متورطين في العمالة، بل تلك الفئة الحانقة الموتورة التي تنتسب إلى الوطن، وتدَّعي أنها تطالب بحقوق النصارى فيها (أو الأقباط وهي تسمية غير صحيحة)، وتتخذ بعض الحوادث أمثلة على أنها ظاهرة عامة، وهي أحداث عارضة تصيب كل الشعب دون تفرقة، ومثلها أحداث الثأر بين المسلمين

أنفسهم، ولكنها توجه هذه الحوادث إلى أهدافها المشبوهة للتدخل الغربي لحماية الأقلية من الاضطهاد، وقد استخدمت إنجلترا الرعايا الأجانب والنصارى قبل في تبرير غزوها مصر ١٨٨٢م، وهو سبب غزو فرنسا لبنان، التي أوجدت لها ظهيرًا نصرانيًّا حليفًا فيها، ويغضب النصارى لأنفسهم إذا ذُكر أنهم ساعدوا الاستعمار في مصر - وقد غزاها بحجة حماية الأقلية الغربية والمسيحية - وينكرون هذا، وهو أمر تورط فيه بعضهم وبعض المنتسبين إلى الإسلام ممن خانوا دينهم ووطنهم، ولم يظاهروا على مقاطعة الاستعمار، وبعض من كان في السلطة منهم صوَّت لصالح الاحتلال على نحو ما ذكرت قبل، كما تورط بعض النصارى في ميلشيا مؤيدة للعدو الصهيوني جنوب لبنان (جيش جنوب لبنان حليف إسرائيل زمن الحرب الأهلية)، وتورط بعض ممن يسمون أنفسهم "أقباط المهجر" في العمالة الأمريكية الصهيونية، وقد خانوا وطنهم، وتظاهروا مع تيار خفي متعصب، وظفهم لأغراضه في إثارة الفتنة وإضعاف الاقتصاد وخلخلة التلاحم الداخلي بين المصريين لمصلحة إسرائيل، وخدعوا بعض النصارى في الوطن، فدافعوا عنهم، وزعموا أنهم يؤدون خدمات اقتصادية وسياسية للوطن، وأنهم أداة التواصل مع الإدارة الأمريكية في بعض المصالح، وأنهم رسل لمصر في أمريكا، وقد صرح بهذا رأس الكنيسة الأرثوذكسية. وهم سبب توتر العلاقات وإفشال المصالح الاقتصادية بين العرب والغرب، والمستفيد من هذا الصهيونية التي ترفض التقارب بين العرب والغرب، وإن كان هؤلاء المدعون مصريين وعلى انتمائهم لهذا الوطن حقًّا، فليأتوا إلى وطنهم الأم، وليطالبوا بحقوق المضطهدين في قضائه ووسائل الإعلام، والأولى بهذا أصحاب القضية في الوطن، فوسائل الإعلام متاحة لهم، بل تبادر بالذهاب إليهم، فالأحداث التي يتكلم عنها هؤلاء الأمريكان المتعصبون معلنة في وسائل الإعلام المصرية الحكومية والخاصة التي تتخذها مادة إعلامية؛ تربحًا، دون اعتبار أثرها الوطني وتوابعها السلبية، والإعلام لا ينتظر حكم القضاء فيها، بل يصدر الأحكام قبل القضاء، ثم يشكك في القضاء المصري ونزاهته وحياده، وهو اتهام لا يشهد به من تحاكموا إليه من النصارى، ويبادر الإعلام بتوجيه الرأي العام؛ ليؤثر في أحكام القضاء في بعض القضايا، فيتعسف في الحكم الرادع، بينما يتواطأ مع بعض حلفائه، ثم يطعن في حكم القضاء المخفف.

وأرى أن بعض هؤلاء المتأقبطين يقومون بالدور الذي يقوم به بعض العناصر العرقية ممن يعيشون في الخارج، ويستقطبهم الغرب؛ ليكونوا وسيلة ضغط على السلطة، وهو طابور مشبوه، وخطره جسيم على الوطن ومصالحه الخارجية، وبعض نصارى الوطن الذين يتخذونهم ذريعة ويدافعون عنهم، يتمتعون بحرية سياسية ومزايا اقتصادية يحسدهم أصحاب الأغلبية (المسلمون) عليها، ويتمنون المساواة بهم، وهم أغلبية والحاكم منهم، وهذه الإثارة تضر بإخوانهم في الوطن وبرجال الأعمال منهم خاصة، ولم يعترف المتأقبطون الأمريكيون، ولو مرة واحدة أن النصارى في مصر يعيشون أزهى عصورهم بعد أن تواطأت الكنيسة مع السلطة على سياستها الهدامة، وتحالفت معها حزبيًّا وسياسيًّا مقابل توسعها في بناء الكنائس (التي طالما اشتكت التضييق فيها) والمدارس الدينية وشغل الوظائف العامة والقيادية التي بلغت الشرطة والجيش، والأهم استحواذهم على نصيب كبير من الاقتصاد، وأنهم من ناحية الثراء يتوازون مع ما تملكه الأغلبية حسب تسميتهم، وقد فضحت الكنيسة علاقتها الخفية بالسلطة الفاسدة عندما دعت رعاياها بعدم التظاهر ضدها في الثورة العامة ٢٠١١م، ثم بررت هذا الموقف المشبوه بأنه خشية على وحدة الوطن، ولكن شيخ الأزهر المعين (وعضو اللجنة السلطية على غير المألوف من ابتعاد مشايخ الأزهر عن التحزب) قدم رجلًا وأخر أخرى، ثم زعم أنه كان يدرس القرار الحكيم، ثم صرح بتعاطفه مع الشعب عندما بلغ التظاهر ذروته[1].

---

(١) لقد أسقطت الثورة المصرية أقنعة كثيرة متحولة من الإعلاميين والسياسيين المصانعين، وثمرتها العظمى – بعد أن أسقطها القادة العسكريون وحلفاؤهم رجال الأعمال – أنها فضحت كل العناصر السياسية المأجورة من الأحزاب الوهمية المصانعة للسطة سرًّا والمعارضة ظاهرًا، ومن القادة العسكريين الذين جاهروا بتأييد الشعب، ثم دبروا مع أعوانهم فلول النظام الأزمات الأمنية والمذابح وأزمات الطعام ومواد الوقود وشل حركة الطرق لتخويف الناس، ولإسقاط النظام الديمقراطي، وقد ساهم بعض المتربحين من الدين من المتسلفين والمتصوفة في إفشال الديمقراطية في مصر، فقد غفل بعض الثوار أن بعض التيار المتسلف صنعة بترول الخليج؛ ليكون ذراعًا ضاربة في مواجهة الإخوان المسلمين، وقد تركت السلطة له ساحة المساجد، وهي تعرف غاية وجوده، وبعض عناصره عسس أمن السلطة (أمن الدولة)، وهو الجهاز الذي حاولوا تطويره بتغيير تسميته "الأمن الوطني"، ويغيروا مهمته من حماية النظام إلى حماية أمن الوطن، ومما شاهدته من عجائب علاقة التسلف (وليس السلفية) بأمن السلطة أن أحد المساجد في حيز سور مركز الشرطة =

مصطلح القبط: يراد به في الاصطلاح العربي جنس من البشر، وهم أهل أرض مصر، وقد دخل كثيرهم في الإسلام، وبقي قليلهم على نصرانيته، وقد استعربوا جميعهم، وصاروا قلب العروبة وكنانتها، وقد أثار هذا حنق قوم حاسدين، وتبعهم شِرذمة الأراعن الذين أساءوا لعروبتهم ولتاريخ العرب المهاجرين إلى مصر، واستدلوا بما كتبه بعض كهنة النصارى قديمًا، يخوفون رعيتهم من المسلمين، وادعوا أن الذين أسلموا أسلموا كرهًا أو تضييقًا أو طمعًا لا اقتناعًا، وهل يؤمن القلب بما يبغض؟! هؤلاء

=

(المخفر) كان مركز محاضرات كبار دعاة المتسلفة، ولا تخرج محاضراتهم عن التوحيد والبدع ومحاربة التصوف، وتتبع قضايا الجدل التي يصنعها أمن السلطة على لسان أحد عملائه من المنتسبين إلى العلمانية أو التيار الإسلامي؛ لشغل الناس عن فساد السلطة، ووسائل الإعلام ساحة هذا الجدل والتضليل، فهي الخائن الثاني من بعد السلطة الفاسدة.

وقد كشف فشل التجربة الديمقراطية في مصر إمكانات الإخوان الحقيقية وقدرتهم على المسئولية الكبرى ووعيهم السياسي، فهم لا شك من عوامل إفشال الثورة؛ لأسباب منها أنهم لا يثقون إلا في كوادرهم، ولا يتحركون إلا بقرار علوي يكبلهم، فليس أمام أبنائهم متسع للتنوع والتداخل مع اتجاهات أخرى، ولهذا أثره السلبي في الموقف الشعبي الذي شعر بأن الإخوان منفصلون عنه، مثل الأحزاب التي تتبنى فكرًا غربيًّا لا يعرفه سوى فئات لها خلفية تتمازج معه، ولا ينفرط في عقد الشعب، ناهيك بسوء اختيارهم لمن صدرتهم للشعب واعتمادهم على عناصر إخوانية، دون الاستعانة بالخبرات الموجودة؛ بحجة أنها خدمت السلطة لا مصر، وقد شعر الناس أن أطماعهم السياسية أبعد من أطماع السلطة البائدة، ولو كان لديهم وعي بما هم أغرقوا أنفسهم فيه، لتأخروا قليلًا، وقدموا من يثقون فيه من الثوار؛ ليتحسسوا الأرض والأخطار الكامنة، وليظلوا جبهة قوية تجمع الثوار؛ لكنهم اغتروا بما طمعهم فيه من آكلوهم، فأقبلوا لحتفهم، وعجلوا بأنفسهم، وليس لهم باكون في مصارعهم، بل وجدوا تشفيًا وانتقامًا من خصومهم.

والخطأ الذي قصمهم أنهم وقعوا في الفخ الذي نصبه لهم العسكريون وأمن السلطة و كبار مفكري الفلول، فقد كانوا القوة الضاربة التي تقف في وجه استعادة العسكر السلطة، فتركوهم ليسقطوهم شعبيًّا، وليصرفوا عنهم الناس بتفشيل سياستهم وتشويههم إعلاميًّا، ثم دبروا أزمات قاتلة منها الوقود والأمن، وشلوا مصالح الوطن الأساسية، ثم دفعوا العامة إلى الشوارع وأطلقوا النباحين في وسائل الإعلام .. لقد تآمروا على الوطن الذي ادعوا حبه، ولم أر إلا متسلقين وطلاب مصالح ومنتفعين ومتعصبين ومنافقين ومصانعين، فكلهم يطلب صيدًا في وطن أوهنه حكام حطمة غير أكفاء، وعسكريون يرونه معسكرًا محرمًا على المدنيين، وسياسيون فاسدون، وأحزاب هشة ترعاها السلطة؛ لتظل صورة التعدد الحزبي حاضرة في الإعلام دون الواقع، ورجال أعمال يتربحون من الفساد قسمة مع السلطة، وإعلام أفسد شعبًا وخرب وطنًا، فقدم لعدوه ما عجز عن فعله.

يغالطون في الإيمان؛ لأن الإكراه في الدين لم يصرف قومًا عن دينهم، ولهم في العهد القديم عبر في هذا، وتاريخ النصرانية عبق بالشهداء الذين ماتوا على عقيدتهم، فقولهم إن سواد المصريين النصارى أُكرهوا على الإسلام داحض، ويناقض الإيمان.

والأصل مصر والنسب إليها، وهو الاسم الأصيل الذي ورد في القرآن الكريم والعهد القديم، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزُّخرُف] ، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف:٢١] ، وقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة:٦١]، مصر من غير تنوين البلد المعروفة، فأسماء البلاد والدول تمنع من التنوين والجر، وهي بالتنوين الحضر، وقيل مصر تصرف؛ لأنها على قياس لفظ عربي، وجاء في العهد القديم: "فانحدر إبرام إلى مصر؛ ليتغرب فيها" [سفر التكوين :١٢/١٠]، "وأقام في بيت سيده المصري" [التكوين: ٣٩/٣]، وجاء في العهد الجديد: "قم واهرب بالصبي وأمه إلى مصر" [مَتَّى: ٢/١٣]، و"قد ظهر في حُلم ليوسف في مصر" [متى: ٢/١٩].

وقد شاعت تسمية القبط بعد خضوع مصر للاحتلال الإغريقي البيزنطي ثم الروماني؛ لأنها التسمية التي شاعت من التاريخ اليوناني والروماني في الغرب، وقد واكبت الفتح الإسلامي، وكان يراد بها السكان والوطن، وظل اسم مصر موجودًا أيضًا، واستخدمه العرب قبل الإسلام، واسم مصر معروف عند شعوب الدول المجاورة القديمة ومن يعرفوا بالساميين (شعوب وسط العالم في العراق والشام والجزيرة العربية)، فقد ورد لفظ "مشر" في الآشورية، و"مصر" في الأكادية، وفي نصوص بابل "مصر"، وفي الفينيقية "مصور"، وفي الآرامية "مصرين"، وفي العبرية "مصر" و"مصرايم"(صيغة الجمع)، وفي العربية الجنوبية "مصرو"، ومصر عند الفرس، وهنالك رواية إسرائيلية، تزعم أنه اسم أحد أبناء نوح عليه السلام وفق تقسيم العهد القديم سلالات البشر والأوطان، وكان العرب يسمونها مصر، ويسمون الشعب "قبط مصر" و"المصريين"، وكلمة مصر في اللغات السامية بمعنى الحد أو الحدود، ويعني: الحَضَر، وهو اللفظ الذي استخدم في العربية في تمصير المدن الجديدة في الإسلام، نحو: مصر الكوفة ومصر البصرة، ولعل اسم

مصر جاء بسبب من هذا المعنى؛ فهي أقدم بلد عرفت الاستقرار والمدن والزراعة والحضارة.

وقد استحدث الإغريق تسمية (Αίγυπτος)، وتنطق: "أيجبتيوس" (Aegyptus)[1]، وقيل: ترجع إلى المؤرخ الإغريقي هيميروس الذي كتب إلياذته عن فترة (١٦٠٠، ١٢٠٠ ق. م)، وذكر فيها مصر بهذه التسمية، وهو يُشوق البطالمة بحلم الهجرة إلى مصر، وقد غزاها الإسكندر (٣١٣ ق م)، وقيل: هي من لفظ "كيمي": يعني اللون البني الداكن أو السواد، وهو لون طمي وادي النيل، وقيل إنه من اسم عاصمة مصر المشهورة "هي كو بتاه"، وهو الاسم الذي كان يطلقه المصريون على عاصمتهم "منف"، ومعناها "بيت روح بتاح"، وفسره بعض اللغويين بأنه مشتق من "حط كا بتاح" أي: محط روح بتاح، وهو اسم معبد بتاح في العاصمة مَنف، غير أن هذا التفسير لم يلق قبولًا عند كثير من علماء فقه اللغة، وقيل: كلمة "أيجيبتوس" تعني: التيس الخامل (Supine Goat)، وقيل هي من "كيمي"، وأصله خيمي أو كيمي، والمراد حام أحد أبناء نوح، وأنه تطور إلى قفط، وهو وجه بعيد، وقد نسب اسم "قبط" أو "قفطايم" أو "قفتيم" إلى العهد القديم، وليس فيه هذا اللفظ، بل المذكور "كفتوريم" بن مصرايم، والذي يعود

---

(١) "قبط" (Egypt) أصلها من الكلمة اليونانية "Αιγύπτιος" (Aegyptus: أجبتيوس)، قيل محورة عن الكلمة الهيروغليفية المصرية "حاكبتاح" أي: أرض روح الإله بتاح (إله العاصمة القديمة منف "ممفيس")، وتدخلت الأسطورة اليهودية في تسمية مصر، فقبط: قبط أو قفط بن مصرايم بن حام بن نوح، وهو أول من سكن مصر. وينطق بالعربية قِبط، وبالعبريه قفطايم، وليس عليه دليل، غير أنه مكمل لأسطورة اليهود في نسب البشر إلى سلالات خادمة لبني إسرائيل، ولا يوجد في العهد القديم اسم "قبط" أو "قفطايم" أو "قفتيم"، ولعلهم توهموه من "كفتوريم" بن مصرايم، أصل سكان جزيرة كريت. جاء في سفر التكوين: ١٠:١٣ "و مصرايم ولد لوديم وعناميم ولهابيم ونفتوحيم [١٠ :١٤]، وفتروسيم وكسلوحيم الذين خرج منهم فلشتيم وكفتوريم"، والثابت أن اسم "مصر" الاسم الأول للأرض والشعب، فقد ورد في حفريات الشعوب المجاورة، فـ "مصر" في الأكدية والعربية [جاء في الحديث: "إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرًا فإنَّ لهم ذمة ورحمًا"]، و"مصريين" في الآرامية، و"مصرايم" في العبرية، ولكن الإغريق سموها "أيجبتوس" في اليونانية، وأطلق المصريون اسم "كيمي" أو "كيميت" على الجزء الخصيب المزروع (الوادي) بأرض مصر، ويعني باللغة المصرية القديمة "الأرض السوداء أو البنية الداكنة" (و منه اسم الكيمياء بمعنى علم المصريين السري)، وهذا الراجح في لفظ قبط الذي شاع في استعمال الغربيين، وعرفت به مصر.

إليه أصل سكان جزيرة كريت، ولا يعلم مصدر كتبة العهد القديم عن أنساب أهل هذه الأزمنة الغابرة التي حدثونا عنها بهذا التسلسل المتصل في النسب، وقد أنكر علماء الإنسانيات التقسيم العرقي في العهد القديم.

وقد شاع زمن غزو الإسكندر مصر، فأطلقه اليونانيون على مصر، فأسموها "إيجيبتوس"، وقد ورد هذا الاسم في شعر هومير، واللاحقة "وس" علامة الرفع في اليونانية، وقد ورد هذا الاسم في بعض الكتابات الآشورية المتأخرة، ولعله منقول عن الإغريق، وعربه العرب "قبط"، وقد نزل العرب مصر للاتجار، واستوردوا "القُباطي"، و"القُبطية" (بضم القاف لتخالف نسب المؤنث)، وهو نوع من الثياب، وقد كانوا يكسون به الكعبة الشريفة في الجاهلية، وهنالك نسب تاريخي ذكره بعض المؤرخين المسلمين عن الإخباريين (رواة الأخبار أو الحكَّائين، ولم يكونوا ثقة عند علماء الإسلام؛ لأنها كانت حرفة يتكسبون منها، ويزيدون في الأخبار، ويصنعونها، وبعضها خرافة وإسرائيليات، وكانت للإمتاع في المجالس والملاهي، ولم يعتمد المحدثون على من روى الإسرائيليات، وضعفوه، وسكتوا عما لا سند صحيح له من كتاب أو سنة عما تقدم)، وقد اعتمد على الإسرائيليات بعض أوائل المؤرخين في حديثهم عن تاريخ البشر الأولين، ذكر ابن تغري بردي في كتابه "النجوم الزاهرة": "فأما مصر، فقد سميت هكذا نسبة إلى مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح، وكان لمصرايم أربعة أولاد وهم: قبط وأشمون وأثريب ورحا، وأقباط مصر يضافون في النسب إلى أبيهم قبط"[1]، وقيل لفظ القبط

---

(١) جاء في ذكر أجيال الخلق في سفر التكوين: [١٠: ٦] "وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان"، وجاء في [١٠: ١٣]: "ومصرايم ولد لوديم وعناميم ولهابيم ونفتوحيم [١٠: ١٤]، وفتروسيم وكسلوحيم الذين خرج منهم فلشتيم وكفتوريم"، ولا يعرف العلماء مصادر هذا التاريخ، وليس لديهم دليل عليه، ومما أنكروه وجود نسب كنعان في الحاميين، وهو من أجيال أولاد سام، وقيل هو جيل من العرب، ولقد تأثر اللغويون أيضًا بالمرويات القديمة في تفسير معنى القبط، وقد ذكروا فيها ما يأتي: قَال الخليل الفَرَاهِيدِي في العَيْنِ: "القِبْط: أَهْلُ مِصْرَ وبُنْكُها؛ أَي: أَصْلُها وخَالِصُها، والنِّسْبَة إِلَيْهم: قِبْطيٌّ، وقِبْطيَّة"، وقَال ابْن فَارِس في مُعْجَم مَقَايِيسِ اللُّغَة: "القِبْط: أَهْل مِصْرَ، والنِّسْبَة إِلَيْهِمْ: قِبْطِيٌّ"، وقَال الصَّاحِب بْن عَبَّاد في المُحِيط في اللُّغة: "القِبْط: هُمْ بُنْك مِصْر، والنِّسْبَة إِلَيْهِم قِبْطِيٌّ"، وقَال ابْن دُرَيْد في جَمْهَرَة اللُّغَة: "والقِبْط: جِيل مِن النَّاس مَعْرُوف"، وقَال الجَوْهَرِيُّ في الصِّحَاحِ: "القِبْط: أَهْل مِصْر"، وقَال الأَزْهَرِيُّ في تَهْذِيب اللُّغَة: "قَال
=

منحوت من اسم العاصمة المصرية القديمة "هي كو بتاه" التي عرفتها الأمم القديمة، ومنهم الإغريق، فنسبوا شعب مصر إلى عاصمتهم، وهو المعمول به في النسب، فهو يكون الأب أو الأم أو الصفة أو المهنة أو المكان، وكلمة "كيمي" بعيدة في أصواتها من "إيجبت"، وتعني كيمي الأرض البنية الداكنة أو السواد، وهو لون الطمي الذي يأتي من هضبة أثيوبيا، ومنها علم الكيمياء الذي ابتكره المصريون، وتوهم بعض الباحثين أن كيمي أصلها خيمي، وهو حام بن نوح؛ لتوثيق نسب المصريين إلى أحد أبناء نوح الثلاثة الذين نسب إليهم سلالات البشر، وهو ما لا يأخذ به علماء الإنسانيات (الأنثروبولوجيا).

=

اللَّيْث: القِبْط هُم أَهْل مِصْر وبُنْكُها، والنِّسْبَة إِلَيْهِم: قِبْطِيٌّ"، وجاء في لِسَان العَرَب لابْنِ مَنْظُور: "والقِبْط: جِيل بمِصْر، وقِيل: هُم أَهْل مِصْر وبُنْكُها، ورَجُل قِبْطِيٌّ"، وقال الزبيدي في "تاج العروس": "واخْتُلِفَ في نَسَب القِبْط، فقِيلَ: هو القِبْط بن حَام بْن نُوحٍ ﷺ، وذَكَرَ صَاحِبُ "الشَّجَرَةِ" أَنَّ مِصْرَايِمَ بْنَ حَام أَعْقَبَ مِنْ لوذيم، وأَنَّ لوذيم أَعْقَبَ قِبْطَ مِصْرَ بالصَّعِيدِ، وذَكَرَ أَبُو هَاشِم - أَحْمَدُ بنُ جَعْفَرَ العَبَّاسِيِّ الصَّالِحِيِّ النَّسَّابَةِ - قِبْطَ مِصْرَ فِي كِتابِهِ، فقالَ: هُمْ وَلَدُ قِبْطِ بْنِ مِصْرَ بْنِ قُوطِ بْنِ حَام، كَذَا حَقَّقَهُ ابْنُ الجَوَّانِيِّ النَّسَّابَةُ فِي "المُقَدِّمَةِ الفَاضِلِيَّةِ"، وإِلَيْهِمْ تُنْسَبُ الثِّيَابُ القُبْطِيَّةُ بالضَّمِّ، عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ"، وهذا النسب مصدره الإسرائيليات التي نقل عنها بعض العلماء تاريخ الأمم الغابرة، وقد جاء في العهد القديم سلسلة نسب بعض الأمم وتفسير بعض الظواهر، وفيها ما يجافي العلم، ولا يعلم مصدر هذه الأنساب من طريق آخر، وبعض الروايات منقولة عن الإخباريين، ومصدرهم الإسرائيليات وصنعة وحي الخيال. وكانت كتب القصص الإسرائيلي تجارة بعض الطباعيين دون تحقيق أو اختيار، وكان بعض العامة يقتنونها للتسلية، وأدركت بعض مشاهير الحكائين يقصونها في محافل المناسبات الدينية والموالد والأعراس، ويتخذها بعض ضحال الوعاظ لوعظ عامة الناس في المآتم والجمع، ومن طرائف ما حدث لي أن أحد الذين استقطبوا عامة، وفضلوه على الأزاهرة الذين يتكلمون خطابًا لا يستوعبونه دعاني إلى بيته، وأنا صغير، وقد أهداني كتابه الوحيد الذي يثير الناس بحكاياته، فألفيته حكايات مروية عن بني إسرائيل حتى آخره، وليس فيه نص إسلامي، ولم أعرف اسمه؛ لأن غلافه كان منزوعًا، وقد وقع كتاب مجموع من بدائع الزهور وقائع الدهور لابن إياس لأحد رفاق الطفولة، وكان يقص منه، وهو حدث غر على أهل قريته، ويحكي ما به من خرافات وعجائب تعجب العامة، وعامة الناس كانت تصدق المكتوب والمسموع في أخبار الإعلام، فإن أنكره منكر، قالوا: سمعناه في الراديو، أتكذب راديو الحكومة؟! ولم تر العامة عبد الناصر؛ لكنها تربت على ما سمعته في إعلامه، فجعلوه مخلص العصر ونبيه الملهم، وبعضهم حملوا النعوش في الأقاليم، وبكوه لفرط ما صنعه الراديو المسموع فيهم من خيال ووهم، وقد أنكر هذا الجيل على من بعده الطعن فيه أو نقده.

وقد جاء في الحديث لفظ "مصر" إشارة إلى الوطن ولفظ القبط إشارة إلى الشعب، روى مالك بن أنس عن ابن شهاب، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا؛ فإن لهم ذمة ورحمًا"، وأخرج ابن عبد الحكم عن مسلم بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: "استوصوا بالقبط خيرًا؛ فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم"(١).

ويتبين أن لفظ "مصر" أصيل في التسمية الأولى للوطن، ولعله دخل العربية من اللغة الأولى التي تكلمها الإنسان، ويدخل في الرواسب اللغوية التي استقرت في اللغة العربية التي تعد أقرب اللغات الآسيو أفريقيا الوسطية (السامية) إلى الأصل، ولا شك أن بعض الألفاظ ظلت حية توارثتها اللغات فترة طويلة، وأحسب أن لفظ مصر منها، وهو نفسه الذي أطلق على الوطن العريق مصر، وهو يعني الحضر العامر، وهو لا يختلف في دلالته العامة عن معناه في العربية، والله أعلم.

وقد مكث المصريون نحو ألف سنة محتلين قبل الإسلام، فقد غزاهم الإسكندر (عام ٣٣٠ ق . م)، وورثه اليونانيون، ثم خلفهم الرومانيون حتى عام ٦٤٠ م، وهي سنة فتح المسلمين مصر (٢١هـ)، وقد بذل هذا الاحتلال جهودًا لتغيير هوية مصر ولغتها ودينها، وتعسف في استغلال شعب مصر وخيراته، وهو ما عجل بزواله، والترحيب بالفاتحين المسلمين الذين يخالفونهم في الدين والروم على دينهم! ولم يحاول المسلمون تغيير الهوية قهرًا، ولم يتعسفوا مع النصارى، فقد تعرب المصريون الذين أسلموا بلغة دينهم، وتعرب النصارى الذين يعيشون في مدنهم وقراهم بعد اختلاطهم بالقبائل العربية دون قرار

---

(١) جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رفعه: إنكم ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا"، وروى الطبراني عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفعه: "إذا دخلتم مصر فاستوصوا بالأقباط خيرًا؛ فإن لهم ذمة ورحمًا"، وروى الزهري أن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدثه أن رسول الله ﷺ، قال: (إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرًا؛ فإن لهم ذمة ورحمًا). قال الزهري: الرحم باعتبار هاجر، والذمة باعتبار إبراهيم، ويحتمل أن يراد بالذمة العهد الذي أخذوه أيام عمر؛ فإن مصر فتحت زمنه صلحًا، وروي مثله عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد فتحت في خلافته (٢٢هـ)، وفي الحديث علم من أعلام نبوة النبي ﷺ.

سياسي أو قهر، وليس في تاريخ المسلمين ما يشير إلى فرض سياسة التعريب أو الأسلمة، مثلما انحرف بعض السياسيين الذين تعصبوا لتغريب الدولة وفرنستها، وقد تعرب المصريون على فترة طويلة بلغت القرن الرابع الهجري؛ لأن العرب المسلمين لم يتعصبوا لعربيتهم، فالعربية انتشرت حبًّا في الدين، وللتمتع بالمواطنة العامة التي سادت نحو ثلث العالم القديم، فالنصارى من أبناء الدولة الإسلامية ساحوا في أرجائها الرحبة، وتمتعوا بالحقوق العامة التي يتمتع بها المسلمون، فتعربوا عن رغبة منهم، والعُجاب أن بعض القبائل غير العربية من البربر في المغرب، انتسبوا إلى أنساب عربية، وهجروا أصولهم، وقد اختلف المؤرخون في أصولهم؛ لأنهم لم يرتدوا عن عربيتهم، ولم ينتسبوا حمية لبربريتهم، وبعض المسلمين الأفارقة ينتسبون إلى بعض الصحابة والفاتحين والدعاة الذين نزلوا أرضهم، وقد تعرب النوبيون في مصر والسودان حبًّا في دينهم.

وقد أساء بعض المسلمين إلى عربية دينه، فتغرب وترك نزوعًا إلى حمية الجاهلية! والعجاب أن بعض الدهريين يتخذون أحد الذين ارتدوا إلى قوميتهم وجاهليتهم إمامًا لهم ورمزًا، ويسمونه رائد التنوير الثائر، وقد نزع نفسه من دينه وما يتعلق به من لسان عربي وخط وانتماء، موليًا الغرب الذي استنكف عن قبوله غربيًّا، وظل ذيوله يلهثون عقودًا للدخول في ربقة الغرب، فصدوهم مرارًا، وقد كانوا يوالون الصهيونية وحملات الغرب على العرب، ويمالئونهم عيانًا، وأجد بعض العرب التنوريين المخترقين يظاهرونه في سياسة التغريب والقومية، ويتخذونه قدوة، وهو الرجل الذي هدم كيان دولة الإسلام الواحدة التي ترمز لأمة الإسلام؛ لتقوم دولة الصهيونية ودويلات متصارعة، يستبد بها أذناب الغرب ورجاله، وقد فعلوا بشعوبهم ما عجز الاحتلال عن فعله! وهذا يفضح حقيقة انتماء العلمانيين الغربي وممالأتهم الغرب الغازي على أوطانهم، ونفورهم من هويتهم الدينية والثقافية.

وأدعو أبناء الوطن إلى تصحيح مفهوم "القبط" الذي يتعلق بالوطن لا الدين، فهو وصف الإغريق تربة مصر النيلية (اللون البني الداكن)، وقد سبق ظهور المسيحية، واشتهر في تسمية مصرية زمن الاحتلال الإغريقي والروماني، ثم شاع في الغرب دون اسم "مصر" الحقيقي المذكور في العهد القديم دون القبط، ولفظ مصر عريق في

الاستعمال، وليس من تسمية العرب، فالأصل مصر، والنسب الصحيح إليها، وليس إلى تسمية الاحتلال "قبط" التي لازمت الشعب دون الأرض زمن الفتح الإسلامي، فأطلقها العرب على المصريين نقلًا عن الرومانيين، فإن كان النصارى يفرون من تسميات العرب، فيجب عليهم ترك الانتساب إلى القبط؛ لأن العرب المسلمين استخدموها، ثم ضاق استعمالها فيمن بقي على نصرانيته، واللغة القبطية ليست المصرية القديمة، بل مزيجًا من اللهجات المحلية واليونانية، والحروف القبطية ليست مصرية قديمة، بل سبعة أحرف فقط ديموقطية من خمسة وعشرين حرفًا يونانيًّا؛ فهي حروف الاحتلال واسم الاحتلال، ولك التحقق من صدق قولي من كتب اللغة القبطية واللغة اليونانية، وقد ثبت أيضًا أن لفظ قبط يراد به الجنس، وليس خِصِيصي طائفة، وقد جعله النصارى خِصِيصيهم؛ ليسوغوا به أصالتهم، وأنهم أصحاب الوطن الأصليون، وأن المسلمين مهاجرون، وهم لا يفتؤون يقولون هذا في أجواء الاضطراب، يضاهئون قول الاحتلال الإنجليزي قبل؛ ليفرقنا، ليحكم سيطرته علينًا، وليجعل لنفسه ذريعة حماية الأقلية، وقد جاهر بعض عملائه من العلمانيين بطلب التدخل الغربي؛ مؤازرة لحزبهم وحماية ليبراليتهم ومشروعهم التنويري، وافتعلوا بعض حوادث العنف الطائفي، ونسبوها إلى الإسلاميين، وقد فعلها أمن السلطة مرارًا، وأشهرها تفجير كنيسة القِديسَين بالإسكندرية ٢٠١٠م قبل الثورة، وأعلن وزير الداخلية في عيد الشرطة، أن أجهزة الأمن توصلت إلى أن جماعة جند الله في غزة وراء التفجير، بعد أن نكلوا بأحد الشباب الناشطين على شبكة المعلومات بتهمة التفجير، وصفق رئيس الدولة، وأعرب عن سروره بهذا الإنجاز المنسوب لجماعة وهمية، والفاعل السلطة التي تفتعل أحداث الإرهاب؛ للاستفادة منها في الانتخابات والقوانين التعسفية وإحكام القبضة الأمنية على المعارضين.

ولا أرحب بالأسطورة الإسرائيلية التي شاعت بين نخالة المثقفين المصريين، أن اسم مصر نسبة إلى مصر أو مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام الأصغر، فهذا من الخرافات الدخيلة من الإسرائيليات التي نسجها الخيال العاجز عن معرفة الأزمنة الأولى، والثابت علميًّا أن لفظ مصرايم فيه لاحقة زائدة في العبرية (أو مصرائيم أو مصراين أو مصرايم بمعنى المصريين)، وجاء في الإسرائيليات أنه كان لحام أربعة أولاد: مصر، وبعضهم يقول

مصرائيم وكنعان وكوش، وهو اختلاف في اسم واحد، فهم ثلاثة، والراجح أن كنعان من الفرع الذي ينتمي إليه العرب، فاسم مصر قديم يشبه اللفظ العربي "مصر"، وجمعه أمصار، ويراد به الحضَر أو المدن والاستقرار، وأرجح أنه أطلق على مصر الدولة؛ لأنها أول دولة عرفت الحضر والاستقرار على ضفتي النيل والواحات المائية العذبة، وقد وصل اللفظ إلى العربية بدلالته هذه، فالعربية أقدم اللغات المستعملة التي حافظت على بعض ظواهر اللغة الأولى واحتفظت ببعض ألفاظها، ومن الألفاظ التي استخدمت في العربية بدلالتها الأولى كلمة "آدم" الذي خلق من أديم الأرض (التراب)، وكلمة "الأم" بمعنى الأصل والرأس، وقد احتفظت العربية ببعض تسميات أعضاء جسم الإنسان؛ كالعين والرأس واليد، وأسماء الحبوب؛ كالقمح وبعض أسماء بعض الحيوانات من اللغة الأم التي انحدرت منها، فهي أقدم اللغات التي سماها المستشرقون اليهود السامية (الفرع الأوسطي في أوسط العالم: الجزيرة العربية والشام والعراق)، وقد ادعى اليهود لغة الكنعانيين لهم، وسموها العبرية، والصواب أن قبائل العبيرو وافدون من آسيا، وتكلموا لغة الشعوب التي جاوروها، ومنهم الكنعانيون في فلسطين، وهم خصوم اليهود التوراتيين (حسبما ذكر اليهود في العهد القديم من عدواتهم)، فأخذوا عنهم لغتهم التي تأثرت بالآرامية المتأخرة التي شاعت زمن ظهور النصرانية، وبقيت فيهم حتى جاء الإسلام، وسموها العبرية في الأندلس، وهي لغة خصومهم الذين استبعدوهم زورًا من الفرع البشري الأوسطي (السامي)، وأدخلوا بدلًا منهم زورًا العِيلاميين الآسيويين أبناء عمومتهم، فقد أكد علماء الأجناس أن العيلاميين ليسوا أوسطيين (ساميين)، وانتساب العبريين إليهم يؤكد أنهم من قبائل "عبيرو" المنحدرين من أصول حامية هم والعِيلاميين، وقيل عبيرو تعني القبائل الرحَّل، وهو دليل آخر. ومن وراء تقسيم سلالات البشر ترسيخ ادعاء نقاء الجنس الإسرائيلي، وأنهم صفوة البشر المختارون وأحباء الله وحدهم، وهي الفكرة التي تبناها النازيون الذين زعموا نقاء الجنس الآري، وهم وراء العرقية الأوربية التي تبنت القومية، وهي تشبه القبلية الجاهلية التي نبذها الإسلام، وآخى بين الناس في العرق واللون، وحفظ حق الاعتقاد لصاحبه.

وقد ظهر في مصر تيار متأقبط (مدع الانتماء إلى القبطية)، أوجده الاحتلال أول مرة، يعلن أن نصارى مصر السكان الأصليون، وأن المسلمين وافدون دخلاء على مصر، وزعموا أنهم استقدموا جيش الفتح الإسلامي؛ ليخلصهم من الاحتلال الروماني النصراني الذي اضطهدهم عرقًا ومذهبًا، ونكل بهم وغيَّرَ هويتهم، والحقيقة أن فتح مصر كان هدفًا إسلاميًّا منذ العهد النبوي؛ فهم جند الإسلام وحماته، ولم يك لنصارى مصر دور سياسي أثناء الفتح أو مساعدات عسكرية؛ لأنهم كانوا عمالًا وفلاحين في خدمة الرومان، ولكنهم لم يقاتلوا إلى جوار الروم، وكان قادة النصارى هاربين من السلطة الرومانية، فأعادهم عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأقروا بالجزية على القادرين فقط، وكانت شيئًا هينًا مقابل ضرائب الروم التي بلغت الأموات نظير حفظ ذمتهم (أرواحهم ودينهم ومعابدهم وأموالهم)، وإصلاح المرافق والخدمات العامة، وقد زعموا بعض من زيف تاريخ هذه الفترة أن جند المسلمين أجبروهم على أن يفتحوا بيوتهم لهم ومزارعهم لخيلهم، والحقيقة أن الجنود كانوا ينزلون الأرياف فترة التجمير (الحبس للقتال)؛ ليطعموا خيلهم ولاستعادة عافيتهم في حاميات خاصة أو معسكرات في القطر المصري؛ لأن بعض الجنوبيين كانوا يهاجمون المدن والمعسكرات الرئيسة، ولا يعرف في تاريخ الفتوحات أن الجنود استحلوا الأرواح والأعراض أو الأموال، فهذا افتراض محض وتضليل، ولكنه صح في الحملات الصليبية التي أخرجها البابوات من أوربا؛ فقد استحلوا كنائس النصارى وأموالهم في البلاد الإسلامية التي غزوها على غير سابقة من المسلمين، وقد شهدت أفعالهم أنهم كانوا همجًا ولصوصًا على غير دين، فقد حولوا المساجد إلى إسطبلات خيل (منها المسجد الأقصى الشريف)، ولم يتخذوها معابد، واعتدوا على الأعراض، ونهبوا أموال المسلمين والنصارى والكنائس والأديرة والصلبان والأكاليل، وهي حرام على المسلمين، ونهبوا كل شيء في طريقهم إلى بلاد المسلمين، بل تحول بعضهم إلى بلاد نصرانية، ونهبوها، واستهدفت بعض الحملات ضرب الكنيسة الشرقية (في القسطنطينية)، وادعت بعض العصابات أنها جيش الرب، ورفعت الصليب وارتدت ملابس تميزها، وارتكبت مجازر ونهبت قوافل التجارة والحجيج، وهتكت

الأعراض في القرى، والعجيب أن مؤرخي المسلمين سموهم الفرنجة (The Franks)، ولم ينسبوهم إلى النصرانية البريئة من جرائمهم ووثنيتهم[١].

وقد طرح الخطاب الإعلامي مصطلح "المواطنة" (Citizenship) مقابل إقصاء الهوية الدينية، زاعمين أن الدين تفرقة وتعصب، وأن المواطنة الجامعة للوحدة الوطنية، وهي أفكار القوميين الغربيين، وهذا مذهب المضللين الذين سووا بين الإسلام والديانات الأخرى التي أسرفت في الخصوصية؛ تأثرًا باليهود الذين جعلوا اليهودية خصيصي العنصر الإسرائيلي، الذي لا وجود له حقيقة في يهود عصرنا، فالدين الإسلامي دين الناس كافة، وليس دينًا عنصريًّا، والشريعة الإسلامية الشريعة الوحيدة التي تضمنت معاملات غير المسلمين وحقوقهم، والشريعة التي تركت لرعاياها حرية تدبير معايشهم الدنيوية بمقتضى حفظ مصالح الدين والدنيا، والوطن أحد مصالح الدنيا التي أكد الإسلام حفظها والاستشهاد من أجلها، والوطن هنا ليس بالمفهوم القومي خصيصي العرق وإبادة الأعراق الأخرى والديانات الأخرى، بل الأرض التي تتسع لكل مقيم يتخذها وطنًا، ويؤدي حقوقها دون اعتبار دينه أو عرقه، ومن ثم استوعب الإسلام كل الأعراق والديانات، خلاف الآخرين الذين أباحوا دماء مخالفيهم عرقيًّا ودينيًّا، فنصارى الغرب اضطهدوا غيرهم، وأبادوا بعضهم، والقوميون أبادوا القوميات الأخرى، وما زال نصارى ما يعرف بأرض الإسلام على نصرانيتهم وأموالهم، ولم يتعرضوا لحرب دينية بفتوى شرعية خلاف باباوات الكنائس، الذين أشعلوا الحروب على الإسلام، وتورطوا في إبادتهم، وارتكاب جرائم تخالف ما يعلمونه رعيتهم؛ كإباحة أموالهم وأعراضهم،

---

(١) ظهر مصطلح الفرنجة والإفرنج في التاريخ الإسلامي بعد فتح الأندلس، وقد أريد به من قاوموا الفتح الإسلامي شمال إسبانيا (جبال البرانس)، والفرنكيون أو الإفرنج أو الفرنجة: مجموعة قبائل جرمانية غربية، شكلت ما عرف باسم تحالف القبائل الجرمانية (قبائل السليان والسيكامبري والتشاماقي والتشاتي والبروكتيري واليوسيبيتس والأمبسيفاري، وقد انتشروا في بعض مناطق الإمبراطورية الرومانية الغربية (ألمانيا)، واستوطنوا المناطق الشمالية من بلاد الغال (فرنسا)، وقد عمت تسمية الفرنجة سكان أوربا الغربية، وأطلق على الجيوش التي انطلقت من غرب أوربا، وعرفت حديثًا بالحملات الصليبية، وهي تسمية حديثة ظهرت في كتابات الأوربيين المتأخرين.

وهذا لا ينفي تعرض النصارى لظلم سياسي من قبل السلطيين الظالمين، وقد حل بالمسلمين ما حل بهم على سواء، فالحكام الظلمة مثل تجار السلاح والمخدرات لا يعرفون دينًا ولا وطنًا، فدينهم ما يرونه، ووطنهم ما يملكونه.

ولا تصلح تسمية الوطن لمن تركوه، وانتسبوا إلى وطن آخر ووالوه، فليس بمواطن مصري، بل أصله مصري، فهو مواطن في البلد التي سكنها وحمل هويتها، والتي اشترطت عليه شروطًا وقبلها، منها الولاء التام لها والبراء من غيرها، والعمل بالهوية المزدوجة من أجل سهولة الحركة، ولتسهيل بعض الأنشطة الاقتصادية والمصالح وجلب العملة الصعبة، ولا أحسب الذين يتعصبون لمهجرهم ضد دولتهم، من هؤلاء الذين يدعمون وطنهم الأم سياسيًّا واقتصاديًّا، فالدلائل والظاهر معًا يؤكدان أنهم يعملون لأجندة خاصة، ويجب أن تحسم الدولة موقفها من المهاجرين الذين لا يثبتون وطنيتهم بأن تُسْقِط جنسيتها عمن يعملون لصالح عدوها في الخارج؛ فالاحتفاظ بجنسيتهم يعني أنهم أصحاب حقوق في الحديث عن أبناء الوطن، أو أنهم نواب عنهم ويمثلونهم خارجيًّا، ولماذا لا تعلن الكنيسة رأيها في هؤلاء؟ ولماذا تدخرهم وتخشى مواجهتهم؟ وقد اشتكت من قبل "كنيسة المقطم" التي زرعتها المخابرات الأمريكية في مصر كيدًا فيها وفي مذهبها، وقالت إن كاهنها أمريكي، وأسقط مصريته الأولى؛ لأنه يحمل الجنسية، ومُنصَّب من قبل الأمريكان ولم يعترف البابا به كاهنًا؛ لمخالفته الكنيسة الأم في بعض الأحكام، ومنها الطلاق والخلع وإيواء المعارضين لها. ولماذا لا تعد حديثهم عن حقوق النصارى في مصر تدخلًا في سلطة الكنيسة التي تمثلهم؟ وتعد تدخلهم ذريعة لتدخل رجال الدين الأمريكان في شئونها؟ وللمتأقبطين الأمريكان خطة (أجندة) مشتركة مع الصهيونية، فالكنيسة الإنجيلية التي أخرجت بوش، وأقامت كنيسة المقطم، ستخرج آخرين يواجهون رأس الكنيسة في مصر، ولا شك أن خراب الكنيسة سيترتب عليه آثار سلبية على الوطن واستقراره.

وتسميتهم بأقباط المهجر لها دلالة تاريخية ودلالة طائفية، فالدلالة التاريخية ادّعاؤهم أنهم أبناء الوطن الأصليون، وهذا اتجاه تنامى في ظل الصراع العرقي والطائفي في العالم، فقد تحول الصراع من صراع على الثروة والأرض إلى صراع الجنس والطائفة الدينية

والمذهب الديني، وهو صراع مفوج إلينا من الغرب، ولهذا أثر خطير في طبيعة العلاقة بين أبناء الوطن الواحد، وشعار المواطنة بات مفرغًا من دلالته في المشاركة الوطنية، والقبطية بهذا التفسير لها مفهوم ضيق طائفي، وليس بمفهوم المواطنة العام، فكلمة "قبط" أطلقت على المصريين قبل المسيحية زمن العصر الإغريقي ثم العصر الروماني، ويراد بها لون الأرض البني الداكن الذي نسب إليه السكان.

والدلالة الطائفية أنها تعني النصارى وحدهم دون المسلمين، وهو الوهم الذي يظنه العامة منهم وبعض المسلمين، وهو غير صحيح علميًّا، فالقبطي في العصر الإسلامي يراد به المصري المسلم وغير المسلم ممن لم يتعربوا، مثل كلمة أعجمي (المسلم غير العربي أو من لا يتكلم العربية)، والنصارى الذين يعيشون في مصر ليسوا جميعهم من أصل مصري، فبعضهم مهاجرون من أوربا ومن آسيا ومن الجنوب، وبعضهم من أصول مصرية، ولا نستطيع ادعاء نقاء العرق القبطي من التجنيس (التهجين)، فمصر بلد مهجر من العصر الفرعوني حتى الآن، وكانت قصد عدد كبير من المهاجرين في العصر الفرعوني لشهرتها وغناها، وهاجر إليها عدد كبير من الشمال في ظل الحكم الإغريقي والروماني، وهاجرت إليها قبائل عربية قبل الإسلام، وزادت هجرة العرب إليها في الإسلام، وتعرَّب السكان الأصليون في القرون الأول والثاني والثالث الهجرية، وشهد القرن الرابع التعريب العام الذي بلغ الكنائس، والعربية اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي، فصار سكان الأرض القبطية عربًا؛ بفضل الإسلام والهجرة العربية.

وقد اختزل الإعلام والنصارى اسم "قبط" في نصارى مصر وحدهم، وهو سابق على ظهور النصرانية، وهي تسمية غير دقيقة؛ لشمولها الجنس المصري والمهاجرين إلى مصر، فكل من سكن أرضها وطعموا منها واتخذوها وطنًا بالمفهوم الأول الذي استخدم به اللفظ (قبط) يعد قبطيًّا، ويبقى الاختلاف في أنه قبطي قح (أصيل) أو قبطي هجين (مستقبط) مثل اليونانيين والرومانيين والفرس واليهود والكنعانيين وبعض قبائل العرب الذين هاجروا إلى مصر قبل الفتح الإسلامي، هؤلاء جميعهم مستقبطون (بالمفهوم الحديث متمصرون)، وإن شاء الباحث الإنصاف شهد أن النوبيين سكان مصر الأقحاح الخلص، واحتفظوا بلهجتهم النوبية التي ترجع إلى المصرية القديمة خلاف القبطية

اليونانيـة في كثيرهـا وفي حروفهـا، والخطـورة الكامنـة وراء رفـع لـواء القبطيـة في وجـه المسلمين أن الكنائس تعلم اللغة القبطية لأتباعها استعدادًا لطلب الاعتراف بها رسميًّا مثلما يطالب الأمازير (البربر) بالاعتراف بلغتهم القومية (الأمازيرية)، ومثل الأكراد، ولكن القبطية ليست لغة مصرية خالصة، بل مزيجًا من اللهجة المصرية المتأخرة واليونانية والرومانية، وظلت اليونانية مستخدمة حتى دخل الإسلام مصر، وحروف الكتابة يونانية عدة سبعة ديموقوطية، وقامت محاولات للتحول عن اليونانية إلى ما يعرف بالقبطية في الإسلام.

والاتجاه نحو نشر القبطية والاعتراف بها لغة ثانية خطر على الوحدة الوطنية واللسان العربي الرسمي في ظل انهيار العربية وضعفها في اللسان والتعليم؛ فالازدواجية اللغوية ستحدث انقسامًا داخليًّا، وليس هذا تعصبًا للعربية؛ بل لأنها اللغة المشتركة الوطنية في ظل الوضع السياسي الرقيق وعبث المواطنة العنصرية، واللغة القبطية كثيرها دخيل، وغير مستعملة، وليست اللغة المقدسة، فالمسيح عليه السلام كان يتكلم الآرامية، ولعلنا نتوحد واعين أن الوطن للمصريين، وأن النصارى الذين يعيشون في الوطن العربي أبناء الثقافة الإسلامية وليسوا غربيين، وقد ساهموا في تراث هذه الأمة وحضارتها، ونحن أولى بهم من غيرنا، ولا يفوتني أن أعترف بوطنية نصارى الشام والعراق؛ لأنهم أكدوا قديمًا وحديثًا أنهم أبناء الحضارة الإسلامية والعروبة، وأن لسانهم العربية، وأنهم ساهموا في الثقافة واللغة بنصيب عظيم، وأشهد كذلك لأبناء النوبة الأحرار الوطنيين في مصر أنهم معدن أصيل، فهم المصريون الأقحاح لا شك، وأنهم رفضوا التعاون مع الاحتلال، أو أن يكون عملاءه في الوطن، وطالما حاول الأعداء تجنيدهم واستغلال إهمال الحكومة لهم، وأثر بناء السد العالي السلبي عليهم، فقد تحملوا وحدهم آثاره السلبية دون تعويض أو بديل، ولم يكونوا حربًا على الوطن، ولن يكونوا إن شاء الله، وقد ادعى بعض النصارى أنهم السكان الأصليون، متجاهلين النوبيين أحفاد المصريين الخُلَّص، فهم امتداد العرق المصري القُح وحدهم دون المسلمين والنصارى، وكانت لهم حضارة بلغت أعالي السودان (الغابات)، ولكن تجاهلهم التاريخ والحكومات في البلدين، ولو لم أكن مصريًّا لتمنيت أن أكون نوبيًّا أصلًا وتحضرًا ووطنيةً.

وهذا النوع كثير في الخطاب السياسي الغربي، وسوف أتناوله مفصلًا لاحقًا.

ك- الجهل بأصل اللفظ: ومنه: الاعتبار بمعنى العد (عده كذا وجعله وحسبه)، والاعتبار في الأصل لمعنى العبرة، والعائلة بمعنى الأسرة، وهو لمعنى الإعالة، والتزوير بمعنى التزييف، والأصل إعداد القول في النفس وتحسينه، يقال زورت قولًا في نفسي: استدعيته وأعددته للقول، ومثله "الفشل" بمعنى الإخفاق، يقال: الفشل السياسي، وأصل معناها: "الفزع والجبن والضعف"[1]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦] ، قال ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ): "فتضعفوا وتجبنوا"[2]، وقد شاع في الخطاب بمعنى الإخفاق، وهو بسبب منه، فالتنازع، يعقبه الضعف والجبن، ويترتب عليهما الهزيمة.

وقد يكون الخطأ منقولًا عن شيوعه في الألسنة عن ترجمة غير دقيقة، مثل القول السيار في وسائل الإعلام: "الاختلاف في الرأي لا يفسد الوُد"، وهو قضية منطقية ذكره ابن رشد في تلخيص المنطق الأرسطي متبوعًا بلفظ "قضية" أي: القول السابق قضية منطقية تامة من موضوع ومحمل، فنقل إلى اللغات الأجنبية على أن قضية مضافة إلى الود، فعاد مترجمًا مخالفًا الأصل العربي: الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية، وقد شاع الخطأ، وفُقد الأصل للجهل به.

ومنه الخطأ في بنية اللفظ مثل: أحراش، والصواب: أحراج جمع حَرَج، ويراد الشجر الكثيف الملتف.

مصطلح النصرانية: الحقيقة أن تسمية "المسيحية" لها بعد عقدي مذهبي، يرى أن الله تعالى هو المسيح عيسى ابن مريم، وهي ترجمة صريحة لكلمة التي شاعت في العصر الحديث بديل كلمة النصرانية، وقد وردت كلمة النصارى في القرآن الكريم بمعنى المنتسبين إلى دين المسيح عليه السلام على اختلاف اعتقادهم في الله تعالى وتوحيده والمسيح عليه السلام، وقد ورد في بعض معاجم اللغة أن النصارى أتباع دين المسيح عليه السلام، وهو تفسير غير دقيق،

(١) لسان العرب، مادة: فشل، ج ١١/ ٥٢٠.

(٢) تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)، تحقيق الأستاذ محمود شاكر، دار المعارف، ج ١٣/ ٥٧٥.

بل هم المنتسبون إلى المسيح، ويسمون أنفسهم مسيحيين، أو من تعبَّد بدين النَّصرانية، وقد جاء في القرآن ما يثبت أنهم فيه مذاهب، فبعضهم يرونه ابن الله، وبعضهم يرونه الله تعالى، وبعضهم يجمع بين الألوهية والإنسانية، وقلة منهم يعتقدون ببشريته، والمشهور في المسيحيين المعاصرين أنهم لا يعتقدون فيه اعتقادًا واحدًا، وما زالوا على ما وصفهم القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] ، وقد دعا المسيح إلى دين التوحيد الذي دعا إليه الأنبياء - عليهم السلام - من قبله ومن بعده محمد ﷺ.

وبعض النصارى ينفرون من تسمية "النصرانية"، ويحسبونها تسمية إسلامية تجردهم من عقيدتهم، ولا يراد به الطعن فيها - حسب ظنهم - حاشا لله أن يطعن المسلمون في دينه الحق، بل هي تسمية النصارى أنفسهم قبل الإسلام، وأطلقوها على عقيدتهم، وانتسبوا إليه، وشاع في العرب، ولم يستخدموا المسيحية إلا في زمن الاحتلال الأوربي؛ ترجمة التسمية الغربية، والمسيح نفسه عرف به (يسوع الناصري قبل الإسلام، ويشوع: يسوع، عيسو، عيسى، وقد لُقب بالمسيح: المبارك عليه السلام)، وقد انطلقت دعوته التوحيدية من قرية الناصرة (بالآرامية: ܢܨܪܝܐ، (نيصرايا)، وبالعبرية: נָצְרַת (نيصرت)، وفي اليونانية Ναζαρέτ (نيزيرت) وباللاتينية: Nazareth (نِزَّات)، وهي التسمية التي شاعت في الخطاب العربي القديم، وهي تعني "القلعة" أو برج الحراسة، والنسب إليها: الناصري، ولكن لفظ "النصارى" مأخوذ من النطق الآرامي الشائع زمن ظهور المسيح عليه السلام "نِصرايا" اسم مدينة الناصرة، وقد أطلقه الخطاب العربي قبل الإسلام على أتباع "عيسى أتباع الناصري عليه السلام"، أو "الذين يتبعون يسوع النصاري" اسم النصارى، والواحد: نصراني، وانتقلت التسمية إلى اللاتينية (Nazara)، ويطلق عليهم في العبرية مصطلح "נוצרים"(نوصريم) أي: أتباع يسوع الناصري؛ ولم يعترفوا بأن يسوع المسيا (المسيح المنتظر)، وهذا الراجح، والمشهور بين نصارى العرب، وقد وقع لها من التغيير ما وقع لكلمة "سوريا"، وهي كلمة آشورية تعني: "شري": سري، والجمع: سُراة: السيد، ومؤنثه "شاراي": "سارة"، وقد شاعت بعد انتشار المسيحية في تسمية النصارى، وحلت محل الآراميين، التي بقيت للوثنيين الأصليين، وقد حرفها الإغريق، ثم الرومان، وسموا

"آسور أو آسيريا"، وتعني بلاد الآشوريين؛ لأنها كانت بلادًا آشورية أيام اليونان، والجمع: سُوريان، والمفرد سُرياني، واسم أتباع المسيح نُصْران ونَصارى، والمفرد: نصراني، والله أعلم.

وقد تأوله بعض الصرفيين أنه نسبة إلى مدينة الناصرة مولد المسيح عليه السلام، وقيل: نصارى عربي: جمع نصران، زادت الألف والنون مبالغة في النصر، مثل: ندمان وحيران وسكران، وهو معدول عن نصراء، مثل: فقير فقراء، كما عدل عن جمع ناصر إلى أنصار في تسمية أصحاب النبي ﷺ، ودليلهم أن نصارى من النصرة، وليس نسبًا إلى المدينة ما جاء في القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾ [الصف:١٤]، وأن النسب إلى مدينة الناصرة: الناصري، والجمع: الناصريون، وقيل النصارى تعريب: "نصرايا" باللغة السريانية، والألف آخرها للتعريف (اسم مدينة الناصرة مهد المسيح، تعريب الاسم السرياني)، واللغة العبرية القديمة والحديثة لا تزال تقول: نوصري، وجمعها نوصريم ونصرانيم، وتقول: نصروت أي: النصرانية، وهذا رأي معتبر؛ لأن تسمية النصرانية سبقت ظهور الإسلام، وهذا لا يتعارض مع كون أتباع عيسى عليه السلام أنصاره رضي الله عنهم، وهو اسم نصارى فلسطين (مهد النصرانية) وعموم الشام والعراق، وهنالك رأي ثالث أن تسمية النصارى غلبت عليهم دون الأنصار والناصرين؛ لأنهم بدلوا دينهم، والثابت مما تقدم أن النصرانية الاسم الأول والثابت للديانة التي بشر بها المسيح عليه السلام، والاعتراض على تسمية العقيدة بالمسيحية أنها تعني عبادة المسيح، و﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ [المائدة:٧٢] ، وليس اللفظ من النصير أو الناصر على الراجح، وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [الصف:١٤] ؛ فالذين سموهم نصارى غيرهم، ولم يسموا أنفسهم رضي الله عنهم الأنصار، واليهود - على الأرجح - منسوبون إلى أكبر سبط من أسباط بني إسرائيل (سبط يهوذا بن يعقوب عليه السلام)(١).

---

(١) قيل إنهم سموا يهودًا نسبة إلى يهوذا بن يعقوب، الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل الذين بعث فيهم موسى عليه السلام. وقيل نسبة إلى الهَوَد: وهو التوبة، والرجوع، من قول موسى عليه السلام لربه عز وجل: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ
=

وكلمة مسيحي لم يستخدمها المسيح، بل أطلقها بعض خصوم النصرانية على أتباعها، فنسبوا المؤمنين إلى المسيح، ويرجع أقدم استخدام له إلى سنة ٤٢م تقريبًا، فقد "دعي المؤمنون مسيحيين أول مرة في إنطاكية نحو سنة ٤٢ أو ٤٣ ميلادية" [أعمال الرسل، ١١: ٢٦، وبطرس، ٤: ١٦]، قال المؤرخ تاسيتس (المولود نحو ٥٤ م): "إن تابعي المسيح كانوا أناسًا سفلة عاميين، وقال أجريباس لبولس: "تقنعني أن أصير مسيحيًا"[أعمال الرسل ٢٦: ٢٨]، يعني: أن حسن برهانك كان يجعلني أن أرضى أن أعاب بهذا الاسم"(١)، ووردت كلمة: "مسيحي" أو "مسيحيين" ثلاث مرات في العهد الجديد، [أعمال الرسل، ١١: ٢٦، و٢٦: ٢٨، بط ٤: ١٦]، فقد جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر أعمال الرسل: "ودُعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولًا" أي: المنتمين للمسيح أو أتباع المسيح، وقد أطلقه اليهود على أتباع المسيح، ولم يعترفوا بإيمانهم، فنسبوهم إلى المسيح الذي يعدونه مارقًا وكذابًا، وقد أطلقوا على المؤمنين النصارى "شيعة الناصريين" [أع، ٢٤: ٥](٢)، وقد أطلق الوثنيون من سكان إنطاكية على من تبع النصرانية، وانفصلوا عن المجمع اليهودي، وأقاموا لأنفسهم معبدًا خاصًّا (كنيسة)، وقد حل محل المجمع اليهودي جماعة آمنوا بالمسيح، وقد شاع هذا الاسم في القرن الثاني، واستخدمه القس إغناطيوس الأنطاكي، وهو أول مسيحي يطلق على المؤمنين النصارى "مسيحيين"،

=

﴿إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. أي: تبنا ورجعنا إليك يا ربنا، وهو المعنى المعجمي، قال ابن منظور: الهود: التوبة، هادَ يهود هودًا، وتهوَّد: تاب ورجع إلى الحق؛ فهو هائد، وقومٌ هُوْد مثل حائك وحُوك، وبازل وبُزْل، وأخرج الطبراني، وذكره ابن كثير عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: إنما سميت اليهود من أجل أنهم قالوا ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: "نحن أعلم من أين سميت اليهود باليهودية؟ من كلمة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، ولِمَ تسمت النصارى بالنصرانية؟ من كلمة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصف:١٤] ، وقيل: نسبة إلى التقرب والعمل الصالح، قال زهير بن أبي سلمى:

سوى رَبَعٍ لم يأتِ فيه مخافةً ولا رهقًا من عابد متهود

والمتهود: المتقرب، والتهود: العمل الصالح، من الهوادة، وهي المودة، فكأنهم سموا بذلك؛ لمودة بعضهم بعضًا.

(١) قاموس الكتاب المقدس تأليف نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين، دار مكتبة العائلة، القاهرة، ودائرة المعارف الكتابية: كلمة "مسيحيون".

(٢) قاموس الكتاب المقدس، طبعة ٢٠٠١م، ص ٨٨٩ .

وكتب بلليني (الحاكم الروماني للمنطقة التي أرسل إليها الرسول بطرس رسالته الأولى) إلى الإمبراطور تراجان عن جماعة متهمين بتهمة اتباع دين المسيح، فسماهم "مسيحيين"(١)، وقد انتشرت التسمية بين المسيحيين غير العرب، ولم تستخدم في العالم الإسلامي حتى العصر الحديث، الذي غلبت فيه المصطلحات الغربية، وترجع غلبتها إلى وسائل الإعلام النقالة عن الإعلام الغربي، بيد أن الاسم التراثي "النصرانية" ما زال مستخدمًا في خطاب العلماء المسلمين وعند الباحثين الأكاديميين وبعض المثقفين والأدباء، وأنا أميل إلى التسمية الأصيلة "النصرانية"؛ فهي التسمية التي سجلها القرآن الكريم: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ [آل عمران:٦٧] ، وأنها تسمية أصيلة، وأنها تعبر عن تبعيتهم للدين، وأنهم أنصار من دعاهم إليه عليه السلام، ولا تحمل الأبعاد العقدية المشكلة في نسبهم إلى لفظ المسيح.

ولك أن تستخدم النصرانية، وهي الأصوب قرآنيًّا وتاريخيًّا، وللنصراني أن يستخدم "المسيحية"(٢).

وبعض الزنادقة المضللين - ممن ينتسبون إلى الإسلام - يسمون المسلمين "المحمديين"؛ جريًا على تسمية "المسيحيين"، فالمسلمون منتسبون إلى تسمية رب العالمين؛ لأنهم على توحيد إبراهيم عليه السلام: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج:٧٨] ، ودين المسلمين الإسلام يقوم على توحيد رب العالمين، ومحمد ﷺ أول مسلم.

---

(١) ارجع إلى: دائرة المعارف الكتابية، دار الثقافة، القاهرة، كلمة: مسيحيون.

(٢) كلمة المسيحية مصدر صناعي من المسيح، وهو وزن فعيل بمعنى ممسوح، مثل قتيل وذبيح وصريع، وهو في الآرامية السريانية (ܡܫܝܚܐ) (مشيحا)، والآرامية هي لغة المسيح، وفي اللغة العبرية "ماشيح - מָשִׁיחַ" من الفعل "مشح" أي: "مسح"، ونقلت كلمة "ماشيح" إلى اللغة اليونانية كما هي، ولكن بحروف يونانية "ميسياس -Μεσσίας"، وترجم الفعل: "كريستوس: Χριτός"، والاسم: "Χριστός" كريستوس، وجاء منه مسيحي باليونانية "Χριστιανός"، وأيضًا "χρηστιανός": (كريستنوس)، وانتقلت إلى القبطية: (خريستنوس) والمسيحية "χριστιανισμό" (كريستنموس)، وكلمة مسيحي في معظم اللغات الهندو أوروبية مشتقة من الكلمة اليونانية "كريستوس" ترجمة المسيح، ومعناه في العهد القديم الممسوح بالدهن المقدس، أي: المبارك من الرب.

مصطلح "السياسة"[(١)]: ذهب بعض الباحثين المتأخرين إلى أن لفظ "السياسة" دخيل من لفظ "ياسة" أو "الياسق" المغولي، الذي يعني القاعدة والقانون الذي وضعه ملك المغول "جنكيز خان" الوثني (١١٦٥ - ١٢٢٧م) دستورًا لمملكته التي أنشأها، وقد جمعه من شرائع أهل الكتاب والشريعة الإسلامية وبعض أعراف المغول وبعض القوانين التي اقترحها لمملكته، وهذا شأن الدول الدهرية في كتابة دساتيرها؛ تتحرى دساتير الدول الأخرى، وتنتقي منها ما يناسبها، وقد قدس المغول العمل بهذا الدستور، وقد أنكر بعض علماء المسلمين (الجويني وابن كثير وابن تيمية والمقريزي وغيرهم) قوانينه المخالفة للشريعة الإسلامية؛ لأن المغول خلطوا بينها وبين ما زادوه من الملل الأخرى وما وضعوه، وكانت الشريعة الإسلامية المعمول بها في دار الإسلام، فأنكروا قوانين دستور المغول المخالفة لها، واحتجوا في تكفير من يعمل بها من المسلمين بالآيات الصريحة في تكفير من لا يحكم بما أنزل الله[(٢)]، والذي أنكره العلماء من "ياسا" أحكام الحدود وقوانين

---

(١) لقد تناولت مصطلح السياسة وتطوره في الخطاب العربي والممارسة في كتابي الحكم القبلي في العصر الجاهلي، مكتبة الأنجلو المصرية، وكتاب تاريخ الحكم في الإسلام، مؤسسة المختار، مصر.

(٢) أجمع العلماء على أن التحاكم إلى الأعراف المخالفة للشريعة، والتقاليد في ما حكم فيه الشرع من أمور الجاهلية، والرضا به، وتقديمه على حكم الله تعالى - نقض لعروة الدين، وهدم لأحد أركانه؛ قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء] . وقال عز وجل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]، وجاء الحكم صريحًا على المجاهر المعاند بالمخالفة والمستعلي على حكم الله في قوله تعالى: ﴿لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة]، و﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة]. ارجع إلى تفسيرها في كتب التفسير المعتمدة، وقوانين تنظيم الدولة العامة بمقتضى مصالحها =

الأحوال الشخصية الدخيلة على المسلمين المخالفة للشريعة، وقد استحسن العلماء الاستفادة من تجارب الأمم المتحضرة في تنظيم شئون الدولة وإداراتها، وبناء مؤسساتها وهياكلها المدنية؛ حفاظًا على قوة سلطان الخلافة، فقد استفادت الخلافة الإسلامية في بناء مؤسساتها من دولتي الفرس والروم، واستحدثت أنظمة جديدة، وتوسعت في المؤسسات بمقتضى الحاجة، وكان ديوان الجند الأسرع تطورًا؛ تلبية للجهاد والفتوحات وتوسع الخلافة، وأقول: المنكر استبدال قوانين وضعية (داخلية أو دخيلة من غير المسلمين تتضمن عقوبات الحدود وأحكام المواريث والمعاملات) بأحكام الشريعة الإسلامية، وأما ما يتعلق بوضع دستور الدولة المنظم لنظام الحكم فيها والانتخاب وهياكل سلطتها وإداراتها وتنظيم مؤسساتها وعرف العمل فيها وقوانينه، فهو من أعمال الدنيا التي سكت عنها الشرع؛ لينتجع المسلمون أفضل ما يرونه محققًا لمصالحهم الدنيوية بما لا يخالف الشرع.

والثابت أن لفظ "السياسة" عربي أصيل، له مادة عربية[1]، وجاء في الخطاب العربي

=

وظروفها وتكوينها فيما لا يخالف نصًّا شرعيًّا، ليس فيه شيء، ولو كان منقولًا عن أعراف الدول غير المسلمة؛ فهذا شأن دنيوي، والمحرم قطعًا استعارة أحكام الحدود والأحوال الشخصية من غير المسلمين، ففي أحكام الشريعة غناء لا نظير له في شرائع العالم.

(١) تناول مادة السياسة أوائل المعجميون، قال الخليل (١٧٠هـ) في العين: "والسِّياسة فعل السائس الذي يسوس الدوابَّ سياسةً يقوم عليها ويروضها، والوالي يَسُوس الرَّعيّة وأمْرهم"، وذكرها ابن دريد في "جمهرة اللغة": "وسسْستّ القومَ أسوسهم سِياسةً، وكذلك الدوابّ"، وذكرها الجوهري في الصحاح: [سوس]: سُسْتُ الرعية سِياسَة، وسُوِّسَ الرجلُ أُمور الناس على ما لم يُسَمَّ فاعله: إذا مُلِّكَ أَمرَهم. ويروى قول الحطيئة:

لقد سُوِّسْت أَمرَ بَنِيك حتى تركتهُم أَدقَّ من الطَّحِين

[والحطيئة شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام]، وفلان مجرب قد ساس وسيس عليه، أي أمر وأمر عليه"، وذكرها الأزهري في "تهذيب اللغة": وقال أبو زيد: عاس فلان مالَه عَوْسًا، وساسه سياسة: إذا أحسن القيام عليه. وإنه لسائس مالٍ، وعائس مالٍ بمعنى واحد، وذكرها الصاغاني في العباب الزاخر: "... ومحمد بن مُسلِم بن سُسْ .كالأمر من السياسة من أصحاب الحديث [يريد الأمر من الفعل ساس]، وسُسْتُ الرَّعِيَّة سِياسَة. وفلان مُجَرِّب قد ساسَ وسيسَ عليه: أي أمَرَ وأُمِرَ عليه"، وذكرها ابن سيده في "المحكم والمحيط الأعظم":

وإنَّ سِياسَةَ الأقوَامِ فاعْلَمِ لَها صَعْداءُ مَطْلَعُها طَوِيلُ

=

منذ زمن الجاهلية، ومعناه في عموم الخطاب: الخدمة والرعي والترويض والتهذيب والتأديب، وخصت به العرب تربية الفرسَ وترويضه؛ لجموحه وعنفوانه ومشقة ترويضه، ثم انتقل لمعنى تدبير شئون البشر ورعايتهم وسياسة أمرهم[١]، قال ابن منظور: "والسياسة تدبير شئون الدولة، فالساسة هم قادة الأمم ومدبرو شئونها العامة"[٢]، وقال الكفوي: السياسة "استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل"[٣].

ويتبين من هذا أن لفظ السياسة عربي قح، وأن لفظ "ياسة" أو "ياسق"[٤] الذي

=

وذكرها في كتابه "المخصص": "... قال: والإبَالَة سِيَاسَة الإبِل"، قال الفيروزآبادي (ق ٨ هـ) في القاموس المحيط: "وسست الرعية سياسة أمرتها، ونهيتها"، بمعنى: رعاية شؤونها بالأوامر والنواهي، وقال ابن منظور: "والسَّوْسُ: الرِّيَاسَةُ، يقال: ساسوهم سَوْسًا، وإذا رَأَّسُوه قيل: سَوَّسُوه وأَساسوه، وسَاس الأَمرَ سِياسةً: قام به. ورجل ساسٌ من قوم ساسة وسُوَّاس ... وسَوَّسَه القومُ: جَعَلوه يَسُوسُهم. ويقال: سُوِّسَ فلانٌ أَمرَ بني فلان أَي كُلِّف سِياستهم.

وذكرها الفيومي في "المصباح المنير": "وسَاسَ زيد الأمر يَسُوسُهُ، سِيَاسَةً دبره وقام بأمره"، وذكرها الزبيدي في "تاج العروس من جواهر القاموس": "وساس الأمر سياسة: قام به. ويقال: فلان مجرب قد ساس وسيس عليه، أي: أدب وأدب. وفي الصحاح: أي أمر وأمر عليه. والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه. ومحمد بن مسلم بن سُس كالأمر منه أي: من ساس يسوس: محدث، نقله الصاغاني.

(١) قال الجوهري: "... وفلان مُجَرَّبٌ قد ساسَ وسِيسَ عليه، أَي: أَمَرَ وأُمِرَ عليه، وفي الحديث "كان بنو إسرائيل يَسُوسُهم أَنبياؤهم" أَي: تتولى أُمورَهم كما يفعل الأُمَراء والوُلاة بالرَّعِيَّة. والسِّياسةُ: القيامُ على الشيء بما يُصْلِحه. والسياسةُ: فعل السائس، يقال: هو يَسُوسُ الدوابَّ إذا قام عليها وراضَها. والوالي يَسُوسُ رَعِيَّتَه. أَبو زيد: سَوَّسَ فلانٌ لفلان أَمرًا فركبه كما يقول: سَوَّلَ له وزَيَّنَ له، وقال غيره: سَوَّسَ له أَمرًا، أَي: رَوَّضَه وذلَّلَه".

(٢) لسان العرب، سوس، ج ٦/١٠٧.

(٣) الكليات، ط الرسالة، ص ٨٠٨.

(٤) الياسق: خليط ملفّق من اليهودية والنصرانية وشيء من الملة الإسلامية، وأكثرها أهواء جنكيز خان الذي جمع قبائل التتار، وأقام بهم دولة، وغزا الممالك المجاورة، وورثه بنوه، وغزا هولاكو ابنه دار الخلافة، وهزموا على مشارف حدود مصر بجنوب الشام، فتراجعوا، ثم أسلموا، وكونوا إمارة إسلامية، وما زالت بقاياهم بتركستان وتركستان الشرقية بالصين (الإيغور)، وقد زعم أن قوانينه الملفقة كلها طرق إلى الله، وأنها بمنزلة المذاهب الأربعة عند المسلمين، وكان منهم من يرجِّح دين اليهود أو دين النصارى، ومنهم من يرجِّح دين المسلمين، وبعضهم أسلم.

استحدثه جنكيز خان ملك التتار الوثني لرعيته بعد أن ملكهم، ليس منه[١]، والراجح عندي أن كلمة "ياسا" مسمى الدستور الذي وضعه جنكيز خان لشعبه[٢]، وأنها كلمة مغولية تعني: القانون والدستور[٣]، ولا أرجح أن لفظ "ياسا" تحريف لفظ "السياسة"؛ لأنه لفظ مغولي يعني القانون أو القاعدة، ولم يذكر العلماء المتقدمون أن لفظ "السياسة" دخيل في العربية، ولم ينفوا أصالته العربية[٤]، ولكن بعض المتأخرين ممن لا علم لهم بالعربية زعموا أنه دخيل؛ توهمًا من حديث بعض العلماء عن "ياسا" المغولية.

وقد عرف العرب الجاهليون السياسة بمعنى الترويض والتهذيب والتدبير وممارسة

---

(١) قال الإمام ابن كثير في التحاكم إلى الياسق في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة]، "ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم ... وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ... كما يحكم بها التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جينكيز خان الذي وضع لهم الياسق، وهو كتاب مجموع من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها الكثير من الأحكام، أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل وكثير" [تفسير ابن كثير، ج ٦٨/٢]، وقال الحافظ في البداية والنهاية: "من ترك الشرع المحكّم المنّزل على محمد خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه، ومن فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين [البداية والنهاية (١١٩/١٣)].

(٢) ارجع إلى: الخطط، المقريزي، ج ٣١٠/٤، تاريخ فاتح العالم، الجويني، ج ٦٢/١.

(٣) الياسا: كلمة مغولية الأصل، تعني القاعدة أو القانون أو الحاكم، وقد وردت على أكثر من وجه في العربية والفارسية، فنجدها ياسا أو ياسه ويساق أو ياساق أو يسق، وهو الحكم الذي يصدر من الأمير أو الحاكم، وقد دون بالويغورية، وأطلق على هذا القانون اسم: كتاب الياسا الكبير، الذي كان مرجعًا، يتم العودة إليه عند جلوس الخان الجديد على عرشه، أو عند انعقاد المجلس المغولي الأعلى.

(٤) الثابت أن ياسة كان دستور دولة المغول، قال المقريزي: "وذلك أن جنكيز خان – القائم بدولة التتر في بلاد الشرق – لما غلب الملك أونك خان، وصارت له دولة، قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه ياسه، ومن الناس من يسميه ياسق، والأصل في اسمه ياسه، ولما تم وضعه كتب ذلك نقشًا في صفائح الفولاذ، وجعله شريعة لقومه، فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم، وكان جنكيز خان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض" [الخطط، المقريزي، ج٢٢٠/٢]. وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما كتابه الياسه، فإنه يكتب في مجلدين بخط غليظ، ويحمل على بعير عندهم" [البداية والنهاية، ج ١١٨/١٣].

الرئاسة بالحكمة والحنكة عن تجربة وموهبة وكفاءة، وقد ثبت هذا في قول العرب المتقدمين، الذين أدركوا أن لا غناء عن وجود السلطة الجامعة التي يتولاها الأكفاء الحكماء في المجتمع لتدبير شئونه وتحقيق مصالحة، قال الأفوه الأوْدِي أحد زعماء العرب المتقدمين في الجاهلية [١]:

فينا مَعاشِرُ لم يَبْنُوا لقومِهِمُ ... وإنْ بَنى قومُهُمْ ما أَفْسَدوا عادُوا

لا يَرْشُدون ولن يَرْعَوا لِمُرْشِدِهِمْ ... فالغَي منهُمْ معًا والجَهْلُ ميعادُ

والبيتُ لا يُبْتَنَى إلا لهُ عَمَدٌ ... ولا عِمادَ إذا لمْ تُرْسَ أَوْتادُ

فإنْ تجمعَ أَوتادٌ وأَعمدَةٌ ... وساكنُ بلغوا الأمرَ الذي كادوا

لا يَصْلُحُ الناسُ فَوضَى لا سَراةَ لَهُمُ ... ولا سَراةَ إذا جُهالُهُمْ سادُوا

لقد اشتكى هذا الزعيم الجاهلي تخريب المفسدين الأراعن وطنهم وإهدارهم اقتصاده وإضرارهم بمصالح قومهم (الشعب)، ونصح شعبه - بما وُهب من حكمة وموهبة سياسية وتجارب وحنكة وسبره غور الأحداث - بأن لا صلاح للمجتمع دون سلطان قوي يحميه وقيادة يجتمعون عليها من سادته الحكماء الأكفاء أصحاب العلم والخبرة والبصيرة، وألا يستجيبوا لأهواء الجهال وأغراض العابثين، وأن العلم والجهل لا يجتمعان، فإن غلب الجهال والفساق في أمة أذهبوا ريح العلم والعلماء والصالحين، ومآل هذه الأمة المتحدرة التي سوَّدت الحمقى والمنحرفة الخراب والفقر والجوع ونقص الثمرات وتفشي الأمراض، وكأن الرجل يشتكي حالنا الآن.

وقد توهم بعض الجهال أن الحكم في القرآن الكريم وخطاب العرب بلفظ الحكم فقط، وأن لفظ الملك يعني النظام الملكي، وقد جاء الحُكم السياسي بألفاظ الملك

---

(١) ديوان الأفوه الأودي، تحقيق د. محمد التونجي (١٩٩٨م)، دار صادر- بيروت. الأفوه الأودي: صَلاءة بن عمرو بن مالك، أبو ربيعة (٥٠ قبل الهجرة =٥٧٠م) من بني أود من مذحج اليمنية. شاعر يماني جاهلي، لقب بالأفوه، لأنه كان غليظ الشفتين ظاهر الأسنان. كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم، وهو يعد من شعراء العرب وحكمائها؛ بما اشتمل عليه شعره من الحكمة.

والسلطان والسلطة والأمر والإمرة والإمارة والإمامة (العظمى) والسيادة والرئاسة والتمكين، وكلها تسميات لمسمى واحد، بيد أنها تختلف في الممارسة والهيئة والغاية، وليس بصحيح ما يتوارد إلى الذهن من معانيها المعاصرة، فالملك يعني السلطة، ولا يعني المعنى المتبادر من الوراثة التي سادت العالم القديم في كنف القبلية والقومية، فقد أطلق الخطاب القرآني على ولاية داود عَلَيْهِ السَّلَامُ "الملك": ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ [البقرة:٢٥١] ، وقد حكم بعد طالوت الذي آتاه الله الملك، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ورث داود عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦]، فهو ابنه، وخلفه بمقتضى العرف السائد في بني إسرائيل، كانت تسوسهم أنبياؤهم - عليهم السلام - أي: يتتابعون على رئاستهم غالبًا بمقتضى النبوة، وليس بمقتضى الوراثة الملكية الدنيوية، فليست الآية حجة في استخلاف الأبناء، ولنا في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة حسنة؛ حيث لم يستخلف بإجماع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يصح عن آل بيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنه استخلفهم في الإمامة العظمى، ولو صح شيء مما ادُّعي بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لطرحه المؤتمرون تحت سقيفة بني ساعدة، فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا لا يخالفون عن أمره أو نصحه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يستخلف الخلفاء الراشدون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد ثبت أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفض عرض استخلاف ابنه عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يستخلف علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابنه، بل بايعه الناس بعد استشهاد أبيه، وقد أوصى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأشياء، ولم يوص لأحد بالخلافة، ولم يخرج الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على يزيد بن معاوية؛ ليطلب سلطان أبيه أو حق آل البيت، بل خرج لإعادة الحكم شورى على نحو ما وقع للخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

والتمكين يكون من الله تعالى لذوي الكفاءة والصلاح والبلاء الحسن، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ [يوسف:٥٦]، وهو جزاء المستضعفين الصابرين على الحق: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص]، وحال الصالحين في الممكنين: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج]، فلا يفسدهم السلطان، بل يمسكون به نحو ما أمروا به من الحق.

والمستخلفون كذلك قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور].

وقد استخدم مصطلح السياسة بمعنى الممارسة في صدر الإسلام، روي عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون". قالوا: فما تأمرنا؟ قال: "فوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم"(١)، قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تتولى أمورهم كما تفعل الأمراء بالرعية"(٢) .

وجاءت السياسة بمفهوم الممارسة السياسية صوابًا أو خطأ، قال ابن القيم نقلًا عن ابن عقيل الحنبلي: "السياسة ما كان من الأفعال، بحيث يكون الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحي"(٣)، وقد أدرك العلماء أن الولاة ينحرفون عن نهج الحق في سياستهم عفوًا أو قصدًا، قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس دين زال سلطانه إلا بدلت أحكامه وطمست أعلامه، وكان لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر في وهيه أثر"(٤)، والعبرة بالممارسة حقًّا أو باطلًا.

وروي عن المستظل بن حصين، قال: خطبنا عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال: قد علمتُ - ورب الكعبة - متى تهلك العرب! فقام إليه رجل من المسلمين، فقال: متى يهلكون يا أمير المؤمنين؟ قال: حين يسوس أمرهم من لم يعالج أمر الجاهلية، ولم يصحب الرسول ﷺ"(٥)، وقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "يا أهل الكوفة! والله لَتجِدُنَّ في أمر الله،

---

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٥) عن أبي هريرة، ورواه مسلم في الإمارة (١٨٤٢)، ورواه أحمد في المسند (٧٩٦٠)، ورواه ابن ماجه في الجهاد (٢٨٧١).

(٢) النهاية في غريب الحديث، ج ١٠٣١.

(٣) إعلام الموقعين: (٤/ ٣٧٢).

(٤) أدب الدنيا والدين، ص١١٥.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في المصنف كتاب الفضائل (٦/ ٤١٠)، عن المستظل بن حصين، ورواه الحاكم في المستدرك كتاب الفتن والملاحم (٤/ ٤٧٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (٦/ ٦٩).

ولتُقاتِلُنَّ على طاعة الله، أو ليَسُوسَنَّكم أقوام أنتم أقرب إلى الحق منهم، فليعذبنكم، ثم ليعذبنهم"(١)، وقال عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في وصف معاوية: "إني وجدته ولي عثمانَ الخليفة المظلوم، والطالب بدمه، الحسن السياسة، الحسن التدبير"(٢). والسياسة هنا بمعنى تدبير أمر الرعية بما يسوسهم به السائس شرعًا أو دنيا.

وقد استحدث المسلمون "السياسة الشرعية"، وهي قيام ولاة الأمر على شأن الرعية بما يصلحهم من الأمر والنهي والإرشاد والتهذيب وفعل ما يجلب المنفعة ويدفع المضرة بما لا يخالف الشرع، ويستخدمها رجل السلطة في دفع الشر والفتنة ودفع الضرر عن الدولة والرعية، فقد صبر النبي ﷺ على أذى عبد الله بن أبي بن سلول وحزب المنافقين، ولم يعاقبه؛ لئلا يتخذه خصوم الإسلام في حملة التشويه ضده أنه يغدر بأصحابه، وكان يتألف ضعاف الإيمان من صناديد المعارضين والأعراب بالعطاء؛ رجاء صلاحهم وطيب نفوسهم، ولئلا يفسدوا أمر المسلمين، فردعهم بالقوة فيه مفسدة عظمى، وقد حسن إيمانهم، وأبلوا بلاء حسنًا في الإسلام.

وقد يراجع الحاكم قراره الذي ثبت له صوابه؛ حذر الفتنة، ولأنه مدعاة الجدل والاختلاف، ومنه قول النبي ﷺ: "يا عائشة، لولا قومك حديث عهدهم بكفر لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين؛ باب يدخل الناس، وباب يخرجون"، وقد عنون له البخاري في صحيحه بقوله: باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه، فيقعوا في أشد منه"، وقال ابن حجر: "ويستفاد منه أن الإمام يسوس رعيته بما فيه إصلاحهم، ولو كان مفضولًا، ما لم يكن محرمًا"(٣)، وقد جاء في الروايات سبب امتناع النبي ﷺ عن

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف كتاب الفتن، (ج ٧/ ٥٠٤) عن المستظل بن حصين، ورواه ابن الجعد في مسنده (١/ ٣٢٧) [تحقيق عامر أحمد حيدر]. وابن الجعد هو علي ابن الجعد بن عبيد، أبو الحسن الجوهري البغدادي.

(٢) تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف. القاهرة، ج ٥/ ٦٨.

(٣) جاء في صحيح البخاري: "باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه"، "حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن الأسود [بن يزيد النخعي]، قال: قال لي ابنُ الزبير: كانت عائشةُ تُسِرُّ إليكَ كثيرًا، فما حدَّثَتْكَ في الكعبة؟ قلت: قالت لي: قال النبيُّ ﷺ: يا عائشةُ، =

إعادة البيت على بناء إبراهيم عليه السلام - وهو رسول الله . "ولولا أن قومَك حديث عهدُهم بالجاهلية، فأخاف أن تُنْكرَ قلوبُهم أن أُدْخِلَ الجَدْر في البيت". تحاشى ﷺ الجدل في أمة غير مهيأة للتغيير، وقد سمع عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما هذا الحديث من خالته عائشة رضي الله عنها، فاستشار الناس في أمر تحقيق رغبة النبي ﷺ في خلافته بعد أن أكلت النار أستارها وتأثر بناؤها مما أصابه، فعزم على إعادة البناء على نحو ما تمنى النبي ﷺ في حياته، وقد فعل، ولكن الدول المنقضة تنقض أفعال سابقيها، فأعاده الحجاج بن يوسف في عهد بني أمية على نحو ما كان(١).

=

ولولا أن أهلَكِ حديثٌ عهدهم، [قال ابن الزبير: "بكفر"، أي: حديث عهدهم بكفر ذكره ابن الزبير بما نسي]، لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين؛ باب يدخل الناس منه، وباب يخرجون منه، ففعله ابن الزبير. رواه البخاري ومسلم. ورواية البخاري "يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين؛ باب يدخل الناس وباب يخرجون". وله ألفاظ أخرى ذكرها المحدثون.

(١) روى عطاء بن رَباح، قال: لما احترق البيتُ زمن يزيد بن معاوية، حين غَزاها أهلُ الشَّام، فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير، حتى قدم الناسُ الموسم، يريد أن يجرِّئَهُم - أو يُحَرِّبهم - على أهل الشام، فلما صَدَرَ النَّاسُ قال: يا أيُّها الناسُ، أشيروا عليَّ في الكعبة: أنقضها، ثم أبني بناءها، أو أصلح ما وَهَى منها؟ قال ابن عباس: فإني قد فُرِق لي رأي فيها: أرى أن تُصلِحَ ما وَهَى منها، وتَدَع بيتًا أسلم الناس عليه، وأحجارًا أسلم الناس عليها، وبُعث عليها النبيُّ ﷺ، فقال ابن الزبير: لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتى يُجِدَّه، فكيف ببيت ربكم؟ إني مستخير رَبِّي ثلاثًا، ثم عازم على أمري، فلما مضى الثلاث، أجمع رأيه على أن ينقضَها، فتحاماه الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيها أمر من السماء، ثم صَعِدَ رجل، فألقى منها حجارة، فلما لم يَرَهُ الناس أصابه شيء تتابعوا، فنقضوا حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمِدة، فَسَتَر عليها السُّتُورَ، حتى ارتفع بناؤُه، قال ابن الزبير: إني سمعت عائشة تقول: إن النبيَّ ﷺ قال: لولا أن الناس حديث عَهْدُهم بكفر، وليس عندي من النفقة ما يُقَوِّي على بنيانه، لكنتُ أدخَلت فيه من الحِجر خمسَ أذرع، ولجعلتُ له بابًا يدخل الناس منه، وبابًا يُخرَجُ منه، قال: فأنا اليوم أجِدُ ما أنفق، ولست أخافُ النَّاسَ، قال: فزاد فيه خمس أذْرُع من الحِجْرِ حتى أبدى أُسًّا، فنظر الناس إليه، فبنى عليه البناء، وكان طول الكعبة: ثماني عشرَة ذراعًا، فلما زاد فيه استقصره، فزاد في طوله عشرَ أذْرُع، وجعل له بابين: أحدهما يُدْخَلُ منه، والآخر يُخْرَجُ منه، فلما قُتِلَ ابن الزبير: كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أُسّ قد نظر إليه العُدُول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنا لَسْنا من تَلْطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاد في طوله: فأقِرَّهُ، وأما ما زاد فيه من الحِجْر: فردَّه إلى بنائه؛ وسُدَّ الباب الذي فَتَحَهُ، فنقضه وأعاده إلى بنائه".

وتقوم السياسة الشرعية على اختيار الكفاءات لما تصلحه وتحسن تدبيره، فقد ولى النبي ﷺ بعض من أسلموا حديثًا على من سبقوهم في الدين من الأفاضل في ولايات عرفوا بالمهارة فيها في جاهليتهم، فقد ولى عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد إسلامه قيادة سرية ذات السلاسل[1] على كبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد وصله مدد فيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولم ينازعوه القيادة لأحدهم.

ولم يول الرسول ﷺ من طلب الولاية؛ لما أبصره فيه من حب السلطة وغلبتها عليه مما يخشى فساده، ولم يستعمل من يعجزون عن مسئوليتها، قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في

---

(١) السرية على الراجح الحرب التي لم يخرج فيها النبي ﷺ، وقيل قليلة العدد، وكانت ذات السلاسل (قرب ماء ذات السلاسل أو لأنهم ربطوا أنفسهم؛ لئلا يفروا) في جمادى الآخرة في السنة الثامنة (أكتوبر سنة ٦٢٩م) أي: بعد شهر من غزوة مؤتة في جمادى الأولى ٨ هـ، فاختار المجاهدون خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائدًا بعد أن قُتل الأمراء الثلاثة (زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة)، وكان خالد قد أسلم حديثًا مع عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهاجرا معًا، فأظهر كفاية حربية أمام جيش الروم العظيم، وتمكن من الانسحاب من المعركة دون خسائر في الانسحاب، ونجا بجيشه بعد أن جمع الروم حشود قبائل العرب في الشام؛ لقتالهم، وأدرك أن لا مجال للنصر، فعقد النبي ﷺ اللواء بعدها بشهر لعمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأرسله رسول الله إلى بلاد بلي وعذرة في ثلاثمائة من المسلمين مع سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسًا؛ لرد جمع من قبيلة قضاعة حلفاء الروم تجمعوا للإغارة على المسلمين بتوجيه من الروم، وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة منتهزين فرصة انهزام المسلمين في مؤتة.

روي عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بعث إليّ النبي ﷺ يأمرني أن آخذ ثيابي وسلاحي، فقال: «يا عمرو إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك»، قلت: لم أسلم رغبة في المال، قال: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»، فعقد له لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، فسار هو ومن معه، وكان يكمن النهار ويسير الليل، فلما قرب منهم بلغه أن جموع العدو كثيرة فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح، وعقد له لواء، وبعث معه مائتين من سراة المهاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعًا، ولا يختلفا فأراد أبو عبيدة أن يتولى القيادة، فقال عمرو: إنما قدمت عليّ مددًا وأنا الأمير، فقال أبو عبيدة: لا ولكن أنا على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه، وكان أبو عبيدة رجلًا سهلًا هينًا عليه أمر الدنيا، فقال: يا عمرو، إن رسول الله ﷺ، قال لي: لا تختلفا وإنك إن عصيتني أطعتك، فأطاع له أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس، وسار حتى وصل إلى العدو، فحمل عليهم المسلمون، فهربوا في البلاد، وتفرقوا مذعورين بعد أن اقتتلوا ساعة، فهزمهم المسلمون، ولم يغنموا شيئًا.

شرح حديث "يا أبا ذر! إنك ضعيف"[١]: "هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات لاسيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائفها، وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلًا لها، أو كان أهلًا ولم يعدل فيها، فيخزيه الله تعالى يوم القيامة، وأما من كان أهلًا للولاية وعدل فيها، فله فضل عظيم، تظاهرت به الأحاديث الصحيحة، كحديث: "سبعة يظلهم الله في ظله ... إمام عادل"[٢] وإجماع المسلمين منعقد عليه[٣]. ولمن شرع السلطان في استعماله أن يختار لنفسه من السلطة ما يرى نفسه كفئًا له، قال يوسف عليه السلام لملك مصر: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف]، لم يطلب السلطة، بل طلب ما يتقنه ويقدر عليه بعد أن عزم الملك على أن يستعمله، فقد جاء قبلها ما يفيد أن الملك استدعاه من السجن؛ ليخْلِصَه لنفسه، فجعله من خاصته، وقد فهم بعض العلماء أنه طلب الولاية، قال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في الآية دليل على جواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل وإجراء الأحكام الشرعية، وإن كان من يد الكافر أو الجائر، وربما يجب عليه الطلب إذا توقفت على ولايته إقامة واجب مثلًا وكان متعينا لذلك"[٤].

وقد اجتهد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في أمور دولتهم بعد وفاة النبي ﷺ، وسارعوا في اختيار من يخلفه؛ خشية الاختلاف وثورة قبائل العرب، فرجحوا كفة ولاية أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ اجتهادًا؛ لتقديم النبي ﷺ له على سائر أصحابه، وقد ثبت صواب اجتهادهم، فقد أقر الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وعلماء الأمة، بأنه صاحب الفضل في حفظ وحدة الأمة وانتشار الإسلام؛ فلولاه لما قام لهم سلطان جامع فتح الأرض وأدان لهم العجم، ولتأخر انتشار الإسلام في ربوع الأرض، وأحيلك إلى مراجعة سيرته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لتعلم كفاءته السياسية والإدارية، ومن مآثر حنكته وجلاء سريرته وسمو بصيرته، أنه جعل أساس

---

(١) رواه مسلم: (٨٢٥) من حديث أبي ذر. وشرح صحيح مسلم، النووي، ج ١٢/ ٢١٠، ٢١١.

(٢) رواه البخاري: (٦٦٠)، ومسلم: (١٠٣١) من حديث أبي هريرة.

(٣) شرح صحيح مسلم: (١٢/ ٢١٠-٢١١).

(٤) ارجع إلى: روح المعاني، ج ١٣/ ٥.

سياسته الاقتداء بنهج النبوة، فخضعت له الرقاب طوعًا، ونجحت حملاته وسياسته، وأنه استشار كبار الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ فيمن يخلفه عندما دانت منيته، والمسلمون في حروب خارجية، والأوضاع لا تحتمل الخلاف، فاستشارهم في استخلاف رجل ذي شخصية قوية وشكيمة، يستطيع بها ضبط الدولة وإحكام إدارتها؛ لئلا يتنازعوا أثناء الحرب، فاختار عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأجمعوا عليه، وقد ثبت أنه اختاره عن بصيرة وتجربة، وليس هوى، فالرجلان لا نظيرين لهما في تاريخ البشرية، وقضية استخلاف علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعد النبي ﷺ كانت محدودة جدًّا أمام المرشحين من المهاجرين والأنصار، وقيل إن بعض قبائل المرتدين احتجوا بأن أولى الناس بخلافة النبي ﷺ أقاربه، يريدون العباس بن عبد المطلب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أكبر أفراد الأسرة وعمه بمعيار الجاهليين، ولم يطرح اسم علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في ظروف مرض أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لأن ظروف المسلمين الحربية كانت تتطلب شخصية يذعن لها الآخرون، وتفرض هيبتها، وقريبة من اتخاذ القرار بمقتضى السياسة الشرعية، وكان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الرجل الثاني في خلافة أبي بكر ووزيره وشريكًا في القرار مثلما كان أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ثاني اثنين زمن النبي ﷺ وصاحب مشورته وسره ورفيقه، ولا تحتمل الأمور طعنًا أو تشكيكًا؛ لأنها سارت في مسارها الأفضل، وحققت نتائج لا نستطيع أن نتكهن بها، لو كانت السلطة لغير الرجلين ممن ذكروا يوم سقيفة بني ساعدة، واستخلاف أحد أفراد آل البيت لم تطرح في السقيفة (عريش لبني ساعدة يستظل به الجُلاس) التي شهدت أول تنصيب لحاكم بعد وفاة النبي ﷺ، ولم يقبل أني يحمل لقب "خليفة الله"، ورضي لنفسه لقب "خليفة رسول الله" ﷺ بمقتضى التتابع، وقد كان وفيًّا له ﷺ منتهجًا سنته، ولم يأل جهدًا.

وقد أحسن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في ممارسة السياسة الشرعية، وشهد له علماء السياسة أنه من عظماء السياسة العالميين، وأنه في مصاف العظماء، قال ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: "... والذي يظهر من سيرة عمر في أمرائه الذين كان يؤمرهم في البلاد، أنه كان لا يراعي الأفضل في الدين فقط، بل يضم إليه مزيد المعرفة بالسياسة مع اجتناب ما يخالف الشرع منها"، وقد اجتهد عمر أيضًا في ضوء السياسة الشرعية فيمن يخلفه في حالة الحرب التي تعيشها الدولة، قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ في بيان السبب الذي من أجله جعل عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

أمر الخلافة في الستة الذين اختارهم: "لم يكن في أهل الإسلام أحد له من المنزلة في الدين والهجرة والسابقة والعقل والعلم، والمعرفة بالسياسة، ما للستة الذين جعل عمر الأمر شورى بينهم"، وقد فعل هذا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لدفع مضرة الخلاف وتحاشي الفتن، وقد تحقق ما أراد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد استقام أمر الناس، وظلت الأمة واحدة.

وقد تجاهل من انتقد ولايتي أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الظروف الحربية التي عاشتها الخلافة، فولاية أبي بكر تمت في ظروف حرجة جدًّا، وقد عبروا عنها أنها كانت "فلتة" أي: سريعة، وقد بادر المناقشون إلى بيعته بعد أن اتسعت هُويَّة الخلاف، فتحاشوا عواقبه بإجماعهم على بيعة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على غير ما كان عازمًا، فقد طرح اسمي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي سماه الرسول ﷺ الفاروق؛ لقوته في الحق وأبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه أمين الأمة[1]، وطرح بعض الأنصار اسم سعد بن عبادة، ولكن كفة

---

(١) رواه البخاري في كتاب الحدود، جاء فيه على لسان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حاكيًا أمر السقيفة: "... وإنه قد كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ أن الأنصار خالفونا، واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنا علي والزبير ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان فذكرا ما تمالأ عليه القوم فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم اقضوا أمركم. فقلت: والله لنأتينهم، فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة. فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا هذا سعد بن عبادة. فقلت: ما له قالوا يوعك فلما جلسنا قليلًا تشهد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهله. ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا وأن يحضنونا من الأمر فلما سكت. أردت أن أتكلم، وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر وكنت أداري منه بعض الحد، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك. فكرهت أن أغضبه، فتكلم أبو بكر، فكان هو أحلم مني وأوقر والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت. فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش؛ هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللّهم إلا أن تسول إلي نفسي عند الموت شيئًا لا أجده الآن. فقال قائل من الأنصار: أنا جُذيلها المحكك وعذيقها المرجب .. منا أمير ومنكم أمير =

المهاجرين استمالت الجمع نحو أحد القرشيين المهاجرين؛ لأنه سيكون في صالح وحدة الأمة؛ لتخضع له قبائل العرب، ولكن أبا عبيدة تراجع عن ترشيح أبي بكر له، وقدمه، وذكر منزلته من النبي، ففاء المجتمعون إليه، وأجمعوا على بيعته، ومن زعم المؤامرة هنا كذاب أفاك أثيم؛ لأن الأحداث السريعة فرضت نفسها، ولم يتسع الوقت للتبييت بليل لعمل النهار، وعلي نفسه كان لا يقدم نفسه على أبي بكر، وكان الصحابة أصحاب دين، وكان دينهم أعز عليهم من سلطان الدنيا الذي زهدوا فيه، ولم يك علي من طلابه، وسلطان الدولة من مصالح الدنيا الخادمة للدين (السلطان النصير)، وليس من أركان العقيدة.

ولقد أدرك أصحاب النبي ﷺ أن أمور الخاصة لا تعرض على العامة؛ لأنهم قد لا يستوعبونها، ويكثرون فيها الجدل، وقد سمى البخاري بابًا في صحيحه سماه "باب مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ أَنْ لاَ يَفْهَمُوا"، وذكر قول عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ؛ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!"، أي: كلموا "الناس بما يعرفون"، ويدركون بعقولهم، ودعوا ما يشتبه عليهم فهمه؛ "أتحبون أن يكذب الله ورسوله"؛ لأن الإنسان إذا سمع ما لا يفهمه وما لا يتصوّر إمكانه، اعتقد استحالته جهلًا فلا يصدق وجوده، فإذا أسند إلى الله تعالى ورسوله ﷺ، لزم ذلك المحذور، فلا يحدث الفقهاء عامة الناس بمسائل العلماء ومشتبهات الدين ومشكلاته الفقهية وألغازه اللغوية، ولا تعرض عليهم أزمات الناس؛ لينظروا فيها، فالنظر فيها من عمل أهل الولاية والدراية والخبرة وأصحاب القرار.

=

يا معشر قريش. فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف، فقلت. ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة. فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة. فقلت: قتل الله سعد بن عبادة". قال عمر: وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر؛ خشينا إن فارقنا القوم، ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلًا منهم بعدنا فإما بايعناهم على ما لا نرضى، وإما نخالفهم فيكون فساد. فمن بايع رجلًا على غير مشورة من المسلمين، فلا يتابع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا".

وهنالك مثال "الولاية الفلتة": الفجأة التي تفرضها الظروف السياسية، ولا تعد قاعدة عامة، ولكن العرب جعلوها عامة، وقد وقعت هذه الولاية في خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد خرج الرجل بدعوة من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ ليناقشا مع المؤتمرين، فانقلب إلى بيته خليفة دون طلب أو تدبير، والطريف أنه قد عزم على ترشيح أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه أمين الأمة، وقد توهم بعض العامة أنه سوف يبايع من يحسبه صالحًا على نحو ما وقع لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن عمر فطن لخطورة المهالأة والهوى، ففكر في إقرار قاعدة عامة تسد باب النزاع في ولاية الخلافة، وهمَّ أن يطرحه على الرأي العام في الحج، ولكن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبى على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يناقش الخلافة على العامة بعد أن عزم أن يطرحها على مؤتمر المسلمين في الحج؛ ليتفقوا على أسس الاختيار، وهو رأي يبدو مستنيرًا لنا وسابق عصره على عادة عمر في السبق والابتكار والاستحداث، بيد أن رأي عبد الرحمن كان الأصوب عندما نصحه أن يناقش فيه أصحاب النبي ﷺ بعد عودته إلى المدينة، فهذا الأمر ليس من أمور العامة التي لا تمتلك الوعي والعلم، والمجتمع العربي تجتاحه نزعة القبلية، ويستبد بعامتهم تراث جاهلي ثقيل عرقل الإسلام، وكلف المسلمين نفوسًا، وأهدر طاقات، وما زال يعبث بأرواح الأمة، ويذهب بريحها. وقد صدقت فراسة عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد ناقش فيه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصحاب النبي ﷺ(١)، وانتفعوا به في تولية عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يحدث ما حدث

(١) رواه البخاري في كتاب الحدود عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: " كنت أقرئ رجالًا من المهاجرين منهم عبد الرحمن بن عوف، فبينما أنا في منزله بمنى، وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجة حجها إذ رجع إلي عبد الرحمن، فقال: لو رأيت رجلًا أتى أمير المؤمنين اليوم، فقال: يا أمير المؤمنين! هل لك في فلان يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلانًا. فوالله. ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت، فغضب عمر ثم قال: إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس، فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم أمورهم، قال عبد الرحمن فقلت: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مُطير، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة، فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت متمكنًا، فيعي أهل العلم مقالتك ويضعونها على مواضعها. فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة. قال ابن عباس: فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة فلما كان يوم الجمعة ..." وذكر بقية الحديث.

بعد وفاة النبي ﷺ، فقد استوعبوا الدرس، ووعوه، وكانت غايتهم مرضاة الله تعالى، فاستقام أمرهم.

أهل الحل والعقد: لقد ظهر مفهوم "النخبة" من كبار الصحابة الذين اصطلح عليهم الفقهاء بأهل الحل والعقد؛ لاستحالة الشورى العامة في زمنهم، ولعدم كفاءة العامة لمناقشة مسألة خصيصي أهل الدراية والحنكة والورع (أو أهل الحياد في الرأي دون هوى)، والنخبة هنا الأفاضل الأخيار المتقدمون من المهاجرين والأنصار الذين نصروا دين الله تعالى ورسوله، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وابتلاهم الله تعالى، فصبروا، وصدقوا الله ورسوله في المحن، وحصرت النخبة في الثلة التي شهد الرسول ﷺ لهم بأنهم من أهل الجنة، والتي قربها النبي ﷺ منه، وجعلهم أهل مشورته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهم من عامة من بين من بايعوه ﷺ في بيعة الرضوان تحت الشجرة، ورضي الله عنهم؛ فهم أخيار من أخيار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد أقبلت عليهم الدنيا، فزهدوا فيها، وليسوا من النهازين والمهالقين والدمويين والمنحرفة.

وقد عيّنَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القاعدة العلامة في ترشيح الخليفة أو ولي الأمر في الشورى بين "أهل الحل والعقد" والاختيار الجماعي، وقد روى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خطبة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المدينة بعد منقلبه من الحج: "... ثُمَّ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَائِلًا مِنْكُمْ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ بَايَعْتُ فُلَانًا. فَلَا يَغْتَرَّنَّ امْرُؤٌ أَنْ يَقُولَ: إِنَّمَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ فَلْتَةً وَتَمَّتْ. أَلَا وَإِنَّهَا قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ وَقَى شَرَّهَا، وَلَيْسَ مِنْكُمْ مَنْ تُقْطَعُ الْأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ. مَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُبَايَعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْ خَبَرِنَا حِينَ تَوَفَّى اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ ... [1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، من حديث طويل، وجاء في الفائق في غريب الحديث والأثر: "فَلْتة: أي فُجاءة؛ لأنه لم يُنْتظَر بها العوام، وإنما ابتدرها أكابرُ الصحابة؛ لعلمهم أنه ليس له منازع ولا شريك في وجوب التّقدم". وجاء في شرح صحيح البخاري لابن بطال: "قال أبو عبيد: معنى الفلتة: الفجأة، وإنما كانت كذلك، لأنها لم ينتظر بها العوام، وإنما ابتدرها أكابر أصحاب محمد من المهاجرين وعامة الأنصار"، وجاء في غريب الحديث للخطابي: "قال أبو سليمان الخطابي: قد تكون الفلتة بمعنى الفجاءة، وليست بالذي أراد عمر ولا لها موضع في هذا الحديث ولا لمعناها قرار هاهنا، وحاش لتلك البيعة أن تكون فجاءة لا =

والمراد أن بيعة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت فلتة، أي: فجأة، بادر إليها المجتمعون مسرعين؛ اتقاء النزاع المفضي للفساد والفشل، لم يرجع فيها إلى عوام المسلمين، وإنما بادر إليها كبراء الصحابة؛ لعلمهم بأحقية أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخلافة، وأنه لا عدل له ولا كفء من أصحاب رسول الله ﷺ، وقد أعقبتها البيعة العامة على السمع والطاعة بمقتضى المنهج الذي طرحه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة الولاية العظمى: "أَيُّها الناسُ فَإِني قد وُلِّيتُ عليكم، ولست بخيركم، فإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي وإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي. الصِدْقُ أمانةٌ والكَذِبُ خِيَانَةٌ .. والضعيفُ فيكم قويٌّ عندي حتى أرجعَ إليه حقَّه إن شاء الله، والقويّ فيكم ضعيفٌ عندي حتى آخذَ الحقَّ منه إن شاء الله. لا يَدَعُ قومٌ الجِهادَ في سبيل الله إلا خَذَلَهم اللَّهُ بالذُلِّ، ولا تَشِيعُ الفاحشةُ في قومٍ إلا عَمَّهم اللَّهُ بِالبلاءِ. أَطِيعُوني ما أَطَعْتُ اللَّهَ ورسولَه، فإِذا عَصَيْت اللَّهَ ورسولَه، فلا طاعةَ لي عليكم. قُومُوا إلى صلاتكم يَرْحَمْكُمُ الله"(١)، وهي خطبة جامعة مانعة فيها قل ودل، وخير مما كثر وألهى.

وليست هذه البيعة قياسًا عامًّا، بل ضرورة فرضها حادث وفاة رسول الله ﷺ الجلل، ومن ثم أرسى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قاعدة الشورى في ترجيح "أهل الحل والعقد" أحد النخبة الاجتماعية السياسية، وعرض بيعته على الرعية في البيعة العامة، وبويع عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمقتضى هذه القاعدة خليفة، ولكن الأحداث السياسية صدعت جبهة النخبة، فقد اختلفوا في الرأي بعد أن غاب عن المشهد مثل أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فغاب من يفصل بينهم، ويرجح أصوب الآراء اجتهادًا، وصار لكل واحد أنصار في الرأي،

=

مشورة فيها، ولست أعلم شيئًا أبلغ في الطعن عليها من هذا التأويل، وكيف يسوغ ذلك وعمر نفسه يقول في هذه القصة لا بيعة إلا عن مشورة، وأيما رجل بايع عن غير مشورة فلا يؤمر واحد منهما تغرة أن يقتلا"، وأما قوله: تغرة أن يقتلا. فالتغرة هي التغرير، والمقصود أن من بادر بمبايعة رجل دون الرجوع للمسلمين فقد عرض نفسه هو ومن بايعه للقتل، جاء في شرح صحيح البخاري لابن بطال: "التغرة: التغرير، يقال: غررت بالقوم تغريرا وتغرة، وإنما أراد عمر أن في بيعتهما تغريرًا بأنفسهما للقتل وتعرضًا له فنهاهما عنه".

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف، ج ١١/ ٣٣٦، وسيرة ابن هشام، ج ٤/ ٢٤٠، وعيون الأخبار لابن قتيبة، ج ٢/ ٢٣٤.

وانقطعوا لهم، وقد كان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يحاشيهم خطر انقطاع الأحزاب لهم والأشياع وتفرقهم في البلاد، فجعلهم أهل مشورته؛ ليتعزز بهم بين العرب؛ ليظل من بقي من أصحاب النبي ﷺ قوة في مركز الخلافة، توازي قوة أمصارها العسكرية والاقتصادية والحيوية، وهي في العرف السياسي سياسة تعزيز السلطة وتدعيمها بأعمدة المجتمع وتغذيتها بعناصر القوة المؤثرة في المجتمع، ولم تشكل هذه القوة الصالحة خطرًا عليه، بل صيرها في خدمة الدولة، وقد فرضت شخصيته القوية نفسها عليهم وعلى كبار القادة الفاتحين والأمراء والزعامات السياسية القبلية، وقد كان لتقشفه في الحياة وزهده في زهو السلطة أثر طيب في رعيته التي أحكم ضبطها بترسيخ الهوية الإسلامية وأعراف العرب الحميدة، وحال دون استلابها الخارجي، وهذب سلوكها اقتداء لا إكراها، ولكن عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان صاحب توسعة ورغد، وتبنى سياسة الانفتاح؛ متأثرًا بشخصية رجل الاقتصاد، وقد صار المسلمون في رغد ورخاء، فوسع على الناس من الدنيا ما خاف عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عليهم منه، وأذن للصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بالإقامة في الأمصار، وخرج كثير من أهل المدينة للجهاد، فأقاموا بالأمصار المفتوحة والمدن الجديدة، وهنا بدأت عملية تفريغ المدينة من قوتها المركزية، المتمثلة في قيمة الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وقوتهم، التي تمثل ثقل مركز الدولة أمام الأمصار العربية وأمصار الفرس والروم التي دخلت حيز الدولة، والعكس يحدث في العواصم العربية الحديثة، فالتفريغ الدائم في الأرياف لصالح العاصمة المركزية التي تستقطب الطامحين والمتعلمين، ويظل الريف خاويًا خربًا؛ بسبب مركزية الدولة وإهمالها أقاليمها.

وكان لهذا التحول الاجتماعي في الخلافة آثار إيجابية وأخرى سلبية في مجتمع قبلي، حديث عهد بالحضارة والرخاء؛ فقد برزت على الساحة السياسية فرضيات جديدة؛ بمقتضى التطور والتوسع وتبادل الأدوار، بيد أن الصاعدين إلى رأس الهرم السياسي، لم يكونوا من مدرسة النبوة، بل من مدرسة الدنيا التي نازعت الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ما بأيديهم، ولم يكونوا أمثالهم في الفضل والدين، وليس بصحيح أن شخصية عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كانت ضعيفة، وأنه لم يك كفئًا قياسًا إلى عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، ولكن تغيرات الدولة وتكويناتها واتساعها، عوامل فرضت نفسها بمعادلات جديدة، ولم تعد المدينة - بعد

خروج كثير من الصحابة إلى الأمصار الجديدة وموت أكابرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وخروج معظم سكانها للجهاد - ثقلًا لمركز الدولة، وتآكل أثر القيمة الدينية في العصبية القبلية، وتراجع دور النخبة المدنية أمام صعود زعامات قبلية في الأمصار لها أثر ضارب فيها، وقد بحثت لنفسها عن دور في السلطة، وتعززها قبائلها، وقد صعد دور الجيل الأول من الشباب في خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبحث لنفسه عن مكان في السلطة أيضًا، وقد تورط بعض الشباب الطامحين في السلطة في فتنة التقليب عليه واغتياله(١).

لا شك أن المعادلة السياسة الجديدة قد فرضت نفسها على الواقع السياسي؛ لصالح التراث القبلي وبقايا الأنظمة القديمة (الدول العميقة)، فقد عاد النظام القديم يستعيد عافيته، ويجمع فلوله، ويستنهض قوته القبلية التي يتعزز بها، وطالب هذا النظام القديم بالاعتراف بنصيبه في السلطة ودوره في الاختيار، وكان لصعود زعامات قبلية في الأقاليم ممن ليس لهم فضل الصحبة النبوية من اللاحقين آثاره في الإضرار بالأمة ووحدتها واستقرارها السياسي في الأقطار، فقد أنكروا على علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يلي الخلافة بمشورة كبار الصحابة من أهل المدينة وبيعتهم له، فلم يعترفوا به خليفة؛ وأنكروا تبعة بيعته؛ لأنهم لم يستشاروا في أمصارهم القوة الصاعدة التي تجاهلها أهل المدينة، فلم ينكر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حقهم في المشورة، ولكن الأوضاع السياسية الخارجية والداخلية فرضت ولايته وبيعته سريعتين؛ لخطورة الأوضاع السياسية والعسكرية والانقسامات بعد قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الفتنة التي حركتها أيادٍ خفية، ولكنهم أبوا عليه، وكانت الأيدي الخفية تفسد المصالحات السياسية، وتدبر بليل المكائد، وتشعل الحروب كلما خمدت، فيُتهم فيها الطرفان، وقد فكر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أن يتخذ العراق مركزًا قويًّا للدولة، بعد أن دخلت في طاعته بعد معركة الجمل، ولقربها من الشام المعقل الأخير للتمرد.

وأرى أن الصراعات الجاهلية السابقة بين جبهتي العراق والشام كانت من وراء الأحداث التي حدثت في خلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد تصدى الشاميون بقوة للمصالحة السياسية بعد أن انتقل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى العراق، فخشوا نفوذ العراقيين القادم، فأفسدوا

(١) منهم محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن أبي حذيفة.

المصالحات، وتنادى الطرفان بدعوى الجاهلية، ومن يحلل قصائد الشعراء والخطباء والسياسيين من أبناء الجبهتين، يدرك أنهما يتقاتلان تحت راية الجاهلية والإحن القديمة بينهما، ولكنهما في الظاهر كسوا الصراع بمطالب عادلة، فالعراقيون ينتصرون للشرعية الممثلة في بيعة أمير المؤمنين علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالخلافة، والشاميون يريدون القصاص أولًا للخليفة المقتول ظلمًا، ويقفون من وراء وليه معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ويأبون عليهم بأن بيعة علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ غير ملزمة لهم؛ لأنهم لم يبايعوا، وأنها ليست شرعية؛ لأنهم رأوا أن بعض من بايعوه كانوا من المظاهرين على قتل الخليفة عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ويريدون القصاص منهم أولًا، ثم يجلسون للمشورة ثم البيعة، واستحال الاتفاق بينهما أو المصالحة، فخرج تيار ثالث (الخوارج)، يحتكم إلى السيف، رافضًا مصالحة علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ومفاوضاته، وانقلب عليه، ورفع السلاح، واستحل قتال المسلمين، وظل العراقيون يتحينون فرصة التمرد ضد سلطان الشام، فلما مات معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ (٦٠هـ) حرَّض العراقيون الحسين بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا على الخروج على يزيد ابنه؛ لإعادة الأمر شورى، وكان العراقيون مندفعين بنخوة الصراع القديم لنقل مركز السلطة إليهم، وكانت نتيجة الصراع والهوى ومنازع الجاهلية وإحنها سقوط خلافة النبوة الراشدة واستبداد الملك العضوض والجبري.

أكذوبة الحاكم المعصوم في الإسلام: لقد زعم بعض الدهريين أن الخلافة كانت دينية وأن تمنح الخليفة حقًّا إلاهيًّا وعصمة، وهذا شأن البابوية الكنسية، وقد أجمع العلماء أنه لا عصمة لحاكم، فقد أوجب الإسلام طاعة ولي الأمر في الحق، وإقامة مصالح الوطن العامة، وليست هنالك طاعة مطلقة، "فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"[١] و"إنما الطاعة بالمعروف"[٢]، وقال أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في خطبته الشهيرة: "أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم"[٣]، فطاعة الحاكم ليست طاعة مطلقة، بل هي مقيدة بقيد تحكيمه للشرع، يقول عليه الصلاة والسلام: "اسمعوا!

(١) رواه أحمد: (١/ ١٣١) من حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) رواه البخاري: (٧١٤٥)، ومسلم: (١٨٤٠) من حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) رواه عبد الرزاق في المصنف، ج ١١/ ٣٣٦.

وأطيعوا! وإن تأمر عليكم عبد حبشي ما أقام فيكم كتاب الله"[١]. وفي رواية عند مسلم: "لو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له! وأطيعوا!" قال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الإمام واجب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن زاغ عن شيء منهما منع من ذلك، وأقيم عليه الحد والحق، فإن لم يؤمن أذاه إلا بخلعه خلع وولي غيره"[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السلطان يؤاخذ على ما يفعله من العدوان، ويفرط فيه من الحقوق مع التمكن"[٣]، ولا يجوز للسلطان أن يتصرف بالمال العام بحسب هواه، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس لولاة المال أن يقسموها بحسب أهوائهم كما يقسم المالك ملكه، فإنما هم أمناء ونواب ووكلاء وليسوا ملاكًا"[٤]، وهذا يؤكد فساد زعم بعض الدهريين أن الحكم في الإسلام حكم كهنوتي أو ثيوقراطي إن يقولوا إلا كذبًا.

فصل الدين عن الدولة: لم يرد نص شرعي فيه، وإنما ورد خلافه، وقد استدل المضلون بكلام أهل الكتاب: "دع ما لقيصر لقيصر، ودع ما لله لله"، وجعلوه حجة على الإسلام، والمراد ألا يخلط بين فرائض العباد المتعسفة وشرائع الله تعالى القائمة على العدل والمساواة، ولكنهم وجهوه إلى إقصاء الدين عن حياة الناس وإبطال العمل بالشرع، والثابت شرعًا أن السلطان الحق نصير الدين، وأمين على شرعه، وإنفاذ حدوده على العاصين وحصنه ودرعه ضد أعدائه، ويكفي في الرد على منكري علاقة الإسلام بالدولة، أن الإسلام أقام أول دولة جامعة في جزيرة العرب، وأن مؤسس هذه الدولة نبي الإسلام ﷺ وقائدها الأول، وقد خلفه فيها أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على نهج النبوة، وقد توسع سلطانها، فشمل مُلك فارس وبعض ممالك الروم، وقد أجمع العلماء أنه السلطان

(١) رواه أحمد، ج ٤/ ٧٠.

(٢) الفصل في الملل والنحل، ج ٤/ ١٧٦.

(٣) مجموع الفتاوى، ج ٢٠/ ٥٤.

(٤) السياسة الشرعية، ص٤٧.

النصير الذي أقام لنبيه ﷺ وأعز به الله تعالى دينه وهزم به أعداءه، وأخضع به رقاب الأعاجم لسلطان الإسلام، وجعله الحارس لشرعه وحدوده، قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لابد للناس من إمارة برة كانت أو فاجرة"، فقيل: يا أمير المؤمنين هذه البرة قد عرفناها، فما بال الفاجرة؟ فقال: يقام بها الحدود، وتأمن بها السبل، ويجاهد بها العدو، ويقسم بها الفيء"(١)، وقال الإمام الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ رائد علم السياسة الشرعية: "والإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع"(٢).

وقد صح أن الله تعالى يزع أهل الإفراط بالسلطان الحق أكثر ما يزع بالقرآن الكريم(٣)، فضعاف النفوس يخشون السلطان وعقابه أكثر من خشيتهم الله تعالى، ويرجع

---

(١) ذكره ابن تيمية في السياسة الشرعية، ص٨٨، وقد جاء بلفظ مختلف، "قال علي: ما تقول الحرورية؟ قالوا: يقولون: لا حكم إلا لله، قال: الحكم لله وفي الأرض حكام، ولكنهم يقولون: لا إمارة، ولابد للناس من إمارة يعمل فيها المؤمن، ويستمتع فيها الفاجر والكافر، ويبلغ الله فيها الأجل"، أخرجه عبد الرزاق ١٠/١٢٤، رقم ١٨٥٩١، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ١٠/ ١٤٩، حديث رقم: ١٨٦٥٤، ورواه البيهقي. وعزاه بعض الإخباريين لعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو حديث آخر: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بن عَبْدِ اللَّهِ بن عُرْسٍ الْمِصْرِيُّ، حَدَّثَنَا وَهْبُ اللَّهِ بن رِزْقٍ أَبُو هُرَيْرَةَ الْمِصْرِيُّ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بن بَكْرٍ، حَدَّثَنِي الأَوْزَاعِيُّ، حَدَّثَنِي عَبْدَةُ بن أَبِي لُبَابَةَ الأَزْدِيُّ، حَدَّثَنِي زِرُّ بن حُبَيْشٍ، قَالَ: لَمَّا أَنْكَرَ النَّاسُ سِيرَةَ الْوَلِيدِ بن عُقْبَةَ بن أَبِي مُعَيْطٍ، فَزِعَ النَّاسُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ: اصْبِرُوا، فَإِنَّ جَوْرَ إِمَامٍ خَمْسِينَ عَامًا خَيْرٌ مِنْ هَرْجِ شَهْرٍ؛ وَذَلِكَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: "لابُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ إِمَارَةٍ بَرَّةٍ أَوْ فَاجِرَةٍ، فَأَمَّا الْبَرَّةُ فَتَعْدِلُ فِي الْقَسْمِ، وَيُقْسَمُ بَيْنَكُمْ فَيْأَكُمْ بِالسَّوِيَّةِ، وَأَمَّا الْفَاجِرَةُ فَيُبْتَلَى فِيهَا الْمُؤْمِنُ، وَالإِمَارَةُ الْفَاجِرَةُ خَيْرٌ مِنَ الْهَرْجِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: الْقَتْلُ وَالْكَذِبُ"، رواه البيهقي.

(٢) الأحكام السلطانية، ص٥.

(٣) رواه ابن عبد البر في التمهيد، ج ١/١١٨،قال: حدثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول: ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن أي: من الناس"، ورواه صاحب تاريخ بغداد [ج: ٤ ص: ١٠٧] عن عبيد الله بن عمر بن نافع عن بن عمر قال سمعت عمر بن الخطاب يقول: "لما يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن"، وروى ابن شيبة في تاريخ المدينة، قال حدثنا موسى بن إسماعيل، قال حدثنا حماد، قال حدثنا يحيى بن سعيد، أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: "ما يزع السلطان الناس أشد مما يزعهم القرآن"، وذكره في جامع الأصول وقال: أخرجه ... [بياض]، قال المحقق كذا في الأصل بياض بعد قوله: أخرجه، وفي المطبوع: أخرجه رزين، وإسناده منقطع، وهو مشهور من كلام عثمان".

الفضل للسلطان في إخضاع صناديد الكفر والمتمردين والخوارج وردع أهل الفتن والفساد، والثابت أن الله تعالى نصر دينه بالسلطان الذي أعزه به في المدينة، وقد كان من دعاء النبي ﷺ مما علمه ربه ﷻ: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء]، قال الحسن البصري في تفسيرها: "وعده ربه لينزعن ملك فارس، وعز فارس، وليجعلنه له، وملك الروم، وعز الروم، وليجعلنه له"، وقال قتادة فيها: "إن نبي الله ﷺ، علم ألا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطانًا نصيرًا لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله، جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم"(١).

وقد سماها الفقهاء "الإمامة العظمى"؛ لعظم مكانتها في حفظ الدين وشرائعه، وحفظ أرواح المسلمين وأعراضهم ومصالحهم.

وقد ذم بعض المتأخرين الملك، وزهدوا الصالحين فيه؛ ليخلّوه لأهل الفساد والمظالم، فتسلطوا على الصالحين، وأهملوا مصالح الدين والعباد، وظاهروا أعداء الدين والأمة، وكذب من يحدث على منابر المساجد والإعلام أن الإسلام يزهد في سلطان الدنيا، والعمل في العمران والزراعة والصناعة، وضللوا الجهال، ودعوهم إلى ترك الدنيا لأهلها، فهذا جهل وتضليل؛ ليظل المسلمون ضعفاء ومتسولين، يستذلهم عدوهم بقوته عليهم وبإطعامهم، ويردهم عن دينهم، مخالفين قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال]، وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور].

---

(١) تفسير ابن كثير، دار طيبة، ج ٥/ ١١١.

وقد كان النبي ﷺ رئيسًا وقائدًا وسائسًا، وقد تشارف الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لولاية السرايا وقيادة الجيوش في عهد النبي ﷺ؛ ليخدموا دينهم، والتمسوا بها فضل الجهاد والنصر والشهادة، وأجمع على هذا أفاضل أهل الرأي، قال الإمام العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أجمع المسلمون على أن الولايات من أفضل الطاعات، فإن الولاة المقسطين أعظم أجرًا وأجل قدرًا من غيرهم؛ لكثرة ما يجري على أيديهم من إقامة الحق ودرء الباطل ... وعلى الجملة، فالعادل من الأئمة والولاة والحكام أعظم أجرًا من جميع الأنام بإجماع أهل الإسلام"(١)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها؛ فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس؛ لأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجب من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة"(٢).

ومن ضرورات الدين أن يكون سلطانه قويًّا عزيزًا، ومن ثم وردت أحاديث كثيرة، تدعو إلى طاعته في المعروف وعدم الخروج عليه؛ ليظل قائمًا على مصالح الدين والدنيا، وقال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس دين زال سلطانه إلا بدلت أحكامه وطمست أعلامه، وكان لكل زعيم فيه بدعة، ولكل عصر في وهيه أثر"(٣)، وقد اجترأ خصوم الإسلام عليه؛ لضعف سلطان المسلمين، والغرب يدرك أن عودة سلطان الإسلام الخطر الأعظم عليهم.

وقد بث الدهريون الأكاذيب حول سلطان الإسلام، وشوهوه، وبثوا التخاذل في نفوس الأمة وعدم المبالاة والسكوت عن نصرة الحق وكرامة الأمة مخالفين هدي سيد العباد ﷺ.

---

(١) قواعد الأحكام، ج ١/ ١٢٠-١٢١.

(٢) السياسة الشرعية: (ص٢١٧).

(٣) أدب الدنيا والدين، ص١١٥.

ل- التزييف: وسيلة خداع سياسية لتبرير الأفعال المشينة، وللتعمية على الجرائم، ولتغيير الحقائق في المعنى وعلى الأرض، ومن هذا: مصطلح الدفاع عن النفس الذي تقرر العمل به المواثيق الدولية، واستخدم عنوان عمليات الاعتداء العسكرية الصهيونية في فلسطين، ومثله: الحرب على الإرهاب (حرب المصالح ومصادر الثروة)، والغزاة يستخدمون بعض المصطلحات في تسويغ غزوهم، مثل: حماية الأقليات وحقوق الإنسان وتطبيق الديمقراطية وإسقاط الدكتاتورية، والاحتكام إلى استفتاء الأقلية، وتطبيق الشرعية الدولية، وتأمين مصادر الطاقة، والتصدي لمطامع دول الجوار، ومن وراء هذه المصطلحات مصالح وحملات عسكرية، وقد يقع التزييف في جغرافية الأرض، مثل: الشرق الأوسط (قلب العالم ومركزه ووسطه)؛ ليكون الغرب مركز العالم، والحقيقة أن الوطن العربي وسط العالم، وأن مصطلح الشرق الأوسط تذويب لهويته في محيطه ولتمييع وجوده الجغرافي.

وقد عبث الخطاب المضلل بالمسميات تزييفًا للحقائق، فقد سمى الجدار الذي ضربه لمحاصرة الفلسطينيين داخل سجون المدن والتهامًا لمزارعهم الجدار العازل والجدار الأمني، وهو يوحي بحماية إسرائيل من خطر الفلسطينيين، وقد قامت السلطة في مصر - زمن مبارك - بعمل جدار مواز له على حدود غزة على سطح الأرض وتحتها؛ لمنع سكان غزة، ولغلق الأنفاق في وقت تحكم إسرائيل سيطرتها على قطاع غزة برًّا وبحرًا، وقد سمته وسائل الإعلام السلطية الأعمال الهندسية عدولًا عن تسمية إسرائيل؛ لئلا يثير في الجماهير مثار جدار إسرائيل، والغرض واحد، وقد جعل الخطاب سكان غزة بديل العدو الصهيوني، وصاروا فزاعة الأمن، ومصدر الإرهاب في مصر، وداخل سيناء خاصة، واستبعد العدو الصهيوني من دائرة الأمن القومي في كل العمليات التي وجهت للجيش المصري!

ومن التزييف الذي ألحقه الدهريون المتطرفون بتاريخنا أنهم أطلقوا تسمية "العصور الوسطى" (Middle Ages) (الفترة ما بين القرن الخامس الميلادي والقرن الثالث عشر الميلادي تقريبًا) التي اصطلح عليها الغربيون بعصور الظلام (Dark Ages)، وهي الفترة التي تمثل أزهى عصور تاريخنا العلمية، فقد ازدهرت العلوم الإسلامية في المراكز العلمية

في دمشق وحلب والكوفة وبغداد والقيروان وقرطبة والقاهرة ومراكش وفاس، وكانت مؤسساتها مزدهرة وصناعاتها متقنة ومتقدمة والعلم في تطور مستمر والعمران في ازدياد، وصارت أعجوبة حضارية تثير تطلعات العالم، وقد زخرت القرون ما بين الخامس والثاني عشر الهجرية خاصة بأبرز العلماء والعلوم.

وهي الفترة التاريخية المظلمة في أوربا والتي بلغت فيها الكنيسة قمة سلطانها على الدولة ورعاياها، فقد هيمنت فيها على الممالك الدنيوية، وانحرفت عن المسار الديني، وبلغت ثراء فاحشًا، وأحكمت قبضتها على رعيتها، واستبدت بالسلطة السياسية، وأدخلت أوربا في العصور المظلمة التي بدأت من القرن الخامس في أعقاب سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية (عام ٤٧٦م) إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وكان هنالك في مقابل الظلام الدامس الذي خيم على غرب أوربا، الحياة الأكثر إشراقًا في العالم الإسلامي؛ فقد كان المسلمون في الأندلس يعيشون ثراء حضاريًّا وثقافيًّا، وارتقوا في كل المجالات العلمية؛ كالطب والهندسة والبصريات والرياضيات والفلك، وقد انتقلت بعض هذه العلوم والمعارف إلى دول الجوار، ولكن الإمبراطورية البيزنطية تمسكت بملامح حياة الإغريق والرومان، ورأت الكنيسة هذا عاملًا في إحكام قبضتها على رعيتها، وفكر ملوك الجوار في القضاء على الوجود الإسلامي في أوربا بتحريض من الكنيسة، فغزوا الأندلس، وسقطت غرناطة سنة (٨٩٧هـ = ١٥٤٢م) آخر قلاع المسلمين[1]، وأبادوا الوجود الإسلامي نهاية القرن السادس عشر، ودفعت الكنائس أيضًا فقراء أوربا وملوكها نحو غزو العالم الإسلامي لنهب ثرواته والانتقام من المسلمين؛ وأيد الملوك الغزو؛ حلًّا لنكبتهم الاقتصادية وصرفًا للجياع عن الثورة، وخدعت الكنيسة رعاياها بتحرير الأرض المقدسة مهد المسيح من المسلمين أواخر القرن الحادي عشر حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر (١٠٩٦ = ١٢٩١م)، ولكن هذا لم يشف غُلتهم ويسد جوعتهم، وكان من نتائج هذه الحملات أن تعرف الأوربيون على حضارة

(١) قام في يوم الجمعة ٢٣ من محرم سنة ٨٩٧ هـ الموافق لـ ٢٥ من نوفمبر سنة ١٤٩١م أبو عبد الله آخر ملوك بني نصر بإمضاء اتفاقية يتنازل فيها عن عرش مملكة غرناطة وعن جميع حقوقه، وحاول انتزاع بعض الامتيازات لرعاياه ولمسلمي ما كان يعرف بالأندلس، ثم نكث الإسبان بعهدهم، ومارسوا التنصير، وأجلوا المسلمين.

المسلمين، وظهرت نهضة علمية متأثرة بالمسلمين، قاومتها الكنيسة، وعدتها هرطقة في الدين، وتمردًا على تعاليم الكنيسة، وظهرت حركة مضادة للكنيسة، تعرف بحركة الإصلاح الديني البروتوستانتي ١٥١٧م، وظهرت الحركات القومية في أوربا بعد تحسن الظروف الاقتصادية في القرن الحادي عشر والثاني عشر، وقام صراع بين السلطة الدينية والسلطة السياسية، وانتهت بهزيمة رجال الكنيسة، وحبسهم داخل أسوارها، وإقصائهم عن التدخل في الحياة العامة، وعدهم المجتمع خصوم التحضر والحرية، وظهرت فيها الأيديولوجيات الدهرية؛ لتملأ الفراغ الكنسي، وبدأت الكشوف الجغرافية الأوربية وحملات الغزو الأوربي، وظهرت النزعة الإنسانية الدهرية، ودخلت أوربا في حقبة جديدة، وصارت عقائد موازية لها عند أصحابها، ودخلت أوربا بداية الحداثة ثم الثورة الصناعية، وهي تتخبط بين أيديولوجيات تموت وأخرى تظهر، ولكن هدفها الذي تتجه نحوه وتجتمع عليه، مصالحها ومصادر ثروتها.

ويربط الدهريون المعاصرون بين حضارة المسلمين في هذه الحقبة وبين ما كانت عليه أوربا؛ تشويهًا وتضليلًا، ولا يتورعون عن تسمية نظام الحكم في التاريخ الإسلامي بالحكم الديني الثيوقراطي، وهو نظام كنسي، فهم يستقون تاريخ المسلمين من مصادر كنسية غربية، ضللت الغربيين عن الإسلام، مثلما ضللتهم عن مسيحيتهم، وجعلت نفسها نائبًا عن المسيح في الرعية، وصارت مصدر المعرفة والغفران والحرمان، ويأخذون أيضًا عن كتابات المستشرقين المتعصبين، ولو قالوا إن العصر المظلم هو الذي نعيشه الآن في حكم استبداد الدهريين والمتأوربين بسخافات الغرب وأضاليله الأيديولوجية؛ ليضللونا بها عن العلوم التقنية الغربية وأسباب الحضارة الحقيقة، نحن لسنا في حاجة إلى أيديولوجية؛ لأننا لا نعاني من الخراب الروحي، بل نعاني من الجهل الديني والعلمي واستبداد النوكى وغير الأكفاء بولاية شئون الأمة.

م- الخرافة والوهم: لها أثر في وجود بعض المصطلحات التي تقوم على أساس وهمي، مثل: بعث الأشخاص وحلول لعنتهم والتفاؤل والشؤم وصكوك الغفران والقوة الروحية، وقد يفتعل السلطيون عدوًّا مجهولًا يخوفون به الشعب ويحملونه إخفاقهم السياسي وكوارثهم، مثل: "أسلحة الدمار الشامل" في العراق، ورسائل "الجمرة الخبيثة"

التي افتعلتها المخابرات الأمريكية لتخويف الشعب الأمريكي من الإرهاب الطالباني والعراقي، ومثلها: الأطباق الطائرة والغزاة من الفضاء الخارجي، وهي أجهزة تجسس في "الحرب الباردة" بين أمريكا والاتحاد السوفيتي، وكان الإعلام أداة إذاعة هذه الأكاذيب، وتقوم أجهزة المخابرات بافتعال الموضوعات المثيرة والأكاذيب محليًّا، ودفعها إلى وسائل الإعلام، فتتخذها مادة، وتعتمد في هذا على عناصر مأجورة لمناقشتها وإثارة الجدل حولها؛ لشغل الشعب عن الفساد السياسي، وتعد سياسة متبعة في الدول المتخلفة سياسيًّا، والإعلام في مصر يستعين ببعض الصحفيين المغمورين محاورين ومناقشين، ويأتي ببعض طلاب الشهرة والمال من مدعي الفكر والعلم والخبرة ممن يسمون "ضيوفًا تحت الطلب"، وصنع الإعلام بعض المفكرين الدينيين المصانعين والممالقين للمجادلة في بعض القضايا الفقهية، ولإثارة الشكوك في بعض المسائل التي يتخذها مادة للتضليل أو لاستقطاب الجمهور؛ فاستباح الدين والقيم والأعراض، واستباح الوطن أيضًا.

وقد يصنعون عدوًّا واقعيًّا يطلقونه على الشعب يروعهم، مثل: البلطجية والشبيحة والفُتوَّات ورواد السجون، وقد صنع رجال الأمن في الأنظمة الاستبدادية جيوشًا سرية تقوم بعمليات إرهابية مثل: جند الإسلام وجماعة التكفير والقاعدة والتطرف الغربي (Fundamentalism: المترجم تضليلًا الأصولية)، وقد استعارها الإعلام العربي الضال المضل من الغربيين، وتبين أن الفاعل عناصر سلطية، وقد كان الأمن الداخلي يفتعلها لتشديد سلطته وتقويتها وتخويف السلطة من الشعب، وقد تأتي الهواجس من شدة الخوف والبطش والتعذيب وطول التغييب في السجون في ظروف غير طبيعية، والسلطة المسئولة عن العنف السياسي؛ لإسرافها في تعذيب مخالفيها، فتيتحولون من معارضين سياسيين إلى خصوم مسلحين، يستبيحون رجال السلطة الذين تجردوا من دينهم ووطنيتهم عندما استخدموا أجهزة الدولة في معاقبة معارضيهم السياسيين، وفي أغراضهم المخالفة لقانون الدولة ودستورها، ناهيك بدفع الشباب السياسيين إلى السجون مع المجرمين، والإفراط في تعذيبهم، فيتحولون إلى العنف المسلح الذي غرقت به الدولة المدنية الحديثة، وقد ساهمت سياسة الدول الكبرى في اتساع دائرة العنف المسلح بسبب استضعاف الدول والتلسلط على الأقليات والتواطؤ مع الاحتلال، وقامت

بعض الدول باستئجار المرتزقة والعملاء لأهداف سياسية، وتمويل العناصر الخارجة عن سلطان دولها، وإيواء المجرمين على أراضيها، ومساومة الاستبداديين على بعض المصالح مقابل التغاضي عن ظلمهم، ومعاقبة المخالفين بتهمة اختراق حقوق الإنسان، وهذا من مثالب الدولة الحديثة التي تستبيح الوسائل الموصلة للغايات مقابل التفريط في القيم والعدل والمساواة؛ عملًا بـ "الغايات تبيح المحرمات وتنتهك المقدسات".

ن- التعصب: من عوامل تحريف اللفظ وتزييف الدلالة، ومنه التعصب الديني والتعصب العرقي الذي يحتقر ما دونه، مثل التعصب العنصري الصهيوني الذي يعد الأقدم في العالم، فقد قام كهنة اليهود بصناعة تاريخ البشرية البدائي، الذي يقوم على تقسيم البشر إلى سلالات ولغات مختارة (خلاف ما يعرف علميًّا من انشقاقها لهجة عن لغتها الأم، ثم استقلالها بصفات تميزها عن أخواتها)، ولفكرة نقاء العنصر اليهودي أثرها في التاريخ القديم، الذي يفتقد إلى مصادر توثقه غير مرويات الأخبار التي لا تخلو من وضع أو زيادة أو تحريف والإسرائيليات، ومنها تقسيم الأجناس الذي يستند إلى العهد القديم (يافث وسام وحام)، الذي يتنافى مع التطور الاجتماعي والتفاعل والتداخل، وقد ضرب المثل بالعرب عالميًّا في حفظ الأنساب، وهم أقرب إلينا من القرون الأولى المجهولة، والقبيلة الوحيدة التي حفظت نسبها مدة طويلة قريش، وقد رفع النسابون نسب النبي ﷺ إلى جده معد بن عدنان[1]، وأمسك العلماء عمن فوقه إلى أبيه إسماعيل عليه السلام، لا يعلمون، قال ابن مسعود رضي الله عنه فيمن زادوا: "كذب النسابون"، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "إنما نُنسب إلى عدنان، وما فوق ذلك لا ندري ما هو"، وعن عروة بن الزبير رضي الله عنه أنه قال:

(١) روى ابن إسحاق في تاريخه (السيرة): محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النظر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد بن مقوم بن ناحور بن تارخ بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام بن تارخ (وهو آزر) بن تاخور بن شارخ (شاروخ) بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام بن لامك ابن متوشلخ بن أخنوخ، وهو إدريس عليه السلام بن يرد بن مهلائيل بن قنين (قينان) بن يافت بن شيث بن آدم عليه السلام، وهذه الرواية سندها رجال الأخبار، والمعروف عنه أنه كان يروي الإسرائيليات، وأنكر عليه المحدثون هذا.

"ما وجدنا أحدًا يعرف ما فوق عدنان وإسماعيل إلا تخرصًا"، وحكي عن الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فكره ذلك. فقيل له: فإلى إسماعيل، فأنكر ذلك. وقال: "ومن يخبر به؟"، وقد أقر علماء التاريخ والأجناس بهذا، وأمسكوا عن تاريخ بداية البشرية، والمعلوم يقينًا أن العهد القديم كتب بعد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على فترات مختلفة بلغات مختلفة وبحروف مختلفة، ثم جمع في كتاب، والثابت أيضًا أن توحيد العهد القديم وترجمته إلى لغة واحدة "الكنعانية" المتأخرة التي سموها زورًا العبرية بعد ظهور الإسلام في الأندلس بعد ضبط العبرية على قواعد متأثرة بالنحو العربي في الأندلس، فأنى لهم بتاريخ البشرية الأول؟! وما روي من اجتماع الخلائق في بابل واختيار الأرض واللغة، أسطورة نسجها خيال الإخباريون اليهود، ونقلها بعض المؤرخين الأولين؛ لعدم وجود مصادر عن تاريخ البشرية الأول، وأنساب اليهود لا تخلو من هوى وعصبية، فقد استبعدوا أولاد كنعان الملعون ـ حسب رواياتهم ـ من أولاد سام[1]، وجعلوهم لحام أبي المصريين والكوشيين والبجاويين، وجعلوا العيلاميين

(١) جاء في العهد القديم: "[٢٠] وابتدأ نوح يكون فلاحًا وغرس كرمًا [٢١] وشرب من الخمر فسكر، وتعرى داخل خبائه [٢٢] فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجًا [٢٣] فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على اكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما [٢٤] فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير [٢٥] فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته [٢٦] وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدًا لهم [٢٧] ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبدًا لهم" [سفر الخروج ٢٠:٩-٢٧]، وهذه الرواية فيها نظر: لماذا لعن نوح كنعان بن حام، ولم يلعن الآثم حامًا نفسه؟ وما ذنب الذرية؟ ولم يذكر التاريخ أن الكنعانيين كانوا عبيدًا، بل كانوا شعبًا عزيزًا أذل العبريين خلاف ما جاء في النص، وهذا من إفراط اليهود في بغض الكنعانيين أصحاب الأرض التي زاحموهم عليها، وقد أشار النص إلى الأرض التي يسكنها يافث وهي أرض سام، وهذا دليل آخر على أن العبريين والعيلاميين من نسل يافث، والمراد النسل العبري الذي هاجر من غرب آسيا إلى الشام أرض الكنعانيين، والثابت أيضًا أن بني إسرائيل لعنوا على ألسنة أنبيائهم؛ لكفرهم وعنادهم وكثرة معاصيهم.

ولقد سلب اليهود الكنعانيين لغتهم وأرضهم وأسماء بلادهم، وأشهر مدنهم: رأس شمرا، وأوجاريت، وأرواد (جزيرة) وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا وعسقلان وأسدود وجت وغزة وقادش وبيسان وبيت إيل وجبعون وأريحا ويبوس (أورشليم) وبيت لحم وحبرون وعجلون وبئر سبع، وغيرها من المدن في فلسطين ولبنان، وقد اغتصبت إسرائيل مدينة تل الربيع ١٩٤٨م، واتخذتها عاصمة، وسمتها بالعبري "تل أبيب" على عادة اليهود في تغيير هوية الأشياء، ومثلما ادعت القدس لنفسها باسم أورشليم، وتعني تاريخيًّا "الحصن =

ساميين (النازحين من إيران)، والراجح أنهم ليافث (أبي الأجناس الآسيوية والأوربية حسب الرواية الإسرائيلية)، والراجح أنهم من الأهواز بإيران، وصعدوا العراق مع السومريين والخبيرو (العبيرو أصل العبريين، وهم غير بني إسرائيل)، ولغتهم تختلف عن السامية، فالصواب عكس ما ذكروه، (والكنعانيون - على الأرجح - فرع عربي قديم نزل جنوب الشام نحو فلسطين والأردن، وقيل منهم الهكسوس حكام شمال مصر زمن يوسف عليه السلام)؛ وقد رفض الكنعانيون الفلسطينيون (الجبارون) خبيرو الدخلاء عندما وفدوا من العراق إلى فلسطين، فتصدوا لهم، وحاربوهم، وعاشوا إلى جوارهم في الأردن، ورفضوا دخول بني إسرائيل الهاربين من مصر وطنهم فلسطين، وقد تمكنوا من دخول شرقها مع داود عليه السلام، فأقام إلى جوار يبوس عاصمتهم، ثم دخلها سلمًا، وتوسع في فلسطين، وقد تكلم اليهود لغتهم التي ادعوها بعد في الإسلام لأنفسهم عبرية، وتسمية عبرية فيها لغط، والراجح أنها ليست من عابر المزعوم في الخيال الصهيوني، بل من أصول قبيلة "خبيرو" الآسيوية، ويؤكد هذا أن قبيلة خبيرو أو عبيرو، ومعناها العابرين (حسب الرواية الإسرائيلية، أي: المهاجر) من القبائل التي سكنت العراق، والثابت أن بني إسرائيل خرجوا من مصر مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلا علاقة لهم بإسرائيل عليه السلام وبنيه الذين خرجوا من مصر مع موسى عليه السلام وهارون عليه السلام إلا في اعتناق اليهودية بعد زمن داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي دخل ببني إسرائيل فلسطين، وقد نسب الإخباريون اليهود عبيرو إلى سام مثلما نسبوا عيلام إليه (وهما قبيلتان وافدتان من جهة إيران يقينًا، وتكلمتا لغتين مختلفتين عما عرف باللغات السامية)، وهنالك رواية تزعم أنهم وفدوا من العراق مع إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين، والثابت من رواية العهد القديم أن إبراهيم عليه السلام نزل ضيفًا على الكنعانيين، فأكرموه، وعاش بينهم حتى مات، قال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء]، فاتجه إبراهيم عليه السلام بأمر من ربه إلى ناحية الغرب، ونزل لوط عليه السلام

=

الآمن" أو مدينة السلام؛ لأنها فوق هضبة، وبها تحصينات قوية، وتقوم بتهويدها وتغيير معالمها وتهجير سكانها، وهي مدينة قديمة، سكنها اليبوسيون (جنس من العرب)، وقد أقام داود عليه السلام جوارها فوق هضبة قريبة عندما دخل فلسطين، ثم صالح أهلها، ودخلوا في سلطانه.

ابن أخيه سدوم (المؤتفكة) أطراف الأردن شرقًا للدعوة، وهذا خلاف ادعاء اليهود أنه طرد ابن أخيه؛ حسدًا لكثرة ماله، ومزاحمته له في الأرض خلاف ما جاء في القرآن الكريم، وقد اشترى إبراهيم عليه السلام مزرعة من عفرون الحيثي بقرية حبرون من أرض كنعان، وأقام بها مغارة، ودفن زوجه سارة بها، ثم دفنه ابناه إسماعيل وإسحاق - عليهما السلام - فيها، وسميت حبرون (الخليل)، ودفن بها بعض الأنبياء، وقد استولت عليها إسرائيل، وقد هاجرت قبائل عبيرو إلى شرق فلسطين (الأردن)، وتهودت، وخالطت من بقي من بني إسرائيل، وادعت نفسها من بني إسرائيل.

وقد حصرت الإسرائيليات نسب البشر في أولاد نوح (يافث وسام وحام على الترتيب)، وجاء في العهد القديم أن أرض حام مصر، ومصرايم جمع مصري المنسوب، لا اسمها في العبرية، وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود ذرية لمن حملهم نوح، فزعموا أن ذريتهم هلكلوا خلاف ظاهر قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء:٣] ، وهذا لا ينفي مجيء الأنبياء من ذرية نوح، فقد كان معه آخرون، قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الشعراء] ، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن من نجا من غير بنيه لا عقب لهم، ودليلهم: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات]، وحملوا الآية السابقة (ذرية من حملنا مع نوح) أبناء أولاده، وهذا المذهب يتسق مع ما جاء في العهد القديم من نسب الناس إلى أولاد نوح عليه السلام، وأرى أن آية الإسراء لا تستبعد ذرية من نجا من القلة المؤمنة، وأن آية الصافات لا تنقضها؛ لأنها جاءت في مقابل استئصال الكافرين من الأرض، وخصت ذريته؛ ومنهم الأنبياء - عليهم السلام - الخالدون ذكرًا، ومنهم بنو إسرائيل المذكورون في صدر الإسراء، والله أعلم[1].

---

(١) جاء في رواية مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم: "ولد نوح سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم، والخير فيهم وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم، وولد لحام القبط والبربر والسودان"، وهو من الموضوعات الإسرائيلية، وفيه ما يناقض ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، أنه "لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب". وقد ظهرت تسمية اللغات السامية في دراسات المستشرقين اليهود في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يريدون لغات الأمم التي سكنت الجزيرة العربية والشام والعراق، وانتقلت إلى شمال أفريقيا، وعرفت =

وقد احتقر اليهود الأجناس الأخرى، والأنبياء الذين لا ينتسبون إليهم، ومن ذلك كلمة "Saracens" التي تطلق على العرب وعلى الشرقيين في الثقافة اليهودية، وأشاعها الإعلام الصهيوني في الغرب، مثلما نقل الإعلام العربي عنهم أنهم أبناء عمومة العرب، وهي مشتقة من "سارا كنوا" المحرف عن "قنيّة سارة" أي: عبيد سارة، زوج إبراهيم – عليه السلام – يريدون بذلك أبناء هاجر؛ إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأبناءه، وهم العرب أبناء الأمَة (الجارية)، وقد اعتمد بعض المؤرخين على العهد القديم وحده، وليس بكاف في هذا.

ومثله لفظ "البربر" (البونيين) الذي استخدم في الغرب بمعنى همجي وبدائي، وقد استخدم في وصف الشعوب غير الأوربية، وقد شاع في وصف سكان شمال أفريقيا الذين هزموا الرومان، وكادوا أن يستولوا على عاصمة ملكهم روما، فأبادوا كثيرًا منهم انتقامًا وحرقوا مدينتهم "قرت حدشت" (قرطاج)، وسموهم البربر، وأشاعوا عنهم أنهم قبائل متوحشون.

وقد أطلق عليهم في اللغات الأوربية أسماء عديدة منها المور (mauri)، وأطلق اليونان عليهم المازيس (Mazyes)، وسماهم المؤرخ اليوناني هيرودوتس ماكسيس (Maxyes)، وأطلق عليهم المصريون القدماء جيرانهم اسم "المشوش"، وأطلق عيهم الرومان ثلاث تسميات؛ النوميديين (Numidians)، والموريتانيين (Mauretanians)، والليبيين أو الليبو (في الإنجليزية: Libue)، وأطلق عليهم العرب اسم البربر أو أهل المغرب، وقد أخذوا تسمية البربر عن الرومان الذين أشاعوا عليهم هذه التسمية، وأطلق عليهم الأوربيون في القرنين السادس عشر حتى التاسع عشر البربر (Barbary في الإنكليزية، أو Berberie في الفرنسية)، وهي تسمية قديمة، والبربر منقولة عن الجذر اللاتيني الإغريقي باربار (Barbar)، وهي كلمة استعملها اللاتينيون في وصف كل

=

بالبونية، والغريب أنهم أطلقوا تسمية اللغات الهندو أفريقية، ولم يسموا اللغات السامية اللغات الأسيو أفريقية أو الأوسطية؛ نسبة إلى موقعها الجغرافي.

الشعوب التي لا تتكلم اللاتينية أو الإغريقية؛ اعتقادًا منهم بتفوق الحضارة اليونانية والرومانية على كل الحضارات، وأن شعوبهم أرقى الشعوب، وقد نقله عنهم العرب قبل الفتح دون علم بأصل معناه، مثلما نقلوا عنهم تسمية المصريين بالقبط، وقد أطلقه الإغريق والرومان عليهم؛ لتشويههم بعد حروب عنيفة معهم وتعرضهم للهزيمة، وقد تمكنوا من غزو جنوب أوربا، وكادوا أن يسقطوا روما بيد أن الروم تمكنوا من ضرب عاصمتهم في شمال أفريقيا، فأثر هذا في تقدمهم، وقد أطلق الرومان البربر والبرابرة على القبائل الجرمانية والإنكليزية المتمردة عليهم أيضًا.

والطوارق فرع منهم، وهو اسم مشتق من الكلمة الأمازيرية (Targa)، وتعني "الساقية" أو "منبع الماء"، وأطلق الطوارق على أنفسهم "إموهاغ" (Imuhagh) أو إموشاغ (Imuchagh)، وهما من الكلمة الأمازيرية (Imuzagh)، وتعرف لغتهم بـ "تاماهيق" (Tamaciq)، وهي فرع من الأمازيرية (Tamazight)، والطوارق يفضلون تسميتهم بـ "إيماجيغن" أو "إيموهاغ" ومعناها: "الرجال الشرفاء الأحرار"، وينفرون من تسمية البربر، ومن أشهر قبائلهم القديمة زناتة، وصنهاجة، وهوارة، واللمطة، وإزناكن، وإماسوفن، وبعض هذه القبائل هاجروا إلى مصر، وانصهروا في شعبها، ولم تبق منهم غير أسماء القرى في البحيرة وكفر الشيخ والدقهلية.

واختلفوا في أصولهم، والراجح أنهم عنصر أصيل (من الكنعانيين الفينيقيين) هاجر من حواضر ساحل الشام إلى شمال أفريقيا، وهم ذوو قرابة مع العرب، وهي القرابة المشكوك فيها مع اليهود (الذين ينتسبون إلى الساميين)، وتسمية السامية صهيونية أطلقها علماء اللغة اليهود على لغات المنطقية العربية وشمال أفريقيا في عصور عتيقة، والتي اختزلوها في لغة العنصر العبري الذي اغتصبها من اللهجة الآرامية المتأخرة التي شاعت بين الكنعانيين سكان فلسطين.

وقد يعمد الخطاب الإعلامي إلى تسمية فصيل سياسي بتسمية تسيء إليه، فالخطاب العلماني يسمي الإسلاميين المتأسلمين والمتطرفين والأصوليين بالمفهوم الغربي "الاتجاه المتعصب" (Fundamentalism)، وقد يفعل العكس ممالقة، فيسمي ملة أو عرقًا أو فئة باسم يؤصل وجوده؛ كتمسية نصارى مصر بالأقباط، أو يحتقر فئة أو يهمشها؛ كتسمية

العاملين من غير الخليجيين بالأجانب، وتسمية العرب بالبدو، والبدون في الخليج؛ لأنهم مهاجرون قدماء "دون" هوية رسمية، فسموهم اختصارًا "بدون"، وتسمية العرق الأصيل في بلاد المغرب بالبربر، وهم مواطنون أقحاح، ومثله النوبيون (أو البربر) في مصر، وبعض العرب يطلق على المصريين فراعنة؛ للدلالة على القوة والبطش والعناد والتكبر، واستخدمه أنصار الإمام أحمد ملك اليمن في مواجهة الجيش المصري المناصر للثورة في اليمن في الستينيات، يريدون به جند فرعون؛ ليغروا العامة باغتيالهم، وقد قُتل مصريون كثيرون غيلة في الشوارع والكمائن، وكان الإعلام العربي يلوح بالفرعونية أثناء النزاعات مع السلطة المصرية، وبعض المجتمعات العربية ترى شعب مصر مما يعرضه الإعلام الفاسد من فنيات وضيعة وأخبار الشواذ وقضايا المهمشين وأزمات المجتمع التي يلغ فيها الإعلاميون السُّقاط، ويتخذونها مادة إثارة، بينما يتجاهلون علماء مصر النوابغ وإنجازاتهم المميزة، ولا يتخيرون غير الإسفاف وسفهاء كل مهنة؛ تسفلًا وتضليلًا، فيأتون بأدعياء الشعر من المجان والمدمنين، ويختارون الروايات الضعيفة المثيرة، ويقحمون مشاهد إباحية في أعمال تاريخية، تقوم على الأحداث غير الموثقة؛ تغريرًا بالمراهقين وابتزازهم.

س- محو الذاكرة الدينية والتراثية: التخلص من المفاهيم التي سجلتها ذكرة الأمة الإسلامية في حقب تاريخها، التي شكلت وجدانها ووحدة مشاعرها وحصيلتها التراثية، وقد بدأ دغدغة هذه المشاعر بإزاحة المصطلحات عن وضعها، أو استبدال مصطلحات دخيلة بها عن طريق المحو والإحلال، أو بالتعمية على دلالتها الأولى، وقد قام رائد النهضة رفاعة الطهطاوي وغيره من أقطاب الأمة بمحاولة تعريب مترجماته وتمصيرها؛ لتكون مهيأة ومستساغة [1]، ولكن المترجمين المتأخرين والصحفيين تجاوزوا التمصير،

(١) أذكر أن الأستاذ رشاد ابن الأديب الراحل كامل كيلاني أهداني أعمال والده، وقد قام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بترجمة بعض الأعمال الأدبية للأطفال باللغة العربية وشكَّل الكلمات، وأعد معاجم للمصطلحات والألفاظ في ذيل كتبه، وهو من أفاضل الأدباء الذين خدموا العربية والقرآن الكريم، ومن المميز في كتابة أدب الأطفال، ويعد رائده في العالم العربي، وقدم أدبًا راقيًا، فجزاه الله خيرًا، وغفر له ولابنه. ولم تهتم السلطة بهؤلاء، ولا يعبأ الإعلام بهم، فهو غير معني بثوابت الأمة وخيرة أعلامها.

واستسهلوا الدخيل، وصار ظاهرة في العربية، وهنالك تيار الدهرية الذي أتى – عن عمد – على كل بقايا التراث في وعينا المحدود.

وقد ساهم الاحتلال بعد عام ١٨٨٢م في محو الكثير من وجودنا الحضاري، فقد محا تسمية ديوان الجهادية ونظارة الجهادية (وزراة الحرب)، وهي التي صارت فيما بعد جيش حضرة مولانا الملك، ثم تردد العسكريون بين "الجيش" وبين"وزارة الدفاع" و"وزارة الحربية"، ومحا الاحتلال تسمية "ناظر الجيش"، وهي التسمية التراثية في الدولة العباسية والأندلسية وما بعدها، وأحلوا "وزير الحربية" و"وزير الدفاع"؛ ليماثل وزارة الدفاع الصهيونية، ومن مضحكات الزمان أن الرويبضين الصحفيين أشاعوا في الجماهير أن تسمية "العسكر" للجنود المماليك، والعسكر اسم جمع الجنود، والمعسكر (إقامة الجنود)، وقد أنشأ المسلمون منذ الفتح الإسلامي مدنًا عسكرية، يقيم فيها الجنود العرب بذويهم؛ لئلا يختلطوا بالسكان المحليين، وقد أنشأ عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أول معسكر في مصر في مدينة الفسطاط (حي من القاهرة الآن) بعد فتح مصر (٢٠هـ)[1]، ثم أقيم معسكر "الجيزة" في الناحية الغربية من النيل (ناحية ما يعرف بالبحر الأعظم، والجيزة تعني القنطرة والاجتياز)، وهي مدينة إسلامية بنيت في سنة ٢١هـ خلف العمود (مقياس النيل بالروضة)، وكان الطريق إليها من الجزيرة على جسر للجنود والعامة، وقد أسس صالح بن علي العباسي أول وال للعباسيين في مصر مدينة العسكر سنة (١٣٣ هـ = ٧٥٠ م) شمال الفسطاط، وانتهى منها عام ١٣٥هـ، ومن المفتريات التاريخية أن بعض النصارى زعموا أن المسلمين فرضوا عليهم إيواء الجند ونفقتهم فيما عرف بالارتباع الذي ظهر في عهد "عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ"، وهو خروج الجنود من الفسطاط لتسمين خيولهم ولتأمين

(١) فتح عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مصر في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سنة (٢٠هـ = ٦٤٠م)، بعد أن اتجه بجيشه من فلسطين إلى العريش والفرما (شرق بورسعيد) سنة ٦٤٠م، ثم بلبيس، ثم قرية أم دنين (حي الأزبكية حاليًا) ثم اتجه إلى حصن بابليون بمصر القديمة، واستسلم له البيزنطيون بعد حصار سبعة أشهر سنة ٦٤١م، ثم زحف بجيشه إلى الإسكندرية، وفتحها، وأرسل جنوده لفتح باقي مدن مصر حتى وصلوا إلى بلاد النوبة، وأقام ثغورًا بأطرافها، وكان جنوده يتجهون إليها في الارتباع (شهر الربيع)؛ لتحصينها، وكان سكان القرى القريبة يمدونهم بحاجتهم مقابل الجزية أو الشراء.

ثغور البلاد، وكان نوعًا من المعاقبة لبعض الجنود الذين أهذلوا خيلهم، وكانت خدمة الأهالي بالثغور مقابل إعفائهم من الجزية، وكان موعده في فصل الربيع من كل عام مدة ثلاثة أشهر حتى بداية الصيف، وليس بصحيح ما ادعاه بعض النصارى – حسدًا وبغضًا – أن الجنود كانت تخرج بلا أزواج، ويستحلون بيوت النصارى وأعراضهم وأموالهم؛ فهذا شأن جيوش النصارى، ولم يثبت شيء من هذا عن جيوش الفتوحات، فقد كانوا يقيمون بأسرهم في معسكرات كاملة المعيشة، وكانوا متفرغين للجهاد، وليس بصحيح أنهم كانوا يزرعون أرضًا أو يرعون أغنامًا، وقد تحول الجنود العرب إلى الزراعة بعد أن استغنى عنهم أمراء الدولة العباسية بالجنود الأعاجم والمماليك، والمعلوم أن تعريب مصر استمر أربعة قرون تقريبًا، ولو كانت هنالك مخالطة كالتي حدثت في بلاد فارس، لحدث التعريب سريعًا، فقد انتشرت العربية بين المسلمين الأعاجم في بلاد فارس وما وراءها في القرن الأول الهجري.

والغرض من إزاحة المصطلحات عن وضعها، تفريغها من شحناتها العاطفية والحضارية التي تراكمت عبر تاريخها، والأخطر الاستبعاد؛ لأنه محو خالص، وهي تمر بمراحل تنازلية، يهمل فيها اللفظ، ويستبعد، وقد يصبح ذكره مثير الجدل والمخاوف؛ للخلفية المشينة التي عبأها الدهريون ضد المفاهيم الدينية المشهورة، نحو استبعاد الشريعة وإحلال القانون ببعض بنوده الغربية، واستبعاد الجهاد والجهادية والمجاهد، وإحلال المقومة والقتال والحرب والعسكرية والجندية والجندي، وهنالك عوامل كثيرة وراء محو الذاكرة الدينية، منها هيمنة التيار الدهري على منافذ القرار والثقافة والاحتلال، الذي فرض ألقابه ومسمياته واللغات الغازية. والخطاب الإعلامي يعمد إلى استبعاد بعض الألفاظ بقرار سياسي داخلي أو خارجي؛ كاستبعاد تسمية "العدو الصهيوني" و"العمليات الاستشهادية" في فلسطين، ورفض العدو أن تسمى الفدائية (Commando) التي يطلقها على قواته الخاصة بالعمليات النوعية، وأقر العمليات الانتحارية والتفجيرية (Suicide bombings)، واستبعد الإعلام العربي تسمية "المجاهدين الأفغان" عمن يقاتلون الاحتلال الأمريكي في أفغانستان، والاحتلال نفسه الذي روج تسميتهم الأولى (المجاهدين) عندما كانوا يجاهدون الغازي السوفيتي؛ لشرعنة الجهاد ضد السوفيت،

وليستقطب مزيدًا من المجاهدين والأموال. ناهيك بهوية الإعلام العربي الغربية، التي تنفر من المفاهيم الدينية، وقد أبت التيارات السياسية المتغربة استخدامها أيضًا، فقد أحلوا المقاومة في فلسطين محل الجهاد، واستبعد الخطاب القومي مشتقات الجهاد والشهادة، وأحل محلها: المقاومة والأعمال الفدائية والفدائي، وهي ترجمة غربية، وسمى الإعلام على كره منه المجاهد في فلسطين: المسلح والمقاوم والناشط، وصار المجاهد الإسلامي في الخطاب المتحالف مع الغرب "الإرهابي" و"المتطرف"، وهو إملاء غربي، فالإعلام العربي يخدم سيدين متواطئين معًا. ويقوم الإعلام المستغرب في مخطط التغريب أولًا بإهدار المفاهيم الإسلامية، ثم يقتلها؛ لئلا توقظ أحلام الغافلين.

وقد وقعت هنالك حرب أخرى في جبهة الأسماء التراثية على مسارين؛ أحدهما: إحلال الألفاظ الدخيلة محل التراثية الأصلية التي توحد مشاعرنا، وتربطنا بمحتدنا وأثْلتنا[١]، وغزو اللفظ الدخيل في لغة الخطاب يدخل في خطة العولمة (Globalization) التي تطبق المشروع الصهيوني، الذي من أدواته استخدام لغة موحدة، وهي الفكرة التي طرحها ناعوم تشومسكي اليهودي الأمريكي الذي طرح نظرية لغوية (التوليدية التحويلية)، تقوم على قواعد عامة، تعبر عن النسق الفكري العام، ويمكن بها توليد الجمل آليًّا بالاستبدال والاختيار والتقديم والتأخير والإضمار والحذف، وقد استخدمها بعض النوْكى العرب في تحليل الجملة، وذكروا أشكالًا لا تصح لغويًّا، وطعنوا في قواعد النحو التي تخالفها، وقد وجدت في بعض الكتب التعليمية المغربية قواعد تشومسكي مخلوطة بقواعد النحو، وتشومسكي نفسه ترك نظريته، وانصرف عنها الباحثون الغربيون؛ لعدم جدواها.

وتأثر الخطاب العربي بلغات الاحتلال الأجنبية، ودخل بعضها في ظل سياسة الانفتاح على حضارات الأمم الغربية المتحضرة صناعيًّا، وبعض المصطلحات الدخيلة

---

(١) هنالك ألفاظ معربة خضعت للبناء العربي، فصارت عربية، مثل: تنبل وزن فعلل، وجمعها تنابل، وقد دخلت العربية في العصر الجاهلي: القصير والكسول، وحقيقتها من يقعد عن القتال، قيل لفظه فارسي، يعني القصير والكسلان. وهي معربة عن "تنبول"، وأصلها "تن برور"، ومعناها السمين، وتقال أيضا للبليد السمين غير القادر على التحرك من مكانه.

فرضت نفسها على اللغة العربية؛ لعدم وجود كلمات في اللغة العربية تعبر عن معانيها، أو لزهد الناطقين باللغة العربية في إيجاد مصطلح عربي يفي بالمعنى والغرض، أو تفضيلهم استعمال اللفظ الأجنبي تغربًا. وهنالك ألفاظ دخلت العربية مبكرًا، وخضعت للصياغة العربية، مثل: الديوان: سجل يدون فيه، وجهاز إعداد القرار ولإصداره وتوثيقه، وبعضها دخل العربية، وحل محل اللفظ العربي مثل: "الأجندة السياسية" (Agenda: الخطة المعدة)، و"الإستراتيجية" (الأمر ذو الأهمية الحيوية)، وهي كلمة إيطالية (Strategia)من أصل يوناني، يقال: الدور الإستراتيجي والخطة الإستراتيجية والموقع الإستراتيجي، وكلمة "الأرشيف" (Archives: مستودع الوثائق ودار الوثائق)، والإمبريالية: تدخل الدول الكبرى في شؤون الدول الصغرى للسيطرة عليها (Imperialism).

ومثل "الكادر": (الإطار)، من الكلمة الفرنسية (Cadre) وجمعها (Cadres)، وتستعمل للتعبير عن مرتبة الموظف ودرجته، و"البنك" (بالفرنسية Banque، وبالإنجليزية Bank)، وهو المصرف المالي أو دار الصرافة. والبورصة (Bourse): المضاربة بالأموال (المقامرة المالية)، وقد ظهرت في كنف الاحتلال؛ بلفظها الدخيل للتمويه على حرمتها، وهي كلمة مأخوذة من اسم Van der Burse، اسم العائلة المشهورة التي كانت ترابي بالأموال.

والأيديولوجيا (Idéologie): كلمة فرنسية مركبة من لفظين (Idée)، ومعناه: فكرة، و(Logie) ومعناه: علم، أي: علم الأفكار، وأصلها يوناني: Idea وLogia، وقد توسع استعمالها في علم الاجتماع السياسي، وصارت تعني المذهب العقدي، فن البحث في التصورات والأفكار، ولكنها اشتهرت في المذاهب الدنيوية نحو: الأيديولوجيا الماركسية، والأيديولوجيا الرأسمالية، والأيديولوجيا الوطنية، والجامع بينها أنها ترتبط بالمذاهب الدهرية التي ظهرت في أوربا؛ لتملأ الفراغ الديني بعد أن استبعدت العلمانية الدهرية الكنيسة والعقائد الدينية عن دورها في المجتمع، فالمذاهب الأيديولوجية عقائد الغرب المعاصر، وقد تبناها بعض العرب المخترقين.

والبوليس دخلت العربية زمن الاحتلال، وعربيتها الشرطة، وهي يونانية قديمة من لفظ (politeia)، وتعني: (polis) المدينة، ثم انتقلت للدلالة على الأمن المديني، وباللاتينية (politia)، ويقابلها: الشرطة مفردها شرطيّ، وهو واحد الشرَط، وهم أعوان الولاة، ورؤساء الضابطة ورجالها سمّوا بذلك؛ لأنهم أشاروا أنفسهم بعلامات يعرفون بها بين الناس، ثم عرفوا بالزي الشرطي، وظهر في الحقل السياسي المعاصر: البوليس السياسي والسري والبوليس العام، ونظام الحكم البوليسي: الذي يدير الأمن فيه شئون السلطة، ويتدخل في سلطة المؤسسات، ويقابله النظام العسكري الذي يتحول فيه الجيش من الدفاع الخارجي إلى العمل السياسي، فيقود الدولة على النمط العسكري[١].

وقد ساهم الإعلام الضحل وبعض المشخصين في إشاعة ألفاظ دخيلة مبتذلة، عكرت الذوق العام، وسخَّفت القيم[٢].

والآخر جلب المسميات التراثية مجردة من دلالتها الأولى وإقصاؤها عنها، كقول الخطاب السياسي "الشرعية الدولية" وهو مصطلح إسلامي تراثي، و"العدل" بالمفهوم الدولي، و"الشورى" بالمفهوم السياسي الحزبي بعيدة عن تحري ضوابط الدين ومصالح العباد العامة، وندب العلماء الأخيار لها، فالمصطلحات العربية المستعارة لمسميات عصرنا مُعماة بعيدًا عن دلالتها الأولى التراثية ذات البعد الأخلاقي والاجتماعي، وفرض عليها المستخدم حصارًا لتظل مجهولة الدلالة، ومن هذا أيضًا تفريغ المسمى التراثي من قيمه

---

(١) هنالك تسميات تعبر عن البوليس السري، أقدمها رجال العسس، والأمن السياسي وأمن الدولة وجهاز التسمع والمخابرات والاستخبارات.

(٢) من الألفاظ التي تدل على التحدر: الفهلوي: المحتال، والماهر بالخداع، وهي تقابل الشاطر: لص الطريق، ومثلها: البهلوان: الذي يأتي بالحيل العجيبة، والأونطة: النصب والاحتيال والأونطجي: النصاب، وهي كلمة تركية (Avanta) معناها: الكسب غير الشرعي، ومن الألفاظ التي تحدرت في الخطاب العام: الباشا: لقب شرفي تركي (Pasa)، وزعم الحرفيون أنه: قدم الملك، والصواب أنه تركيب عام يعني: مساعد السيد الأعظم. والأفوكاتو: المحامي، إيطالي (Avvocato)، ويعني في الخطاب اليومي مساعد المحامي، والمحامي الضعيف. وقرطاس: كلمة يونانية بمعنى الورق، وقد دخلت العربية بمعنى القمطر الذي يكتب فيه، ولكنه ابتذل لمعنى اللفافة.

الدينية والوطنية، مثل: اللواء والعقيد والمقدم والرائد والنقيب والملازم والعرِّيف، وتسميات الجيش والعسكر والكتيبة والسرية، وهي مصطلحات تراثية مجهولة الدلالة في الخطاب المعاصر، فقد صارت ألقابًا عسكرية وأسماء دون أبعادها الدينية ووظائفها الحيوية وأهدافها.

وهذه الألفاظ لم تؤثِّل في وعي مستخدميها، والتأثيل (derivation) "تبيين الأصل الذي انحدرت منه اللغة أو إحدى صيغها، بما في ذلك الأصوات والكلمات والتراكيب"[1].

وهنالك محو آخر يمارسه العدو الغربي والعدو الصهيوني في تغريب الهوية الإسلامية العربية، وتهويد فلسطين المحتلة، فالتغريب الغربي يقوم به الإعلام الداخلي والمؤسسة الثقافية التي يستحوذ عليها المستغربون، إضافة إلى المؤسسة التعليمية التي تبنت اللغات الغربية ومناهج الغرب ومؤسسة السلطة التي تهمل لغة الوطن والثقافة الإسلامية والعربية.

ويمارس العدو الصهيوني سياسة التهويد في فلسطين على كافة الأصعدة، فهنالك مخطط منظم في احتلال فلسطين كاملة، سلك فيه العدو ثلاثة مسارات؛ أحدها: سكاني، يمحو الوجود الفلسطيني على الأرض بالإبادة الجماعية والتهجير القسري، والثاني: التاريخي الذي يمحو المعالم التاريخية وتسمياتها، والثالث: النفسي، يستعطف الرأي العام. فالمسار الأول يقوم على سياسة التهجير وإحلال التهويد، والعبث بالمكون الفلسطيني العربي، وتزييف وجوده بمصطلحات سكانية (ديموجرافية)؛ تهدف إلى تزييف التاريخ والمكون السكاني (الديموجرافيا).

وقد لجأ المفاوض إلى تهويد كافة المسميات، وتعويم الوجود الفلسطيني، فقد استبعد اسم "فلسطين" ومسميات مدنها، فقد سمى العدو الصهيوني فلسطين إسرائيل والدولة

---

(١) معجم المصطلحات اللغوية، منير رمزي البعلبكي، ط١، لبنان، دار العلم للملايين، ١٩٩٠م، ص١٤٢.

العبرية والدولة اليهودية ومملكة داود، وقام بعبرنة الفلسطينيين أنفسهم تحت الاحتلال بمسمى عرب إسرائيل وعرب الداخل وعرب ٤٨ وعرب الخط الأخضر، وسكان المناطق المدارة، وبدو إسرائيل، واستبعد جنسيتهم الفلسطينية.

وقد صدر قرار صهيوني عنصري بتغيير أسماء البلدات والمدن المكتوبة على الإشارات واللافتات المنتشرة على الشوارع والطرقات الرئيسة، ويقضي قرار التهويد بشطب الأسماء العربية والإنجليزية لأكثر من ألفي مدينة وبلدة، والإبقاء على أسمائها العبرية فقط، مع كتابتها بالأحرف العربية والإنجليزية[١]، ويشطب بمقتضى هذا القرار اسم "القدس"، ويستبدل به اسم "يروشلايم"، والنصارى يستخدمون الاسم التوراتي أيضًا، ويستبدل باسم مدينة "الناصرة" اسم "نتسيرت"، وطال التغيير اسم "تل أبيب" المعرب الذي يستبدل به اسم "تيل أفيف" (النطق العبري)، وهو التزييف الثاني بعد اسمها العربي الأول "تل الربيع"، ويستبدل باسم "يافا" اسم "يفو" (النطق العبري)، ويعبرن اسم مدينة "عكا" في اللافتات إلى "عكو"، ومدينة صفد إلى "سفاد"، وأوهم الصهاينة العالم وأوباش اليهود أنها أسماء توارتية، والثابت علميًّا أنها تسمية قديمة، ترجع إلى سكان فلسطين، سبقت دخول بني إسرائيل والعبريين فلسطين، ومعظمها أسماء كنعانية[٢].

وتمارس الصهيونية التهويد في القدس خاصة؛ لمحو شخصيتها الإسلامية العربية، وذلك بالتجريف والتهجير، وهنالك حملات تهويد منظمة على المدن والقرى الفلسطينية ومبانيها وخريطتها السكانية وتسمية شوارعها.

والمصطلحات الدينية مخطط آخر لمحو الهوية الإسلامية، مثل: أرض الميعاد، وحائط المبكى، وهيكل سليمان، والحوض المقدس، ومدينة داود، وجبل الهيكل، وغيرها، وتهدف المصطلحات الدينية تزوير التاريخ وطمس الهوية العربية الإسلامية للقدس

---

(١) مثل: تل أبيب (تل الربيع) ويهودا والسامرة (الضفة الغربية)، وأورشليم (القدس)، وأراضي السلطة الوطنية الفلسطينية، وغيرها من الأسماء العبرية التي أطلقها العدو الصهيوني على المدن والقرى الفلسطينية المحتلة.

(٢) الكنعانيون جيل من العرب المتقدمين، على الراجح من كلام علماء الأجناس والتاريخ البشري (الأنثربولوجيا)، وهم خصوم العبريين التوراتيين، ومن مدنهم: صور وصيدا وعكا ويافا وأريحا وبيت حانون وأشدود والكرمل وبئر سبع والمجدل، وغيرها.

وإزالة المقدسات الإسلامية منها، وخداع الرأي العام العالمي، والربط بين العقيدة اليهودية وفلسطين، وجعل أفئدة يهود العالم تهوي إلى القدس وفلسطين المحتلة.

والمصطلحات النفسية (السيكولوجية) تهدف إلى تشويه صورة المقاومة الفلسطينية، ونعت الشعب الفلسطيني بالعنف والإرهاب، ومن تلك المصطلحات: الإرهاب، والعنف، والمنظمات الإرهابية، والمخربون، وغيرها من المصطلحات السلبية، منها تزييف الحقيقة التي ساهم فيها الإعلام العربي المخترق الذي يسمي الأسير الفلسطيني المعتقل، ويسمي السجون الإسرائيلية المعتقلات؛ وهو يوحي بعدوان الضحية على الجاني، ويستخدم الناشط الفلسطيني دون الثائر؛ لئلا يقال إنهم ثائرون، ويستخدم "إسرائيل" دون الغازي الصهيوني، ويسمي بعض السلطيين العرب الحلفاء والأصدقاء، و"الجهاد الفلسطيني" "أعمال العنف"، مصدقين تسمية الخطاب الأمريكي، ويسمون الاعتداء الصهيوني على المدن والتجريف والأسر "العنف المضاد"؛ ليكون رد فعل مكافئ مع الجهاد الفلسطيني، ويسمون التنازلات الفلسطينية عن الأرض وحقوق المهجرين "التسوية الشاملة"، والإعلام السلطي ينعق من ورائهم، ويصدق، ويضلل.

ويستخدم الإسلام السياسي دون الحركات الإسلامية المجاهدة في فلسطين، ويسمونها "المقاومة" فقط دون "الإسلامية"؛ لتجريدها من قيمتها وشرعيتها، ويسمون العدو "الطرف الآخر" و"الشريك"، ويسمون المكاسب الصهيونية على الأرض في التفاوض "المحاصصة"(حصتهم في التقسيم)، وقلب الحقائق بمسميات اتفاقيات السلام، وتطبيق خارطة الطريق وأنفاق التهريب، وهو تغيير الواقع.

ويقوم الإعلام في المقابل بتجميل صورة العدو الصهيوني ومؤسسته العسكرية، نحو: جيش الدفاع، والاستيطان والمستعمرات، وغيرها من المصطلحات المجافية للواقع.

وهنالك مخطط آخر لتذويب قضية الاحتلال عبر المصطلحات، مثل مصطلح "السلام العادل والشامل" مع الغزاة الصهاينة، والمراد تصفية القضية الفلسطينية، فالتفاوض على عشرين في المائة من أرض فلسطين المحتلة ١٩٦٧م، وترك الثمانين في المائة الباقية، ولا حديث هنا عن احتلال ١٩٤٨م، وقد صارت "المسيرة السلمية" مسيرة التنازلات، فالمفاوضات العربية مع الأقوى تنازلات.

ولجأ الخطاب العربي إلى تبديل بعض المصطلحات؛ بهدف التحلل من المسؤولية القومية تجاه فلسطين، مثل "النزاع" بدلًا من "الصراع"، و"الفلسطيني – الإسرائيلي" بديلًا عن "العربي – الصهيوني".

ع- عبث الإعلام بمفاهيم الأمة: هنالك حرب إعلامية تستهدف تزييف الوعي الديني والوطني، وتكريس مخطط التغريب، والتضليل القائم على قلب الحقائق، وتغييب ملامح الثوابت وإزاحتها عن دائرة الوعي، ولهذه الحرب اتجاهات خمسة؛ أولها: الاتجاه المعني بضخ المصطلحات المعادية وإقحامها على لغة الخطاب العربي. والثاني: الاتجاه الذي يختلق الأحداث وفق الأجندة الصهيو – أمريكية. والثالث: الاتجاه الذي يصنع إعلامًا بواقًا مواليًا تابعًا، وهو البواق الذي ينعق بما يوجه إليه، وهو الإعلام السلطي الذي يتحدث بلسان السلطة وبما تمليه عليه. والرابع: الاتجاه الرأسمالي الذي يستخدم الإعلام تربحًا أو في مصالحه وترويج سلعه. والخامس: الإعلام المستغرب النقال والمقلد الأعمى أو العميل المزدوج الخادم لسيدين (السلطة والعدو)، وهذا النوع أشد خطرًا على الأمة، وهو المهيمن على الإعلام العربي، ولغته تجمع بين إملاءات الغرب ومصالح السلطة، وشخصيته مائعة، فليست بالعربية الإسلامية، وتنكر أنها غربية، ولكن مادته غربية.

والنوع الأول المعادي للتراثه وهويته الذي روج عن قصد متأثرًا بمذهبه الدهري الدخيل لمصطلحات الإسلام السياسي والإرهاب الإسلامي. والثاني الذي اختلق الأكاذيب وروج لها، مثل: أسماء الجماعات التي نسبها إلى الإسلام، وهي من افتعال أجهزة الأمن السلطي.

وقد يختلق الإعلام نفسه الأكاذيب، مثل مصطلح "النخبة" (Elite): صفوة المجتمع الجماهيري ورموزه، ولعلك تحسبهم من العلماء الراسخين في حقولهم العلمية، والمفترض أن يكونوا كذلك، بيد أن المراد هنا الأيقونات الإعلامية المصنوعة والمعدة سرًّا؛ للقيام بأدوار إعلامية جماهيرية، وعامة هذا الصنف المرتزق والمتسلق من الضحال والنوْكَى وأذرع أجهزة التسمع الخفية في الإعلام وبعض الطلقاء المتورطين أخلاقيًّا ومهنيًّا مقابل خدماتهم وبغاة الشهرة وأصحاب المجون والشواذ وبعض المرتزقة من الدين والمتطفلين عليه وأصحاب الأهواء والمذاهب الدهرية.

وهذه النخب المصنوعة موزعة على الفضائيات، والهدف تعبئةٍ الجمهور خلي الذهن والوفاض وحشده نحو مسار مقاصد سلطية أو خارجية، وتمنحهم تلك المؤسسات رتبًا فخرية، مثل: المفكر والخبير والمختص والباحث والمحلل، وكلهم إستراتيجيون، وهم هنا الدمى المحرّكة سنيدة الأيقونة الكبرى، وهم جزء من الخطة الآنية التي تفرض آلياتها السريعة، ولكل مؤسسة نعاقوها وأبواقها من نجومها المصنوعة فيها، وهم دائمًا مستعدون قيد إمرة الطلب. وهؤلاء النخبة المفتعلون اصطفوا في خندق واحد وراء أيقونات تتعاقب في الأدوار على جسد مريض، وتظل تهتف على منابر الإضلال والممالقة ولا تبرح مواقعها إلا حملًا من هذه المنابر إلى المقابر، وكلهم يمشي رويدًا؛ ليطلب صيدًا في وطن كان يطعم الدنيا، بيد أنه الآن يسأل قوت يومه.

والنوع السلطي الذي يميل مع السلطة حيث تميل، فالدول المعادية للسلطة عدوة الوطن والشعب، والدول المتصالحة معها صديقة وحليفة. والإعلام الرأسمالي يتاجر بكل شيء يتربح منه (الدين والوطن والشعب)، ويقامر مع السلطة بمصالح الشعب. والإعلام المستغرب المُخترَق، عبث بمفاهيمنا وضلل وعينا بالحقيقة، فالمقاومة توصف بالإرهاب، والمستوطنون الصهاينة يوصفون بالمدنيين الذين لا يجوز الاعتداء عليهم، والعملية الاستشهادية توصف بالعملية الانتحارية، وجدار الفصل العنصري يسمى بالخط الأخضر والخط العازل، وينعت قوات الاحتلال بقوات الأمن الإسرائيلية وجيش الدفاع، وهو الجيش الذي غزا دول الجوار، ويمحو الوجود الفلسطيني قسرًا على الوطن، ويصف الانتفاضة بأعمال العنف الفلسطيني، وقد صارت المقاومة في الخطاب القومي "أعمال العنف"، وصار رعايا الاحتلال "المدنيين الأعازل"، وصار الفلسطينيون داخل الأرض المحتلة عرب ١٩٤٨م، وعرب الخط الأخضر وعرب إسرائيل وعرب الداخل، وصار التقسيم في أوطان العرب آفة سيارة، تقسم الشعب والدين، فهذا معنا أو مجلب علينا، وهذا وطني وهذا عميل، وهؤلاء عسكر وهؤلاء مدنيون، وابتلي به بعض المتدينين: السلفية والإخوان والصوفية، وكل حزب بما لديهم فرحون، وغاب من آمن وعمل صالحًا واحتسب عمله لله تعالى، وغاب شعار "إنني من المسلمين".

لقد صار الإعلام العربي - مشاهدًا ومسموعًا ومقروءًا - ميدانًا مفتوحًا لاستقبال

المصطلحات المضللة، وصار بيئة مهيأة لنمو طفيليات متسلقة على جسد أمتها تقتات من جسدها الدامي، فعج الفضاء الإعلامي العربي بهذه الآفات التي تتكاثر على التهام ما بقي من مكوناتنا، وهذا الفضاء الصاخب يشهد سيولةً زائدةً وانفلاتًا فائضًا في مادته الغثة، متمثلة فيما تحشده فضائياته متعددة المشارب والغايات والأجندات، وقد باتت ثوابت الأمة نهبًا مشاعًا لرويبضين مرابض دِمَن الجهل والخنا في إعلام أفاك زنيم، يتربح من طعن دينه ومن خيانة وطنه وأكل لحوم بني جلدته، وولغاؤه الإعلاميون المخترقون هم صناع الفساد الضحال والأبواق الببغائية لمافيا الإعلام الغربي المسوس التي تبث مادتها فيه لمقاصد غربية مدروسة.

وقد ظهر عيانًا أن فضائياتنا تتقاتل فيها اتجاهات متصارعة، ويترنح فيها إعلام السلطة الكاسد العجوز، ومصارع السلطة تنذر بتحولاتٍ جاريةٍ نحو مسارات عديدة وإرهاصات مجهولة وأبعاد واسعة وقوة متدفقة طليقة لا راد لها تأتي على هذه الأيقونات الهشة، وطنين هذه الهوام الإعلامية الهائمة فوق بركان التمرد، وأحسبها في نهاية السيل تصب في تغيير جذري لا مناص منه يأبى هذا الكساد، وينفر من هذه الأكاذيب المستهلكة، ويسقط الأقنعة المصنوعة عن تلك الوجوه القبيحة، التي طالما خدعتنا بأقنعتها التي ترتديها لكل سلطان في كل مقام وفي كل رهان، وطالما استثارتنا بأضاليلها.

ولا أستطيع التكهن بعواقب هذه التمرد؛ فقد ينفلت عن مساره السلمي إلى مسارٍ دامٍ بعد أن يبلغ سيله الزُّبى، ويعجز المطاف عن احتوائه، ولعل الله تعالى يهدي الجموع الهادرة لأمر رشد، تتقي به سوء المنقلب في الدين والبلد، وأن تنكشف تلك الغمة عن أعين الأمة، فتميط الأذى على مكوناتها وتردع سفهاءها، فيذهب هذا الزبَد جُفَاء عن جوهرها.

ولا شك أن خصومنا وذيولهم - خفافيش الظلام في الوطن - يستهدفون الوعي العربي بالأضاليل، والتغريب بهذه الحملات الإعلامية اليومية الاستباقية تجاه كل حصن يقاتل عن دينه ووطنيته، وأنها قد نجت في تضليل جمهور واسع؛ بما تضخه من مصطلحاتٍ يجري تعويمها وترويجها محليًّا عبر وسائل الإعلام التي استقطبت بعض الضحال، وجعلتهم النخبة الاجتماعية الهشة التي صنعت منهم الدعاة المرتزقة وأبواق

الكلام والمفكرين والمثقفين والأدباء وعملاء أجهزة التسمع في الإعلام وفي مؤسسات الدولة، وكلهم طلاب صيد في وطن هاجر طيره هجرته الأبدية، فبقي شاغرًا لعبث الروابض والنوْكَى، والنتيجة خراب وطن وسقوطه، ونسأل الله العافية.

ولعلك قد تفطنت الآن لما فطن له شآبيب هذه الأمة، من أهمية توسيد الأمر لأهله من أهل الكفاءة والحنكة، وأنه إذا دالت الأمور لغير أهلها، فمآلها الخراب، وأن غلبة الهوى والمعصية في ولاة الأمة نذير انهيارها، وأول بوادره الجدل واختلاف القلوب على بعضها في البيت الواحد، وأن ينخسف شأن الأفاضل والشآبيب والعلماء، ويعلو شأن الفساق والفجار والنوكى والمغفلون، فلا ترى غيرهم، ولا صوت فوقهم، فهم نذر الخراب ورؤوس الجهل ودواعي الفقر والمرض، والأمة التي تبتلى بهم خربة وربة، فلا تعجب من ظاهرتهم في أمة العرب خاصة، فهم عنوانها وحضيضها، فقد أضروا بها في الداخل والخارج، ومآل الشعوب التي تترك دينها وشأنها العام يخوض فيهما الرويبضون والنوكى والمغفلون الإعلاميون، إلى مزيد من الخوف والجوع ونقص من الأموال والثمرات؛ لعلهم يرجعون؛ فهم يجادلون فيما لا يعلمون جهلًا وطيشًا وسفهًا، ويفسدون الرعية، ويضرون بمصالح الأمة، وما رأيت طيشًا ورعونة مثلما يفعله هؤلاء النوكي بمن يستأجرونهم، فقد أرادوا أن يضروا خصوم السلطة ممالقة لها، فأضروا بها، فقد أحدثوا خلخلة في المجتمع، وأوعزوا للعالم بأن المعارضة إرهاب أفسد البلاد والعباد، فخشي الناس على أموالهم، وامتنع الراغبون في الاستثمار والسياحة، فأضروا بالاقتصاد، وهذا شأن الإسراف في المخاصمة، وقد نصحنا الحكماء قديمًا أن لا نستعين بالأحمق؛ لأنه يريد أن ينفع، فيضر، ويريد أن يصلح، فيفسد الأمر كله، وقد أضر هؤلاء النوكى بمن يحامون عنهم وبالبلاد، فقد جلبوا عليهم من الخراب ما عجز خصومهم عن إصابته فيهم، وتوابع كل هذا على الوطن.

وأرجو في نهاية المطاف سلامة الدين وصلاح العباد ورخاء البلاد وأمنها؛ ريثما يهطل غيثها في بيداء بعد عهود القحط والمجاعة التي رزحت على كاهل الأمة غوابر من الدهر، وسقتها قرائح الظلم، وأبركتها دِمَن الجهل والسوء ومعاطن الرذائل، فأعيتها، وألهتها بهمومها الاجتماعية ونزاعاتها الجدلية، وأنهكت جسدها الدامي في صراعات، وقامرت بها

في رهانات خاسرة، وابتلتها بالنكبات والآفات، واستباحتها للأعداء، وجعلتها قبلة النفايات وأهل الملاهي والرذائل، وأحكمت وطأتها على الشآبيب الأفاضل والعلماء، ولعل الله تعالى أن يحدث بعد هذا خيرًا وصلاحًا، وأن يأخذ بنواصي العباد إلى الهدى والرشاد، آمين.

انتهى بحمد الله وتوفيقه كتاب " الخطاب الإعلامي وأثره في هوية الأمة والواقع السياسي "[1]، ولم يبق مني غير أن أقول لبلدي التي أغترب عنها كرهًا . والله يعلم أنها أحب إليَّ من بعد بيته الحرام، وقد شكوت غربتي وحنيني إليها وما يعتريني من ألم ما أصابها وما يفعله المجلبون فيها وما يدبره حسادها . عزائي أني أحبك وأنك وطني، ولو ولدت لوطن آخر لتمنيت أن أنتسب إليك، وحُق للعالم أن يغبطك، وأعتذر إليك أني في جموع الأحياء، ولست في الهالكين دونك، وأزمتك . يا مصر . أن الذين حكموك كانوا أدنى مما أسند إليهم من قيادة سلطانك العظيم وأبنائك الشآبيب وجندك الأخيار، والأم لا ينكر فضلها وتقدمها، بيد أن العاقين لم يكونوا خدم عزك، بل كانوا خدم أنفسهم، ولم يروا فيك غيرهم، ولكني أراك فوقهم وأراك بعدهم، وهذا شأنك وهذا تاريخك . شرَّف الله عزَّكِ وأعز جندك، وأباد ملك الظالمين، وأدام بقاءك أمة واحدة قوية قاهرة! آمين ! "سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ، وَأَتُوبُ إِلَيْكَ"، والحمد لله رب العالمين.

الدكتور محمود أبو المعاطي أحمد عكاشة

***

(١) ألفت هذا الكتاب ٢٠٠٩م - ٢٠١٠م، وشاركت بفكرته في مؤتمر كلية الإعلام بجامعة القاهرة، وراجعته أثناء الثورة المصرية ٢٠١١م، وطبعت عددًا محدودًا منه، وقد واكب تأليفه كاملًا ميلاد (جَنَى الرابع من أبريل ٢٠١١م)، التي استبشرت بها ميلاد مصر الجديدة وجنى ثمار الخير، وقد راجعته بالدمام بجزيرة العرب، وقد واكب مراجعته ميلاد إياد (فجر الأربعاء الثامن من جمادى الأولى ١٤٣٤هـ = العشرين من مارس ٢٠١٣م)، وجهزته للنشر في مستهل ١٤٣٦هـ = نوفمبر ٢٠١٤م بجزيرة العرب، والحمد لله الرزاق والموفق.

المراجع

- الأحاديث النبوية في ذم العنصرية الجاهلية، الشيخ عبد السلام بن برجس بن عبد الكريم، ط ١/١٤٢٨هـ = ٢٠٠٤م.
- الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، مؤسسة الحلبي وشركائه، القاهرة، ١٩٦٧.
- الأسس اللغوية لعلم المصطلح، د. محمود فهمي حجازي، القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٩٣م.
- الإشارات والتنبيهات، أبو علي ابن سينا، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م.
- البنيوية وعلم الإشارة، ترنس هوكز، ترجمة مجيد الماشطا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٦م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- البراجماتية اللسانية، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة الآداب، ٢٠١١م.
- تاريخ الحكم في الإسلام، دراسة مفهوم الحكم وتطوره، الدكتور محمود عكاشة، مؤسسة المختار، ٢٠٠٢م.
- تحليل الخطاب العربي .. تأصيل نظرية تحليل الخطاب العربية، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة المتنبي، ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م.
- تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة، دراسة تطبيقية لأساليب التأثير والإقناع الحجاجي في الخطاب النسوي في القرآن الكريم، دار النشر للجامعات، ١٤٣٥هـ = ٢٠١٣م.
- التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، الدكتور محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، ٢٠٠٤م.

- تحليل النص، دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة الرشد، ط ١، ١٤٣٥م = ٢٠١٤م.
- الترجمة الإعلامية، تحرير برقيات وكالات الأنباء، د. سمير محمود، دار الفجر، مصر، ٢٠٠٩م.
- الترجمة والتواصل، دراسات تحليلية عملية لإشكالية الاصطلاح ودور المترجم، د. محمد الديداوي، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- الترجمة ونظرياتها، مدخل إلى علم الترجمة، أمبارو أورتادو ألبير، علي إبراهيم المنوفي، المركز القومي للترجمة، مصر، ٢٠٠٧م.
- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الطلائع، ٢٠٠٩م.
- الجهود اللغوية في المصطلح العلمي، الدكتور محمد علي الزركان، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.
- جوهر الترجمة .. عبور الحدود الثقافية، ثيو هرمانز، ترجمة بيومي قنديل، المشروع القومي للترجمة، مصر، ط١، ٢٠٠٥م.
- حرب الخليج أو الاستعارات التي تقتل، جورج لايكوف، ترجمة عبد المجيد جحفة وعبد الإله سليم، دار توبقال، المغرب، ٢٠٠٥م.
- خطاب السلطة الإعلامي، الدكتور محمود عكاشة، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٨م.
- خطابات السلطة من هوبز إلى فوكو، باري هندس، ترجمة ميرفت ياقوت، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠٥م.
- الحكم في الإسلام، دراسة دلالة المفهوم في القرآن الكريم وعصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٢م.
- الحكم القبلي في العصر الجاهلي، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٢م.

- دراسات في علم اللغة، القسم الثاني، كمال بشر، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٧١م.
- دراسات لغوية، الدكتور عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، ١٩٩٥م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق شاكر، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٤م.
- دلالة الألفاظ، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٧م.
- الدلالة اللفظية، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٢م.
- الدلالة اللفظية في ضوء التحيز السياسي، دراسة في مفردات خارطة الطريق وفك الارتباط، الدكتور محمود عكاشة، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ٢٠٠٩م.
- السياسة وسلطة اللغة، د.عبد السلام المسدى، دار الشروق، ٢٠٠٧م.
- صناعة الأخبار في العالم المعاصر، سليمان صالح، دار النشر للجامعات المصرية، ١٩٩٨.
- ضوابط استعمال المصطلحات العقدية والفكرية عند أهل السنة والجماعة، د. سعود بن سعد العتيبي، ط١، ١٤٣٠هـ.
- العبارة، ابن سينا، تحقيق محمود الخضيري، القاهرة، ١٩٧٠م.
- علم الإشارة، السيميولوجيا، بيير جيرو، ترجم عن الفرنسية منذر عيّاشي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٨.
- علم الدلالة إطار جديد، ف . ر. ف بالمر، ترجمة صبري السيد، دار المعرفة الجامعية.
- علم الدلالة عند العرب، عادل فاخوي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٥.
- علم المصطلح .. أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، الدكتور علي القاسمي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م.
- الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٤، ١٩٦٣م.
- في الخطاب والمصطلح الصهيوني، دراسة نظرية وتطبيقية، الدكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، ١٤٢٦هـ.

- في نظرية الترجمة، اتجاهات معاصرة، إدوين غينتسلر، ترجمة د. سعد مصلوح، المنظمة العربية للترجمة، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٩م.
- لغة الخطاب السياسي، دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال، الدكتور محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، ٢٠٠٤م.
- اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود، الدكتور عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، ١٤٤٦هـ = ٢٠٠٦م.
- محاضرات في علم اللسان العام، فرديناند دي سوسير، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٨م.
- مستقبل اللغة العربية، عبد العزيز بن عبد الله، التعريب، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٧م.
- المستصفى من علم الأصول، أبو حامد الغزالي، تحقيق: محمد مصطفى أبو العلاء، شركة الطباعة الفنية المتحدة، ١٩٧١م.
- المعجم الإعلامي، محمد منير حجاب، دار الفجر للنشر والتوزيع، دار الفجر، ٢٠٠٨م.
- معجم دراسات الترجمة، مارك شتلويرث وموريا كووي، ترجمة جمال الجزيري، المركز القومي للترجمة، مصر، ٢٠٠٨م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، دار الحديث القاهرة، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.
- معجم المصطلحات السياسية والدولية، الدكتور أحمد زكي بدوي، دار الكتاب المصري. اللبناني، ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م.
- معيار العلم في فن المنطق، أبو حامد الغزالي، دار الأندلس، بيروت، وتحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ط٢، (د، ت).
- المغني، القاضي عبد الجبار، تحقيق تحت إشراف طه حسين: إبراهيم مدكور، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ١٩٦٠ - ١٩٦٥م.

- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصرية، (د، ت).
- مقدمة في علم الصحافة، سليمان صالح، دار النشر للجامعات المصرية، ١٩٩٤م.
- مقدمة في المصطلحية، هريبرت وجنيفر، ترجمة محمد حلمي هليل، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ٢٠٠٠م.
- مملكة الحكم الإلهي .. مملكة المسيح في أوربا، الدكتور محمود عكاشة، مكتبة النهضة المصرية، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.
- المنطق، ابن سينا، تحقيق سعيد زايد، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٤.
- المنطق الوضعي، زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٥٦.
- منهاج البلغاء، وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٦٦م.

***

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الإهداء..... ٤

المقدمة ٥

التمهيد..... ١١

الخطاب والمعنى والمفهوم وسلطة اللغة..... ١١

أ- الخطاب وتحليله ١١

ب- المعنى والمفهوم..... ١٩

ج- نظرية تحليل المفهوم ٢٠

د- نظرية "سلطة اللغة"..... ٢٢

الفصل الأول: هوية الأمة ومكوناتها في ضوء تأصيل المفاهيم الإسلامية والوطنية ... ٢٥

* مصطلح الهَوِيَّة ٢٥

أركان هوية الأمة ٣٦

أولًا: الدين..... ٣٧

ثانيًا: أبناء الأُمَّة والمكون البشري في الدولة..... ٥١

أنواع الأمم ٥٣

الموضوع **الصفحة**

النوع الأول: الأمة الإسلامية ٥٣
النوع الثاني: الأمة القومية العربية ٥٧
الأمة العربية (Arab Nation) ٥٩
النخوة العصبية القومية وأثرها في وحدة الأمة ٦٣
وشيجة الأُخوُّة في الأمة ٨٥
أنواع الأخوة في الأمة ٨٥
الاستعانة بالأجانب والكتابيين في مصالح الأمة والحروب ٩٦
النوع الثالث: الأمة الشعبية الوطنية ١١٨
أواصر وحدة الجماهير ١١٩
النوع الرابع: الأمة القبلية (Tribal Nation) ١٢٢
الارتداد المعاصر نحو عُبِّيَّة الجاهلية (نخوتها) ١٢٥
ثالثًا: الوطن ١٢٧
رابعًا: اللسان ١٣٨
خامسًا: الثقافة والتراث ١٥٦
الترجمة وأثرها في المفهوم الثقافي ١٦٩
الترجمة الصحفية ١٧٤

الموضوع **الصفحة**

الفصل الثاني: المفهوم الثقافي بين الارتقاء والتحدر في الخطاب العربي ١٧٧

أولا: ارتقاء المفهوم في الخطاب..... ١٧٩

أسباب ارتقاء المصطلح في الخطاب الإسلامي ١٨٠

ثانيًا: عوامل تحدر المصطلح في الخطاب..... ٢٣٣

المراجع ٣٢٦

فهرس الموضوعات..... ٣٣٢

***